رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

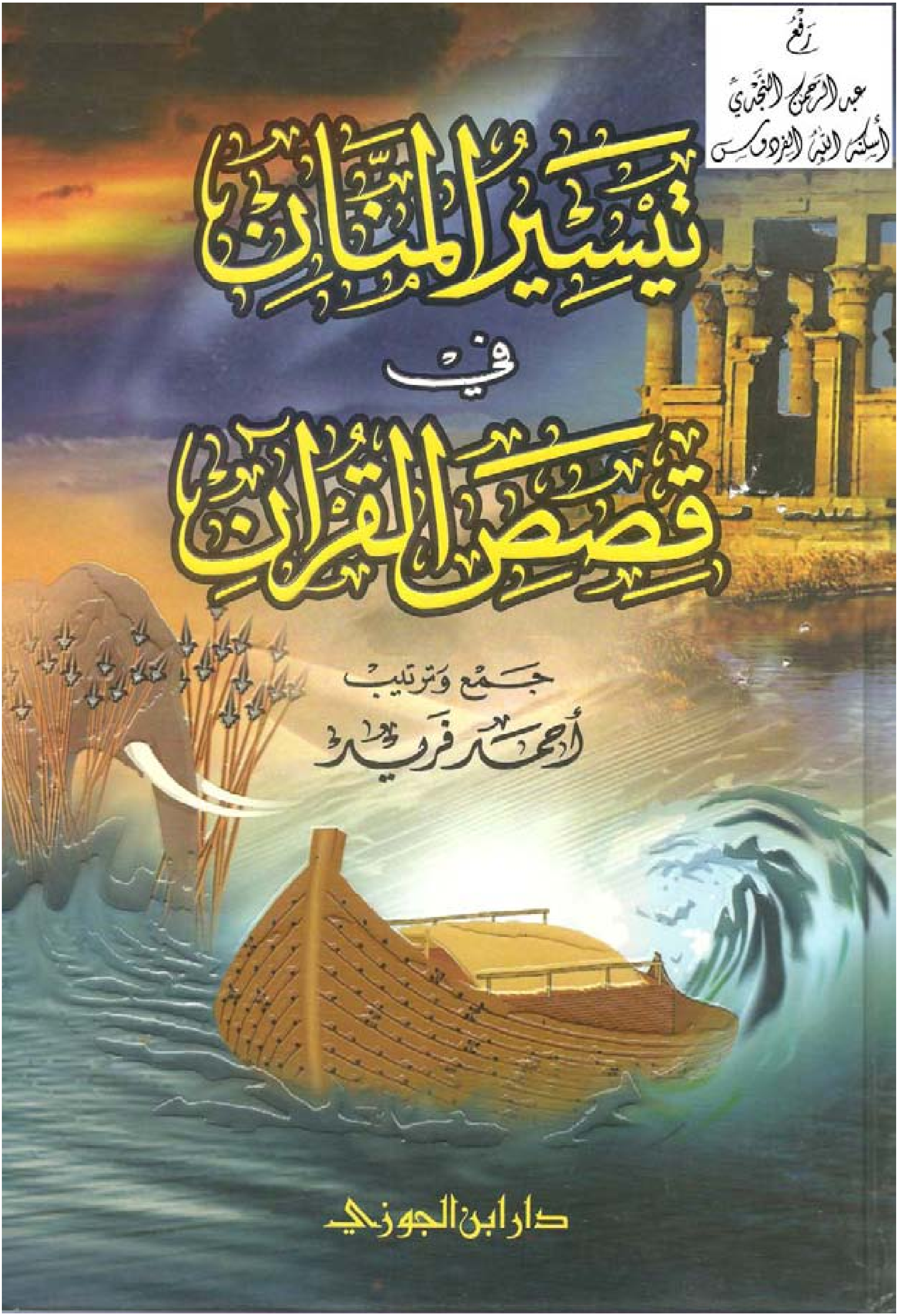

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

تيسير المنان في قصص القرآن

حقوق الطبع محفوظة لدار ابن الجوزي

الإصدار الثاني

الطبعة الأولى

صفر ١٤٢٩هـ

حقوق الطبع محفوظة ©١٤٢٩هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - شارع الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص.ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - **الرياض** - حي الفلاح - مقابل جامعة الإمام - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - **الإحساء** - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - **جدة** - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - **الخبر** - ت: ٨٩٩٩٣٥٦ - فاكس: ٨٩٩٩٣٥٧ - **بيروت** - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - **القاهرة** - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

تيسير المنان في قصص القرآن

قصة نوح عليه السلام
قصة إبراهيم عليه السلام
قصة موسى عليه السلام
قصة عيسى عليه السلام
قصة آدم عليه السلام
قصة هود عليه السلام
قصة صالح عليه السلام
قصة لوط عليه السلام
قصة شعيب عليه السلام
قصة يعقوب ويوسف عليهما السلام

قصة أيوب عليه السلام
قصة يونس عليه السلام
قصة داود عليه السلام
قصة سليمان عليه السلام
قصة بقرة بني إسرائيل
قصة طالوت
قصة ابني آدم
قصة أصحاب الكهف
قصة صاحب الجنتين
قصة موسى والخضر عليهما السلام

قصة ذي القرنين
قصة قارون
قصة سبأ
قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون
قصة مؤمن آل فرعون
قصة أصحاب الجنة
قصة أصحاب الأخدود
قصة الفيل

جمع وترتيب
أحمد فريد

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الجزء الأول

الحمد لله الذي رضي لنا الإسلام ديناً، ونصب لنا الدلائل على صحته برهاناً مبيناً، وأوضح السبيل إلى معرفته واعتقاده حقاً يقيناً، ووعد من قام بأحكامه وحفظ حدوده أجراً جسيماً، وذخر لمن وافاه به ثواباً جزيلاً وفوزاً عظيماً، وفرض علينا الانقياد له ولأحكامه، والتمسك بدعائمه، وأركانه، والاعتصام بعراه وأسبابه، فهو دينه الذي ارتضاه لنفسه ولأنبيائه ورسله وملائكة قدسه، فبه اهتدى المهتدون، وإليه دعا الأنبياء والمرسلون ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: ٨٣].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ضدَّ له ولا ندَّ له، تعالى عن إفْكِ المبطلين وَخَرْصِ الكاذبين ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفوته من خلقه، وخيرته من بريَّته، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار؛ ثم أما بعد أيضاً:

فقد قص الله تعالى علينا في كتابه أحسن القصص: أبدعه طريقةً، وأعجبه أسلوباً، وأصدقه أخباراً، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف: ٣].

ولا شكَّ في أن غفلتنا عن القرآن وتدبُّره والاتعاظ بمواعظه قد شمل هذا الجانب الكبير من القرآن ـ جانب القصص ـ الذي ينبغي أن يهتم به المؤمنون؛ لتثبيت إيمانهم، وأخْذِ العبرة والعظة من أخبار السَّالفين، فإن سنَّة الله ﷻ في عباده واحدة ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] فلا بدَّ أن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة للمؤمنين، والدولة في النهاية لحزب الله الموحِّدين، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وبتدبُّر قصص الأنبياء والمرسلين تظهر هذه السُّنن الربانيَّة، ففي نهاية كل قصة يكون النصر والتمكين للمؤمنين، والهلاك والعذاب للمكذبين، لذا قال الله ﷻ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى: وكل أخبار نقصُّها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاجَّات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين، وخذل أعداءه الكافرين، كل هذا مما نثبِّتُ به فؤادك يا محمد ـ أي: قلبك ـ ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين، جاءك فيها قصص حق ونبأ صدقٍ يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون(١).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٦٥) بتصرُّف.

وإنما ينتفع بهذا القصص العظيم والذِّكر الحكيم أصحاب القلوب الزَّاكية، والعقول الواعية، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

قال القاسمي: قال بعضُ المحققين: المراد به أن قصص القرآن ليست مخترعة ولا مفتراة، بدليل وجود أمثالها بين الناس قبل نزوله، فهي وإن اختلفت قليلاً في بعض التفاصيل والجزئيات عمَّا يرويه الناس، إلا أنها توافقها في الجملة وتصدقها في الجوهر، فلا تظنُّوا أيُّها المشركون أنَّ النَّبيَّ اخترعها بعقله، بل اسألوا عنها أهل الكتاب تجدوا أنها معروفة بينهم ومرويَّة في كتبهم، فوجود قصص القرآن عند الناس من قبل، من أعظم ما يصدقه ويؤيده؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يطَّلع على كتب أهل الكتاب، ولا يتوهم من هذه الآية أن قصص القرآن يجب أن لا تختلف عن قصص التَّوراة والإنجيل في شيء ما، كلَّا إذ لو صحَّ هذا لما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦]، فقصَصُه قد تختلف عمَّا عندهم، وتبيِّن لهم حقَّه من باطله، فلا منافاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة، ومخالفته لها في بعض الجزئيات كما قلنا. اهـ. ملخصاً[١].

وهذا النصر الذي وعد الله ﷻ به المؤمنين لا يكون دائماً في أول جولة مع الكفَّار، ودون أن يمتحن الله قلوب أوليائه ويمحص المؤمنين، بل غالباً يتأخر النصر جدّاً، حتى يقول الرسولُ والذين آمنوا معه متى نصر الله، فهذا من سنن الله ﷻ في أوليائه وحزبه، كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠]، فالقصص القرآني تربية للأمَّة، وتعريف بسنن الله في عباده.

جاء في كتاب «النظام والإسلام» في بحث التربية والآداب في قصص القرآن ما مثاله:

طال الأمر على أمَّتنا فأهملت ما في غضون كتابها من أساس التربية

(١) «محاسن التأويل» (٩/ ٣٠١، ٣٠٢).

والحكمة، يا ليت شعري ما الذي أصابها حتى غضَّت النَّظر عن القصص التي قصَّها؟ وأهملت أمرها، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تفيد إلا المؤرخين، والقصص في كل أمَّة عليها مدار ارتقائها، سواء كانت وضعيَّة أم حقيقيَّة، على ألسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد.

جاء القرآن بقصص الأنبياء وهي ـ ولا جرم ـ أعلى مناراً وأشرف مزيَّة، كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب، واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه، والقدوة الحسنة للكُمَّل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم، وتحققها في أنفسهم، لوقوع مواردها، وإن حب التَّشبُّه طبيعة مرتكزة في الإنسان لا سيما لمن يقتدي بهم، فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ونقصت في سواها، أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن، فلا نكاد نفهم إلَّا حكايات ذهبت مع الزمان ومرَّت كأمس الدَّابر؟ وما لنا ولها إذن؟! تالله إن هذا لهو البوار، ولم يكن هذا الجهل بالمقصود من قصصها، وأنها عبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن تفكَّر، وتبصرة لمن ازدجر.

وبالإجمال: فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها والعبر المبصرة للمسلمين ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١].

ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان، فلا نعتمد إلا على البرهان، تأمَّل هذه القصص تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح، ويعرض عن كثير من الوقائع إذ لا لزوم لها، ولا معول عليها، فلا ترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق وحجج عقليَّة وتبصرة وتذكرة تلذ العقلاء[١].

ومن منطلق منهج التَّصفية وبعون الله وفضله عمدتُ إلى ما وقفتُ عليه من كتب السِّير والتفاسير، وكذلك كتب السُّنَّة التي ورد فيها أخبار الأنبياء فجمعتُ لإخواننا من طلاب العلم شيئاً من فضائل الأنبياء، مما صحَّت فيه الأخبار ونقله العدول الأخيار، ثم ذكرت شيئاً من دعوتهم ومواقفهم الإيمانية، وأردفتُ ذلك بالفوائد والآثار الإيمانية، حتى يتم الانتفاع بالقصص القرآني، ونقف على مواطن العبرة والعظة، ليس ذلك على سبيل الحصر، ولكن بحسب

(١) باختصار من «مباحث في علوم القرآن» (٣٠٥) مكتبة المعارف، الرياض.

ما فتح الله ﷻ من الخير، وهمَّة البحث وما تيسر من المراجع، ولعلَّ من إخواننا من يأتي فيكمل هذا الخير، وقد بدأتُ بذكر أولي العزم من الرسل، وكنت قد أفردت خاتمهم ﷺ ببحث تحت عنوان «تقريب الوصول إلى معرفة الرسول ﷺ» في بيان فضائله وما خصَّه الله ﷻ به، ولعلِّي أخصُّه بعد ذلك ﷺ بذكر بعض مواقفه الإيمانية مع بيان العبرة والعظة، وفي هذا المصنَّف الذي بين يديك أيُّها القارئ الكريم ذكر بقيَّة أولي العزم على ما رتَّبهم الله ﷻ في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب: ٧].

فبدأت بذكر نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى صلى الله على رسولنا وعليهم وسلم تسليماً.

ولإتمام الفائدة ضمنتُ هذه المقدمة فصلين:

الفصل الأول: في فوائد القصص القرآني عموماً.

الفصل الثاني: في بيان اشتمال أكثر كتب التاريخ والتفاسير على الإسرائيليات والموضوعات مع بيان حكم ذلك وتنزيه هذا المُؤلَّف من ذلك.

ولما كان التَّوفيق لهذا الكتاب فضلاً من الكريم المنَّان ويسَّر الله جمعه وترتيبه في أقصر زمان أسميته: «**تيسير المنَّان في قصص القرآن**».

واللهَ أسألُ أن ييسر لي إتمام قصص الأنبياء وكذلك بقية القصص القرآني، والله الموفق لما يحبه ويرضاه فهو الذي يعطي عبده المؤمن فوق ما يتمناه.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم
وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم

وإني أهيب بكل مسلم وجد في كتابي شيئاً من الخطأ أو الغفلة أن يخلص لي النصيحة فيه، حتى أتوب إلى الله منه، وأتداركه في الطبعات المقبلة إن شاء الله، والله يوفقنا وإخواننا لما يحب ويرضى، ويختم لنا بخير في عافية، إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء ـ ويبقى في المقدمة ما شرطناه ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

مقدمة

الجزء الثاني

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مُباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، والشكر له على ما أَوْلَى من نعمٍ سابِغةٍ وأسْدَى، نحمده سبحانه وهو الوليُّ الحميدُ، ونتوب إليه جل شأنه وهو التواب الرشيد.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نستجلب بها نِعَمه ونستَدفع بها نقمه، وندخرها عدةً لنا يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله ﷺ وعلى سائر النبيين، ورضي الله عن صحابته الأبرار الذين قاموا بحق صحبته وحفظ شريعته وتبليغ دينه إلى سائر أمته، وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد...

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وخيرَ الهَدي هَدْيُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد أيضاً...

فهذا الجزء الثاني من كتاب: «تَيْسِيْرُ المَنَّانِ في قَصَصِ القُرآنِ»:

أقدمه إلى إخواننا الكرام بعد أن قَرَّت أعينهم برؤية الجزء الأول الذي تضمن قصص أولي العزم من الرسل، وفي هذا الجزء الثاني المبارك قصص بقية مشاهير الأنبياء الكرام والرسل الكرام، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ...﴾ [هود: ١٢٠].

وذلك من أجل إحياء ذكرى الأنبياء الكرام، وزيادة الإيمان بهم، فمن أركان الإيمان الستة: الإيمانُ بالرسل، إذ هم القدوة الحسنة للبشرية، وهم قادة ركْب الإيمان إلى السعادة الأخروية، يتأسَّى بهم المؤمنون، وينسج على منوالهم الدُّعاة المخلصون، ويكون حبهم واتباعهم سبباً في الاجتماع بهم يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.

وقد أفْصَحْتُ عن طريقتي في البحث في الجزء الأول بما يغني عن إعادته، ولكن أشير إشارة سريعة إلى ذلك، وهو أنني قصدتُ تجريد القصص من الأخبار الضعيفة والموضوعة وكذلك الإسرائيليات التي يثق بهما المتهوِّكون، ويكثر من نقلها من هو في بضاعة الكتاب والسنة مَغْبُون، فإن الله ﷻ أغنانا بكتابه وسنة رسوله المعصوم، عن أن نحتاج إلى كتب أهل الكتاب التي عبثت بها أيدي التحريف والتبديل، فلا يدري من ينقل شيئاً منها: هل هو من الصحيح المنزل أم من المحرّف أو المبدّل؟! ولذا أمرنا رسول الله ﷺ أن لا نصدقهم ولا نكذبهم، وقد رأيت بعض من وثق بكتب أهل الكتاب وأشبع نفسه ومصنفه منها فوقع في نسبة الشنائع بالأنبياء الكرام، فأردت أن يكون هذا الكتاب عسلاً مصفى، خالياً من الضعيف والموضوع والإسرائيليات، وكذلك الأسماء والزيادات التي ليس عليها دليل من الكتاب أو السنة الصحيحة، ثم إلقاء الضوء على الآيات الكريمات التي تبين كيف تكون الدعوة إلى الله ﷻ، وكيف يكون الصبر على دين الله، والثقة بنصر الله ﷻ، والوقوف على مواطن العبرة والعظة من الأمم السالفة، والفوائد الفقهية، والآثار الإيمانية، ولا يضيرني كثرةُ النقل، وحسبي أنني أقرّب لإخواننا ما في بطون الكتب الكبار، فيقفوا على ما فيها من فوائد وحِكَم ومُلَحٍ وآثار، حتى يفتح الله ﷻ وهو الفتاح العليم بشيء فأثبته بعد دراسةِ الآياتِ ومعرفة أقوال أهل العلم فيها، وأنا على يقين بفضل الله ﷻ أني في ذلك على سبيل وسنة، كما حاولتُ أن أرتبَ الأنبياء الكرام المذكورين في هذا الجزء ترتيباً زمانياً، وأُسوتي في ذلك كتاب الله ﷻ الذي لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكما في سورة الأعراف وهود والشعراء يأتي ذكر هود ثم صالح ثم لوط ثم شعيب صلى الله عليهم وسلم فاتبعته في ذلك، أما عن أنبياء بني إسرائيل فبحسب الاجتهاد والاتباع لبعض علماء السنة والتاريخ، ذكرت يوسف عليه السلام، ثم أيوب، ثم يونس، ثم داود، ثم سليمان عليهم الصلاة والسلام، هذا وقد بدأت بذكر أبي الأنبياء وأبي البشر: آدم عليه السلام.

وبعدُ؛ لا أطيل على القارئ الكريم مقدمتي فأحرمه من صحبة الأنبياء الكرام، وما ذكره الملك العلَّام في حقهم، وما صح من سنة خير الأنام في فضلهم وشرفهم، وكل ذلك بحمد الله بتفسير العلماء الأثبات الذين فتح الله عليهم في الدين، وكانت لهم اليد البيضاء على الأمة إلى أن يقوم الناس لله رب العالمين.

وذلك كما أشرت في الجزء الأول من باب «التصفية» حتى يتربى إخواننا الكرام على ما تربى عليه صحابة النبي ﷺ.

وأسألُ اللهَ العظيمَ أن يغفر لي تقصيري وزللي، وأن ينفعني يوم القيامة بصالح عملي، والله يعلم ما قصدتُ، وما بجمعه وترتيبه أردتُ، فهو عند قصد كل عبدٍ ونيته، وهو المطلع على ما ظهر من عمله، وما خفي من سريرته.

والحمد لله على كل نعمة، وله وحده الحمد والمِنَّةُ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

مقدمة
الجزء الثالث

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فهذا هو الجزء الثالث من كتاب «**تيسير المنان في قصص القرآن**» وقد مضى في الجزأين السابقين قصص الأنبياء الكرام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهذا الجزء في بقية القصص القرآني، ولعل قصص الأنبياء قد صنف فيه المصنفات الكثيرة، إلا أن بقية القصص لم يحظ بهذا الاهتمام، فلم أر مصنفاً اقتصر على هذا القصص، مع أنه غني بالعبر والعظات كما سيقف القارئ الكريم في هذا الجزء إن شاء الله تعالى.

وقد أفصحنا عن طريقة البحث في الجزأين السابقين، وبيَّنّا الغرض من هذا المصنف، وكيف أنه تصفية للقصص القرآني من الخرافات والإسرائيليات والموضوعات، وكذلك الضعيف الذي لم يصححه أحدٌ من الأئمة.

والموعظة بالقصة المشتملة على العبرة والعظة من أنجع المواعظ؛ لأن النفس بطبيعتها تنجذب إلى القصة، وتأخذ القصة بمجامع القلوب، فإذا أودعت فيها الحكمة والعبرة كانت الغاية، والقرآن الكريم لا يحكي القصص لمجرد أنها قصص لتسلية وتزجية الأوقات، ولكنه يقص القصص من أجل التربية، وترسيخ المعاني الإيمانية، والأخلاق المرضية.

قال القاسمي: إن من محاسن التنزيل الكريم وبلاغته الخارقة هو الإيجاز في الأنباء التي يقصها، والإشارة منها إلى روحها وسرها، حرصاً على الثمرة من أول الأمر واقتصاراً على موضع الفائدة، وبعداً عن مشرب القصاص والمؤرخين؛ لأن القصد من قصصه الاعتبار والذكرى، ثم إن المفسرين - رحمهم الله - عنوا بالبحث والأخذ والتلقي، فكان من سلف منهم يرون فيما يرون أن من العلم تفصيل مجملات التنزيل، وإبانة مبهماته، حتى جُعِلَ ذلك فناً برأسه، وأُلِّفَ فيه مؤلفات، ولا بأس في التوسع من العلم والازدياد منه بأي طريقة كانت، لا سيما وقد رفع عنا الحرج بالتحديث عن بني إسرائيل إلا أنه يؤاخذ من يجزم بتعيين مبهم ما، إن كان جزمه من غير طريق القواطع، فإن القاطع هو ما تواتر أو صح سنده إلى المعصوم، صحة لا مَغْمَزْ فيها، وهذا مفقود في الأكثر.. إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فالمفسر أحسن أحواله أن يمشي مع التنزيل إجمالاً فيما أجمل، وتفصيلاً فيما فصل، ولا يأخذ من إيضاح مبهماته إلا بما قام عليه قاطع، أو كان لا ينبذه العلم الصحيح، وإلا فليعرض عن تسويد وجوه الصحف بذلك، بل عن تشويهها، والذي حمل السلف على قص ما نحن فيه هو تلقيهم له عن مثل كعب ووهب وموافقة من في طبقتهما لهما فيه. اهـ ملخصاً[(١)].

وهذا بحمد الله ما انتهجناه في هذا الكتاب المبارك وإذا كانت النفوس

---

(١) «محاسن التأويل» باختصار (١٤/٦٨، ٦٩).

البشرية تميل بطبيعتها إلى القصة، وأكثر الناس يضيعون أعمارهم في مشاهدة الأفلام الهابطة والتمثيليات الساقطة، من أجل التسلية، مع أن فيها ضياع الأخلاق، وهلاك الأديان، وقتل حياء النساء، وذهاب غَيْرة الرجال، فإنها لا تخلو من رؤية متبرجة شديدة التبرج والتهتك، أو اختلاط ماجن بين الرجال والنساء، أو شارب خمر، أو عازف على آلات المعازف واللهو، ثم هي ليست قصصاً من بحر الحقيقة والواقع، ولكنها من نسج الخيال، ومن وضع الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ولا يفوت هؤلاء الكُتَّاب الذين يغلب عليهم التفرنج والأفكار الإباحية، أن يُجَرِّءُوا الناس على المعاصي والشهوات، وأن يسكبوا في قلوبهم أنواع الشبهات، ولا تخلو من الاستهزاء بالدين، والسخرية من أولياء الله الصالحين.

وماذا ينتظر من أناس تركوا دينهم وإسلامهم خلف ظهورهم، ووجهوا وجوههم قِبَل الغرب الكافر، يهدمون ما هدموا من فضيلة، ويحيون ما أَحْيَوا من فاحشة ورذيلة، والله من ورائهم محيط.

فالحالة التي وصلت إليها أمة الإسلام في هذه العصور الغابرة لم تصلها في زمن من الأزمنة السالفة، حيث ترك الناس التعزز بدينهم والتمسك بقرآنهم الذي نبههم الله ﷻ على أن فيه رفعة شأنهم وعلو قدرهم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠]، وساروا وراء الغرب الكافر، ومنهم من يتهم الإسلام بأنه السبب في تأخر المسلمين وعدم انطلاقهم في ميدان الحضارة والتقدم، وهذه مغالطة فاحشة فإن أكثر المسلمين اليوم لا يعملون بشرع الله، ولا يتحاكمون إليه، ولا يتعززون به، ولا يقفون عند حدوده، ومَنْ كان من أهل الإنصاف وأراد أن يعرف أثر الإسلام في تقدم الأمم والأفراد فلينظر إلى أزمنة الإسلام الزاهرة التي كان يطبق فيها شرع الله ﷻ ويتعزز الناس بدينهم، ويطيعون ربهم الذي خلقهم ورزقهم، وكم نظلم نظام الإسلام عندما نجعل المسلمين اليوم هم الأمثلة الحية للنفس الإنسانية إذا قامت بدين الله ﷻ، ولكن الجيل الفاضل الذي عمل بهذا الدين هم الصحابة والتابعون وتابعوهم من أهل القرون الخيرية، وكان الإسلام في هذا الوقت هو الدين الظاهر في الأرض، وكان الخليفة المسلم ينظر إلى السحابة في السماء

فيقول لها: أمطري حيث تشائين فسوف يأتيني خراجك، ولا شك أن هذا هو المقياس الصحيح لنظام الإسلام وأهليته لقيادة البشرية.

وإذا نظرت إلى الساحة العالمية والعربية وجدت الإسلام وأهله اليوم في غربة، وأن الحرب ضد الإسلام في كل مكان من بقاع الأرض، وأن أشد الناس حرباً للإسلام اليوم هم أهله وعشيرته، وسجون العالم العربي مليئة بالشباب الذين رضوا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيّاً ورسولاً، وما أحسن ما قاله بعضهم حين خرج الإنجليز من مصر: خرج الإنجليز الحمر وبقي الإنجليز السمر. فما ابتلي به الإسلام والمسلمون أناس من جلدتهم، ولكنهم دعاة على أبواب جهنم، هم أيدي وأرجل الغرب الكافر في تنفيذ مخططاتهم، فإلى الله المشتكى وبه المستغاث ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإنما نخاطب بهذا الكتاب شباب الصحوة الإسلامية المباركة الذين هم أمل الأمة في عودة شبابها ومجدها وعزها، وذلك من باب التصفية التي هي أول أسباب النصر والتمكين، حتى يتربى الناس على الإسلام صافياً من الخرافات والضلالات والموضوعات، ثم هذه القصص التي أثبتها الله ﷻ في كتابه ليست من الأساطير والخيال ولكنها قصص حقيقية مضت في تاريخ البشرية، من رحمة الله ﷻ وفضله على أمة خاتم الرسل وإمام المرسلين سجلها الله ﷻ لهم في كتابه الخالد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، يقصها الله ﷻ علينا بأسلوبه المعجز تربية للأمة ورفعاً لمستواها الفكري والإيماني، فكيف لا تكون هذه القصص موضع اهتمام الذين ينادون بالتربية، والذين يهتمون بالإعداد لنهوض الأمة من كبوتها، ويحاولون الارتفاع بها إلى سالف عزتها وكرامتها.

وإذا كان أهل الدنيا ينزهون أعينهم وقلوبهم برؤية القصص الزائف المشتمل على المعاصي والمنكرات، فإن أهل الإيمان الصادق يمتعون قلوبهم وأرواحهم بسماع القصص الحق، الذي يقصه الله ﷻ عليهم؛ يربيهم به، ويرفع من شأنهم، ويقوي إيمانهم، فهم يجدون المتعة الروحية، ومع ذلك يؤجرون على قراءته وسماعه، فمثلهم كمثل أم موسى ترضع ولدها وتطفأ بذلك ظمأ نفسها، ومع ذلك تأخذ على ذلك أجراً.

وهكذا المؤمن في جميع أحواله وأعماله لأنه يحب الإيمان، وتوافق أسباب الإيمان هوى نفسه وراحة قلبه، ومع ذلك يؤجر على ذلك أعظم الأجر، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

وكما قال النبي ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»(١).

ولكل نفس ما يناسبها، فإن النفوس الخَيِّرَةَ الطيِّبة تُحب الإيمان وأسبابه وتميل إليه وتطمئن به، والنفوس الشريرة تميل إلى الكفر والمعاصي، والله تعالى أعلم بمواقع فضله وعدله.

«يَهْدي من يشاء ويعصم ويعافِي فضلاً، ويضِلُّ مَنْ يشاء ويخذلُ ويبتلي عدلاً، وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله»(٢).

فنسأل الله العلي العظيم أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء همومنا وغمومنا وأن يَمُنَّ علينا وعلى المسلمين بفضله وأن يعجل لأعداء الإسلام عقوبته وعدله.

نعود إلى التعريف بهذا الجزء الثالث من القصص القرآني فنبين خطة البحث، فقد بدأت كل قصة بذكر الآيات التي ذكرت في هذه القصة؛ حتى تكون كالمتن والأصل الذي يدور حوله شرح أحداثها وبيان عبرها وعظاتها، فإنها أقوى تعبيراً وأشد تأثيراً، وهي المقصودة بالشرح والبيان، ثم أردفت ذلك بالأحاديث الصحيحة التي تبين معانيها أو تكمل أحداثها إن كان ثَمَّ أحاديث كما في قصة موسى والخضر، وقصة أصحاب الأخدود، ثم ذكرت

---

(١) رواه البخاري (١/ ٦٠) «الإيمان»، ومسلم (٢/ ١٣) «الإيمان»، والترمذي (١٠/ ٩١) «الإيمان».

(٢) متن العقيدة الطحاوية للإمام أبي جعفر الطحاوي (٦) ط. الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

بعض أحداثها، وألقيت الضوء على موطن العبرة والعظة في القصة تحت عنوان «بين يدي القصة» ثم تتبعت كتب التفاسير، وكنت أقلب في الآية الواحدة أكثر من اثني عشر تفسيراً، حتى أقف على أقرب المعاني وأطيب التفاسير، وكما يقولون: اختيار الكلام أشد من نحْتِ السّهام. ثم ختمت القصة بجمع الفوائد والأحكام واللطائف والآثار الإيمانية؛ حتى يتم الانتفاع بهذا القصص العظيم والذكر الحكيم، وأرجو في ذلك كله أن أكون في عملي مخلصاً وللكتاب والسنة موافقاً، وأرجو من الله ﷻ أن يتم علينا وعلى المسلمين نعمته، وأن ينفع بهذا الكتاب بلاده وعباده، وأن يدخر الله ﷻ لنا يوم تتقلب القلوب والأبصار ما تقر به أعيننا، إنَّهُ وليّ ذلك والقادر عليه، والله الموفق والحمد لله رب العالمين.

منهج الدراسة

من باب التعريف والبيان لهذا المصنَّف الجديد في قصص القرآن أرى من المفيد أن أفصح عن طريقتي في البحث وما تتميز به هذه الدراسة الجديدة للقصص القرآني عن غيرها من المطبوع، وألخصُ ذلك في عشرة أمور:

{١} أبديت اهتماماً خاصاً بأولي العزم من الرسل حيث أفردتُهم بالجزء الأول من هذا الكتاب عدا خاتمهم ﷺ حيث أفردته بدراسة أشرتُ إليها آنفاً، ولا يتبادر إلى ذهن القارئ من هذا الصنيع إنكار نبوَّة آدم عليه السلام وسوف نشيرُ إلى قصته بعد ذلك إن شاء الله.

{٢} بدأتُ كل قصة من هذا القصص بذكر فضائل نبيِّها بما لم أجده مجموعاً في مصنَّف، ذاكراً الآيات الواردة في فضله بتفسير العلماء ثم ما صحَّت به السُّنَّة في فضائلهم صلى الله عليهم وسلم.

{٣} لم أتعهد بسرد القصص وجميع ما ذكر كما هو منقول في أكثر القصص، وإنما اقتصرت على شيء من دعوتهم؛ لأن هذا هو المقصود الأول مع بيان طريقتهم في الدعوة وصبرهم وإخلاصهم، ثم ذكرتُ شيئاً من مواقفهم الإيمانية، وكيف نصرهم الله عز وجل على عدوه وعدوهم، وذلك من أجل تثبيت الدعاة وزيادة ثقتهم بنصر الله عز وجل.

{٤} أكثرتُ من النقول خلافاً لكثير ممن صنف في هذا المجال فلا يضيرني إذا وصلت إلى المعنى المرجو أو الفائدة المطلوبة، كان ذلك على لساني أو لسان غيري.

{٥} حذفت كل الإسرائيليات والموضوعات بل والضعيف الذي لم يصححه أحدٌ من الأئمة اكتفاءً بنصوص القرآن وصحيح السُّنَّة، وكذلك التفصيلات والأسماء التي لم ترد في كتاب الله ولا صحَّت بها سنَّة

رسول الله ﷺ، ولو افترضت صحة الإسرائيليات فهي مما لا فائدة فيه وإنما سقنا ما سقناه لاستخراج العبرة والعظة.

{٦} جمع الكتاب بين أقوال أئمة التفسير المتقدمين: كالطبري والقرطبي والزمخشري، وأقوال المعاصرين من أهل العلم الذين لمسوا احتياج عصرهم وحاجة أمتهم: كالشنقيطي والسعدي ورشيد رضا وسيد قطب، رحمهم اللَّهم.

{٧} ذكرتُ في مقدمة الكتاب أموراً نافعة في بيان أهمية القصص القرآني كأسلوب من أساليب التربية التي عليها مدار رفعة الأمَّة وعزَّتها، وجمعتُ ما وقفتُ عليه وما فتح الله ﷻ به من فوائد القصص القرآني عموماً بما لم أجده مجموعاً، ولله الحمد والمنَّة.

كما ذكرتُ كذلك حكم رواية الأحاديث الضعيفة والموضوعة واعتذرت عن المتقدمين الذين ذكروا في كتبهم الضعيف والموضوع بأسانيدهم، وكيف أنهم صنَّفوا لزمانهم وللمميزين بما تقرُّ به أعين المشتغلين بعلوم السُّنَّة.

{٨} حققتُ الأحاديث المرفوعة بحسب الطاقة ذاكراً مواضع الحديث في كتب السُّنَّة بحسب ما تيسر من المراجع وهمَّة البحث العلمية بما لم أجده في كتب القصص عموماً مع اختلافها في ذلك.

{٩} التزمت كما هو منهجي في البحث دائماً ترك فضول الكلام، ومحاولة جمع الفوائد وتحصيل المنافع بأوجز عبارة، وربما اقتصرت في كثير من المواطن على ترتيب النقول وتبويبها وتحقيق مادتها دون زيادات.

وعاشِر العَشَرَةِ دعوتُ الله أن يبارك في هذا المؤلف وينفع به إخواننا، وأن يغفر لي تقصيري وزللي وينفعني والمسلمين بصالح عملي والله المستعان وعليه التكلان.

ويبقى في المقدمة ما شرطناه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الأول

فوائد القصص القرآني

يقول الأستاذ مناع القطان: الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع، فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حبُّ الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس، والموعظة الخطابيَّة تسرد سرداً، لا يجمع العقلُ أطرافها ولا يعي جميع ما يلقى فيها، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها، ويرتاح المرءُ لسماعها، ويصغى إليها بشوقٍ ولهفةٍ، ويتأثر بما فيها من عبرٍ وعظاتٍ(١).

• **فمن فوائد القصص القرآني أن به يتم ويكمل الإيمان بالأنبياء صلى الله عليهم وسلم**، فإننا وإن كنا مؤمنين بجميع الأنبياء على وجه العموم والإجمال، فالإيمان التفصيلي المستفاد من قصصهم، وما وصفهم الله به من الصدقِ الكاملِ والأوصافِ الكاملةِ التي هي أعلى الأوصاف، وما لهم من الفضل والفواضل والإحسان على جميع نوع الإنسان، بل وصل إحسانهم إلى جميع الحيوانات، بما أبدوه للمكلَّفين في الاعتناء بها والقيام بحقِّها، فهذا الإيمان التفصيلي بالأنبياء يصل به العبدُ إلى الإيمان الكامل، وهو من مواد زيادة الإيمان.

• **ومن ذلك أن في قصصهم تقرير الإيمان بالله وتوحيده، وإخلاص العمل له**، والإيمان باليوم الآخر، وبيان حسن التوحيد ووجوبه، وقبح الشرك وأنه سبب الهلاك في الدنيا والآخرة.

• **ومن ذلك أيضاً أنهم عبرة للمؤمنين، يقتدون بهم في جميع مقامات الدين:** في مقام التوحيد والقيام بالعبوديَّة، وفي مقامات الدعوة والصبر والثبات عند جميع النوائب المقلقة، ومقابلة ذلك بالطمأنينة والسكون والثبات

(١) باختصار من «محاسن التأويل» (٩/ ٣٠٥، ٣٠٦).

التَّام، وفي مقام الصدق والإخلاص لله في جميع الحركات والسكنات، واحتساب الأجر والثواب من الله تعالى، لا يطلبون من الخلق أجراً ولا جزاءً ولا شكوراً إلَّا الأمور النافعة للخلق.

• **وفيها من الفوائد الفقهية، والأحكام الشرعية، والأسرار الحكميَّة شيء عظيم لا غنى لكل طالب علم عنها.**

• **وفيها من الوعظ والتذكير، والترغيب والترهيب، والفرج بعد الشِّدة،** وتيسير الأمور بعد تعسُّرها، وحسن العواقب المشاهدة في هذه الدار وحسن الثناء والمحبَّة في قلوب الخلق ما فيه زاد للمتقين، وسرور للعابدين، وسلوة للمحزونين، ومواعظ للمؤمنين، فليس المقصود من قصصهم أن تكون سمراً، وإنما الغرض الأعظم منها أن تكون تذكيراً وعبراً[1].

• **ومن ذلك إثبات صدق الوحي المنزل على رسولنا ﷺ**، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩]؛ لأن النَّبيَّ ﷺ لم يطلع على الكتب السابقة.

• **ومن ذلك التسرية عن رسول الله ﷺ والمؤمنين فيما يلاقونه من تكذيب وأذى واتهام بالسحر والجنون**؛ فقد كُذِّب الرسل من قبل، ووجه لهم نفس القول، ثم صبروا حتى جاءهم نصر الله وإهلاك المكذبين.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٤].

• **ومن أهداف القصص القرآني إبراز حقيقة عقيديَّة هامة تبرز من خلال السرد التاريخي، هي أن الأنبياء والرسل جميعاً عليهم صلوات الله وسلامه جاءوا بكلمة واحدة وقضية واحدة على تتابع الأجيال**، كلمة واحدة هي: لا إله إلا الله، وقضية واحدة هي: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

---

(١) باختصار من «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» للعلامة عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي (ص١٠١) بتصرف.

وتوحيد الألوهيَّة هو القضية الكبرى في حياة البشرية حيث يُرسل الرسلُ المتابعون من أجلها وحدها، وكل شيء بعد ذلك مترتب عليها، وهذا يعطي الانتماء إلى أمة كبيرة موحدة على تتابع الأجيال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢].

• **ومن هذه الفوائد بيان أن الابتلاء لا بد أن يحدث للمؤمنين**، ولا بد أن تواجههم الجاهلية بالإيذاء بشتى صنوفه، ثم يبقون في هذا الإيذاء فترة لا ينصرهم فيها الله، إنما يملي للطغاة فينتفشون ويزيدون طغياناً بما يحدث لهم من الغلبة للمؤمنين، حتى إذا جاء أمرُ الله جاء النصر للمؤمنين بِقَدَرٍ من الله ووقع الهلاك بالمكذبين بقدر كذلك من الله(١).

• **ومن هذه الفوائد بيان أن وظيفة الرسل تبليغ وحي الله تعالى لعباده**، وأنهم لا يملكون فيما وراء التبليغ نفعاً للناس، لا دينياً كالإيمان والتَّقوى، ولا دنيويّاً كالرزق والصحة، ولا كشف ضرٍّ عنهم كذلك، فقد كان أبو إبراهيم وابن نوح وامرأته وامرأة لوط من الكافرين.

• **في هذا القصص كذلك بيان أن شبهة الأقوام على رسلهم أنهم بشر، وأن آياتهم سحر**، واقتراحهم عليهم نزول الملائكة والآيات الكونية الحسِّيَّة، وردهم عليهم بأن آياتهم من فعل الله تعالى لا من كسبهم بقدرتهم.

• **في هذا القصص كذلك بيان الرسل أن هداية الدين سبب لزيادة النعم وحفظها**، كما أنها هي التي تُنال بها سعادة الآخرة.

• **ومن فوائده الانتفاع بنصائح الأنبياء ومواعظهم الخاصة بكل قوم بحسب حالهم**؛ كقوم نوح في غوايتهم وغرورهم، وآل فرعون وملئه في ثروتهم وعتوهم، وقوم لوط في فحشهم، وعاد في قوَّتهم وبطشهم، وثمود في أشرهم وبطرهم، ومدين في تطفيفهم وإخسارهم لمكاييلهم وموازينهم، وبني إسرائيل في تمردهم وجمودهم.

• **بيان سنن الله تعالى في استعداد الناس النفسي والعقلي لكلٍّ من**

---

(١) باختصار من «دراسات قرآنية» للأستاذ محمد قطب (٩٩ ـ ١١١)، دار الشروق.

الإيمان والكفر والخير والشَّر والهدى والضلال، واستكبار الرؤساء والزعماء المترفين والمقلِّدين للآباء عن الإيمان والإصلاح، وكون أولُ من يهتدي به المستضعفين والفقراء، وفي عاقبة الكفر والجحود والبغي والظلم والفسوق[١].

• **ومن فوائد دراسة القصص كذلك تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم.**

• **ومن ذلك مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البيِّنات والهدى وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل** كقوله تعالى: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾[٢] [آل عمران: ٩٣].

• **ومن ذلك محبة الأنبياء والمرسلين وموالاتهم، وذلك من مكملات الإيمان بهم**، وكذلك معاداة أعدائهم وبغضهم، ولا شكَّ أن محبة الأنبياء من أعظم أسباب دخول الجنَّة لقوله ﷺ: «**المرء مع من أحب**»[٣].

• **ومن ذلك أن الشاهد ينبغي أن يدرس ويعلم ما يشهد به يوم القيامة، وهذه الأمة سوف تشهد لجميع الأنبياء يوم القيامة أنهم قد بلغوا، ويكون الرسول عليهم شهيداً.**

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُدعَى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمَّته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمَّته، فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليهم شهيداً فذلك قوله** عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]»[٤]، والوسط: العدل.

---

(١) باختصار وتصرف من «تفسير المنار» للعلامة محمد رشيد رضا رحمه الله (١٢/ ٤١، ٤٢).

(٢) «مباحث في علوم القرآن» للشيخ مناع القطان (ص٣٠٧) بتصرف واختصار.

(٣) حديث متواتر رواه البخاري (٦/ ٥٥٧) «الأدب»، ومسلم (١٦/ ١٨٧) البر والصلة، عن عبد الله بن مسعود بهذا اللفظ وروياه عن أنس بلفظ: «**أنت مع من أحببت**». ورواه الترمذي عن أنس وعن صفوان بن عسال (٩/ ٢٣٣) «الزهد».

(٤) رواه أحمد (٣/ ٣٢)، وابن ماجه (٤٢٨٤) بزيادة في أوله بإسناد صحيح على شرط =

• **تكميل: قال الأستاذ منَّاع القطان:** يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن وتعرض في صور مختلفة في التقديم والتأخير والإيجاز والإطناب، وما شابه ذلك ومن حكمة هذا:

{١} **بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها:** فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، والقصة المتكررة تَرِدُ في كلِّ موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر وتصاغ في قالب غير القالب، ولا يملّ الإنسان من تكرارها بل تتجدد في نفسه معانٍ لا تحصل له بقراءته في المواضع الأخرى.

{٢} **قوة الإعجاز:** فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدي.

{٣} **الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها في النفس:** فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون لأنها تمثل الصراع بين الحقِّ والباطل أتم تمثيل ـ مع أن القصة لا تكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها.

{٤} **اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة:** فتذكر بعض معانيها الوافية للغرض في مقام وتبرز معانٍ أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال[١].

= الشيخين، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» رقم (٣٤٥٧).
ورواه البخاري (٦/ ٣٧١) الأنبياء، عن أبي هريرة ﷺ، بلفظ: **«يجيء نوح وأمَّته»**.

(١) «مباحث في علوم القرآن» (ص٣٠٧، ٣٠٨).

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الفصل الثاني

في بيان اشتمال أكثر كتب السير والتفاسير في القصص على الإسرائيليات والموضوعات مع بيان الحكم في ذلك

فمما دفعني إلى دراسة قصص الأنبياء عدة أمور:

الأمر الأول: معرفة ما ثبت من فضائلهم ومناقبهم ومراتبهم العالية ونشر ذلك لأنهم الأمثلة الحيَّة والقدوة الصالحة للبشرية، فقد اصطفاهم الله ﷻ على علم على العالمين واختصهم بالصفات العالية والأخلاق الرفيعة الزاكية، وأمرنا بالاقتداء بهم كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ولذا اهتم النَّبيُّ ﷺ بذكر فضائلهم ورفع منازلهم، مع أنه ﷺ سيد الأولين والآخرين، وإمام الأنبياء والمرسلين.

روى مسلم في «صحيحه» عن أنس بن مالك ؓ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية. فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك إبراهيم**»(١).

وعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تفضلوا بين أنبياء الله؛ فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السمٰوات والأرض إلا من شاء الله، قال: ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، فإذا موسى ؑ آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث قبلي؟ ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متَّى**»(٢).

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة ؓ: قيل: يا رسول الله من أكرم الناس؟

(١) رواه مسلم (١٥/ ١٢١) «الفضائل».

(٢) مسلم (١٥/ ١٣٠، ١٣١) «الفضائل»، والبخاري بمعناه (٦/ ٤٤١) «أحاديث الأنبياء».

قال: «**أتقاهم**»، فقالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله...**»[(١)] الحديث.

وأخبر النَّبيُّ ﷺ ببعض صفاتهم الخَلْقِيَّةِ مبالغة في التعريف بهم، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النَّبيُّ ﷺ ـ ليلة أسري به ـ: «**لقيت موسى فنعته فإذا رجل** ـ حسبته قال: ـ **مضطرب** رَجِل الرأس كأنه من رجال شنوءة»، قال: «**ولقيت عيسى**» فنعته النَّبيُّ ﷺ فقال: «**ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس** ـ يعني الحمام ـ **ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به...**»[(٢)].

قال الحافظ: القائل: «حسبته» عبد الرزاق، والمضطرب: الطويل غير الشديد، وقيل: الخفيف اللحم، وتقدم في رواية هشام بلفظ: «**ضرب**» وفسر بالنحيف ولا منافاة بينهما. وقال ابن التين: هذا الوصف مغاير لقوله بعد هذا: «**إنه جسيم**» وهو ضد الضرب، إلا أن يراد بالجسيم الزيادة في الطول.

قال ابن حجر: ويؤيده قوله في الرواية التي بعد هذه: «**كأنه من رجال الزُّط**» وهم طوال غير غلاظ، ووقع في حديث الإسراء وهو في بدء الخلق: «**رأيت موسى جعداً طوالاً**» واستنكره الداودي فقال: لا أراه محفوظاً لأن الطويل لا يوصف بالجعد، وتعقب بأنهما لا يتنافيان. وقال النووي: الجعودة في صفة موسى جعودة الجسم وهو اكتنازه واجتماعه، لا جعودة الشعر لأنه جاء أنه رَجِل الشعر.

وقوله في صفة عيسى: «**رَبعة**» وهو المربوع، والمراد أنه ليس بطويل جدّاً ولا قصير جدّاً بل وسط، وقوله: «**كأنما خرج من ديماس**» المراد من ذلك وصفه بصفاء اللون ونضارة الجسم وكثرة ماء الوجه، كأنه كان في موضع كَنٍّ فخرج منه وهو عرقان، وسيأتي في رواية ابن عمر بعد هذا: «**ينطف رأسه ماء**»[(٣)].

ثم وصف إبراهيم ﷺ بأنه يشبهه ﷺ فقال هنا: «**وأنا أشبه ولده به**»

---

(١) البخاري (٦/ ٣٨٧) «الأنبياء»، ومسلم (١٥/ ١٣٤) «الفضائل».
(٢) رواه البخاري (٦/ ٤٧٦، ٤٧٧) «الأنبياء».
(٣) رواه البخاري (٦/ ٤٧٦، ٤٧٧) «الأنبياء».

وفي رواية: «**فانظروا إلى صاحبكم**»[١] يعني: نفسه ﷺ.

والأمر الثاني: وهو ما أسلفنا في الفصل السابق وهو استخراج العبرة والعظة، والوقوف على الفوائد والآثار الإيمانية من القصص عموماً ومن كل قصة على وجه الخصوص، لقوله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

والأمر الثالث: وهو المقصود بالبحث في هذا الفصل: تنقية القصص مما علق به عبر القرون والأجيال، من الخرافات والموضوعات والإسرائيليات، فإن الله ﷻ تعبَّدنا بما جاء في كتابه الكريم وبما صحَّ من سنة المصطفى عليه الصلاة والتسليم.

يقول الأستاذ محمد أبو شهبة: لا يزال بعض الخطباء ومقيمي الشعائر الدينية الذين ليس لهم علم بالحديث رواية ودراية، ولا سيما من لم يتأهلوا التأهل اللازم لمن يتولى الإمامة والخطابة والذين لا يزالون يخطبون في الدواوين، أو يعتمدون في خطبهم على الكتب التي لا يُعتمد عليها في معرفة الأحاديث والتمييز بين صحيحها وضعيفها وموضوعها، والذين جعلوا غايتهم استرضاء الجماهير، فيذكرون لهم أحاديث في الترغيب والترهيب وحكايات وقصصاً مثيرة عجيبة أغلب الظنِّ أنها من وضع القصاص وجملة الزُّهاد الذين استباحوا ذلك، وكان جلُّ همِّهم تملق الجماهير واستمالتهم بذكر المبالغات، والتهاويل والعجائب والغرائب، وما أجدر هذه الفئة بأن يحال بينها وبين الخطابة، والوعظ والتذكير! حتى لا يسمِّموا أفكار الناس ويفسخوا القيم الدينية والخلقية الصحيحة، وتكون حجَّة على الإسلام لا حجَّة له، وأحب أن أقول لهؤلاء وأمثالهم: إن في الأحاديث الصحيحة والحسان والقصص الثابت الصحيح غُنْيَةً عن الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة والقصص المكذوب لمن يريد أن يرقق القلوب ويستولي على النفوس، فليتَّق الله هؤلاء في الناس وفي أنفسهم[٢].

---

(١) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٦/ ٤٨٥، ٤٨٦).

(٢) «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» للأستاذ الشيخ محمد بن محمد =

والناظر في كتب السير والتاريخ والتفاسير يهوله كثرة ما فيها من الخرافات والموضوعات التي لا يجوز روايتها لقوله ﷺ: **«إنَّ كذباً عليَّ ليس ككذبٍ على أحدٍ، فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النَّار»**(١).

ولا شك أن ترويج الأحاديث الموضوعة بنقلها في المصنَّفات ودروس العلم مشاركة في الكذب على النَّبيِّ ﷺ إذا لم يتم التنبيه على ضعفها ووضعها.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يحرم رواية الحديث الموضوع على من عرف كونه موضوعاً أو غلب على ظنِّه وضعه، فمن روى حديثاً علم أو ظنَّ وضعه ولم يبيِّن حال روايته وضعفه فهو داخل في هذا الوعيد مندرج في جملة الكاذبين على رسول الله ﷺ ويدل عليه أيضاً الحديث السابق: **«من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»**(٢).

وقال الدَّارقطني: توعد ﷺ بالنار من كذب عليه بعد أمره بالتبليغ عنه، ففي ذلك دليل على أنه إنما أمر أن يبلغ عنه الصحيح دون السقيم، والحق دون الباطل، لا أن يبلغ عنه جميع ما رُوي عنه؛ لأنه ﷺ قال: **«كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكلِّ ما سمع»**(٣) أخرجه مسلم. فمن حدث بجميع ما سمع من الأخبار المروية عن النَّبيِّ ﷺ ولم يميز بين صحيحها وسقيمها وحقها من باطلها باء بالإثم وخيف عليه أن يدخل في جملة الكاذبين على رسول الله ﷺ. وقد أخبر اللهُ النبيَّ ﷺ بما يكون بعده في أمَّته من الروايات الكاذبة والأحاديث الباطلة، فأمر النَّبيّ ﷺ باجتناب رواتها وحذَّر منهم ونهى عن

= أبو شهبة (ص٣٠ ـ ٣١) «سلسلة البحوث الإسلامية».

(١) رواه البخاري (٣/ ١٦٠) «الجنائز»، ومسلم (١/ ٧٠، ٧١) «المقدمة»، والترمذي (٩/ ١٢٦) أبواب العلم، والحديث متواتر لفظاً ومعنى.

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١/ ٧١)، والحديث رواه مسلم (١/ ٦٢) «المقدمة»، والترمذي (٩/ ١٢٩) «أبواب العلم».

(٣) رواه مسلم (١/ ٧٣) «المقدمة»، بلفظ: **«كفى بالمرء كذباً»**، وأبو داود (٤٩٧١) «الأدب» قال النووي: فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب فإذا حدث بكل ما سمع كذب لإخباره بما لم يكن، والكذب: الإخبار عن الشيء بغير ما هو، ولا يشترط فيه التعمد.

استماع أحاديثهم وعن قبول أخبارهم فقال ﷺ: «**سيكون في آخر الزمان أناس من أمَّتي يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإيَّاكم وإياهم**»[(١)].

فإن قال قائل: لماذا ترخص العلماء في رواية كثير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة في كتبهم ولم يشترطوا الصحة كما اشترط البخاري ومسلم رحمهما الله؟

فالجواب: أن الأحاديث الضعيفة التي ليست شديدة الضعف أو موضوعة قد تنجبر بكثرة الطرق إلى درجة الحسن أو الصحة فتترقى لدرجة الاحتجاج، فالحديث الذي لا يصح بذاته قد يصلح للاعتبار فيقوي غيره أو يقوى بغيره.

ثانياً: أنهم أوردوا الأحاديث بأسانيدها، وكما يقولون: من أسند لك فقد أحالك، وإنما يصح ذلك في أزمنتهم الزاهرة التي ينظر فيها طالب العلم في السند فيعرف آفته، وقد صرَّح بعضهم أنهم صنَّفوا للميز الذي يفرق بالنظر في السند بين صحيح الحديث وضعيفه وموضوعه، وبذلك تبرأ ذمَّة المصنف إذا ذكر الحديث بسنده، وعلى طالب العلم أن يميز من حيث السند ويحكم على الحديث بما يليق بحاله، ولا يخفى أن الواجب في هذه الأزمنة أن يبين حال الحديث من حيث الصحة أو الضعف.

ثالثاً: قد يخفى ضعف بعض الرواة على بعضهم، ولا يقدح هذا في علمهم وورعهم، فما جعل الله العصمة لأحد بعد رسوله ﷺ.

رابعاً: أسباب الجرح مختلفة وما يراه بعض الأئمة قادحاً يراه غيره غير قادح، ومن هنا اختلف العلماء في الحكم على الحديث بالصحة والضعف[(٢)].

وأما الإسرائيليات: فقد ترخَّص كثير من العلماء في نقلها عملاً بقول النَّبيِّ ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»[(٣)].

---

(١) «الضعفاء والمتروكين» (٩ ـ ١١) ط. المكتب الإسلامي، والحديث رواه مسلم (١/ ٧٨) «المقدمة».

(٢) وانظر: «الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث» لأحمد شاكر (ص٣٨).

(٣) رواه البخاري (٦/ ٤٩٦) «أحاديث الأنبياء»، والترمذي (٩/ ١٣٦، ١٣٧) «العلم».

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: لكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، ويجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعددهم وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضُرِبَ به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلَّم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم[١].

قال العلامة أحمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ: إن إباحة التحديث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شيءٌ، وذِكْرُ ذلك في تفسير القرآن وجَعْلُهُ قولاً أو روايةً في معنى الآيات أو في تعيين ما لم يعين فيها أو في تفصيل ما أجمل فيها شيء آخر؛ لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبيِّن لمعنى قول الله سبحانه ومفصِّل لما أجمل فيه، وحاشا لله ولكتابه من ذلك.

وإن رسول الله ﷺ ـ إذ أذن بالتحديث عنهم ـ أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم فأي تصديقٍ لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله ونضعها منه موضع التفسير أو البيان؟! اللهم غفراً.

وقد قال الحافظ ابن كثير نفسه في تفسير الآية (٥٠) من سورة الكهف بعد أن ذكر أقوالاً في إبليس، واسمه، ومن أي قبيل هو؟!: (وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السَّلف وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها والله

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٤) «المقدمة» دار المعرفة، بيروت.

أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحقِّ الذي بأيدينا، وفي القرآن غنية عن كلٍّ ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين ـ كما لهذه الأمَّة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دَوَّنُوا الحديث وحرروه وبيَّنوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضَّاعين والكذَّابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كلُّ ذلك صيانة للجناب النَّبوي والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ ـ أن ينسب إليه كذب أو يحدَّث عنه بما ليس منه ـ، رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنَّات الفردوس مأواهم، وقد فعل)[١].

وروى **البخاري** بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرءونه لم يُشَبْ؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدَّلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩] أفلا ينهاكم بما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألونكم عن الذي أنزل عليكم»[٢].

وروى البخاري كذلك عن حميد بن عبد الرحمٰن سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار فقال: (إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ـ وإن كنا ـ مع ذلك لنبلو عليه الكذب)[٣].

قال الحافظ: وقال عياض: يصح عوده على الكتاب، ويصح عوده على كعب وعلى حديثه، وإن لم يقصد الكذب ويتعمده، إذ لا يشترط في مسمى

---

(١) «عمدة التفاسير عن الحافظ ابن كثير» اختصار وتحقيق أحمد محمد شاكر (١٥، ١٦).

(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٩١) «الشهادات» (١٣/ ٤٩٦) «التوحيد» (١٣/ ٣٣٤) «الاعتصام بالكتاب والسنة».

(٣) رواه البخاري (٥/ ٣٣٣) «الاعتصام بالكتاب والسنة».

الكذب التعمد بل هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، وليس فيه تجريح لكعب بالكذب.

وقال ابن الجوزي: المعنى أن بعض الذي يخبر به كعب عن أهل الكتاب يكون كذباً، لا أنه يتعمد الكذب، وإلّا فقد كان كعب من أخيار الأحبار(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: لما أسلم كعب الأحبار في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن كتبه قديماً، فربما استمع له عمر فترخص الناس في استماع ما عنده غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرف واحدٍ مما عنده(٢).

ومع تصريح ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بأن هذه الأمَّة ليست في حاجة إلى حرف واحدٍ مما عنده ومع قول معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن كعب الأحبار كان من أصدق المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب إلَّا أن تفسيره لم يخل من الإسرائيليات وكذلك قصص الأنبياء المنسوب إليه رَحِمَهُ اللَّهُ إلّا أنه ينبه على حالها.

يقول الأستاذ محمد أبو شهبة رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن خصائص هذا التفسير العظيم أنه يعتبر نسيج وحده في التنبيه على الإسرائيليات والموضوعات في التفسير، تارة يذكرها ويعقب عليها بأنها دخيلة على الرواية الإسلامية ويبين أنها من الإسرائيليات المكذوبة، وتارة لا يذكرها بل يشير إليها، ويبيِّن رأيه فيها وقد تأثر في هذا بشيخه الإمام ابن تيمية، وزاد على ما ذكره كثيراً وكل من جاء بعد ابن كثير من المفسرين ممن تنبه إلى الإسرائيليات والموضوعات وحذر منها هم عالة عليه في هذا ومدينون له فيها بهذا الفضل، وقد تعقب ابنَ جرير على جلالته وتقدمه في بعض الإسرائيليات والموضوعات التي ذكرها في تفسيره ولا عجب في هذا فهو من مدرسةٍ عُرفت بحفظ الحديث والعمل به روايةً ودرايةً، وأصالة النقد، والجمع بين المعقول والمنقول، وهي مدرسة

(١) باختصار من «فتح الباري» (٥/ ٣٣٥).
(٢) نقلاً عن «محاسن التأويل» للقاسمي (٨/ ١٢٠).

شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ابن القيم والذهبي وابن كثير وأمثالهم، فجزاه الله على صنيعه هذا خير الجزاء[١].

ويقول العلامة أحمد شاكر صاحب «عمدة التفاسير» وهو مختصر لتفسير ابن كثير مبيناً منهجه في الاختصار:

(نفيت عن كتابي هذا كل الأخبار الإسرائيلية وما أشبهها فإن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قد جَذَبَها[٢] في مواضع كثيرة من تفسيره، وأبان عن خطلها وضررها، وأنحى باللائمة على روايتها ورواتها، ورسم لنفسه خطة في شأنها، ومع ذلك فإنه ـ فيما يبدو لي ـ لم يستطع أن يسير على ما رسم، وغلبه ما وجد من الروايات في كثير من المواطن فأثبت طائفة منها غير قليلة فحذفتها كلَّها والحمد لله)[٣].

ولا شك أن أكثر هذه الإسرائيليات في كتب التفاسير إنما هي في القصص؛ حيث إنه من أخصب المجالات لذكر العجائب والغرائب التي عند أهل الكتاب، خاصة مع العلم بأن كثيراً من هذا القصص مروي في كتبهم، التي حرَّفوها وزادوا فيها ونقصوا منها.

يقول العلامة أبو شهبة رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد جاء في كتب التفسير على اختلاف مناهجها إسرائيليات كواذب ومرويَّات بواطل، لا يحصيها العدُّ وذلك فيما

---

(١) باختصار من «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (١٨٢، ١٨٣) مجمع البحوث الإسلامية.

(٢) أي: ذمَّها وعابها.

(٣) «عمدة التفاسير» (ص٩) في «المقدمة» وبالنسبة للإسرائيليات التي نقلها ابن كثير فلعله ذكرها للتنبيه عليها والتحذير منها وذلك لكثرة ورودها في أكثر التفاسير والسير، والدليل على ذلك أنه ينبه على بطلانها وكذبها غالباً، والذي يتعجب منه هو الأسماء والتفصيلات التي ذكرت في القصص، ولم ترد في كتاب الله ولا صحَّت بها سنة رسول الله ﷺ، ولا نعلم للغيب مصدراً ثالثاً، فمن أين أخذها إذاً مَنْ ذكرها، وقد تعمدت في هذا القصص عدم ذكر شيء من ذلك. إلا ما قصه الله ﷻ علينا، أو صحَّ في سنة النبي ﷺ، مع العلم بأن تفسيره وتاريخه من أقرب المصنفات وأنفعها وأكثرها بركة، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين كل خير، وغفر لنا وله ما زلَّ به القلمُ.

يتعلق بقصص الأنبياء والمرسلين والأمم والأقوام السابقين، وقد رويت عن بعض الصحابة والتابعين وتابعيهم، وورد بعضها مرفوعاً إلى النَّبيِّ ﷺ كذباً وزوراً.

وهذه المرويَّات والحكايات لا تَمُتّ إلى الإسلام، وإنما هي من خرافات بني إسرائيل وأكاذيبهم وافتراءاتهم على الله وعلى رسوله(١).

وبهذا الكلام انتهت المقدمة، نسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

(١) «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» (٢٤٩، ٢٥٠).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة نوح عليه السلام

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

فضائل نوح عليه السلام

{١} ثناء الله عز وجل عليه:

قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣].

قال القاسمي: أي: لمعرفته بنعم الله واستعمالها على الوجه الذي ينبغي، وفيه إيماء بأن إنجاءه ومن معه كان ببركة شكره، وحثٌّ للذرية على الاقتداء به[١].

وقال الزمخشري: قيل: كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء أظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني[٢].

وقال ابن كثير: والظاهر أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبيَّة والقوليَّة والعمليَّة فإن الشكر يكون بهذا وبهذا[٣].

{٢} أول رسول للبشر:

فقد كان بينه وبين آدم عشرة قرون كلهم على التوحيد، ولذا قال الله عز وجل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة وفيه: «**فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسمَّاك الله: عبداً شكوراً أما ترى إلى ما نحن فيه**»[٤].

---

(١) «محاسن التأويل» (١٠/ ٢٠١).
(٢) «الكشاف» (٢/ ٦٤٨) باختصار.
(٣) «قصص الأنبياء» (ص٩١).
(٤) الحديث مخرَّج في الكتب الستة بألفاظ وطرق، وهو في «البخاري» (١٣/ ٣٧١) «التوحيد»، ومسلم (٣/ ٥٣ ـ ٦٠) «الإيمان».

قال الحافظ: فأما كونه أول الرسل فقد استشكل بأن آدم كان نبياً، وبالضرورة تعلم أنه كان على شريعة من العبادة، وأن أولاده أخذوا ذلك عنه، فعلى هذا فهو رسول إليهم، فيكون هو أول رسول، فيحتمل أن تكون الأوَّلية في قول أهل الموقف لنوحٍ مقيدة بقولهم: إلى أهل الأرض؛ لأنه في زمن آدم لم يكن للأرض أهل، أوْ لأن رسالة آدم إلى بنيه كانت كالتربية للأولاد، واستشكله بعضهم بإدريس، ولا يرد لأنه اختلف في كونه جد نُوح كما تقدم(١).

{٣} أحد أولي العزم من الرسل المذكورين في آيتي الشورى والأحزاب:

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

قال أبو السعود: وتخصيصهم بالذكر يعني قوله: ﴿وَمِنكَ ...﴾ إلخ مع اندراجهم في النبيين للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع، وأساطين أولي العزم، وتقديم نبينا ـ عليه وعليهم الصلاة والسلام ـ لإبانة خطره الجليل(٢).

{٤} استجاب الله ﷻ دعاءه ونجاه من الكرب العظيم وجعل ذريته هم الباقين:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الصافات: ٧٥ ـ ٨٢].

قال الألوسي: ونداؤه عليه السلام يتضمن الدعاء على كفَّار قومه وسؤاله النجاة وطلب النصرة. وقوله: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ قال: تالله لقد دعانا نوح حين أيس

(١) باختصار من «فتح الباري» (٦/ ٣٧٢، ٣٧٣).
(٢) نقلاً عن «محاسن التأويل» (١٤/ ٢٣٠).

من إيمان قومه بعد أن دعاهم أحقاباً ودهوراً فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً، فأجبناه أحسن الإجابة، فوالله لنعم المجيبون نحن. وقوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦﴾؛ أي: الغرق ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ حيث أهلكنا الكفرة بموجب دعائه ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وقد روي أنه مات كل من في السفينة ولم يعقبوا عقباً باقياً غير أبنائه الثلاثة: سام وحام ويافث وأزواجهم فإنهم بقوا متناسلين إلى يوم القيامة.

أخرج الترمذي وحسنه وابن سعد وأحمد وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن سمرة أن النَّبيَّ ﷺ قال: «**سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم**».

وعلى كون الناس كلهم من ذريته عليه السلام استدل بعضهم بالآية.

وقالت فرقة: أبقى الله تعالى ذرية نوح عليه السلام ومدَّ في نسله وليس الناس منحصرين في نسله بل من الأمم من لا يرجع إليه. حكاه في البحر.

قال: والحصر في الآية بالنسبة إلى من في السفينة، وهو لا يستلزم عدم بقاء ذرية من لم يكن معه وكان في بعض الأقطار الشاسعة التي لم تصل إليها الدعوة، ولم يستوجب أهلها الغرق كأصل الصين كما يزعمون(١).

قوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١﴾ [الصافات: ٧٨ ـ ٨١]:

قال الزمخشري: معناه: الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعاً، وأن لا يخلو أحد منهم منها، كأنه قيل: ثبَّت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين يسلمون عليه عن آخرهم، علَّل مجازاة نوح عليه السلام بتلك الكرامة السَّنيَّة من تبقية ذكره وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدَّهر بأنه كان محسناً ثم علَّل كونه محسناً بأنه كان عبداً مؤمناً؛ ليريك جلالة محل الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم، ويرغبك في تحصيله والازدياد منه(٢).

---

(١) «روح المعاني» (٢٣/٩٨) باختصار.
(٢) «الكشاف» (٤/٤٨).

{٥} جعل الله في ذريته النبوة والكتاب:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦].

قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام لم يرسل بعده رسولاً ولا نبيّاً إلا من ذريته، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمٰن، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده إلَّا وهو من سلالته[1].

❦ ❦ ❦

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣١٥).

دعوته عليه السلام وصبره على تكذيب قومه وعنادهم

كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلها على التوحيد، كما في صحيح الحديث عن ابن عباس قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»[(١)]، والمراد بالقرن: الجيل كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ﴾ [الإسراء: ١٧]. وقيل: المراد بالقرن مائة سنة.

ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أنْ آل الحال بأهل هذا الزمان إلى عبادة الأصنام.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير «وَدّ وسواع ويغوث ونسر»: «أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمُّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخ العلم عُبِدت»[(٢)].

قال الحافظ: وقصة الصالحين كانت مبتدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام، ثم تبعهم مَن بعدهم على ذلك[(٣)].

قال تعالى في سورة نوح[(٤)]: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [نوح: ١ ـ ٤].

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٤٤٢) عن ابن عباس موقوفاً وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري (٨/ ٦٦٧) «التفسير». (٣) «فتح الباري» (٨/ ٦٦٩).

(٤) قال القاسمي: قال المهايمي: سميت به لاشتمالها على تفاصيل دعوته وأدعيته. «محاسن التأويل» (١٦/ ٢٩٢).

قال ابن كثير رحمه الله: يقول الله تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم[(١)].

قال سيد قطب رحمه الله: في هذه الخطوط العريضة تتلخص الديانة السماوية على الإطلاق ثم تفترق بعد ذلك في التفصيل والتفريع.

وعبادة الله وحده منهج كامل للحياة يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق.

وتقوى الله هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج، وعدم التلفت هنا أو هناك.

وطاعة الرسول ﷺ هي الوسيلة للاستقامة على الطريق، وتلقي الهدى من مصدره المتصل بالمصدر الأول للخلق والهداية.

وقد وعدهم عليها ما وعد به التائبين الثائبين: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وجزاء الاستجابة للدعوة إلى عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله هي المغفرة والتخلُّص من الذنوب التي سلفت، وتأخير الحساب إلى الأجل المضروب له في علم الله وهو اليوم الآخر، وعدم الأخذ في الحياة الدنيا بعذاب الاستئصال.

ثم بيَّن لهم أن ذلك الأجل المضروب حتمي يجيء في موعده، ولا يُؤخر كما يُؤخر عذاب الدنيا **فقال**: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤][(٢)].

وها هو نوح عليه السلام يرفع تقريراً إلى ربِّه الكريم عن دعوته، يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [نوح: ٥-٨].

قال القاسمي: ﴿قَالَ﴾؛ أي: نوح بعد أن بذل غاية الجهد وضاقت عليه الحِيَلُ، في تلك المدد الطوال ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾؛ أي: إلى التوحيد والعمل الصالح ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ أي: دائماً بلا فتور ولا توان ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾؛

---

(١) «تفسير القرآن العظيم».

(٢) «في ظلال القرآن» (٥/ ٣٧١١، ٣٧١٢) باختصار.

أي: من الحق الذي أرسلتني به ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى الإيمان؛ أي: سدُّوا مسامعهم من استماع الدَّعوة ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾؛ أي: تغطَّوا بها من كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في الدِّين، ﴿وَأَصَرُّوا﴾ على الشرِّ والكفر ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾؛ أي: تعاظموا عن الإذعان للحقِّ وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة(١).

قال تعالى حاكياً عن نوح ﷺ: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح: ٨ ـ ١٢].

قال الزمخشري: قد فعل عليه الصلاة والسلام كما يفعل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، في الابتداء بالأهون والترقي في الأشد فالأشد، فافتتح بالمناصحة في السِّرِّ، فلما لم يقبلوا ثنَّى بالمجاهرة، فلما لم تؤثر ثلَّث بالجمع بين الإسرار والإعلان، ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على تباعد الأحوال لأن الجهر أغلظ من الإسرار والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما(٢).

قال الألوسي: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ بالتَّوبة عن الكفر والمعاصي فإنه سبحانه لا يغفر أن يشرك به، وقال: ﴿رَبَّكُمْ﴾ تحريكاً لداعي الاستغفار ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ دائم المغفرة كثيرها للتَّائبين، كأنهم تعلَّلوا وقالوا: إنْ كنَّا على الحقِّ فكيف نتركه، وإنْ كنَّا على الباطل فكيف يقبلنا ويلطف بنا جَلَّ وعَلَا بعدما عكفنا عليه دهراً طويلاً؟! فأمرهم بما يمحق ما سلف من المعاصي، ويجلب إليهم المنافع، ولذلك وعدهم على الاستغفار بأمور هي أحبّ إليهم وأوقع في قلوبهم من الأمور الأخرويَّة؛ أعني: ما تضمَّنه ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ...﴾ إلخ وأحبِّيتهم لذلك لما جُبلوا عليه من محبَّة الأمور الدنيويَّة ـ والنفس مولعة بحبِّ العاجل ـ قال قتادة: كانوا أهل حبٍّ للدنيا فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يحبُّونها، وقيل: لما كذَّبوه عليه الصلاة والسلام بعد تكرير الدَّعوة حبس الله تعالى عنهم المطر وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، وقيل: سبعين سنة، فوعدهم أنهم إن آمنوا يرزقهم الله تعالى الخصب

---

(١) «محاسن التأويل» (٩/ ٢٩٤). (٢) «الكشاف» (٤/ ٦١٦).

ويدفع عنهم ما هم فيه وهو **قوله**: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[(١)].

قال ابن كثير رحمه الله: وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]؛ أي: ومع هذه المدَّة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم.

وكان كلَّما انقرض جيل وَصَّوا مَنْ بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصَّاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ودائماً ما بقي.

وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق ولهذا قال: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

و: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٣٣﴾ [هود: ٣٢، ٣٣] أي: إنما يقدر على ذلك الله عز وجل فإنه الذي لا يعجزه شيء ولا يكترثه أمر، بل هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤﴾ [هود: ٣٤]؛ أي: من يرد الله فتنته فلن يملك أحدٌ هدايته، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعَّال لما يريد، هو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية، وله الحكمة البالغة والحجَّة الدامغة[(٢)].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

قال العلامة عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي:

● يستفاد من هذه القصة أمور:

﴿١﴾ **منها: أن جميع الرسل من نوح إلى محمدٍ صلى الله عليهم وسلم متفقون على الدَّعوة إلى التَّوحيد الخالص والنهي عن الشرك**، فنوح وغيره أول

---

(١) «روح المعاني» (٢٩/ ٧٢).

(٢) «قصص الأنبياء» (٧٤، ٧٥).

ما يقولون لقومهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] ويكررون هذا الأصل بطرق كثيرة.

{٢} **ومنها: آداب الدَّعوة وتمامها**، فإن نوحاً دعا قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، بكلِّ وقت وبكلِّ حالة يظن فيها نجاح الدعوة، وأنه رغَّبهم بالثواب العاجل بالسَّلامة من العقاب وبالتمتع بالأموال والبنين وإدرار الأرزاق إذا آمنوا وبالثواب الآجل وحذَّرهم من ضدِّ ذلك، وصبر على هذا صبراً عظيماً كغيره من الرُّسل، وخاطبهم بالكلام الرقيق والشفقة وبكلِّ لفظٍ جاذب للقلوب محصل للمطلوب، وأقام الآيات وبيَّن البراهين.

{٣} **ومنها: أن من فضائل الأنبياء وأدلة رسالتهم وإخلاصهم التَّام لله تعالى في** عبوديتهم لله القاصرة، وفي عبوديتهم المتعدية لنفع الخلق كالدَّعوة والتَّعليم وتوابع ذلك، ولذلك يبدون ذلك ويعيدونه على أسماع قومهم كل منهم يقول: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: ٥١] ولهذا كان من أجل الفضائل لأتباع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسل في هذه الفضيلة، والله تعالى يجعل لهم من فضله من رفعة الدنيا والآخرة أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا[(١)].

{٤} **قال القرطبي** رحمه الله في هذه الآية ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ [نوح: ١٠] والتي في هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢] دليل على أن الاستغفار يُستنزل به الرزق والأمطار.

قال الشعبي: خرج عمر يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى رجع فأُمطروا فقالوا: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يُستنزل بها المطر، ثم قرأ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾.

وقال ابن صبيح: شكا رجلٌ إلى الحسن الجدوبة؛ فقال له: استغفر الله، وشكا آخر إليه الفقر، فقال له: استغفر الله، وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله، وشكا له آخر جفاف بستانه، فقال له:

(١) «تفسير اللطيف المنان» (١٠٩ ـ ١١١) باختصار.

استغفر الله، فقلنا له في ذلك، فقال: ما قلت من عندي شيئاً إن الله تعالى يقول في سورة نوح: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ...﴾ الآية[١].

{٥} **قال الحافظ في «فتح الباري»**: حكى الواقدي قال: كان «ودٌّ» على صورة رجل، و«سواع» على صورة امرأة، و«يغوث» على صورة أسد، و«يعوق» على صورة فرس، و«نسر» على صورة طائر، وهذا شاذ والمشهور أنهم كانوا على صورة البشر وهو مقتضى ما تقدم من الآثار في سبب عبادتها[٢].

{٦} **قال ابن القيم** رحمه الله: أول ما كاد به الشيطان عُبَّاد الأصنام من جهة العكوفِ على القبور وتصاوير أهلها ليتذكروهم بها، كما قصَّ الله سبحانه قصصهم في كتابه فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ الآية.

ثم قال: وتلاعُبُ الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة، تلاعب بكلٍّ قومٍ على قدر عقولهم، فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم كما تقدم في قوم نوح عليه السلام، ولهذا لعن النبي ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسُّرج، ونهى عن الصَّلاة إلى القبور، وسأل ربه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد، وأمر بتسوية القبور وطمس التماثيل، فأبى المشركون إلا خلافه في ذلك كلِّه[٣].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» باختصار (٨/ ٦٧٨١).
(٢) «فتح الباري» (٨/ ٦٦٩).
(٣) باختصار من «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢١٨).

دعاء نوح عليه السلام على قومه واستجابة الله عز وجل له وهلاك الكافرين

قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٣٦ ـ ٤٨].

قال ابن كثير رحمه الله: وهذه تعزية لنوح عليه السلام أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن؛ أي: لا يسوءنَّك ما جرى فإن النَّصرَ قريبٌ، والنَّبأ عجبٌ عجيب.

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [هود: ٣٧]:

وذلك أن نوحاً عليه السلام لـمّا يئس من صلاحهم وفلاحهم، ورأى أنهم لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال، دعا عليهم دعوةً غضب الله عليهم، فلبى دعوته وأجاب طلبه: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ٧٥ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾ [الصافات: ٧٥، ٧٦].

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ٢٧﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم[1].

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾ [هود: ٣٨، ٣٩]:

قال صاحب المنار: وطفق يصنع الفلك كما أُمِرَ ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ استهزؤوا به وضحكوا منه وتنادوا عليه لحساباتهم أنه مصاب بالهوس والجنون، ورُوي أنهم كانوا يسألونه عمَّا يصنع فيجيبهم أنه يصنع بيتاً يمشي على الماء، ولم يكن هذا معروفاً ولا متصوراً، وقلَّ أن يسبق أحدٌ أهل عصره بما هو فوق عقولهم ومداركهم من قول أو عمل، إلا سخروا منه قبل أن يتم له النجاح فيه.

﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ أي: نسخر منكم اليوم لجهلكم وغداً لما يحل عليكم، فإن كنتم لا تعلمون اليوم بما نعمل وبما سيكون من عاقبة أمرنا ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ بعد تمامه ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ أي: يذله ويجلب له العار والتبار في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ بعد ذلك في الآخرة فيكون عذاب الدنيا هيِّناً بالإضافة إليه لانقضاء هذا وزواله بهلاككم وبقاء ذلك ودوامه بدوامكم[2].

---

(١) «قصص الأنبياء» (٧٥، ٧٦).

(٢) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٤) باختصار.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠]:

قال القرطبي: اختلف في التنور على أقوالٍ سبعة:

الأول: وجه الأرض.

الثاني: أنه تنور الخبز الذي يخبز فيه.

الثالث: أنه موضع اجتماع الماء في السفينة.

الرابع: أنه طلوع الفجر.

الخامس: أنه مسجد الكوفة.

السادس: أنه أعالي الأرض والمواضع المرتفعة منها.

السابع: أنه العين التي بالجزيرة.

قال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة لأن الله ﷻ أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض قال: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١١، ١٢].

فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة، والفوران: الغليان.

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ يعني: ذكراً وأُنثى لبقاء أصل النسل(١).

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾:

قال الشيخ محمد رشيد رضا: أي: واحمل فيها أهل بيتك ذكوراً وإناثاً، وأهل بيت الرجل عند الإطلاق: نساؤه وأولاده وأزواجهم، والظاهر أن المستثنى منهم كفارهم إن كان فيهم كفار لأنهم يدخلون في عموم قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(٢).

قال ابن كثير: وقدم الله تعالى إليه إذا جاء أمره وحلَّ بهم بأسه الذي لا يُرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه، فإنه لعلَّه قد تدركه

---

(١) «تفسير القرطبي» (٤/٣٢٦١، ٣٢٦٢).

(٢) «تفسير المنار» (١٢/٧٦).

رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم، فإنه ليس الخبر كالمعاينة[١].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]:

قال في «المنار»: ولم يبيِّن الله تعالى ولا رسوله عددهم فكل ما قاله المفسرون فيهم مردود لا دليل عليه كما قال ابن جرير الطبري، كما أنه لم يبيِّن لنا أنواع الحيوانات التي حملها، ولا كيف حملها وأدخلها السفينة، وهي مفصَّلة في سفر التكوين، وللمفسرين فيها إسرائيليات مضحكة تخالفها لا ينبغي تضييع العمر في نقلها وإشغال القرَّاء بها[٢].

﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود: ٤١]:

قال الزمخشري: بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين: باسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، ويُروى أنه كان إذا أراد أن تجري قال: بسم الله، فجرت، وإذا أراد أن ترسو قال: بسم الله، فرست، ويجوز أن يقحم الاسم كقوله: «ثم اسم السلام عليكما»، ويراد بالله إجراؤها وإرساؤها؛ أي: بقدرته وأمره[٣].

﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إيَّاكم لما نجَّاكم.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: ٤٢]:

قال القاسمي رحمه الله: وذلك أنه لما تفتحت أبواب السماء بالماء، وتفجَّرت ينابيع الأرض، تعاظمت المياه وعلت أكناف الأرض، وارتفعت فوق الجبال الشامخة، وكان ما يرتفع من الماء عند اضطرابه من أمواجه كالجبال.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ أي: متنحى عن أبيه ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ أي: ادخل في ديننا واصحبنا في السفينة ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: في الدين والانعزال فتكون من الهالكين.

---

(١) «قصص الأنبياء» (٧٦).

(٢) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (١٢/ ٧٦).

(٣) «الكشاف» (٢/ ٣٩٥) باختصار.

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾؛ أي: فلا أغرق.

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾؛ أي: لا مانع اليوم من بلائه وهو الطوفان إلا الرَّاحم وهو الله تعالى، أو لا عاصم إلا مكان من رحم وهم المؤمنون؛ يعني: السفينة، أو لا عاصم بمعنى: لا ذا عصمة إلا من رحمه الله.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾؛ أي: الهالكين بالغرق، وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة، فكان ذلك أمراً مقرر الوقوع، غير مفتقر إلى البيان[1].

﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤]:

قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلَّهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها، واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾؛ أي: شرع في النقص ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم ديَّاراً ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة[2].

وقال الزمخشري: وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه كأنهم عقلاء مميزون قد عرفوا جلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له، والنزول على مشيئته على الفور من غير رَيثٍ[3].

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ١٢٤). (٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٤٦).

(٣) «الكشاف» (٢/ ٣٩٧، ٣٩٨).

نقل الألوسي شيئاً من مزايا هذه الآية ونحن نذكر شيئاً من ذلك والله المستعان: قال: وما ذكر في شرح مزايا هذه الآية بالنسبة إلى ما فيها قطرة من حياض وزهرة من رياض، وقد ذكر ابن أبي الأصبع أن فيها عشرين ضرباً من البديع مع أنها سبع عشرة لفظة، وذلك المناسبة التامة في ﴿ٱبْلَعِى﴾، و﴿أَقْلِعِى﴾ والاستعارة فيهما، والطباق بين الأرض والسماء، والمجاز في ﴿وَيَـٰسَمَآءُ﴾ فإن الحقيقة: يا مطر السماء، والإشارة =

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٥، ٤٦]:

قال القاسمي رحمه الله: إعلام بأن نوحاً حملته شفقة الأبوة وتعطف الرحم والقرابة على طلب نجاته لشدة تعلقه به واهتمامه بأمره، وقد راعى مع ذلك أدب الحضرة وحسن السؤال، **فقال:** ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ ولم يقل: لا تخلف وعدك بإنجاء أهلي، وإنما قال ذلك لفهمه من الأهل ذوي القرابة الصوريَّة والرَّحم النسبيَّة، وغفل لفرط التأسف على ابنه عن استثنائه تعالى بقوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾، ولم يتحقق أن ابنه هو الذي سبق عليه القول؛ فاستعطف ربَّه بالاسترحام وعرض بقوله: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إلى أن العالِمَ العادل والحكيم لا يخلف وعده.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾؛ أي: الموعود إنجاؤهم بل من المستثنين لكفرهم أو ليس منهم أصلاً؛ لأن مدار الأهليَّة هو القرابة الدينيَّة ولا علاقة بين المؤمن والكافر.

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ بيَّن انتفاء كونه من أهله بأنه غير صالح تنبيهاً على أن أهله هم الصلحاء أهل دِينه وشريعته، وإنه لتماديه في الفساد والغي كأن نفسه عمل غير صالح، وتلويحاً بأن سبب النجاة ليس إلا الصلاح لا قرابته

= في: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ فإنه عبر به عن معانٍ كثيرة؛ لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء وتبلع الأرض ما يخرج منها، فينقص ما على وجه الله، والإرداف في: ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ والتمثيل في: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، والتعليل: فإن غيض الماء علَّة للاستواء، وصحة التقسيم: فإنه استوعب أقسام الماء حال نقصه، والاحتراس في الدعاء لئلا يتوهم أن الغرق لعمومه شمل من لا يستحق الهلاك، فإن عدله تعالى يمنع أن يدعو على غير مستحق، وحسن النسق وائتلاف اللفظ مع المعنى، والإيجاز: فإنه سبحانه قص القصة مستوعبة بأخصر عبارة، والتسهيم؛ لأن أول الآية يدل على آخرها، والتهذيب؛ لأن مفرداتها موصوفة بصفات الحسن، وحسن البيان من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام ولا يشكل عليه شيء منه، والتمكين؛ لأن الفاصلة مستقرة في محلها مطمئنة في مكانها، والانسجام. «روح المعاني» (١٢/ ٦٧، ٦٨) باختصار.

منك بحسب الصورة، فمن لا صلاح له لا نجاة له وهذا سرّ إيثار ﴿غَيْرُ صَٰلِحٍۖ﴾ على «عمل فاسد».

وقد قرأ يعقوب والكسائي: «عَمِلَ» بلفظ الماضي والباقون بلفظ المصدر بجعله نفس العمل مبالغة كما بيَّنا.

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾؛ أي: لا تلتمس مني ملتمساً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب.

﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ أي: أنهاك أن تكون منهم بسؤالك إياي ما لم تعلم وقد تنبَّه عليه السلام عند ذلك التأدُّب الإلهي والعتاب الربَّاني وتعوذ بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1] [هود: ٤٧].

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٨]:

قال الزمخشري: المعنى: أن السَّلام منَّا والبركات عليك وعلى أُمم مؤمنين ينشئون ممن معك، وممن معك أمم ممتَّعون بالدنيا منقلبون إلى النَّار، وكان نوحٌ عليه السلام أبا الأنبياء، والخلق بعد الطوفان منه وممن كان معه في السفينة[2].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال الأستاذ سيد قطب** رحمه الله: إن الوشيجة التي يتجمَّع عليها النَّاسُ في هذا الدِّين وشيجة فريدة تتميَّز بها طبيعة هذا الدِّين وتتعلَّق بآفاقٍ وآماد وأبعادٍ وأهدافٍ يختصُّ بها ذلك المنهج الرَّباني الكريم.

إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدَّم والنَّسب، وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة، وليست وشيجة اللون واللغة،

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ١٣٢، ١٣٣) باختصار.

(٢) «الكشاف» (٢/ ٤٠١).

وليست وشيجة الجنس والعنصر، وليست وشيجة الحرفة والطبقة، إن هذه الوشائج جميعاً قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد، كما قال ﷻ لعبده نوح ﷺ، وهو يقول: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ثم بيَّن له لماذا يكون ابنه ليس من أهله.. ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فأنت تحسب أنه من أهلك، ولكن هذا الحسبان خاطئ، أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك ولو كان هو ابنك من صلبك[1].

﴿٢﴾ **وقال** ﷺ: ثم نقفُ الوقفة الأخيرة مع قصة نوح لنرى قيمة الحفنة المؤمنة في ميزان الله سبحانه.

إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح ﷺ تذكر بعضُ الروايات أنهم اثنا عشر هم كانوا حصيلة دعوة نوحٍ في ألف سنة إلا خمسين عاماً، كما يقرر المصدرُ الوحيد المستيقن الصحيحُ في هذا الشأن.

إن هذه الحفنة ـ وهي ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل ـ قد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون، وأن يجري لها ذلك الطوفان الذي يغمر كل شيءٍ، وكل حي في المعمور وقتها من الأرض، وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هي وارثة الأرض بعد ذلك، وبذرة العمران فيها، والاستخلاف من جديد[2].

﴿٣﴾ **قال القاسمي**: قال بعضهم «في تقرير عموم الطوفان مبرهناً عليه»: إن مياه الطوفان قد تركت آثاراً عجيبة في طبقات الأرض الظاهرة، فيشاهد في أماكن رواسب بحرية ممتزجة بالأصداف، حتى في قمم الجبال، ويرى في السهول والمفاوز بقايا حيوانية ونباتية مختلطة بمواد بحرية بعضها ظاهر على سطحها وبعضها مدفون على مقربة منه، واكتشف في الكهوف عظام حيوانية متخالفة الطباع، بعيدة الائتلاف، معها بقايا آلات صناعية وآثار بشرية، مما يثبت أن طوفاناً قادها إلى ذلك المكان، وجمعها قسراً فأبادها فتغلغلت بين

---

(١) «في ظلال القرآن» (٤/ ١٨٨٦).

(٢) «في ظلال القرآن» (٤/ ١٨٩٢) باختصار.

طبقات الطِّين، فتحجَّرت وظلَّت شاهدة على ما كان بأمر الخالق تعالى. انتهى[1].

﴿٤﴾ **قال العلامة السعدي**: ينبغي الاستعانة بالله وأن يذكر اسمه عند الركوب والنزول وفي جميع التَّقلُّبات والحركات، وحمد الله والإكثار من ذكره عند النعم لا سيما النجاة من الكربات والمشقَّات، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ وقال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ وأنه أيضاً ينبغي الدعاء بالبركة في نزول المنازل العارضة كالمنازل في إقامات السفر وغيره، والمنازل المستقرة كالمساكن والدُّور لقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وفي ذلك كله من استصحاب ذكر الله، ومن القوة على الحركات والسكنات، ومن قوة الثقة بالله ومن نزول بركة الله التي خير ما صحبت العبد في أحواله كلها، ما لا غنى للعبد عنه طرفة عين.

﴿٥﴾ **ومما يستفاد من قصة نوح**: أن النَّجاةَ من العقوبات العامَّة الدنيويَّة هي للمؤمنين وهم الرسل وأتباعهم، وأما العقوبات الدنيويَّة العامَّة فإنها تختص بالمجرمين ويتبعهم توابعهم من ذرية وحيوان وإن لم يكن لها ذنوب؛ لأن الوقائع التي أوقع الله بأصناف المكذبين شملت الأطفال والبهائم، وأما ما يذكر في بعض الإسرائيليات أن قوم نوح أو غيرهم لما أراد الله إهلاكهم أعقم الأرحام حتى لا يتبعهم في العقوبة أطفالهم، فهذا ليس له أصل وهو مناف للأمر المعلوم، وذلك مصداق لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥][2].

﴿٦﴾ **قال العلامة محمد رشيد رضا**: إن الله تعالى يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم لا بأنسابهم، ولا يحابي أحداً منهم لأجل آبائه وأجداده الصالحين وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين، وإن من سأله من هؤلاء الآباء ما يخالف سننه في شرعه وحكمته في نظام خلقه؛ كان مذنباً

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ١٣٥).

(٢) «تفسير اللطيف المنان» (١١١، ١١٢) بتصرُّف.

يستحق التأديب حتى يتوب وينيب[١].

{٧} **قال القرطبي في هذه الآية:** فقال: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين، وفيها أيضاً دليل على أن الابن من الأهل لغةً وشرعاً ومن أهل البيت. فمن وصى لأهله دَخَل في ذلك ابنه، ومن تضمنه منزله وهو في عياله، وقال تعالى في آية أخـــرى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ فسمى جميع من ضمنه منزله من أهله[٢].

---

(١) «تفسير المنار» (١٢/ ٨٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٣٢٧٥) بتصرُّف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة إبراهيم

خليل الرحمن عليه السلام

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

فضائل إبراهيم عليه السلام(١)

{١} ثناء الله عليه:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢٣].

وقوله: ﴿أُمَّةً﴾؛ أي: قدوة وإماماً كقوله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال القاسمي: أو كان وحده أمةً من الأمم لاستجماعه كمالات لا توجد في غيره(٢).

﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾؛ أي: خاشعاً مطيعاً له قائماً بما أمره.

﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلاً عن كل دين باطلٍ إلى الدين الحق.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾؛ أي: قائماً بشكر نِعم الله عليه.

﴿ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ أي: من الذكر الجميل كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الصافات: ١٠٨، ١٠٩].

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: الذين لهم الدرجات العالية في الجنة.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ بيان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم ﷺ من

---

(١) قال الحافظ: إبراهيم بالسريانية معناه: أب راحم. «فتح الباري» (٦/ ٣٨٩).

(٢) «تفسير القاسمي» (٦/ ١٧٤).

الكرامة وأجل ما أوتي من النعمة اتباع رسول الله ﷺ ملته، أفاده الزمخشري.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾ [آل عمران: ٦٧].

قال ابن كثير رحمه الله: فبين أنه كان على دين الله الحنيف، وهو القصد إلى الإخلاص، والانحراف عمداً عن الباطل إلى الحق، الذي هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۝٣٧﴾ [النجم: ٣٧] قالوا: في جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه.

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۝١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال القرطبي: اختلف العلماء في المراد بالكلمات على أقوال: أحدها شرائع الإسلام، وقال بعضهم: بالأمر والنهي، وقال بعضهم: بذبح ابنه، وقال بعضهم: بأداء الرسالة. قال: والمعنى متقارب[(٢)].

وقال ابن كثير رحمه الله: لما وفى ما أمره به ربه من التكاليف العظيمة؛ جعله للناس إماماً يقتدون به ويأتمون بهديه، وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه، وباقية في نسبه، وخالدة في عقبه، فأجيب إلى ما سأل ورام، وسُلِّمَت إليه الإمامة بزمام، واختص من نيلها الظالمون، واختص بها من ذرية العلماء العاملون[(٣)].

﴿٢﴾ هو أحد أولي العزم من الرسل المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتي الأحزاب والشورى:

قال ابن كثير ما ملخصه: ثم هو أشرف أولي العزم بعد محمد ﷺ، وهو الذي وجده عليه السلام في السماء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم[(٤)].

---

(١) «قصص الأنبياء» (١٧٧).

(٢) «تفسير القرطبي» (١/ ٤٨٤) باختصار.

(٣) «قصص الأنبياء» (١٧٤).

(٤) السابق (١٨١) باختصار.

وكذلك حديث أُبيّ بن كعب: **«وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليّ الخلق كلهم حتى إبراهيم»**(١).

ولما كان إبراهيم أفضل أولي العزم من الرسل بعد محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أمر المصلي أن يقول في تشهده ما ثبت في «الصحيحين» من حديث كعب بن عجرة وغيره قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك؟ قال: **«قولوا: اللهم صل على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمدٍ وعلى آل محمدٍ كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»**(٢).

ثم هو ﷺ أشبه الأنبياء بنبينا ﷺ كما في «صحيح البخاري»: **«أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم»**(٣)؛ يعني: نفسه ﷺ.

﴿٣﴾ ومن فضائله ﷺ أنه خليل الرحمٰن وقد شاركه في ذلك نبينا ﷺ:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

والخلة هي غاية المحبة، وقد قال النبي ﷺ: **«أيها الناس لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكرٍ خليلاً، ولكن أخوة الإسلام»**(٤).

﴿٤﴾ ومن فضائله ﷺ أن الله ﷻ جعل في ذريته النبوة والكتاب:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾

(١) رواه مسلم (٦/ ١٠٢، ١٠٣) «صلاة المسافرين»، وأحمد (٥/ ١٢٩).
(٢) رواه البخاري (١١/ ١٥٢) «الدعوات»، ومسلم (٤/ ١٢٦) «الصلاة»، والترمذي (٢/ ٢٦٨) «الصلاة»، وأبو داود (٩٦٣) «الصلاة»، والنسائي (٣/ ٤٧) «السهو».
(٣) تقدم تخريجه في المقدمة (ص٢٨).
(٤) رواه البخاري (٧/ ١٢) «فضائل الصحابة»، ومسلم (١٥/ ١٥٠، ١٥١) الفضائل.

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٦].

وجمع في هذه الفضيلة بين نوح وإبراهيم فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦].

قال ابن كثير رحمه الله: فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته، وهذه خلعة سَنية لا تضاهى ومرتبة علية لا تباهى، وذلك أنه ولد لصلبه ولدان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة، وولد له يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم، فكانت فيهم النبوة، وكثروا جداً بحيث لم يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة حتى ختموا بعيسى ابن مريم من بني إسرائيل.

وأما إسماعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها، ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم، وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة: محمد بن عبد الله. فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة، والعبرة الزاهرة، وواسطة العقد الفاخرة[1].

{٥} ومن فضائله ﷺ أنه أول من يكسى يوم القيامة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً**» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ «**وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم**»[2].

قال الحافظ: يقال: إن الحكمة في خصوصية إبراهيم بذلك لكونه ألقي في النار عرياناً، وقيل: لأنه أول من لبس السراويل، ولا يلزم من خصوصيته عليه السلام بذلك تفضيله على نبينا محمد ﷺ؛ لأن المفضول قد يمتاز

---

(١) باختصار من «قصص الأنبياء» (١٧٥).

(٢) رواه البخاري (٦/٣٨٦) «الأنبياء»، ومسلم (١٨/١٩٣، ١٩٤) «فناء الدنيا، وبيان الحشر يوم القيامة»، والترمذي (٢٥٦٩) «أبواب صفة القيامة»، والنسائي (٤/١١٤) «الجنائز».

بشيء يخص به ولا يلزم منه الفضيلة المطلقة... إلى أن قال: وقد ثبت لإبراهيم عليه السلام أوليات أخرى كثيرة: منها أول من ضاف الضيف، وقص الشارب، واختتن، ورأى الشيب، وغير ذلك(١).

{٦} ومن فضائله ﷺ أنه لم يكذب إلا ثلاث كذبات ثنتين منهُنَّ في ذات الله:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات**»(٢).

قال الحافظ: وقد أورد على هذا الحصر ما رواه مسلم من حديث أبي زرعة عن أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل فقال في قصة إبراهيم وذكر كذباته ثم ساقه من طريق أخرى من هذا الوجه وقال في آخره: وزاد في قصة إبراهيم. وذكر قوله في الكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، وقوله لآلهتهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. انتهى.

قال القرطبي: ذكر الكوكب يقتضي أنها أربع، وقد جاء في رواية ابن سيرين بصيغة الحصر، فيحتاج في ذكر الكوكب إلى تأويل.

قلت: والذي يظهر أنها وهم من بعض الرواة فإنه ذكر قوله في الكوكب

---

(١) باختصار من «فتح الباري» (٦/ ٣٩٠).

(٢) رواه البخاري (٦/ ٣٨٨) «الأنبياء».

والعجيب من صاحب «الظلال» رحمه الله يقول: «فلا داعي لتسمية هذه كذبة من إبراهيم عليه السلام والبحث عن تعليلها بشتى العلل التي اختلف عليها المفسرون» (٤/ ٢٣٨٧) دار العلم للطباعة. فكيف لا داعي لتسميتها كذبة، وقد سماها النبي ﷺ كذبة وقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: ثنتين منهن في ذات الله عز وجل، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾.

وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني...» الحديث رواه البخاري (٦/ ٣٨٨) «الأنبياء»، ومسلم (١٥/ ١٢٣) «الفضائل».

بدل قوله في سارة، والذي اتفقت عليه الطرق ذكر سارة دون الكوكب، وكأنه لم يعد مع أنه أدخل من ذكر سارة لما نقل أنه قاله في حال الطفولية فلم يعدها لأن حال الطفولية ليست بحال تكليف، وهذه طريقة ابن إسحاق. وقيل: إنما قال ذلك بعد البلوغ لكنه قاله على طريق الاستفهام الذي يقصد به التوبيخ.

وقيل: قاله على طريق الاحتجاج على قومه تنبيهاً على أن الذي يتغير لا يصلح للربوبية، وهذا قول الأكثر أنه قاله توبيخاً لقومه؛ أو تهكماً بهم وهو المعتمد؛ ولهذا لم يعد ذلك في الكذبات. وإما إطلاق الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولاً يعتقده السامع كذباً، لكنه إذا حقق لم يكن كذباً؛ لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين فليس بكذب محض.

وقال ابن عَقِيل: دلالة العقل تصرف ظاهر إطلاق الكذب على إبراهيم؛ وذلك أن العقل قطع بأن الرسول ينبغي أن يكون موثوقاً به ليعلم صدق ما جاء به عن الله، ولا ثقة مع تجويز الكذب عليه، فكيف مع وجود الكذب منه، وإنما أطلق عليه ذلك لكونه بصورة الكذب عند السامع، وعلى تقديره فلم يصدر ذلك من إبراهيم عليه السلام ـ يعني: إطلاق الكذب على ذلك ـ إلا في حال شدة الخوف لعلو مقامه، وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعاً لأعظمهما، وأما تسميتها كذبات فلا يريد أنها تذم، فإن الكذب وإن كان قبيحاً مخلاً لكنه قد يحسن في مواضع وهذا منها(١).

وقال النووي: وقد اتفق الفقهاء على أنه لو جاء ظالم يطلب إنساناً مختفياً ليقتله، أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها غصباً، وسأل عن ذلك، وجب على من علم ذلك إخفاؤه وإنكار العلم به، وهذا كذب جائز بل واجب، لكونه في دفع الظالم، فنبه النبي ﷺ على أن هذه الكذبات ليست داخلة في مطلق الكذب المذموم(٢).

---

(١) باختصار من «الفتح» (٦/ ٣٩١، ٣٩٢).

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٥/ ١٢٤).

{٧} ومن فضائله ﷺ:

ما رواه أنس بن مالك: قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك إبراهيم**»(١).

قال النووي رحمه الله: وإنما قال ﷺ هذا تواضعاً واحتراماً لإبراهيم ﷺ لخلته وأبوّته وإلا فنبينا ﷺ أفضل كما قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم**» ولم يقصد به الافتخار ولا التطاول على من تقدمه، بل قاله بياناً لما أمر ببيانه وتبليغه، ولهذا قال ﷺ: «**ولا فخر**»؛ لينفي ما قد يتطرق إلى بعض الأفهام السخيفة. وقيل: يحتمل أنه ﷺ قال: «**إبراهيم خير البرية**»، قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم(٢).

{٨} ومن فضائله أن الله ﷻ رفعه بالعلم واليقين وقوة الحجج:

قال جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ [الأنعام: ٨٣].

ومن شوقه إلى الوصول إلى غاية العلم ونهايته أنه سأل ربه فقال: ﴿أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٦٠﴾ [البقرة: ٢٦٠](٣).

{٩} ومن فضائله أن الله ﷻ أوجب علينا اتباع ملته ولزوم طريقته:

قال العلامة عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله: ليعلم أن جميع ما قصّه الله علينا من سيرة إبراهيم الخليل ﷺ فإننا مأمورون به أمراً خاصاً قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ أي: الزموها ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [النحل: ١٢٣].

---

(١) رواه مسلم (١٥/ ١٢١) «الفضائل».

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٥/ ١٢٣).

(٣) «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» للعلامة السعدي (١٢٢) بتصرف.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ﴾ الآيـــة [الممتحنة: ٤][١].

وهذا عدا قوله لأبيه الكافر: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي: فلا تقتدوا به في هذه الحال بالاستغفار للمشركين، فإن استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه[٢].

{١٠} ومن فضائله ﷺ أن الله ﷻ اصطفاه هو وولده إسماعيل لبناء البيت العتيق، واستجاب الله ﷻ دعاءه وحقق في أمة المصطفى ﷺ رجاءه:

قـــال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

ولـم يـجـئ في خبر صـحـيح عن معـصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم.

وقـد قـال الله تـعـالـى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦]؛ أي: أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى البيت الذي ببكة.

وقيل: محل الكعبة ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ أي: على أنه بناء الخليل والد الأنبياء من بعده، وإمام الحنفاء من ولده، الذين يقتدون به، ويتمسكون بسنته، ولهذا قال: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: الحجر الذي كان يقف عليه قائماً لما ارتفع البناء عن قامته، فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لمَّا تعالى البناء وعظم الفناء، والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع في وادٍ غير ذي زرع ودعا لأهلها بالبركة وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة

---

(١) «تيسير اللطيف المنان» للعلامة السعدي (١٢٢).
(٢) «تيسير اللطيف المنان» للعلامة السعدي (١٢٢).

المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار، وأن يجعله حرماً محرماً وآمناً محتماً، فاستجاب الله له ـ وله الحمد ـ مسألته ولبّى دعوته وآتاه طِلْبته فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً منهم أي: من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية بسعادة الأولى والآخرة. وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولاً وأي رسول، ختم به أنبياءه ورسله وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحداً قبله[1].

(١) باختصار من «قصص الأنبياء» للحافظ ابن كثير (١٦٩ ـ ١٧٢).

١ ـ دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه

بدأ الخليل عليه السلام دعوته إلى الله عز وجل بدعوة أبيه لأنه أقرب الناس إليه وأولى الناس بما عنده من خير، وهذا ما فعله رسولنا ﷺ وقد نزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وكان في دعوته إياه مراعياً آداب النصيحة، وحسن الأدب مع الكبير، قوي الحجة، صابراً محتسباً كل أذى يلقاه في سبيل تبليغ دعوته، فليتأس الدعاة بذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: ٤١، ٤٢].

قال أبو السعود: ولقد سلك عليه السلام في دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل، واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل، لئلا يركب متن المكابرة والعناد، ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد(١).

فإذا كان المعبود لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن عابده شيئاً فما الفائدة من عبادته؟! وهو أنقص وأعجز ممن عبده! وهذا من أقوى الأدلة على بطلان هذه العبادة، ثم لما فند عبادته وسعيه كأنه قال: وكيف الطريق إذاً؟

فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ٤٣].

قال الزمخشري: ثنّى عليه السلام بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً، فلم يَسِمْ أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم، وشيئاً منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السِّوي، فلا تستنكف، وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني

(١) نقلاً عن «محاسن التأويل» (٧/ ١٢٨، ١٢٩).

أنجك من أن تضل وتتيه[١].

ثم قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤﴾ [مريم: ٤٤].

قال القاسمي: ثلّث عليه السلام بتثبيطه ونهيه عما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلب لضرر عظيم فإنه في الحقيقة عبادة الشيطان[٢].

ثم قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾ [مريم: ٤٥].

قال الزمخشري: ربَّع عليه السلام بتخويفه سوء العاقبة، وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال، ولم يخل ذلك من حسن الأدب؛ حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له، وأن العذاب لاصق به، ولكنه قال: ﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ﴾ فذكر الخوف والمس ونكّر العذاب وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب، وصدّر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ توسلاً إليه واستعطافاً[٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾ [مريم: ٤٦، ٤٧].

قال الشنقيطي رحمه الله: بيّن الله جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين: أن إبراهيم لما نصح أباه النصيحة المذكورة مع ما فيها من الرفق واللين وإيضاح الحق والتحذير من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، ومن عذاب الله تعالى وولاية الشيطان، خاطبه هذا الخطاب العنيف وسماه باسمه، ولم يقل له «يا بني» في مقابلة قوله له: «يا أبتِ»، وأنكر عليه أنه راغب عن عبادة الأوثان؛ أي: معرض عنها لا يريدها؛ لأنه لا يعبد إلا الله وحده جل وعلا، وهدده بأنه إن

(١) «الكشاف» (٣/ ١٩).
(٢) «محاسن التأويل» (٧/ ١٣٠) باختصار.
(٣) «الكشاف» (٣/ ٢٠).

لم ينته عما يقوله له ليرجمنه قيل: بالحجارة، وقيل: باللسان شتماً، والأول أظهر، ثم أمره بهجره ملياً؛ أي: زماناً طويلاً، ثم بيّن أن إبراهيم قابل أيضاً جوابه العنيف بغاية الرفق واللين، في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾[1].

وقال ابن كثير رحمه الله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ أي: لا يصلك مني مكروه، ولا ينالك مني أذى، بل أنت سالم من ناحيتي، وزاده خيراً فقال: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ قال ابن عباس وغيره: أي لطيفاً، وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده في أدعيته فلما تبين له أنه عدوٌ لله تبرأ منه[2].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يلقى إبراهيمُ أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ وغَبَرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، يقول إبراهيمُ: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرَّمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك، فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**»[3].

قوله: «**بذيخ**» والذيخ: ذَكَر الضبع.

قال الحافظ: قيل: الحكمة في مسخه لتنفر نفس إبراهيم، ولئلا يبقى في النار على صورته فيكون فيه غضاضة على إبراهيم.

وقيل الحكمة في مسخه ضبعاً: أن الضبع من أحمق الحيوان، وآزر كان من أحمق البشر؛ لأنه بعد أن ظهر له من ولده من الآيات البينات أصر على الكفر حتى مات، ولأن إبراهيم بالغ في الخضوع له وخفض الجناح فأبى واستكبر وأصر على الكفر، فعومل بصفة الذل يوم القيامة[4].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٢٨٧).
(٢) «قصص الأنبياء» (١٣١).
(٣) رواه البخاري (٦/ ٣٨٧) «الأنبياء».
(٤) باختصار من «فتح الباري» (٨/ ٥٠٠).

❁ **الفوائد والآثار الإيمانية:**

{١} البداية في الدعوة بالأقربين.

{٢} التلطف لهم في الدعوة وخفض الجناح وخاصة مع كبارهم سناً ومقاماً.

{٣} يتحمل من الأذى مع الأقارب ما لا يتحمل من غيرهم، وذلك لمزيد حقهم والشفقة عليهم، ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه.

{٤} مقابلة الإساءة بالإحسان مما ينبغي أن يتسلح به الداعية الراشد فلا يستعمل من الكلام إلا ما طاب وحسن كما قال إبراهيم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ وزاده إحساناً ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾.

{٥} إبراهيم الخليل لم ينفع أباه يوم القيامة ولم ينقذه من النار فوجب على كل عبد أن يشتري نفسه من الله ﷻ وأن يعمل من الأعمال الصالحة ما يكون سبباً في دخوله جنة الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ [المؤمنون: ١٠١].

❦ ❦ ❦

٢ ـ دعوته ﷺ لقومه من عبّاد الأصنام

لا شك أن إبراهيم ﷺ من أقوى الأنبياء حجة.

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وهو كذلك سليم القلب كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤].

والداعية إذا كان سليم القلب قوي الحجة فإنه يرجى أن ينفع الله به.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٨٣].

قال الزمخشري: كان إبراهيم ﷺ يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء... إلى أن قال:

لما أجابوه بجواب المقلدين لآبائهم قال لهم: رقوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهي عبادة الأقدمين الأولين من آبائكم فإن التقدم والأولية لا يكون برهاناً على الصحة، والباطل لا ينقلب حقاً بالقدم، وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له، ومعنى العداوة قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨٢]. ولأن المغري على عبادتهم أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان وإنما قال: ﴿عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ تصويراً للمسألة في نفسه على معنى أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو فاجتنبتها وآثرت

عبادة مَنِ الخير كله منه، وأراهم بذلك أنها نصيحة نَصَحَ بها نفسه أولاً، وبنى عليها تدبير أمره لينظروا فيقولوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه أولاً وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه؛ ليكون أدعى لهم إلى القبول وأبْعَثَ على الاستماع منه، ولو قال: فإنه عدو لكم، لم يكن بتلك المثابة، ولأنه دخل في باب من التعريض وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح؛ لأنه يتأمل فيه فربما قاده التأمل إلى التقبل[١].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} التقليد من أعظم المشاكل والعقبات التي تواجه الداعية إلى الله ﷻ.

قال الزمخشري: ما أقبح التقليد! والقول المتقبل بغير برهان! وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى أن قلدوا آباءهم في عبادة التماثيل وعفروا لها جباههم! وهم معتقدون أنهم على شيء وجادون في نصرة مذهبهم ومجادلون لأهل الحق عن باطلهم وكفى أهل التقليد سبةً أن عبدة الأصنام منهم.

{٢} **في قوله**: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ البراءة من الآلهة الباطلة وإعلان الحرب عليها وبالغ إبراهيم ﷺ في البراءة من الشرك والمشركين فقال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤٨].

---

(١) «الكشاف» (٣/ ٣١٨).

٣ ـ مناظرته عليه السلام لقومه من عبّاد الكواكب

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٥ ـ ٧٩].

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا المقام مقام مناظرة لقومه وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية، ولا أن تعبد مع الله عز وجل؛ لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة، تطلع تارة وتأفل أخرى، فتغيب عن هذا العالم، والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

إلى أن قال: والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران فإنهم كانوا يعبدونها، وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب ولما كان صغيراً، كما ذكره ابن إسحاق وغيره وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ولا سيما إذا خالفت الحق(١).

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

ليس قول إبراهيم عليه السلام للكوكب: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على سبيل الشك أو الشرك! فقد نفى الله عز وجل عنه ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

---

(١) «قصص الأنبياء» (١٣٢، ١٣٣).

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: ونفيُ الكونِ الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي فثبت أنه لم يتقدم عليه شرك يوماً ما[1].

(١) «أضواء البيان» (٢/ ١٨٠).

٤ ـ مناظرته عليه السلام للملك الذي ادعى الربوبية

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله: قالوا: الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ للتعجب من هذه المحاجة وغرور صاحبها وغباوته مع الإنكار. وقوله: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ معناه: أن الذي حمله على هذه المحاجة هو إيتاء الله تعالى الملك له فكان منشأ إسرافه في غروره وسبب كبريائه وإعجابه بقدرته ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وكأنه كان قد سأله عن ربه الذي يدعو إلى عبادته وقد كسر الأصنام التي تعبد من دونه وسفَّه أحلام عابديها لأجله، فأجاب بهذا الجواب فأنكره الملك الطاغية الذي حكى عنه ادعاء الألوهية لنفسه و﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ أحيي من أحكم عليه بالإعدام بالعفو عنه وأميت من شئت إماتته بالأمر بقتله، فدل جوابه هذا على أنه لم يفهم قول إبراهيم عليه السلام[1].

قال ابن كثير رحمه الله: ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم، ذكر دليلاً آخر بيَّن وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾؛ أي: هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها، وهو الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب، فإن الذي يحيي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب، بل قد

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٤٦).

قهر كل شيء ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحدٍ أنك لا تقدر على شيء من هذا، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها.

فبيَّن ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ولم يبق له كلام يجيب ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} من فوائد الابتلاء أنه يُذْهِبُ العُجْبَ والكبر، فلو كان هذا الملك الذي حاج إبراهيمَ في ربه فقيراً سقيماً فاقد السمع والبصر ما حاج إبراهيم في ربه، وإنما حاجه في ربه كما قال تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾.

{٢} وفيها نصرة الله لأوليائه وإلهامهم الحجة لدحض أعدائهم.

---

(١) «قصص الأنبياء» (١٤٣) ونقله عنه صاحب «معارج القبول» بأطول من هذا (١/ ٦٤).

من مواقف الإيمان

١ ـ قصة تكسير الأصنام وإلقاء الخليل في النيران

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا
عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ
أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا
كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ
هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾
قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ
﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٧٠].

أهل الإيمان ليس لهم قضية تشغل قلوبهم وجوارحهم إلا قضية التوحيد، فهم يسعون دائماً لتكون كلمة الله هي العليا، وإن اختلفت طرقهم ومناهجهم في الإصلاح، ولكن الجميع يسعى لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فهم لا يسعون للدنيا ولا للجاه والسلطان وجمع الأموال، فهم يعبّدون قلوبهم وجوارحهم لله ﷻ، ويحبون من الناس أن يعبّدوا قلوبهم وجوارحهم لله ﷻ، وأن يخضع الجميع لله ويتحاكم إلى شرعه، ومعنى ذلك

أن تتكسر كل الأصنام التي تعبد من دون الله وأن يتحرر العباد من الطاعة العمياء لغير دين الله كما قال ربعي بن عامر ﷺ عندما دخل على رستم: إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

وأعداء الله ﷻ لهم أهداف شتى، فهم يريدون أن يحافظوا على جاههم وسلطانهم وخضوع الناس لهم، وما يدر عليهم الجاه والسلطان من منافع دنيوية وشهواتٍ دَنِيَّةٍ. ومن هنا ينشأ الصراع بين الحق والباطل وبين أهل الإيمان وأهل الطغيان لأن ظهور أهل الإيمان فيه انتباه الناس من غفلتهم ومطالبتهم لحكم الله ﷻ، وفي ذلك زوال جاه أعداء الله وسلطانهم على الناس، لذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨] فلا يمكن أن يلتقي أهل الحق وأهل الباطل لأن ما يهدف إليه أحدهما فيه ضياع الآخر، وهذه حلقة من حلقات هذا الصراع، وجولة من جولات الحق والباطل، وقضية من قضايا الإيمان تزيد أهل الإيمان إيماناً، وتبشر أهل الطغيان بالخيبة والخسران. وتحطمت آلهةُ الكفار وكسِّرت أصنامهم فأخذتهم الحسرة عليها، وهددوا وتوعدوا فقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قد ضربت الجاهلية في أوثانها وحطمت الآلهة التي يدعونها من دون الله ويرجونها من دونه، ودلت تحريات القوم وتقاريرهم على أن المتهم بذلك فتى يقال له: إبراهيم، ودلائل هذه التهمة أنهم قد سمعوه وهو يعلن عداوته لكل ما يعبد من دون الله، فهو الذي كان يقول: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٧٧ ـ ٨٢].

وهو كذلك الذي تهدد وتوعد فقال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٧].

قضيةٌ لم يُتهم فيها إلا رجل واحد رغم خسارة الكفار الفادحة، ولكنه إبراهيم الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] وصدرت الأوامر من طاغية هذا الزمان بالقبض عليه وإحضاره إلى المحكمة، وليس له

جريمة إلا التوحيد، طالما أعلن دعوة التوحيد، ولكنه في هذه المرة أعلن التوحيد بيده، وكسر آلهة القوم، وضرب الوثنية في جبهتها ضربة قوية، وكانت المحكمة محكمة طاغوتية لا تحكم بشرع الله ولكنها تحكم بحكم الطواغيت، وتتلقى أوامرها من ملك طغى وبغى وادعى الربوبية، وحمله طغيانه وغروره على أن قال: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ووجهت التهمة إلى نبي الله إبراهيم ولو أنصفوا عقولهم لاستحيوا منها ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ سبحان الله! أي آلهة هذه التي لا تنفع نفسها ولا تدفع عن نفسها؟! فهي أضعف وأعجز من أن تقوم بنفسها فضلاً على أن تقيم غيرها أو تنفعه أو تضره.

والتهمة موجهة لإبراهيم ﷺ الذي مدحه الله ﷻ بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾ [الأنعام: ٨٣]، مع أن التهمة في ذاتها باطلة عند ذوي العقول فقد زادهم إبراهيم ﷺ اضطراباً وشكاً فيما هم عليه من الباطل فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ وإنما أراد إبراهيم ﷺ أن يعترفوا بنقص هذه الآلهة والاعتراف بأنها لا تنطق ولا تنفع ولا تضر ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

أفاق الناس من سكرتهم وانتبهوا من غفلتهم أمام هذه الحجة التي ألقى بها إبراهيم ﷺ، سبحان الله! كلمة حق زلزلت صفوفهم ورجعوا على أنفسهم بالملامة والإنكار، إذا كان هؤلاء لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون لماذا نعبدهم من دون الله؟!

قال الزمخشري: فلما ألقمهم الحجر وأخذ بمخانقهم رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: أنتم الظالمون على الحقيقة لا من ظلمتموه حين قلتم: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ثم غلبت على القوم شقوتهم، وأخذتهم الحمية بالباطل لآلهتهم الباطلة فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾، وهذا ما أراد الخليلُ منهم أن يعترفوا به بقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ عند ذلك ألقمهم حجراً ثانياً

(١) «تفسير الكشاف» (٣/ ١٢٥).

وأدلى لهم بالحجة الدامغة فقال: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ فالإله المعبود لا بد أن يكون قادراً على جلب النفع لعابديه ودفع الضر عنهم وإلا فهو إله باطل غير مستحق للعبادة قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧].

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨]:

ولما انتصر عليهم بالحجة والبيان، وغلبوا في هذا الميدان، فروا منه إلى ميدان البطش والتنكيل، وهكذا كل مبطل لا يقوى أمام أدلة الحق فإنه يلجأ إلى المصارعة بالقوة المادية والبطش.

فصدر الأمر من المحكمة الطاغوتية بإيقاع أقسى عقوبة بإبراهيم عليه السلام نصراً للباطل وغيرةً له ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وكان الحكم الظالم حكماً بالإعدام حرقاً.

يقول ابن كثير رحمه الله: وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن، فمكثوا مدة يجمعون له حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم(١).

ومما ثبت من مقالة الخليل في هذا الموقف الجليل ما رواه ابن عباس أنه قال: حَسْبُنَا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد حين قيل له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤](٢).

بذل نفسه لله عز وجل وأحسن توكله بالله وعلق قلبه به والله عز وجل يقول: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦] ويقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] فأتى المخرج والفرج العظيم من هذا الكرب المبين ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾. سبحان من أخرج هذا السيد من آزر، ثم أعانه بالتوفيق فقصد وآزر، ثم بعث إليه البيان فأعان ووازر، فلما

---

(١) «قصص الأنبياء» (١٣٩).

(٢) رواه البخاري (٨/ ٢٢٩) «التفسير».

رآه الله قد رحل عن المخلوقين ولم يتزود إلا التسليم: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾، عَبْدٌ بذل نفسه لله فبلغه منه مناه، ولما رُمي في النار لأجل الله قال بلسان التفهيم: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

قدم ماله إلى الضيفان، وسلم ولده إلى القربان واستسلم للرمي في النيران، فلما رآه الله مُحباً في بيداء الوجد يهيم: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾.

ابتلاه الله بكلمات فأتمهن، وأراه قدرته يوم ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ وكسر الأصنام غيرة له منهن، فلما أججت النيران أذهب حرارتهن وغرس شجرة الجنة في سواء الجحيم ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فاتَّضعوا، وأرادوا أن يغلبوا فغُلبوا، قال الله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨] ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً، بل هي كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٦][٢].

روى البخاري بسنده عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوَزَغِ وقال: «**كان ينفخ على إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ»[٣].

❀ دروس وفوائد إيمانية:

{١} أهل الحق وإن كانوا قليلاً فهم أقوى من أهل الباطل ولو كثر عددهم وتنوعت عُدَدُهم؛ لأن الله ناصرهم ومعينهم وملهمهم رشدهم.

---

(١) «التبصرة» (١/ ١١٦، ١١٧) بتصرف واختصار.
(٢) «قصص الأنبياء» (١٤٠).
(٣) رواه البخاري (٦/ ٣٨٩) «أحاديث الأنبياء».
وروى أحمد عن سائبة مولاة للفاكهة بن المغيرة قالت: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحاً موضوعاً فقلت: يا أم المؤمنين ما تصنعون بهذا الرمح؟ قالت: هو لهذه الأوزاغ نقتلهن به فإن رسول الله ﷺ حدثنا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقي في النار لم تكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار عنه غير الوزغ كان ينفخ عليه فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله. «المسند» (٦/ ٨٣).

{٢} من اعتصم بالله ﷻ واحتمى بجنابه وأحسن التوكل عليه لا يضيعه الله ﷻ وفيه فضل ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

{٣} اعتياد قلوب أهل الباطل على الباطل وإلفهم الشرك يجعل قلوبهم لا تستقبح القبيح ولا تنكر المنكر، فهم مع اعتقادهم أن آلهتهم لا تنطق ولا تنفع ولا تضر يصرون على الانتصار لها، والانتقام ممن هدمها، مع أنه قطع حجتهم وأظهر سفاهة عقولهم.

{٤} قافلة الإيمان واحدة يتقدمها الأنبياء يربطها محبة الله ﷻ والدعوة إلى توحيده وموالاة الله ورسله والمؤمنين، وأعداء الله ﷻ كذلك هم أعداء أوليائه في كل زمان ومكان، ولذلك أمرنا النبي ﷺ بقتل الوَزَغ (البُرْص) وقال: «**كان ينفخ على إبراهيم**»، وهذا مما يجعل المؤمن يستأنس بجميع المؤمنين من قبله ويحب جميع ملائكة الله ورسله، وذلك لعقد الإيمان ومحبة الرحمٰن، ويعادي جميع أعداء الله ورسله.

{٥} أهل الباطل في شك واضطراب ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

وأهل الحق الذي باشر الإيمان بشاشة قلوبهم أرسخ من الجبال، وذلك لتثبيت الله ﷻ لهم؛ كما قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقوله ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢].

{٦} من الأدلة على أن الأسباب قد تتخلف عن مسبباتها قوله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فطبيعة الإحراق في النار معنى واحد لا يتجزأ إلى معانٍ مختلفة، ومع هذا أحرقت الحطب فصار رماداً من حرها في الوقت الذي هي فيه برد وسلام على إبراهيم، فدل ذلك دلالة قاطعة على أن التأثير حقيقة إنما هو بمشيئة خالق السماوات والأرض، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، وأنه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته جل وعلا. أفاده الشنقيطي رحمه الله[1].

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٢٥٠، ٢٥١) بتصرف يسير.

٢ ـ قصة ذبح إسماعيل عليه السلام

قال الله تعالى حاكياً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات: ٩٩ ـ ١١٠].

ـ هو إبراهيم عليه السلام الذي جاء ربَّه بقلب سليم.

ـ هو إبراهيم عليه السلام الذي ألقي في النار وهو ما يزال فتى وخرج من النار سالماً غانماً لأن الله عز وجل جعل النار برداً وسلاماً عليه.

ـ هو إبراهيم عليه السلام الذي نجاه الله وأهله من الملك الظالم، وقد رد الله كيد الظالم عن أهله وعرضه وأخدم هاجر.

ـ هو إبراهيم عليه السلام الذي هاجر بهاجر معلقاً قلبه بالله عز وجل: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾.

ـ هو إبراهيم الذي دعا الله عز وجل أن يؤنس وحشته فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ فبشّره بغلام حليم ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

ـ هو إبراهيم عليه السلام الذي اصطفاه الله للخلة فقال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ـ هو إبراهيم عليه السلام الذي ترك ولده الرضيع وأمه بوادٍ قفر، لا جليس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع، امتثالاً لأمر الله، ثم توجه إلى الله عز وجل بقوله: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً.

ـ هو إبراهيم عليه السلام قد طعن في السن وصار شيخاً كبيراً، وهذا الولد الحليم صار خير عون له عندما بلغ معه السعي وصار ملء السمع والبصر، يرى الشيخ الكبير أنه يؤمر بذبح ولده وبِكره ووحيده الذي جاء على فاقة، والولد حليم إن لم تتمكن محبته من قلب ولده بعاطفة الأبوة تتمكن المحبة لحلم الولد ونباهته، ولكن الآمر هو الله عز وجل الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، الحكيم الخبير في أمره ونهيه وقضائه وقدره، والمأمور هو إبراهيم الخليل وما ضيعه الله عز وجل في شبابه حتى يضيعه في كبره، وما نال خلة الله إلا بطاعته، إبراهيم عليه السلام يبادر إلى تنفيذ أمر الله عز وجل لأن أوامر الله عز وجل لا تعرض على العقول ولا تخضع للفكر والنظر والقياس بالعقول الناقصة ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وتنفيذ الأمر شديد جداً على النفوس البشرية، فإن العبد قد يبذل نفسه لله عز وجل ويضحي بنفسه ويعلم أنها لحظات، ثم تخرج الروح إلى فاطرها وتتنعم بعد ذلك في جنة الله عز وجل، ولا يذوق الشهيد من ألم القتل إلا كما يذوق من مس القرصة.

أما أن يأخذ سكيناً ويذبح ولده الوحيد الذي صار ملء السمع والبصر وتسيل دماء الولد على يديه وثيابه.

لله هذه النفوس التي تبتلى بمثل هذا البلاء ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وهل استحق إبراهيم الخلة بأمور يشترك فيها مع سائر المؤمنين؟ إبراهيم الذي كسر الأصنام، وألقي في النار، وترك الرضيع وأمه بوادٍ غير ذي زرع ما تخلى الله عز وجل عنه لحظة، ولا ضيّعه في شبابه وفتوته وهو في كل مرة يؤثر مراد الله ويعظم أمره.

وهذا الولد رزقه الله إياه وقد بلغ من الكبر عتياً، فهو محضُ فضل من الله عز وجل، وإن تعجب من أمر الشيخ الكبير الذي شاب في طاعة الله عز وجل وقويت محبته لله عز وجل واستحق من الله تعالى وصف الخلة التي هي أعلى درجات المحبة، فاعجب من شأن الغلام الحليم.

عرض إبراهيم عليه السلام على ولده ما رأى، ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ هل قال الولد الحليم: ما ذنبي؟ وهل فعلت شيئاً أستحق به ذلك؟ هل قال: وهل تطاوعك نفسك أن تذبحني؟ هل قال: كيف تتهنأ بعيشٍ بعد أن تقتلني؟ هل قال: ما جوابك لأمي إذا ذبحتني بيديك؟

وعشرات الأسئلة يمكن أن تقفز إلى قلب الغلام ولسانه ولكنه غلام حليم كما وصفه الله عز وجل، بل كان الجواب في غاية السداد والرشاد، أعان أباه على طاعة الله وتنفيذ أمره وهون عليه مصيبته به بأنّه لن يجزع من ذلك، وسيصبر على ذلك إن شاء الله، وكان صادق الوعد كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مريم: ٥٤].

التسليم والاستسلام لأمر الله عز وجل وهو المطلوب من العباد ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

الواجب على العباد التسليم والخضوع واعتقاد أن الخير كل الخير في طاعة الله، والشر والبلاء في التمرد على أوامر الله عز وجل.

قال الرازي: الحكمة في مشاورة الابن في هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة، ليظهر له صبره في طاعة الله فتكون فيه قرة عين لإبراهيم حين يراه قد بلغ في الحلم إلى هذا الحدِّ العظيم، وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية، ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة، والثناء الحسن.

وقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ أي: على الذبح أو على قضاء الله[١].

ويخطو المشهد خطوة وراء الكلام والحوار إلى التنفيذ ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾.

---

(١) نقلاً عن «محاسن التأويل» (٨/ ١١٨).

قال القاسمي: أي: استسلما وانقادا لأمره تعالى بدون إبطاء، واستل إبراهيم السكين ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾؛ أي: صرعه على شقه فوقع جبينه على الأرض وهو أحد جانبي الجبهة ﴿وَتَلَّهُۥ﴾ أصل معناه: رماه على التل وهو التراب المجتمع[١].

وقال ابن كثير رحمه الله: والمعنى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾؛ أي: ألقاه على وجهه، قيل: أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده في حال ذبحه، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك.

وقيل: بل أضجعه كما تضجع الذبائح، وبقي طرف جبينه لاصقاً بالأرض ﴿أَسْلَمَا﴾؛ أي: سمى إبراهيم وكبر وتشهد الولد للموت.

﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ قال ابن كثير رحمه الله: فعند ذلك نودي من الله عز وجل: ﴿أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ﴾؛ أي: حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ومبادرتك إلى أمر ربك، وبذلت ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران وكما مالك مبذول للضيفان، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾؛ أي: الاختبار ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه. والمشهور عند الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن[٢].

وقال الزمخشري: كان ما كان مما تنطق به الحال ولا يحيط به الوصف من استبشارهما واغتباطهما، وحمدهما لله وشكرهما على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء العظيم بعد طوله، وما اكتسبا في تضاعيفه بتوطين الأنفس عليه من الثواب والأعواض ورضوان الله الذي ليس وراءه مطلوب ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ تعليل لتخويل ما خولهما من الفرج بعد الشدة، والظفر بعد الشدة واليأس[٣].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

(١) السابق (٨/١١٨).
(٢) «قصص الأنبياء» (١٦٠).
(٣) «الكشاف» (٤/٥٥).

❁ **فوائد وثمرات إيمانية:**

{١} **قال القاسمي** رحمه الله: روى المفسرون ههنا في قصة الذبح روايات منكرة لم يصح سندها ولا متنها، بل ولم تحسن فهي معضلة تنتهي إلى السُّدِّي وكعب، والسدي حاله معلوم في ضعف مروياته وكذلك كعب(١).

قال ابن كثير رحمه الله: لما أسلم كعب الأحبار في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديماً فربما استمع له عمر فترخص الناس في استماع ما عنده غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة حاجة إلى حرفٍ واحدٍ مما عنده. انتهى.

قال القاسمي: ولقد صدق رحمه الله، ولذا لا نريد التزيد على أصل ما قصَّ في التنزيل من الضروري له إلا إذا صح سنده أو اطمأن القلب به(٢).

{٢} اختلف العلماء في الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق؟

قال ابن القيم رحمه الله: وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هذا القول إنما هو متلقى من أهل الكتاب؛ مع أنه باطل بنص كتابهم فإن فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه (بكره) وفي لفظ (وحيده) ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غَرَّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي في إيديهم (اذبح ابنك إسحاق) قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم لأنها تناقض قوله: (بكرك) و(وحيدك)، ولكن يهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم ويختاره دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله، وكيف يسوغ أن يقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب فقال تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿لَا

---

(١) تقدم بيان أن «كعباً» رحمه الله اتهم بالكذب وإنما كان ما ينقله من أخبار بني إسرائيل كذب في ذاتها، وما ذكره أحد في الضعفاء والمتروكين. انظر: «المقدمة» (ص٣٣).
(٢) «محاسن التأويل» (٨/ ١٢٠).

تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١] فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ثم يأمر بذبحه، ولا ريب أن يعقوب داخل في البشارة، فتناول البشارة لإسحاق ويعقوب في لفظ واحد[١].

{٣} **قال الشنقيطي** رحمه الله: اعلم أن قصة الذبيح هذه تؤيد أحد القولين المشهورين عند أهل الأصول في حكمة التكليف، هل هي للامتثال فقط أو هي مترددة بين الامتثال والابتلاء؛ لأنه بيَّن في هذه الآية الكريمة أن حكمة تكليفه لإبراهيم بذبحه ولده ليست هي امتثاله ذلك بالفعل؛ لأنه لم يرد ذبحه كوناً وقدراً، وإنما حكمة تكليفه بذلك مجرد الابتلاء والاختبار، هل يصمم على امتثال ذلك أو لا، كما صرح بذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ فتبين بهذا التحقيق أن حكمة التكليف مترددة بين الامتثال والابتلاء[٢].

{٤} **قال السيوطي في «الإكليل»**: في هذه الآية أن رؤيا الأنبياء وحي، وجواز نسخ الفعل قبل التمكن، وتقديم المشيئة في كل قول، واستدل بعضهم بهذه القصة على أن من نذر ذبح ولده لزمه ذبح شاة. ثم قال السيوطي: فسر الذبح العظيم في الأحاديث والآثار بكبش فاستدل به المالكية على أن الغنم في التضحية أفضل من الإبل[٣]. انتهى.

{٥} **قال في «الظلال»**: الله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام، بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه، ولو كان هو الابن فلذة الكبد، ولو كانت هي النفس والحياة، وأنت يا إبراهيم قد فعلت، جدت بكل شيء وبأعز شيء، وجدت به في رضى وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين، فلم يبق إلا اللحم والدم، وهذا ينوب عنه ذبح أي ذبح من

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٧٢)، وانظر كذلك تحقيق المسألة بالتفصيل في: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧، ١٨)، و«قصص الأنبياء» له كذلك (١٦٢ ـ ١٦٤)، و«محاسن التأويل» (١٤/ ١٢١ ـ ١٢٤)، و«أضواء البيان» (٦/ ٦٩١).

(٢) «أضواء البيان» (٦/ ٦٩٣).

(٣) نقلاً عن «محاسن التأويل» (١٤/ ١٢١).

دم ولحم، ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدت، يفديها بذبح عظيم، قيل: إنه كبش وجده إبراهيم مهيأ بفعل ربه وإرادته ليذبحه بدلاً من إسماعيل، ومضت بذلك سُنّة النحر في الأضحى ذكرى لهذا الحادث العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان وجمال الطاعة وعظمة التسليم، والذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم الذي تتبع ملته، والذي ترث نسبه وعقيدته، لتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم عليها ولتعرف أنها الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبية لا تسأل ربها: لماذا؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئاً، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم[1].

{٦} قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

صار إسلام الوجه لله وإخلاص النية له علامة على الملة الإبراهيمية التي هي أحسن الدين وأفضله بل أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يتبع الملة الإبراهيمية ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

{٧} **الله ﷻ لا يستفيد من طاعات عباده شيئاً ولا يتضرر بمعاصيهم،** كما قال ﷻ في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني**»[2] فالله ﷻ لن يستفيد شيئاً من ذبح شيخ كبير لابنه كما أنه لا يستفيد شيئاً من لحوم الهدي والأضاحي كما قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

فمراد الله ﷻ من العباد ومطلوبه منهم تقوى قلوبهم واستسلام جوارحهم لله ﷻ، وها هو ذا إبراهيم عليه السلام استسلم لأمر الله له بذبح ولده، واستسلم إسماعيل عليه السلام للذبح ففدى اللهُ ﷻ الولد بذبح عظيم.

---

(١) باختصار من «في ظلال القرآن» لسيد قطب رحمه الله (٥/ ٢٩٩٦)، دار العلم للطباعة.

(٢) رواه مسلم (١٦/ ١٣٢، ١٣٣) «البر»، وأحمد (٥/ ١٦٠).

{٨} قال الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله في فوائد قصة إبراهيم:

منها: أن من عزم على فعل الطاعات، وبذل مقدوره في أسبابها، ثم حصل مانع يمنع من إكمالها، أن أجره قد وجب على الله، كما قال الله ذلك في المهاجر الذي يموت قبل أن يصل إلى مهاجره، وكما ذكره الله في قصة الذبح وأن الله أتم الأجر لإبراهيم وإسماعيل حين أسلما لله وأذعنا لأمره ثم رفع عنهما المشقة وأوجب لهما الأجر(١).

---

(١) «تيسير اللطيف المنان» (١٢٢).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة
موسى الكليم عليه السلام

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

فضائل موسى عليه السلام

{١} ثناء الله ﷻ عليه:

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥١ ـ ٥٣].

قال ابن كثير رحمه الله: قرأ بعضهم بكسر اللام من الإخلاص في العبادة، وقرأ الآخرون بفتحها بمعنى أنه كان مصطفًى كما قال تعالى: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ جمع الله له بين الوصفين فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه على سائر الأنبياء أجمعين[(١)].

قوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢]:

قال الألوسي: «الطور» جبل بين مصر ومدين، و«الأيمن»: صفة لجانب لقوله تعالى في آية أخرى: ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه: ٨٠]، بالنصب؛ أي: ناديناه من ناحيته اليمنى من اليمين المقابل لليسار، والمراد به يمين موسى عليه السلام، أي الناحية التي تلي يمينه، إذ الجبل نفسه لا ميمنة له ولا ميسرة.

﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ تقريب تشريف، مثَّل حالَه عليه السلام بحال من قرّبه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته ورفع الوسائط بينه وبينه أي: قربناه حال كونه مناجياً[(٢)].

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ٥٣]:

قال ابن كثير: وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً كما قال في

(١) باختصار من «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٢٤).
(٢) «تفسير روح المعاني» (١٦/ ١٠٣، ١٠٤) باختصار.

الآيــة الأخــرى: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٤]، وقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحدٌ في أحدٍ شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً[١].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِي وَبِكَلَـٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤].

قال القرطبي رحمه الله: «الاصطفاء»: الاجتباء؛ أي: فضلتك، ولم يقل: على الخلق؛ لأن من هذا الاصطفاء أنه كلَّمه وقد كلم الملائكة وأرسله وأرسل غيره، فالمراد ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ المرسل إليهم[٢].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يُرى من جلده شيءٌ استحياءً منه، فآذاه مَن آذاه مِن بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التَّستُّر إلا من عيب بجلده: إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه عرياناً أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لنَدْباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فذلك قوله:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩]»[٣].

قال ابن الجوزي: لما كان موسى في خلوة وخرج من الماء فلم يجد ثوبه تبع الحجر بناءً على أنه لا يصادف أحداً وهو عرياناً، فاتفق أنه كان هناك قوم فاجتاز بهم، كما أن جوانب الأنهار وإن خلت غالباً لا يؤمن من وجود

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٢٥) باختصار.
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٢٧١٦) باختصار.
(٣) رواه البخاري (٦/ ١٤٣٦) «أحاديث الأنبياء»، ومسلم (١٥/ ١٢٦) «الفضائل».

قوم قريب منها، فبنى الأمر على أن لا يراه أحد لأجل خلاء المكان، فاتفق رؤية من رآه.

وقال الحافظ: والذي يظهر أنه استمر يتبع الحجر على ما في الخبر حتى وقف على مجلس لبني إسرائيل كان فيهم من قال فيه ما قال، وبهذا تظهر الفائدة، وإلا فلو كان الوقوف على قوم منهم في الجملة لم يقع ذلك الموقع.

وفيه أن الأنبياء في خَلْقهم وخُلُقهم على غاية الكمال، وأن من نسب نبياً من الأنبياء إلى نقص في خلقته فقد آذاه ويخشى على فاعله الكفر، وفيه معجزة ظاهرة لموسى عليه السلام، وفيه ما كان في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الصبر على الجهال واحتمال أذاهم وجعل الله تعالى العاقبة لهم على من آذاهم(١).

قال النووي: وقال القاضي وغيره: إن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم منزهون عن النقائص في الخَلْق والخُلُق، سالمون من العاهات والمعايب، قالوا: ولا التفات إلى ما قاله من لا تحقيق له من أهل التاريخ في إضافة بعض العاهات إلى بعضهم، بل نزَّههم الله تعالى من كل عيب وكل شيء يبغض العيون أو ينفر القلوب(٢).

{٢} ومن فضائله عليه السلام: أن الله عز وجل كلّمه بلا واسطة وأسمعه كلامه:

كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقال عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وأخبر عن كلامه لموسى فقال: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾ [الشعراء: ١٠، ١١].

وفي «الصحيحين» من احتجاج آدم وموسى عند ربهما وفيه قول آدم لموسى: **«أنت موسى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه»**(٣).

---

(١) باختصار من «الفتح» (٤/ ٤٣٧، ٤٣٨).
(٢) باختصار من مسلم بشرح النووي (٥/ ١٢٧).
(٣) رواه البخاري (١٣/ ٤٧٧) «التوحيد»، ومسلم (١٦/ ٢٠٠) «القدر».

{٣} ومن فضائله عليه السلام أن الله عز وجل خطَّ له التوراة بيده:

كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وفي حديث احتجاج آدم وموسى عند ربهما قال آدم: «**أنت موسى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وخط لك التوراة بيده**»(١).

{٤} ومن فضائله عليه السلام:

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**.. لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات والأرض إلا من شاء الله**»، قال: «**ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، أو من أول من بعث، فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث قبلي، ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن مَتَّى**»(٢).

وفي رواية: «**فإذا موسى باطش بجانب العرش**»؛ أي: آخذ بشيء من العرش بقوة.

قال الحافظ: وقد استشكل كون جميع الخلق يصعقون مع أن الموتى لا إحساس لهم، فقيل: المراد أن الذين يصعقون هم الأحياء، وأما الموتى فهم في الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ممن سبق له الموت قبل ذلك فإنه لا يصعق، وإلى هذا جنح القرطبي، ولا يعارضه ما ورد في هذا الحديث أن موسى ممن استثنى الله لأن الأنبياء أحياء عند الله، وإن كانوا في صورة الأموات بالنسبة إلى أهل الدنيا، وقد ثبت ذلك للشهداء، ولا شك أن الأنبياء أرفع رتبة من الشهداء، ووقع التصريح بأن الشهداء ممن استثنى الله(٣).

{٥} ومن فضائله عليه السلام عظم شريعته وكثرة أمته:

قال ابن كثير رحمه الله: وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت شريعة عظيمة، وأمته كانت أمة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء وعباد وزهاد وألِبَّاءُ وملوك

---

(١) رواه البخاري (١٣/ ٤٧٧) «التوحيد»، ومسلم (١٦/ ٢٠٠) «القدر».
(٢) نقدم تخريجه (ص٢٦). (٣) «فتح الباري» (٦/ ٤٤٤).

وأمراء وسادات وكبراء لكنهم كانوا فبادوا وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ومسخوا قردة وخنازير، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم وجرت خطوب وأمور يطول ذكرها[١].

ومن الأدلة على عظم شريعته قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأنعام: ١٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨].

ومن الأدلة على عظم أمته وكثرتها بعد نبينا ﷺ قوله ﷺ: **«عُرِضت عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رُفع لي سواد عظيم، فقلت: هذه أمتي؟ فقيل: هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق، فإذا سواد عظيم، ثم قيل: انظر إلى هذا الجانب، فإذا سواد عظيم، فقيل: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»**[٢].

{٦} ومن فضائله عليه السلام:

ما ورد في أحاديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلي في قبره. وزاد في حديث عيسى: **«مررت ليلة أسرى بي»**[٣].

{٧} ومن فضائله عليه السلام:

ما رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه **في قصة الإسراء وفيه: «ثم عُرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. فَفُتح لنا فإذا أنا بموسى ﷺ فرحَّب ودعا لي بخير»**.

(١) «قصص الأنبياء» (٤٣٢).
(٢) رواه البخاري (١٠/ ٢١١) «الطب»، ومسلم (٣/ ٩٣، ٩٤) «الإيمان»، والترمذي (٩/ ٢٧٤) «صفة القيامة».
(٣) رواه مسلم (١٥/ ١٣٣) «الفضائل».

وفيه أيضاً: «فأوحى الله إليَّ ما أوحىٰ ففرض عَليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت إلى موسى ﷺ فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بَلَوْتُ بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفِّف على أمتي فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً فإن عملها كتبت سيئة واحدة، قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف» فقال رسول الله ﷺ: «قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه»(١).

ففيه شفقة موسى عليه الصلاة والسلام على محمد ﷺ وأمته ونصحه لنبينا صلى الله عليهما وسائر الأنبياء وسلم.

{٨} ومن فضائله عليه السلام:

سفره طلباً للعلم مع علو مرتبته وارتفاع قدره، وفيه كذلك شرف العلم وآداب طلبه وبذل الجهد في تحصيله.

عن ابن عباس رضي الله عنه أنه تمارى هو والحرُّ بن قيس الفزاري في صاحب موسى قال ابن عباس: هو خَضِرٌ، فَمَرَّ بهما أُبيُّ بن كعبٍ فدعاهُ ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لُقِيِّهِ، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما موسى في ملإ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلمَ منك؟ قال: لا. فأوحى الله إلى موسى: بلى عبدنا خَضِرٌ، فسأل موسى السبيل إليه، فجُعِل له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان يتبع الحوت في البحر، فقال لموسى فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى

(١) رواه مسلم (٢/٢١٣، ٢١٤) «الإيمان».

الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره. فقال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصاً فوجدا خضِراً، فكان من شأنهما الذي قصَّ الله في كتابه»(١).

وفيه تواضع موسى عليه السلام مع أنه ولا شك أفضل من الخضر لأنه من أولي العزم من الرسل.

{٩} ومما يدل على فضله عليه السلام:

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قصة وفاته قال: «**أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكَّهُ فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت. قال: ارجع إليه فقل له: يضع يده على متن ثورٍ، فله بما غطَّى يدُهُ بكلِّ شعرةٍ سنة قال: أي رب ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن. قال: فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر**» قال أبو هريرة: فقال رسول الله ﷺ: «**لو كنتُ ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر**»(٢).

وفي رواية عمار ما يشهد لفضله عليه الصلاة والسلام: «**فقال: يا رب عبدك موسى فقأ عيني ولولا كرامته عليك لشققت عليه**».

قال ابن خزيمة: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وقالوا: إنْ كان موسى عرفه فقد استخف به، وإن كان لم يعرفه فكيف لم يقتص له من فقوء عينه؟

والجواب: أن الله لم يبعث ملك الموت لموسى وهو يريد قبض روحه حينئذ وإنما بعثه إليه اختباراً، وإنما لطم موسى ملكَ الموت لأنه رأى آدمياً دخل داره بغير إذنه ولم يعلم أنه ملك الموت، وقد أباح الشارع فقوء عين الناظر في دار المسلم بغير إذن، وقد جاءت الملائكة إلى إبراهيم وإلى لوط في صورة آدميين فلم يعرفاهم، ولو عرفهم إبراهيم ما قدم لهم المأكول! ولو

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤٣١) «أحاديث الأنبياء».

(٢) رواه البخاري (٦/ ٤٤٠، ٤٤١) «أحاديث الأنبياء»، ومسلم (٥/ ١٢٨) «الفضائل».

عرفهم لوط لما خاف عليهم من قومه! وعلى تقدير أن يكون عرفه فمن أين لهذا المبتدع مشروعية القصاص بين الملائكة والبشر؟ ثم من أين له أن ملك الموت طلب القصاص من موسى فلم يقتص له؟

وقال النووي: لا يمتنع أن يأذن الله لموسى في هذه اللطمة امتحاناً للملطوم.

وقال غيره: إنما لطمه لأنه جاء لقبض روحه من قبل أن يخبره، لما ثبت أنه لم يُقبضْ نبيٌّ حتى يخير، فلهذا لما خيره في المرة الثانية أذعن[١].

(١) باختصار من «الفتح» (٦/ ٤٤٢).

قصة ميلاد موسى الكليم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١ ـ ١٣].

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله: لقد كانت قصة موسى عليه السلام تبدأ غالباً في السور الأخرى من حلقة الرسالة لا من حلقة الميلاد ـ حيث يقف الإيمان القوي في وجه الطغيان الباغي ـ ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان في النهاية، فأما هُنَا فليس هذا المعنى هو المقصود، إنما المقصود أن الشرَّ حين يتمحض يحمل سبب هلاكه في ذاته، والبغي حين يتمرد لا يحتاج إلى من يدمغه من البشر، بل تتدخل يد القدرة وتأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم فتنقذهم وتستنقذ عناصر الخير فيهم وتربيهم وتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين.

وقبل أن تبدأ القصة يرسم الجو الذي تدور فيه الأحداث والظروف الذي يجري فيه القصص.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤]:

ولكن الله يريد غير ما يريد فرعون، ويقدر غير ما يقدر الطاغية، والطغاة البغاة تخدعهم قوتهم وسطوتهم وحياتهم فينسون إرادة الله وتقديره، ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يحبون، ويختارون لأعدائهم ما يشاءون، ويظنون أنهم على ذا وذاك قادرون[1].

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: ٥، ٦]:

ولا شك في أن الله ﷻ قادر على أن يمكن لعباده المستضعفين في عشية أو ضحاها، بل في طرفة عين ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، فلا يستعجل أهل الحق موعود الله ﷻ لهم بالنصر والتمكين، فلا بد من مراعاة السنن الشرعية والسنن الكونية، ولا بد من الصبر على دين الله ﷻ: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وتبدأ قصة التمكين وإنفاذ مشيئة الله ﷻ بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ فهذا النبي الذي يعز الله به المستضعفين ويرفع شعار الدِّين ما زال رضيعاً، وقد كان فرعون يقتل الولدان من بني إسرائيل وهذا من غباوته؛ لأنه إذا صدق ما قيل بأن هلاك ملكه على يد واحدٍ منهم فإنْ كان هذا حقاً لا يغني عنه فعله، وإنْ لم يكن حقاً فما الحكمة في أمره بذبح الأولاد ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١].

وقوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي

---

(١) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٦٧٦) بتصرف.

ٱلْيَمِّ﴾[(١)] الله ﷻ لا يكلف نفساً إلا وسعها، وعلى أهل الحق أن يبذلوا جهدهم، وهو إن كان قليلاً فإن الله ﷻ سوف يبارك فيه، وسوف يهيئ من الأسباب التي يمكّن بها للإسلام وأهله؛ فها هو ذا الغلام يقع في يد فرعون ولكنه في حماية الله ﷻ وحفظه.

قال ابن كثير رحمه الله: هذا والقدر يقول: يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه، قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع ولا تخالف أقداره أن هذا المولود الذي تحترز منه وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يحصى ولا يعد، ولا يكون مُرَبَّاه إلا في دارك وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتفداه، ولا تطّلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أُوحي إليه؛ لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوي الشديد ذو البأس العظيم والحول والقوة والمشيئة التي لا مرد لها[(٢)].

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩]:

وفي قول آسية امرأة فرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ فضل الفأل الحسن، وقد نالها ما رجت من النفع: أما في الدنيا فهداها الله به وجعل لها أحسن ثناء في الآخرين بقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١]، فاستعملها الله ﷻ بطاعته وصيرها إلى فسيح جنته.

---

(١) قال القرطبي: واختلف في هذا الوحي إلى أم موسى فقالت فرقة: كان قولاً في منامها، وقال قتادة: كان إلهاماً، وقالت فرقة: كان بملك يمثل لها، قال مقاتل: أتاها جبريل بذلك، فعلى هذا هو وحي إعلام لا إلهام. وأجمع الكُلُّ على أنها لم تكن نبيَّة وإنما إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور، خرَّجه البخاري ومسلم «التفسير» (٦/ ٤٩٦٦).

(٢) «قصص الأنبياء» (٢٩٨).

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ١٠]:

قال القاسمي: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ أي: خالياً من العقل لما دهمها من فرط الجزع، وأطار عقلها من الدهش لما بلغها وقوعه في يد فرعون ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي: بأمره وقصته وأنه ولدُها ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لولا أن ألهمناها الصبر، شُبِّهَ بربط الشيء المنفلت ليقر ويطمئن، ومعنى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المصدقين لوعد الله وهو قوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾(١).

قال الزمخشري: ويجوز: وأصبح فؤادها فارغاً من الهمِّ حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه إن كادت لتبدي بأنه ولدُها، لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت لولا أنا طمأنا قلبها وسكنَّا قلقه الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبني فرعون وتعطفه(٢).

قال ابن جرير رحمه الله: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال معناه: وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من كل شيء إلا من همِّ موسى(٣).

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القصص: ١١]:

قال الزمخشري: أي: اتبعي أثره وتتبعي خبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: نظرت إليه مُزْوَرَّةً متجانفة مخاتلة، وهم لا يحسون بأنها أخته(٤).

﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [القصص: ١٢]:

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله **في «ظلاله»**: إن القدرة التي ترعاه تدبر

---

(١) «محاسن التأويل» (١٣/ ٩٧). (٢) «الكشاف» (٣/ ٣٩٦).
(٣) «جامع البيان في تفسير القرآن» (١٠/ ٢٤).
(٤) «الكشاف» (٣/ ٣٩٦).

أمره وتكيد به لفرعون وآله، فتجعلهم يلتقطونه، وتجعلهم يحبونه وتجعلهم يبحثون له عن ظئر ترضعه، وتحرم عليه المراضع لتدعهم يحتارون به، وهو يرفض الثدي كلما عُرضت عليه، وهم يخشون عليه الموت، أو الذبول، حتى تبصر به أخته من بعيد فتعرفه، وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مرضع فتقول لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ فيتلقفون كلماتها وهم يستبشرون، يودون لو تصدق فينجو الطفل العزيز المحبوب، وينتهي المشهد الرابع فنجدنا أمام المشهد الخامس والأخير في هذه الحلقة، وقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة معافًى في بدنه مرموقاً في مكانته، يحميه فرعون وترعاه امرأته، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير، وقد صاغت القدرة الحلقة الأولى من تدبيرها العجيب.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾(1) [القصص: ١٣].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} الظلم إذا عمَّ وطَمَّ فإنه يؤذن بزواله وهلاك الظالم ودولته، وقد قال شيخ الإسلام: **(إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة).**

فمع أن فرعون قد جمع الموبقات، وادعى الألوهية وأنكر رب البريَّة إلا أن الله ﷻ علل زوال مُلْكه ونَصر المستضعفين بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

{٢} في قوله ﷻ: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ [القصص: ٣] بيان عناية الله ﷻ بالمؤمنين:

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله: فإلى القوم المؤمنين يوجه هذا الكتاب،

(١) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٦٨٠، ٢٦٨١).

يربيهم به وينشئهم ويرسم لهم المنهاج، ويشق لهم الطريق، وهذا القصص المتلو في السورة مقصود به أولئك المؤمنون وهم به ينتفعون.

وهذه التلاوة المباشرة من الله تلقي ظلال العناية والاهتمام بالمؤمنين، وتشعرهم بقيمتهم العظيمة ومنزلتهم العالية الرفيعة، وكيف؟ والله ذو الجلال يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم ولهم، بصفتهم هذه التي تؤهلهم لتلك العناية الكريمة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

{٣} **كما بيَّن قول الله ﷻ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ وبين انتصار موسى على فرعون وهلاك فرعون وجنوده.**

فالأمور تسير بالسنن الكونية والشرعية و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فعلى أهل الإيمان أن يأخذوا بالأسباب المتاحة ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ فهذا مبلغ جهد أم موسى في حماية موسى الرضيع، والذي تولى حمايته ونصره في الحقيقة هو الله ﷻ ذو الجلال والإكرام، وكان يمكن أن تحصل الحماية والرعاية دون أسباب.

ويقول السعدي رحمه الله: إن الله إذا أراد شيئاً هيأ أسبابَهُ وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدرج لا دفعة واحدة[2].

{٤} **الله ﷻ يلهم أهل الإيمان الصواب والرشاد** فما أخبر الله ﷻ أنه أمر أم موسى أن تقول لأخته: ﴿قُصِّيهِ﴾ مع أن ذلك كان من أسباب نجاته وانتصار حزب الإيمان، وفرعون عليه لعنة الملك الديان رَبَّى موسى في بيته وقام بقضاء مصالحه، كما يقولون: حفر قبره بظلفه، فالكفار والفجار يعملون من الأعمال التي يظنون أنه فيها منفعتهم وصلاحهم وتكون من أعظم أسباب خيبتهم وخسارتهم! كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝٣٦﴾ [الأنفال: ٣٦]:

{٥} **في هذه القصة تثبيت لأهل الإيمان** وإن ضعفت شوكتهم وقلَّت

---

(١) «في ظلال القرآن» (٥/٢٦٧٦).   (٢) «تيسير اللطيف المنان» (١٣٠).

حيلتهم، وإن طغى وبغى أهل الباطل وملكوا من أسباب البطش والتنكيل ما ملكوا، فعلى أهل الإيمان أن يستبشروا بنصر الله وينتظروا فرجه وتمكينه لهم، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بوعد الله ونصره، وقد بيَّن الله ﷻ في آيات أخر ما يتسلح به أهلُ الإيمان حتى يجعلهم اللهُ ﷻ أئمة فقال تعالى في سورة السجدة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤] قال سفيان بن عيينة: لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوساً.

قال الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي:

{٦} **ومنها** ـ أي: من الفوائد المستنبطة ـ: **لطف الله بأم موسى بذلك الإلهام الذي به سلم ابنها، ثم تلك البشارة من الله لها برده إليها**، التي لولاها لقضى عليها الحزنُ على ولدها، ثم رده إليها بإلجائه إليها قدراً بتحريم المراضع عليه، وبذلك وغيره يعلم أن ألطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول، ولا تعبر عنها العبارات، وتأمَّل موقع هذه البشارة وأنه أتاها ابنها ترضعه جهراً، وتسمى أمه شرعاً وقدراً، وبذلك اطمأن قلبها، وازداد إيمانها، وفي هذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] فلا أكرَهَ لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة، وآثاره الطيبة.

{٧} **ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص** لقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والمراد بالإيمان هنا زيادته وطمأنينته.

{٨} **ومنها: أن من أعظم نِعم الله على العبد تثبيت الله له عند المُقْلِقَات والمخاوف**، فإنه كما يزاد به إيمانه وثوابه، فإنه يتمكن من القول الصواب والفعل الصواب، ويبقى رأيه وأفكاره ثابتة، وأما من لم يحصل له هذا الثبات فإنه لقلقه وروعه يضيع فكره ويذهل عقله، ولا ينتفع بنفسه في تلك الحال[1].

---

(١) «خلاصة تيسير اللطيف المنان في تفسير القرآن» (١٣٠، ١٣١).

شبابه عليه السلام وهجرته إلى مدين

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ١٤ ـ ٢٢]:

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله: ويسكت سياق القصة بعد هذا عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى عليه السلام، والحلقة التالية التي تمثل شبابه واكتماله، فلا نعلم ماذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه، ولا كيف تربى في قصر فرعون.

يسكت سياق القصة عن كل هذا ويبدأ الحلقة الثانية مباشرة حين بلغ أشده واستوى فقد آتاه الله الحكمة والعلم، وجزاه جزاء المحسنين.

وبلوغ الأشُد: اكتمال القوى الجسمية، والاستواء: اكتمال النضوج العضوي والعقلي، وهو يكون عادة حوالي سن الثلاثين، فهل ظل موسى في قصر فرعون ربيباً ومتبنى لفرعون وزوجه حتى بلغ هذه السن؟ أم إنه افترق عنهما، واعتزل القصر، ولم تسترح نفسُهُ للحياة في ظل تلك الأوضاع الآسنة التي لا تستريح لها نفسٌ مصفاة مجتباة كنفس موسى عليه السلام؟ ليس لدينا من

دليل، ولكن سياق الحوادث بعد هذا يلهم شيئاً من هذا كما سيجيء، والتعقيب على إتيانه العلمَ والحكمةَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ببشرى كذلك بأنه أحسن فأحَسَنَ الله إليه بالحكمة والعلم[١].

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾ [القصص: ١٥]:

قال ابن كثير: قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدي: وذلك نصف النهار وعن ابن عباس: بين العشائين.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ﴾ أي: يتضاربان ويتهارشان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي: إسرائيلي ﴿وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: قبطي، قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كانت له بديار مصر صولة، بسبب نسبته إلى تبني فرعون له وتربيته له في بيته، وكانت بنو إسرائيل عُزُّوا وصارت لهم وجاهة، وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه، وهم أخواله ـ أي من الرضاعة ـ، فلما استغاث ذلك الإسرائيلي موسى عليه السلام على ذلك القبطي أقبل إليه موسى ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾ قال مجاهد: أي: طعنه بجمع كفه، وقال قتادة: بعصاً كانت معه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ أي: فمات منها. وقد كان ذلك القبطي كافراً مشركاً بالله العظيم ولم يُرِدْ موسى قتله بالكلية، وإنما أراد زجره، ومع هذا قال موسى: ﴿هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾[٢].

قال القرطبي رحمه الله: ندم موسى عليه السلام على هذا الوكز الذي كان فيه ذهاب النفس فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه.

قال قتادة: عرف والله المخرج فاستغفر، ثم لم يزل ﷺ يعدد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له، حتى إنه في القيامة يقول: «**إني قتلتُ نفساً لم أوْمَر بقتلها**» وإنَّما عدّه على نفسه ذنباً وقال: ﴿ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي﴾ من أجل أنه لا ينبغي لنبيٍّ أن يقتل حتى يؤمر، وأيضاً فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم[٣].

(١) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٦٨١) باختصار. (٢) «قصص الأنبياء» (٣٠٣).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٩٧٦، ٤٩٧٧).

عن سالم بن عبد الله أنه قال: «يا أهل العراق ما أسألكُم عن الصغيرة وأرْكَبَكُم للكبيرة! سمعت أبي ـ عبد الله بن عمر ـ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الفتنة تجيء من ها هُنا** ـ وأومأ بيده نحو المشرق ـ **من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله** عز وجل: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]»(١).

قوله: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ⑰﴾ [القصص: ١٧]:

قال الألوسي رحمه الله: احتج أهلُ العلم بهذه الآية على المنع من معونة الظلمة وخدمتهم، أخرجه عبد بن حُميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبيد الله بن الوليد الوصافي أنه سأل عطاء بن أبي رباح عن أخ له كاتب فقال له: إن أخي ليس له من أمور السلطان شيء، إلا أنه يكتب له بقلم ما يدخل وما يخرج، فإن ترك قلمه صار عليه دين واحتاج، وإن أخذ به كان له فيه غنى، قال: لمن يكتب؟ قال: لخالد بن عبد الله القسري، قال: ألم تسمع إلى ما قال العبدُ الصالح: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ فلا يهتم أخوك بشيء وليرم بقلمه فإن الله تعالى سيأتيه برزق. فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى العلي العظيم، ويا حسرتا على من باع دِينه بدنياه، واشترى رضا الظلمة بغضب مولاه، هذا وقد بلغ السيل الزُّبى وجرى الوادي فطم على القرى(٢).

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ [القصص: ١٨]:

قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً ـ أي من فرعون وملئه ـ أن يعلموا هذا القتيل الذي رفع إليه أمره، إنما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل فتقوى ظنونهم أن موسى منهم، ويترتب على ذلك أمر عظيم، فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يتلفت، فبينما هو كذلك إذا ذلك الرجل الإسرائيلي الذي استنصره

---

(١) رواه البخاري (١٤/ ٤٥) «الفتن»، ومسلم (١٨/ ٣١) «الفتن وأشراط الساعة»، والترمذي (٩/ ١٢٢) «أبواب الفتن»، ومالك في «الموطأ» (٢/ ٩٧٥) «الاستئذان»، وأحمد (٢/ ٢٣).

(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ٥٦).

بالأمس يستصرخه؛ أي: يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله، فعنفه موسى ولامَهُ على كثرة شره ومخاصمته قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ثم أراد أن يبطش ذلك القبطي، الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي فيردعه ويخلصه منه، فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[١] [القصص: ١٩].

قال الألوسي: والذي في التوراة التي بأيدي اليهود اليوم ما هو صريح في أن هذين الرجلين كانا من بني إسرائيل، وأما الرجلان اللذان رآهما بالأمس فأحدهما إسرائيلي والآخر مصري.

قال: وأنت تعلم أن هذه التوراة لا يلتفت إليها فيما يكذب القرآن والسنة الصحيحة، وهي فيما عدا ذلك كسائر أخبار بني إسرائيل لا تصدق ولا تكذب، نعم قد يستأنس بها لبعض الأمور، ثم إن ما فيها من قصة موسى عليه السلام مخالف لما قصَّه الله تعالى منها هنا، وفي سائر المواضع زيادة ونقصاً وهو ظاهر لمن وقف عليها ولا يخفى الحكم في ذلك[٢].

📖 قـــولـــه: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩]:

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله: فتفهم أن موسى كان قد اتخذ في الحياة مسلكاً يعرف به أنه رجل صالح مصلح لا يحب البغي والتجبر، فهذا القبطي يذكره بهذا ويوري به، ويتهمه بأنه يخالف عما عرف عنه، ويريد أن يكون جباراً مصلحاً[٣].

📖 ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: ٢٠]:

قال الألوسي: وكون الرجل الجائي مؤمن آل فرعون هو المشهور، وقيل غيره، و﴿يَسْعَىٰ﴾ بمعنى: يُسرع في المشي، وإنما أسرع لبعد محله ومزيد اهتمامه بإخبار موسى عليه السلام ونصحه.

---

(١) «قصص الأنبياء» (٣٠٣، ٣٠٤).
(٢) «روح المعاني» باختصار (٢٠/٥٧، ٥٨).
(٣) باختصار من «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٦٨٤).

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ وهم وجوه أهل فرعون ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي: يتشاورون بسببك، وإنما سمى التشاور: ائتماراً؛ لأن كلاً من المتشاورين يأمر الآخر(١).

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢١، ٢٢]:

قال الزمخشري: ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قصدها ونحوها، ومدين قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن إبراهيم، ولم تكن في سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمان، وكان موسى لا يعرف إليها الطريق، قال ابن عباس: خرج وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه(٢).

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال الأستاذ سيد قطب** رحمه الله: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ غويٌّ بعراكه هذا الذي لا ينتهي واشتباكاته التي لا تثمر، إلا أن تثير الثائرة على بني إسرائيل، وهم عن الثورة الكاملة عاجزون، وعن الحركة المثمرة ضعفاء، فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التي تضر ولا تفيد.

{٢} **وفي قوله** عز وجل: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢١ ـ ٢٢] بركة الدعاء وحسن الظن والتوكل على الله عز وجل، فقد خرج موسى عليه السلام خائفاً طريداً فريداً، لم يتجهز لسفرٍ ولم يأخذ ما يدل على الطريق، ولكنه توجه إلى الله عز وجل بالدعاء أولاً بالنجاة من القوم الظالمين، ثم طلب الهداية إلى سواء السبيل وهكذا المؤمن دائماً يعلق قلبه بالله عز وجل ويرجو الخير من عنده، ويهرع إلى دعائه ورجائه عند الشدائد وهذا التوكل وحسن الظن يعوض أهل الإيمان قلة الأسباب ويفتح لهم مغاليق الأبواب.

---

(١) باختصار من «روح المعاني» (٢٠/ ٥٨).
(٢) «الكشاف» (٣/ ٤٠٠).

{٣} استدل القرطبي وغيره بقوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ على جواز النميمة لمصلحة دينية.

{٤} قال الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي عليه رحمة ربنا العلي: إذا خاف التلف بالقتل بغير حق في إقامته في موضع فلا يلقي بيده إلى التهلكة ويستسلم للهلاك بل يفر من ذلك الموضع مع القدرة كما فعل موسى.

{٥} وقال رحمه الله: إذا كان لا بد من ارتكاب إحدى مفسدتين تعيّن ارتكاب الأخف منهما الأسلم دفعاً لما هو أعظم وأخطر، فإن موسى لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولكنه يقتل، أو ذهابه إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل يدله غير هداية ربه ـ ومعلوم أنها أرجى للسلامة ـ لا جرم آثرها موسى[(١)].

{٦} وقال رحمه الله: فيه تنبيه لطيف على أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى العمل أو التكلم به إذا لم يترجح عنده أحد القولين فإنه يستهدي ربَّه ويسأله أن يهديه إلى الصواب من القولين بعد أن يقصد الحق بقلبه ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب من هذه حاله، كما جرى لموسى لما قصد تلقاء مدين، ولا يدري الطريق المعين إليها قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقد هداه الله وأعطاه ما رجاه وتمناه[(١)].

{٧} قال الشيخ أبو بكر الجزائري في «هداية الآيات»[(٢)]:

• **شكر النعم:** فموسى لما غفر الله تعالى له، شكره بأن تعهد له أن لا يقف إلى جنب مجرم أبداً.

• **سوء صحبة الأحمق الغويّ:** فإن الإسرائيلي لغوايته وحمقه هو الذي سبب متاعب موسى.

• **الخوف الطبيعي لا يلام عليه:** فموسى ﷺ قد خاف خوفاً أدى به إلى الالتجاء إلى ربِّه بالدعاء فدعاه فاستجاب له، ولله الحمد والمنَّة.

---

(١) «خلاصة تفسير اللطيف المنان» (١٣١، ١٣٢).

(٢) باختصار من «أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير» (٣/ ٣٨٩).

مكثه عليه السلام بمدين وزواجه بها

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٣ ـ ٢٨]:

قال سيد قطب رحمه الله: لقد انتهى به السفر الشاقّ الطويل إلى ماء لمدين، وصل إليه وهو مجهود مكدود، وإذا هو يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة السليمة الفطرة ـ كنفس موسى عليه السلام ـ وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء، ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء.

﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ فأخبرتاه عن سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورد.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحَرٍّ، وأن السفرة كانت في ذلك القيظ والحر.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤]:

قال الألوسي: أي: لأيِّ شيء تنزله من خزائن كرمك إليَّ ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ جَلّ أو قلّ ﴿فَقِيرٞ﴾ أي: محتاج، وإلى كون الكلام تعريضاً لذلك ذهب

مجاهد، وابن جبير، وأكثر المفسرين[١].

وقال الزمخشري: ويحتمل أن يريد: إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدِّين، وهو النجاة من الظالمين؛ لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة، قال ذلك رضاً بالبدل السني وفرحاً به وشكراً له[٢].

والأول أظهر وأليق بالسياق، والله أعلم.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص: ٢٥]:

قال الزمخشري: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي: مستحيية متخفرة، وقيل: قد استترت بكم درعها[٢].

وقال القرطبي: قال عمرو بن ميمون: ولم تكن سلفعاً من النساء خَرَّاجَةً وَلَّاجَةً[٣].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]:

قال ابن كثير رحمه الله: وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو؟ فقيل: هو شعيب عليه السلام وهذا هو المشهور عند كثيرين، وممن نص عليه الحسن البصري ومالك بن أنس، وجاء مصرحاً به في حديث، ولكن في إسناده نظر[٤].

وقال سيد قطب رحمه الله: سبق أن قلت مرة في «الظلال»: إن هذا الرجل هو شعيب، وقلت مرة: إنه قد يكون النبي شعيباً أو لا يكون، وأنا الآن أمْيَل إلى ترجيح أنه ليس هو، وإنما هو شيخ آخر من مَدْين، والذي يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير، وشعيب شهد مهلك قومه المكذبين له، ولم يبق معه إلا المؤمنون به، فلو كان هو شعيب ـ النبي ـ بين بقية قومه المؤمنين ما سَقَوا قبل بنتي نبيهم الشيخ الكبير، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل، يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئاً

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٦٤). (٢) «الكشاف» (٣/ ٤٠٢).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٩٨٦). (٤) «قصص الأنبياء» (٣٠٦).

عن تعليمه لموسى سهره، ولو كان شعيباً النبي لسمعنا صوت النبوة في شيء من هذا مع موسى وقد عاش معه عشر سنوات(١).

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦]:

قال القرطبي: دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة، وكذلك كانت في كل ملة، وهي من ضرورة الخليقة ومصلحة الخلطة بين الناس، خلافاً للأصم حيث كان عن سماعها أصم(٢).

قال الزمخشري: وقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ كلام حكيم جامع لا يزاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان أعني: الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك، وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول: استأجره لقوته وأمانته(٣).

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص: ٢٧]:

قال القرطبي: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾:

- فيه عرض الولي ابنته على الرجل، وهذه سنة قائمة، عرض صالح مدَين ابنته على صالح بني إسرائيل، وعرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها على رسول الله ﷺ.

- وفي هذه الآية دليل على أن النكاح للولي لا حظَّ للمرأة فيه؛ لأن صالح مدين تولاه، وبه قال فقهاء الأمصار وخالف في ذلك أبو حنيفة، وقد مضى.

- هذه الآية تدل على أن للأب أن يزوج ابنته البكر البالغ من غير استئمار، وبه قال مالك واحتج بهذه الآية، وقال أبو حنيفة إذا بلغت الصغيرة فلا يزوجها إلا برضاها؛ لأنها بلغت حد التكليف، فأما إذا كانت

(١) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٦٨٧). (٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٩٨٧).
(٣) «الكشاف» (٣/ ٤٠٤).

صغيرة فإنه يزوجها بغير رضاها؛ لأنه لا إذن لها ولا رضا بغير خلاف.

وقوله: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٨]:

قال ابن كثير رحمه الله: يقول: إن موسى قال لصهره: الأمر على ما قلت، فأيهما قضيت فلا عدوان عليَّ، والله على مقالتنا سامع وشاهد ووكيل عليَّ وعليك، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة.

روى البخاري عن سعيد بن جبير، قال: سألني يهود من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلتُ: لا أدري حتى أقدم على حَبْرِ العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابنَ عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل[١].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال القرطبي**: استدل أصحاب الشافعي بقوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح، وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد وداود ومالك على اختلافٍ عنه، وقال علماؤنا في المشهور: ينعقد النكاح بكل لفظ، وقال أبو حنيفة: ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك على التأبيد[٢].

{٢} **قال القرطبي**: وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو أمرٌ قد قرره شرعنا وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلا شيء من القرآن، رواه الأئمة، وفي بعض طرقه، فقال له رسول الله ﷺ: «**مَا تَحْفَظُ مِنَ القُرآنِ؟**»، فقال: سورة البقرة والتي تليها، فقال: «**فعلّمها عشرين آية وهي امرأتك**»[٣].

(١) «الكشاف» «قصص الأنبياء» (٣٠٨) بتصرف.
(٢) «تفسير القرطبي» (٦/٤٩٨٨) باختصار.
(٣) السابق (٦/٤٩٨٨) باختصار، والحديث رواه البخاري وغيره، وهو الذي يسمى بحديث الواهبة.

{٣} **قال القرطبي**: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ جرى ذكر الخدمة مطلقاً، وقال مالك: إنه جائز ويُحمل على العرف فلا يحتاج في التسمية إلى الخدمة، وهو ظاهر في قصة موسى، فإنه ذكر إجارة مطلقة، وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يجوز حتى يسمى فإنه مجهول، وقد ترجم البخاري: من اسْتَأْجَرَ أجيراً فبين له الأجل ولم يبين له العمل لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾[1].

{٤} **اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح على قولين:**

أحدهما: أنه لا ينعقد إلا بشاهدين، وبه قال أبو حنيفة والشافعي، وقال مالك: إنه ينعقد دون شهود لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح، وفرق ما بين النكاح والسفاح: الدُّف[2].

{٥} **قال الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر**: العبد إذا عمل العمل لله خالصاً ثم حصل به مكافأة عليه بغير قصد فإنه لا يلام على ذلك، ولا يخل بإخلاصه وأجره، كما قَبِلَ موسى مكافأة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يطلبه ولم يستشرف له على معاوضة.

{٦} **وقال** رحمه الله: من أعظم مكارم الأخلاق تحسين الخلق مع كل من يتصل بك من خادم وأجير وزوجة وولد ومُعَامِل وغيرهم، ومن ذلك تخفيف العمل على العامل لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وفيه أنه لا بأس أن يُرَغِّبَ المعامل في معاملته بالمعاوضات والإجارات بأن يصف نفسه بحسن المعاملة، بشرط أن يكون صادقاً في ذلك[3].

{٧} **قال الأستاذ سيد قطب** رحمه الله: وبمثل هذه البساطة والوضاءة سار المجتمع الإسلامي يبني بيوته ويقيم كيانه في غير ما تلعثم ولا جمجمة ولا تصنع ولا التواء.

---

(١) «تفسير القرطبي» (٦/ ٤٩٩١) باختصار.
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٩٩٦).
(٣) «خلاصة تفسير اللطيف المنان» (١٣٢، ١٣٣).

وهكذا صنع الشيخ الكبير ـ صاحب موسى ـ فعرض على موسى ذلك العرض واعداً إياه ألا يشق عليه ولا يتعبه في العمل، راجياً بمشيئة الله أن يجده موسى من الصالحين في معاملته ووفائه وهو أدب جميل في التحدث عن النفس وفي جانب الله، فهو لا يزكي نفسه ولا يجزم بأنه من الصالحين ولكن يرجو أن يكون كذلك ويكل الأمر في هذا لمشيئة الله. وقبل موسى العرض وأمضى العقد في وضوح كذلك ودقة[١].

(١) «في ظلال القرآن» (٥/٢٦٨٨).

قصة ذهابه عليه السلام بأهله ومناداة الله ﷻ له وتكليفه بالرسالة عليه السلام

قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٢٩ ـ ٣٥]:

قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩]:

قال ابن كثير رحمه الله: اتفق ذلك في ليلة باردة، وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف، وجعل يوري زنادة فلا يورى شيئاً واشتدَّ الظلام والبرد.

فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعدٍ ناراً تأجج في جانب الطور وهو الجبل الغربي منه عن يمينه فـ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ وكأنه والله أعلم رآها دونهم؛ لأن هذه النار هي نور في الحقيقة، ولا يصلح رؤيتها لكل أحدٍ ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: لَعَلِّي أستعلم مَن عندها عن الطريق: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ فدل على أنهم كانوا قد

تاهوا عن الطريق في ليلة مظلمة[١].

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠]:

قال ابن كثير: أي: الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين، الفعال لما يشاء، لا إله غيره ولا رب سواه، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

وقوله: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي: التي في يديك، كما قرره على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٧، ١٨]:

والمعنى: أما هذه عصاك التي تعرفها؟ ألْقِها ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: ٢٠] فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء: كن فيكون.

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ أي: تضطرب كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب؛ أي: لم يلتفت لأن طبع البشرية يَنفر من ذلك، فلما قال الله له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول، ثم قال الله: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق، ولهذا قال: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: من غير بَرَص ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ قال مجاهد: من الفزع.

قوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني: إلقاء العصا وجعلها حية تسعى وإدخال يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ﴾ أي: وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ولدينه[٢].

---

(١) «قصص الأنبياء» (٣١١).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٨٨) باختصار.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٣، ٣٤]:

قال الألوسي: المراد بهذا الخبر طلب الحفظ والتأييد، لإبلاغ الرسالة على أكمل وجه لا الاستعفاء عن الإرسال، وزعمت اليهود أنه عليه السلام استعفى ربه سبحانه من ذلك، وأكد طلب التأييد بقوله: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: عوناً.

وفي قوله: ﴿أَفْصَحُ مِنِّي﴾ دلالة على أن فيه عليه السلام فصاحة، ولكن فصاحة أخيه أزيد من فصاحته[1].

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥]:

قال سيد قطب رحمه الله: لقد استجاب ربه رجاءه وشد عضده بأخيه، وزاده على ما رجاه البشارة والتطمين ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ فهما لن يذهبا مجردين إلى فرعون الجبار، إنما يذهبان إليه مذودين بسلطان لا يقف له في الأرض سلطان، ولا تنالهما معه كف طاغية ولا جبار، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ وحولكما من سلطان الله سياج ولكما منه حصن وملاذ.

ولا تقف البشارة عند هذا الحدِّ ولكنها الغلبة للحق، الغلبة لآيات الله يجابهان بها الطغاة، فإذا هي وحدها السلاح القوة وأداة النصر والغلبة ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[2].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} في هذه الآيات فضيلة ظاهرة لموسى عليه السلام، وكيف اختصه الله عز وجل برسالاته وبكلامه فناداه وناجاه بلا واسطة.

قال الألوسي: وقال الحسن: إنه سبحانه نادى موسى عليه السلام نداء الوحي لا نداء الكلام، ولم يرتض ذلك العلماء الأعلام لما فيه من مخالفة الظاهر،

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٧٧) باختصار. (٢) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٦٩٣).

وأنه لا يظهر عليه وجه اختصاصه باسم الكليم بين الأنبياء عليهم السلام[(١)].

{٢} **قال القرطبي:** ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ قيل: فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث شاء، لما له عليها من فضل القوامة وزيادة الدرجة، إلا أن يلتزم لها أمراً فالمؤمنون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج[(٢)].

{٣} **قال الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر:** آيات الأنبياء وكرامات الأولياء وما يخرقه الله من الآيات ومن تغيير الأسباب أو منع سببيتها أو احتياجها إلى أسباب أخر، أو وجود موانع تعوقها هي من البراهين العظيمة على وحدانية الله وأنه على كل شيء قدير، وأن أقدار الله لا يخرج عنها حادث جليل ولا حقير، وأن هذه المعجزات والكرامات والتغييرات لا تنافي ما جعل الله في هذه المخلوقات من الأسباب المحسوسة والنظامات المعهودة. وإنك لا تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً[(٣)].

{٤} **وقال الشيخ أبو بكر الجزائري في «هداية الآيات»:** بيان أن القصاص كان معروفاً معمولاً به عند أقدم الأمم، وجاءت الحضارة الغربية فأنكرته، فتجرأ الناس على سفك الدماء، وإزهاق الأرواح بصورة لم يسبق لها مثيلٌ في تاريخ البشرية، ولذلك صحَّ أن تسمى الخسارة البشرية بدلاً من الحضارة الغربية[(٤)].

{٥} **ومن الآثار الإيمانية، اليقين بأن رحمة الله عز وجل بعباده أعظم من رحمتهم لأنفسهم**، فقد قال موسى عليه السلام: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ فهذه رحمته بنفسه، وانظر إلى رحمة الله عز وجل به حيث عاد بالرسالة وشرف المناجاة، فالله عز وجل أرحم بالعبد من نفسه، وأعلم به من نفسه، فهو عز وجل أرحم الراحمين، نسأل الله أن يفتح علينا خزائن رحمته.

---

(١) «روح المعاني» (٢٠/ ٧٤).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٩٩٧).
(٣) «خلاصة تيسير اللطيف المنان» (١٣٣).
(٤) «أيسر التفاسير» (٣/ ٣٩٩).

لقاء موسى عليه السلام وفرعون وإيمان السحرة

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٠٣ ـ ١٢٦].

قوله: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ﴾ [الأعراف: ١٠٣]:

قال العلامة محمد رشيد رضا: أي: فظلموا أنفسهم وقومهم بالكفر.

﴿بِهَا ۖ﴾ كبراً وجحوداً، فكان عليهم إثم ذلك، وإثم قومهم الذين حرموا من الإيمان باتباعهم لهم كما كان يكون لهم مثل أجورهم لو آمنوا بالتبع لهم، وجملة القول أن موسى عليه السلام مرسلاً إلى قومه بني إسرائيل بالذات، وإلى

فرعون وملئه بالتبع[(١)].

قوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: ١٠٣]:

قال الألوسي: هو علم شخص ثم صار لقباً لكل من ملك مصر من العمالقة، كما أن كسرى لقب من ملك فارس، وقيصر لقب من ملك الروم، والنجاشي لقب من ملك الحبشة، وتُبَّع لقب من ملك اليمن[(٢)].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: ١٠٤، ١٠٥]:

قال الألوسي: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ﴾ أي: جدير بذلك وحريّ به لما علمت من حالي.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥]:

قال ابن الجوزي: أي: أطلق عنهم، وكان قد استخدمهم في الأعمال الشاقة[(٣)].

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠٦ ـ ١١٠]:

قال الزمخشري: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: عالم بالسحر ما هو فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه حتى خيل إليهم العصى حية والآدم أبيض، فإن قلت: قد عزى هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء وأنه قال للملأ، وعزى ههنا إليهم، قلت: قد قاله هو وقالوه هم، فحكى قوله ثم قولهم، أو قاله ابتداءً فتلقفه منه الملأ فقالوه لأعقابهم[(٤)].

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف: ١١١، ١١٢]:

---

(١) «تفسير المنار» (٩/٣٩، ٤٠).
(٢) «روح المعاني» (٧/١٧).
(٣) «زاد المسير» (٣/٢٣٧).
(٤) «الكشاف» (٢/١٣٩).

قال القاسمي: أي: أخّر أمرهما، وأصدرهما عنك، حتى ترى رأيك فيهما، وتدبر شأنهما، لئلا تنسب إلى الظلم الصريح.

وقال أبو منصور: والأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر، وهو الهم بقتله فقالوا: أخره ليتبين حاله للناس، وأصل ﴿أَرْجِهْ﴾: «أرجئه»[1].

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤]:

قال القاسمي: ولما توثقوا من فرعون ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾:

قيل: خيروا موسى إظهاراً للجلادة، فلم يبالوا بتقدمه أو تأخره[2].

وقال الزمخشري: تخييرهم إياه أدب حسن، راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا في الجدال، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع[3].

وقال القرطبي: تأدبوا مع موسى فكان ذلك سبب إيمانهم[4].

﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: ١١٦]:

قال القاسمي: وإنما سوغ لهم التقدم ازدراء لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، وثقة بما كان بصدده من التأييد الإلهي، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبداً[5].

قوله تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: ١١٧ ـ ١١٩]:

يقول صاحب «الظلال» عليه رحمة الكبير المتعال:

إنه الباطل ينتفش ويسحر العيون ويسترهب القلوب ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب، وأنه جارف، وأنه محيق! وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ

---

(١) «محاسن التأويل» (٧/ ٢٢٨).
(٢) «محاسن التأويل» (٧/ ٢٣٠).
(٣) «الكشاف» (٢/ ١٤٠).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٢٦٩٥).
(٥) «محاسن التأويل» (٧/ ٢٣٠).

الوائق حتى ينفقئ كالفقاعة، وينكمش كالقنفذ، وينطفئ كشعلة الهشيم، وإذا الحق راجح الوزن، ثابت القواعد، عميق الجذور، والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال وهو يصور الحق واقعاً ذا ثقل ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ وثبت واستقر وذهب ما عداه فلم يعد له وجود ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وغلب الباطل والمبطلون، وذلوا وصغروا وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون.

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾:

ولكن المفاجأة لم تختم بعد والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة كبرى ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢٠ ـ ١٢٢].

إنها صولة الحق في الضمائر، ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحق والنور واليقين.

إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنِّهم ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه، وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى، إن كان من السحر والبشر أو من القدرة التي وراء مقدور البشر والسحر، والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة فيه حين تنكشف له؛ لأنه أقرب إدراكاً لهذه الحقيقة ممن لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور، ومن هنا تحول السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين. ولكن الطواغيت المتجبرين لا يدركون كيف يتسرب النور إلى قلوب البشر، ولا كيف تمازجها بشاشة الإيمان، ولا كيف تلمسها حرارة اليقين، فهم لطول ما استعبدوا الناس يحسبون أنهم يملكون تصريف الأرواح وتقليب القلوب[1].

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣، ١٢٤]:

قال صاحب «الظلال» رحمه الله ما ملخصه: هكذا ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن تنتفض قلوبهم للحق، وهم أنفسهم

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٣٥٠).

لا سلطان لهم عليها، أو يستأذنوه في أن ترتعش وجداناتهم وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئاً، ولكنه الطاغوت جاهل غبي مطموس، وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور. ثم إنه الفزع على العرش المهدد والسلطان المهزوز.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ وفي نصٍّ آخر: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

والمسألة واضحة المعالم إنها دعوة موسى إلى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي التي تزعج وتخيف، إنه لا بقاء ولا قرار لحكم الطواغيت مع الدعوة إلى رب العالمين، وهم إنما يقوم ملكهم على تنحية ربوبية الله للبشر بتنحية شريعته وإقامة أنفسهم أرباباً من دون الله يشرعون للناس ما يشاءون ويُعَبِّدون الناسَ لما يشرعون، إنهما منهجان لا يجتمعان، أو هما ربان لا يجتمعان.

وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشي الفظيع:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣، ١٢٤]:

إنه التعذيب والتشويه والتنكيل وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق، الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان، وعدة الباطل في وجه الحق الصريح.

ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة، وتنصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم، إنها لا تقف لتسأل ماذا ستأخذ؟ وماذا ستدع، وماذا ستدفع؟ ماذا ستخسر؟ وماذا ستكسب؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعابٍ وأشواكٍ وتضحياتٍ؟ لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٥، ١٢٦]:

إنه الإيمان الذي لا يفزع ولا يتزعزع، كما أنه لا يخضع ولا يخنع، الإيمان الذي يطمئن إلى النهاية فيرضاها، ويستيقن من الرجعة إلى ربه فيطمئن إلى جواره.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝١٢٥﴾ [الأعراف: ١٢٥]:

والذي يدرك طبيعة المعركة بينه وبين الطاغوت.. وأنها معركة العقيدة في الصميم لا يداهن فيها ولا يناور ولا يرجو الصفح والعفو من عود لن يقبل منه إلا ترك العقيدة.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦]:

والذي يعرف أين يتجه في المعركة وإلى من يتجه لا يطلب من خصمه السلامة والعافية، وإنما يطلب من ربه الصبر على الفتنة والوفاة على الإسلام.

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]:

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز، وتمنى بالقرب من السلطان، هي ذاتها التي تستعلي على فرعون، وتستهين بالتهديد والوعيد. ويذهب التهديد، ويتلاشى الوعيد ويمضي الإيمان في طريقه لا يلتفت ولا يتردد ولا يحيد[(١)].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ **الفوائد والآثار الإيمانية:**

{١} **قال الجشميُّ:** ينبغي في المعجزات أن تكون من جنس ما هو شائع في القوم، ويتعذر عليهم مثله، وكان الطب هو الغالب في زمن عيسى فجاء بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وليس ذلك في وسع طبيب، وكان الغالب في زمن نبيِّنا ﷺ الفصاحة والخطب والشعر، فجاء القرآن وتحدّاهم به، وتدل الآيات على أنهم بالحيل جعلوا الحبال والعصيَّ متحركة، حتى أوهموا أنها أحياء ولكن لما وُقِفَ على أصل ما فعلوه وعُلم وكان مثله مقدوراً لكل من يتعاطى صناعتهم علم أنه شعبذة، ولهذا تتفارق المعجزة والشعبذة، أنه يوقف على أصلها ويمكن إتيان مثلها ويخفى أمرها بخلاف المعجزة. ثم قال: وتدل على اعتراف فرعون بالذل والضعف حيث استغاث بهم وبمهنتهم لدفع مكروه[(٢)].

(١) باختصار من «في ظلال القرآن» (٣/ ١٣٥١، ١٣٥٢).
(٢) بتصرف من «محاسن التأويل» (٧/ ٢٣١).

{٢} **قال العلامة محمد رشيد رضا** رحمه الله: وقد ختم تعالى ما قصَّه هنا من كلام السحرة بهذا الدعاء فنذكره تالين داعين ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي: ربنا هب لنا صبراً واسعاً تفيضه وتفرغه علينا إفراغاً بتثبيتك إيانا على الإيمان، وتأييدنا بروحك فيه، كما يفرغ الماء من القِرَب حتى لا يُبقي في قلوبنا شيئاً من خوف غيرك ولا من الرجاء فيما سوى فضلك ونوالك، وتوفنا إليك حال كوننا مسلمين لك مذعنين لأمرك ونهيك مستسلمين لقضائك، غير مفتونين بتهديد فرعون وغير مطيعين له في قول ولا فعل، جمعوا بدعائهم هذا بين كمال الإِيمان والإِسلام.

يدل على ما قررناه من المبالغة في طلب كمال الصبر، تنكيره والتعبير عن إيتائه بالإِفراغ وهو صب الماء الكثير من الدلو ونحوه، وأما تصويرنا لحصول ذلك بقوة الإِيمان فمأخذه من العقل والتجارب أن الصبر من صفات النفس، وهو عبارة عن قوة فيها على احتمال الآلام والمكاره بغير تبرم ولا حرج يحملها على ما لا ينبغي من ترك الحق أو اجتراح الباطل، ولا شيء كالإِيمان بالله والخوف منه والرجاء فيه يقوي هذه الصفة في النفس، ومأخذه من النقل آيات كقوله تعالى في بيان المؤمنين الذين عملوا الصالحات فوجبت لهم الجنة: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل: ٤٢]، وقوله فيهم: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، ومما يناسب المقام قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

ولدينا من نقول التاريخ القديم والحديث ما يؤيد ذلك، وقد صرح الذين كتبوا أخبار الحروب الأخيرة بعللها وفلسفتها أن المؤمنين بالله وباليوم الآخر من جميع المِلل أعظم شجاعة وأشد صبراً على مشاق الحرب من غيرهم، ولذلك يحرص أوسع الناس علماً بسنن الخلق وأشدهم عناية بفنون الحرب كالشعب الألماني بالمحافظة على الدين في جيشهم[١].

{٣} **قال الشيخ أبو بكر الجزائري في «هداية الآيات»:**

• بيان سنته تعالى في أن الحق والباطل إذا التقيا في أي ميدان فالغلبة للحق دائماً.

---

(١) «تفسير المنار» (٩/ ٧٧) باختصار.

• بطلان السحر وعدم فلاح أهله ولقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩][1].

❦ ❦ ❦

(١) «أيسر التفاسير» (٢/ ٦٤، ٦٥).

هلاك فرعون اللعين
ونجاة موسى الكليم ومن معه من المؤمنين

قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٨].

قال القرطبي رحمه الله: قال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ لما كان من سنته تعالى في عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائهم أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل ليلاً وسماهم عباده لأنهم آمنوا بموسى، ومعنى ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي: يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم، وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم فخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سَحَراً[(١)].

قال ابن كثير: فلما أصبحوا وليس في ناديهم داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعونَ واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين؛ أي: من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي: لطائفة قليلة

(١) باختصار من «الجامع لأحكام القرآن» (٦/٤٨١٦).

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥﴾ أي: كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيظنا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾ أي: نحن في كل وقت نحذر من غائلتهم، وقرأ طائفة من السلف «وإنا لجميع حَذِرُون» أي: مستعدون بالسلاح، وإني أريد أن أستأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم، فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾ أي: فخرجوا من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم؛ أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: ٥][١].

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: ٦٠ ـ ٦٢]:

قال الألوسي: ﴿مُّشْرِقِينَ﴾ أي: داخلين في وقت شروق الشمس؛ أي: طلوعها ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر[٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان، ولم يبق ثمَّ ريب ولا لبس، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه.

فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه ما قد شاهدوه وعاينوه، فقال لهم الرسول الصادق المصدوق: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٣٥، ٣٣٦).

(٢) «روح المعاني» (١٩/ ٨٤) باختصار.

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر، واقترب فرعون وجنوده في جَدّهم وحدّهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، عند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير، رب العرش الكريم إلى موسى الكليم ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فلما ضربه يقال: إنه قال له: انفلق بإذن الله ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال، مكفوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء: كن، فيكون.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٧ ـ ٧٩].

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المِحال، أمر موسى أن يجوزه ببني إسرائيل فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ويهدي قلوب المؤمنين، فلما جاوزه وجاوزوه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه كان عند قدوم أول جيش فرعون[(١)]:.

قوله: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٤]:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: قربنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجلٌ إلا هلك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين، لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾[(٢)].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

---

(١) «قصص الأنبياء» (٣٥٢، ٣٥٣).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٣٧).

❁ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} الرسل هم أوثق الناس بنصر الله ﷻ ووعده فلو ضاقت الأمور وشك الناس في وعد الله بالنصر والفرج، فإن الرسل هم أوثق الناس بنصر الله ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾.

{٢} أجيب في فرعون دعوة موسى ﷺ أن يطمس الله على أموالهم ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم؛ أي: حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم وقد قال الله تعالى لهما ـ أي: لموسى وهارون ـ حين دعوا بهذا: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩] فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون ﷺ(١).

{٣} المداومة على الأعمال الصالحة في الرخاء سبب للنجاة من الشدائد كما قال بعض السلف: أكثروا من ذكر الله في الرخاء فإن يونس ﷺ لما وقع في بطن الحوت قال الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، ولما كان فرعون جاحداً كافراً تاركاً لذكر الله ﷻ لما وقع في البحر قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، فقال الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: ٩١].

{٤} أهل الإسلام هم أولى الناس بأنبياء الله ورسله، عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: «**ما هذا اليوم الذي تصومونه؟**» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، قال النبي ﷺ لأصحابه: «**أنتم أحق بموسى منهم فصوموا**»(٢).

ويشهد له كذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [آل عمران: ٦٨].

❁ ❁ ❁

(١) بتصرف من «قصص الأنبياء» لابن كثير (٣٥٥).
(٢) البخاري رقم (٩٨٢) مختصره للألباني، ومسلم رقم (٦١٣) مختصره للمنذري وغيرهم.

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة
عيسى العبد الرسول

ابن مريم العذراء البتول عليه السلام

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة عيسى العبد الرسول ابن مريم العذراء البتول

فضائل عيسى[(١)] ابن مريم عليه السلام

{١} من فضائله ما بشر الله به مريم العذراء البتول بقوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

قال ابن كثير رحمه الله: هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأنه سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير، ويكون وجوده بكلمة من الله؛ أي: يقول له: كن فيكون ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره معجزة وآية، وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح[(٢)].

{٢} ومن فضائله أن الله عز وجل طهره ورفعه إليه:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ

---

(١) قال ابن كثير: قيل: سمي المسيح لمسحه الأرض وهو سياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له في ذلك الزمان وافترائهم عليه وعلى أمه. «قصص الأنبياء» (٦٢٣). وقيل: سمي المسيح لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برأ.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٣٦٣، ٣٦٤) باختصار.

كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

قال القرطبي: المعنى إني رافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء كقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه: ١٢٩] والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجلٌ مسمى لكان لزاماً(١).

وقال ابن كثير رحمه الله: وقال الأكثرون: المراد بالوفاة ههنا: النوم كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ الآية [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ الآية [الزمر: ٤٢]، وكان ﷺ يقول إذا قام من النوم: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا...**» الحديث(٢).

وقوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

قال الزمخشري: يَعْلُونهم بالحجة، وفي أكثر الأحوال بها وبالسيف، ومتبعوه هم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الإسلام، وإن اختلفت الشرائع، دون الذين كذبوه وكذبوا عليه من اليهود والنصارى(٣).

{٣} ومن فضائله أنه ينزل في آخر الزمان حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية:

قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع**

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ١٣٤١).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٣٦٦) باختصار.
والحديث رواه البخاري (١١/ ١٣٠) «الدعوات»، ومسلم (١٧/ ٣٥) «الدعوات» و«التعوذ».

(٣) «الكشاف» (١/ ٣٦٧).

الجزية، ويَفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩][(١)].

قال الحافظ: «**لَيُوشِكَنّ**» أي: ليقربن؛ أي: لا بدّ من ذلك سريعاً.

قوله: «**أن ينزل فيكم**» أي: في هذه الأمة.

قوله: «**حكماً**» أي: حاكماً، والمعنى أنه ينزل حاكماً بهذه الشريعة، فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ، بل يكون عيسى حاكماً من حكام هذه الأمة.

قوله: «**فيكسر الصليب ويقتل الخنزير**» أي: يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب حقيقة، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه، ويستفاد منه تحريم اقتناء الخنزير، وتحريم أكله، وأنه نجس؛ لأن الشيء المنتفع به لا يشرع إتلافه.

وقوله: «**ويضع الحرب**». في رواية الكشميهني: «**الجزية**» والمعنى: أن الدين يصير واحداً فلا يبقى أحدٌ من أهل الذمة يؤدي الجزية.

قال النووي: ومعنى وضع عيسى الجزية مع أنها مشروعة في هذه الشريعة أن مشروعيتها مقيدة بنزول عيسى لما دل عليه هذا الخبر، وليس عيسى بناسخ لحكم الجزية بل نبينا ﷺ هو المبين للنسخ بقوله هذا.

قال ابن بطال: وإنما قبلناها قبل نزول عيسى لحاجة إلى المال بخلاف زمن عيسى فإنه لا يحتاج فيه إلى المال، فإن المال في زمنه يكثر حتى لا يقبله أحد.

قال الحافظ: ويحتمل أن يقال: إن مشروعية قبولها من اليهود والنصارى لما في أيديهم من شبهة الكتاب وتعلقهم بشرع قديم بزعمهم، فإذا نزل عيسى عليه السلام زالت الشبهة بحصول معاينته فيصيرون كعبدة الأوثان في انقطاع حجتهم وانكشاف أمرهم، فناسب أن يعاملوا معاملتهم في عدم قبول الجزية منهم؛ هكذا ذكره بعض مشايخنا احتمالاً.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤٩٠) «أحاديث الأنبياء»، ومسلم (٢/ ١٨٩، ١٩٠) «الإيمان».

وقوله في الآية: ﴿وَإِن﴾ بمعنى: ما؛ أي: لا يبقى أحد من أهل الكتاب اليهود ولا النصارى إذا نزل عيسى إلا آمن به، وبذلك جزم ابن عباس.

وعن الحسن قال: قبل موت عيسى، والله إنه الآن لحي، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون. ونقله عن أكثر أهل العلم.

قال العلماء: الحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، فبين الله تعالى كذبهم، وإنه الذي يقتلهم أو نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض(١).

وقال ابن كثير: وإنه ينزل على المنارة البيضاء بدمشق وقد أقيمت صلاة الصبح فيقول له إمام المسلمين: تقدم يا روح الله فصلّ. فيقول: لا، بعضكم على بعض أمراء مكرمة الله هذه الأمة. وفي رواية: فيقول له عيسى: إنما أقيمت الصلاة لك، فيصلي خلفه ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال فيلحقه عند باب لُدٍّ فيقتله بيده الكريمة(٢).

{٤} ومن فضائله وصف الله ﷻ له بأنه كلمته وروح منه:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وعن عبادة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»(٣).

قال القرطبي: مقصود هذا الحديث التنبيه على ما وقع للنصارى من الضلال في عيسى وأمه، ويستفاد منه ما يلقنه النصراني إذا أسلم.

وقال النووي: هذا حديث عظيم الموقع وهو من أجمع الأحاديث

(١) باختصار من «فتح الباري» (١/ ٤٩١، ٤٩٢).
(٢) «قصص الأنبياء» (٦٢٨).
(٣) رواه البخاري (٦/ ٤٧٤) «أحاديث الأنبياء»، ومسلم (١/ ٢٢٧) «الإيمان».

المشتملة على العقائد، فإنه جمع فيه ما يخرج عنه جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدهم.

قال الحافظ: وقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ [النساء: ١٧١] إشارة إلى أنه حجة الله على عباده، أبدعه من غير أب وأنطقه من غير أوانه، وأحيا الموتى على يده، **وقيل:** سمي كلمة الله لأنه أوجده بقوله: كن، فلما كان بكلامه سمي به كما يقال: سيف الله، وأسد الله.

وأما تسميته بالروح فلما كان أقدره عليه من إحياء الموتى على يده، وقيل: لكونه ذا روح، وجد من غير جزء من ذي روح[(١)].

{٥} ومن فضائله:

قوله ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعَلّات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»[(٢)].

قال الحافظ: أي: أخص الناس به وأقربهم إليه؛ لأنه بَشَّرَ بأنه يأتي من بعده.

وقوله: «**الأنبياء أولاد عَلّات**»، وفي رواية عبد الرحمٰن المذكورة: «**إخوة لعلات**» والعلات: الضرائر.

ومعنى الحديث: أن أصل دينهم واحد ـ وهو التوحيد ـ وإن اختلفت فروع الشرائع[(٣)].

{٦} ومن فضائله:

ما رواه أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان، إلا ابن مريم وأمه**» ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[(٤)] [آل عمران: ٣٦].

---

(١) باختصار من «فتح الباري» (٦/ ٤٧٤).

(٢) رواه البخاري (٦/ ٤٧٨) «أحاديث الأنبياء»، ومسلم (١٥/ ١١٩) «الفضائل»، بلفظ: «**أنا أولى الناس بابن مريم الأنبياء أولاد علات وليس بيني وبينه نبي**».

(٣) باختصار من «فتح الباري» (٦/ ٤٨٩).

(٤) رواه البخاري (٨/ ٢١٢) «التفسير»، ورواه مسلم (١٥/ ١٢٠) «الفضائل».

قال النووي: هذه فضيلة ظاهرة، وظاهر الحديث اختصاصها بعيسى وأمه، واختار القاضي عياض أن جميع الأنبياء يتشاركون فيها[(١)].

{٧} ومن فضائله:

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه:

عن النبي ﷺ قال: «**رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني**»[(٢)].

قال النووي: قال القاضي: ظاهر الكلام: صدقتُ من حلف بالله تعالى وكذبتُ ما ظهر لي من ظاهر سرقته، فلعله أخذ ما لَهُ فيه حق، أو بإذن صاحبه، أو لم يقصد الغصب والاستيلاء، أو ظهر له من مد يده أنه أخذ شيئاً، فلما حلف له أسقط ظنه ورجع عنه[(٣)].

وقد تعقبه ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان» فقال: هذا تأويل متكلف، والحق أن الله كان في قلبه أجل من أن يحلف به أحد كاذباً، فدار الأمر بين تهمة الحالف وتهمة بصره، فرد التهمة إلى بصره، كما ظن آدم صدق إبليس لما حلف له أنه له ناصح[(٤)].

---

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٥/ ١٢٠).

(٢) رواه البخاري (٦/ ٤٧٨) «أحاديث الأنبياء»، ومسلم (١٥/ ١٢١) «الفضائل».

(٣) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٥/ ١٢١).

(٤) «فتح الباري» (٦/ ٤٩٠).

قصة ميلاد عيسى العبد الرسول من مريم العذراء البتول

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ١٦ ـ ٣٥].

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم: ١٦]:

قال القاسمي: أي: اعتزلت وانفردت ﴿مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: شرقي بيت المقدس لئلا يشغلوها عن العبادة.

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ [مريم: ١٧]:

أي: جبريل المنسوب إلى مقام عظمتنا لغاية كماله لينفخ فيها ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ أي: فتصور لرؤيتها ﴿بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ أي: سوي الخلق كامل الصورة.

﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم: ١٨]:

إنما خافته لانفرادها في خلوتها وظنها أنه يريدها على نفسها، وفي ذلك من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه ﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ أي: تتقي الله تعالى وتبالي بالاستعاذة به، فخوفته أولاً بالله ﷻ.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ [مريم: ١٩]:

أي: لا تخافي ولا تتوقعي ما توهمت فإني رسول ربك الذي استعذت به، بعثني إليك ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾ أي: لأكون سبباً في هبته و«الزكيّ»: الطاهر من الذنوب أو النامي على الخير[1].

﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾ [مريم: ٢٠]:

قال الزمخشري: جعل المسّ عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه كقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣] والزنا ليس كذلك[2].

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ [مريم: ٢١]:

قال ابن كثير: فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال أنه سيوجد منك غلاماً وإن لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قدير، ولهذا قال: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ أي: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذي نوّع في خلقهم فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية

---

(١) «محاسن التأويل» (١١/ ١١٥، ١١٦) باختصار.

(٢) «الكشاف» (٣/ ١٠).

الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، فلا إله غيره ولا رب سواه.

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد[1].

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٢، ٢٣]:

قال القرطبي: ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: تنحت بالحمل إلى مكان بعيد ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أي: اضطرها، كأنها طلبت شيئاً تستند إليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ تمنت مريم عليها السلام الموت من جهة الدين لوجهين:

أحدهما: أنها خافت أن يُظن بها الشر في دينها وتعيّر فيفتنها ذلك.

الثاني: لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنى، وذلك مهلك[2].

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم: ٢٤]:

قال الشنقيطي: أظهر القولين أن الذي ناداها هو ابنها عيسى، وتدل على ذلك قرينتان:

الأولى: أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه، وأقرب مذكور في الآية هو عيسى.

والقرينة الثانية: أنها لما جاءت به قومها تحمله وقالوا لها ما قالوا أشارت إلى عيسى ليكلموه، وإشارتها إليه ليكلموه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة لندائه لها عند وضعها.

قال: واختلف العلماء في المراد بالسري هنا فقال بعض العلماء: هو الجدول وهو النهر الصغير لأن الله أجرى لها تحتها نهراً، وعليه فقوله تعالى: ﴿فَكُلِى﴾ أي: من الرطب المذكور في قوله: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ واشربي من النهر المذكور في قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ وإطلاق السري على الجدول مشهور في كلام العرب.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١١٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤١٣١).

وقال بعض أهل العلم: السري هو عيسى، والسري هو الرجل الذي له شرف ومروءة، كما قال الأفوه الأودي:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سـراة إذا جُـهّـالُـهـم سـادوا

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: وأظهر القولين عندي أن السري في الآية النهر الصغير.

قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٥، ٢٦]:

قال الشنقيطي: والذي يفهم من سياق القرآن أن الله أنبت لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة ووجه الدلالة قوله تعالى: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ يدل على أن عينها إنما تقر في ذلك الوقت بالأمور الخارقة للعادة لأن مجرد الأكل والشرب مع بقاء التهمة التي تمنت بسببها أن تكون قد ماتت من قبل وكانت نسياً منسياً لم يكن قرة لعينها في ذلك الوقت كما هو ظاهر. وقد نصَّ الله جل وعلا في «آل عمران»، على خرقه لها العادة في قوله: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ** إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

قال العلماء: كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف[١].

قــولــه: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا من تمام كلام الذي ناداها من تحتها، وقوله: ﴿فَقُولِىٓ﴾ أي: بلسان الحال والإشارة ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتاً، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام، فأما في شريعتنا فيكره للصائم صمت يوم إلى الليل[٢].

---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٢٤٥ ـ ٢٥٠) باختصار.

(٢) «قصص الأنبياء» (٥٧٥) باختصار.

قولـه: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨]:

قال القاسمي: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: عظيماً منكراً ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ استئناف لتجديد التعبير وتأكيد التوبيخ وتقريره لكون ما جاءت به فرياً و«هارون» هو النبي الشهير صلوات الله عليه، يعنون أنها مثله في الصلاح[1].

قال الشنقيطي: إنما هو رجل صالح من بني إسرائيل يسمى هارون، والدليل على أنه ليس هارون أخا موسى ما رواه مسلم في «صحيحه» عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرءون ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «**إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم**»[2] هذا لفظ مسلم في «الصحيح»، وهو دليل على أنه رجل آخر غير هارون أخي موسى، ومعلوم أن هارون أخا موسى كان قبل مريم بزمن طويل[3].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال، عظم التوكل على ذي الجلال، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي: خاطبوه وكلموه، فإن جوابكم عليه، وما تبغون من الكلام لديه، فعندها ﴿قَالُوا۟﴾ من كان منهم جباراً شقياً ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي: كيف تحيلينا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع في مهده، ولا يميز بين محض وزبدة، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء والنقص لنا والازدراء، إذ لا تردين علينا قولاً نطيقاً بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبياً.

---

(١) «محاسن التأويل» (٧/ ١١٩، ١٢٠) باختصار.

(٢) رواه مسلم (١٤/ ١١٦، ١١٧) «الآداب»، والترمذي (١٢/ ١٣، ١٤) «التفسير».
قال النووي: استدل به جماعة عى جواز التسمية بأسماء الأنبياء وأجمع عليه العلماء إلا ما قدمناه عن عمر قال القاضي: وقد كره بعض العلماء التسمي بأسماء الملائكة، وهو قول الحارث بن مسكين قال: وكره مالك التسمي بجبريل وياسين.

(٣) «أضواء البيان» (٤/ ٢٧١) باختصار.

فعندها:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣]:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا أول كلام تفوه به عيسى ابن مريم، فكان أول ما تكلم به أن ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ اعترف لربه تعالى بالعبودية، وأن الله ربه، فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله، بل هو عبده ورسوله وابن أمته، ثم برأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا، لعنهم الله وقبحهم، كما قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦] ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ وذلك أنه حيث كان دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونزه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة، تعالى وتقدس ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ وهذه وظيفة العبيد في القيام بحق العزيز الحميد بالصلاة، والإحسان إلى الخليقة بالزكاة، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة، وتطهير الأموال الجزيلة بالعطية للمحاويج على اختلاف الأصناف، وقرى الأضياف والنفقات على الزوجات والأرقاء والقرابات وسائر وجوه الطاعات وأنواع القربات.

ثم قال: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ أي: وجعلني براً بوالدتي وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحض جهتها إذ لا والد له سواها.

فسبحان من خلق الخليقة وبرأها وأعطى كل نفس هداها ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي: ليس بفظ ولا غليظ، ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته(١).

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٣]:

قال القرطبي: أي: السلامة عليّ من الله تعالى ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ يعني في

---

(١) «قصص الأنبياء» (٥٧٧، ٥٧٨).

الدنيا وقيل: من همز الشيطان كما تقدم في «آل عمران» ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يعني: في القبر ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ يعني: في الآخرة؛ لأن له أحوالاً ثلاثة وهو معنى قول الكلبي، ثم انقطع كلامه في المهد حتى بلغ مبلغ الغلمان[١].

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥]:

قال الألوسي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى من فصلت نعوته الجليلة، وفيه إشارة إلى علو رتبته وبعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره، ونزوله منزلة المحسوس المشاهد؛ وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿عِيسَى﴾ وقوله سبحانه: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ صفة عيسى، والمراد ذلك هو عيسى ابن مريم لا ما يصفه النصارى وهو تكذيب لهم على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني، حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه كالعبودية لخالقه سبحانه المضادة لكونه ﷺ إلهاً وابناً لله ﷻ، فالحصر مستفاد من فحوى الكلام ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ نصب على المدح، والمراد بالحق: الله تعالى، وبالقول: كلمته تعالى، وأطلقت عليه ﷺ بمعنى: أنه خلق بقول: كن من غير أب.

﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكون أو يتنازعون ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ أي: ما صح وما استقام له جل شأنه اتخاذ ذلك، وهو تكذيب للنصارى وتنزيه له ﷻ عما افتروه عليه تبارك وتعالى.

وقوله جل وعلا: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تبكيت لهم ببيان أن شأنه تعالى إذا قضى أمراً من الأمور أن يوجد بأسرع وقت، فمن يكون هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد، وهو من أمارات الاحتياج والنقص[٢].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال الشنقيطي** ؒ: أخذ بعض العلماء من قوله تعالى في هذه

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٤١٤٣، ٤١٤٤).
(٢) «روح المعاني» (١٦/ ٩١، ٩٢).

الآية الكريمة ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أن السعي والتسبب في تحصيل الرزق أمر مأمور به شرعاً، وأنه لا ينافي التوكل على الله جل وعلا، وهذا أمر كالمعلوم من الدين بالضرورة، أن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضار في الدنيا أمر مأمور به شرعاً لا ينافي التوكل على الله بحال؛ لأن المكلف يتعاطى السبب امتثالاً لأمر ربه مع علمه ويقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء الله وقوعه، فهو متوكل على الله، عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر ولو شاء الله تخلف تأثير الأسباب عن مسبباتها(١).

{٢} **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم أنه على هذا القول الذي اختاره ابن كثير أن المراد بقوله: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ أي: قولي ذلك بالإشارة، يدل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام؛ لأنها في هذه الآية سميت قولاً على هذا الوجه من التفسير، وسمع في كلام العرب كثيراً إطلاق الكلام على الإشارة كقوله:

إذا كَلَّمَتْنِي بالعُيُون الفَوَاتِرِ ... رَدَدْتُ عليها بِالدُّمُوعِ البَوَادِرِ

فمن الأدلة على قيام الإشارة مقام الكلام: قصة الأمة السوداء التي قال لها رسول الله ﷺ: «**أين الله؟**» فأشارت إلى السماء. فقال رسول الله ﷺ: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»(٢) فجعل إشارتها كنطقها في الإيمان الذي هو أصل الديانات.

وروى ابن القاسم عن مالك أن الأخرس إذا أشار بالطلاق أنه يلزمه.

وقال الشافعي في الرجل يمرض فيختل لسانه: فهو كالأخرس في الرجعة والطلاق.

---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٢٥٠، ٢٥١).

وقال القاسمي: استدل بقوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ على التسبب في الرزق وتكلف الكسب وإليه أشار القائل:

أَلَم تَرَ أَنَّ اللَّهَ قَالَ لِمريم ... وهُزِّي إِلَيْكِ الجِذْعَ يَسَّاقَطُ الرُّطَبْ

ولو شاء أحنى الجذع من غير هزِّةٍ ... إليها ولكِنْ كُلُّ شيءٍ له سَبَبْ

(٢) رواه مسلم (٥/ ٢٣، ٢٤) «المساجد»، ومالك في «الموطأ» (٢/ ٧٧٦، ٧٧٧)، وأبو داود (٣٢٦٠) «الأيمان والنذور»، والنسائي (٦/ ٢٥٢) «الوصايا».

وقال أبو حنيفة: ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف، وإن شك فيه فهذا باطل[(١)].

{٣} **قال القرطبي**: قال الربيع بن خثيم: ما للنفساء عندي خير من الرطب لهذه الآية ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ ولو علم الله شيئاً هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم ولذلك قالوا: التمر عادة للنفساء في ذلك الوقت، وكذلك التحنيك، وقيل: إذا عسر ولادتها لم يكن لها خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل ذكره الزمخشري[(٢)].

{٤} **وقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن التزم بالنذر ألا يكلم أحداً من الآدميين فيحتمل أن يقال: إنه قربة فيلزم بالنذر، ويحتمل أن يقال: ذلك لا يجوز في شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام في الشمس ونحوه، وعلى هذا كان نذر الصمت في تلك الشريعة لا في شريعتنا.

قال: ومن سنتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح قال عليه الصلاة والسلام: **«إذا كَانَ أَحَدُكُمْ صَائِماً فَلا يَرفُث ولا يجهل فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم»**[(٣)]. وقال عليه الصلاة والسلام: **«من لم يدع قول الزور والعملَ به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»**[(٤)].

{٥} **قال القاسمي**: نقل الرازي عن القاضي في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ ...﴾ إلخ أن السلام عبارة عما يحصل به الأمان، ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات، فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله بيحيى ولا بدّ في الأنبياء من أن يكونوا مستجابي الدعوة، وأعظم أحوال الإنسان احتياجاً إلى السلامة هي هذه الأحوال الثلاثة، وهي يوم الولادة ويوم الموت

---

(١) باختصار من «الأضواء» (٤/ ٢٥٥، ٢٥٦). وراجع المسألة بالتفصيل (٤/ ٢٥٥ - ٢٦٦): «أضواء البيان»، و«الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤١٤٣، ٤١٤٤).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤١٣٥).

(٣) رواه البخاري (٤/ ١٠٣) «الصوم»، ومسلم (٨/ ٣٢) «الصيام».

(٤) رواه مسلم (٥/ ٤١٣٧).

والحديث رواه البخاري (٤/ ١١٦) «الصوم»، وأبو داود (٦/ ٤٨٨) «الصوم»، والترمذي (٣/ ٢٢٦) «الصوم».

ويوم البعث، فجميع الأحوال التي يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قِبَلِهِ تعالى، طلبها ليكون مصوناً عن الآفات والمخافات في كل الأحوال[١].

{٦} **قال الأستاذ سيد قطب** رَحِمَهُ اللَّهُ: لقد جرت سنّة الله التي وضعها لامتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى في جميع الفصائل والأنواع بلا استثناء جرت هذه السنة أحقاباً طويلة، حتى استقر في تصور البشر أن هذه الطريقة الوحيدة ونسوا الحادث الأول حادث وجود الإنسان؛ لأنه خارج عن القياس، فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ ليذكرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة وأنها لا تحتبس داخل النواميس التي تختارها، ولم يتكرر حادث عيسى لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله وأن ينفذ الناموس الذي اختاره، وهذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار البشرية مَعْلَماً بارزاً على حرية المشيئة وعدم احتباسها داخل حدود النواميس ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾[٢].

---

(١) «محاسن التأويل» (١١/ ١٢٣).

(٢) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٣٠٥).

معجزاته عليه السلام وخبر نزول المائدة وبراءة عيسى من افتراء النصارى

قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٠ ـ ١١٨].

قال القاسمي رحمه الله: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ أي: منتي عليك ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ بما طهرها واصطفاها على نساء العالمين ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ أي: قويتك

﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: بجبريل ﷺ، لتثبيت الحجة أو نجعل روحك طاهرة عن العلائق الظلمانية؛ بحيث يعلم أنه ليس بواسطة البشر فيشهد ببراءتك وبراءة أمك، ومن ذلك التأييد قَوَّيْتُ نفسَك الناطقة لذلك ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: في أضعف الأحوال وأقواها بكلام واحد، في حين الطفولة وحين الكهولة الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد(١).

وقال ابن كثير: أي: جعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك فأنطقتك في المهد صغيراً فشهدت ببراءة أمك من كل عيب واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك، ودعوتك إلى عبادتي؛ ولهذا قال: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: تدعو إلى الله الناسَ في صغرك وكبرك، وضمّن ﴿تُكَلِّمُ﴾ تدعو؛ لأن كلامه إلى الناس في كهولته ليس بأمر عجيب(٢).

وقال الألوسي: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: جنسهما وقيل: الكتاب: الخط، والحكمة: الكلام المحكم الصواب ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ خصهما بالذكر إظهاراً لشرفهما ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ أي: تصور ﴿مِنَ ٱلطِّينِ﴾ أي: جنسه ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ أي: هيئته مثل هيئته ﴿بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ أي: في تلك الهيئة المشبهة ﴿فَتَكُونُ﴾ بعد نفخك من غير تراخٍ ﴿طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ أي: حيواناً يطير كسائر الطيور.

﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ عطف على ﴿تَخْلُقُ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ وأعيدت فيه «إذ» لكون إخراج الموتى من قبورهم بعدما صاروا رميماً معجزة باهرة حَريَّة بتذكير وقتها صريحاً(٣).

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ يعني: اليهود حين هموا بقتله ولم يتمكنوا منه.

﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الواضحة.

﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠]:

قال القاسمي: إن قيل: إن السياق في تعديد نعمة الله تعالى على

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٤٢٥). (٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١١٥).
(٣) «روح المعاني» (٧/ ٥٧، ٥٨).

عيسى ﷺ وقول الكفار في حقه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ليس من النعم بحسب الظاهر فما السر في ذلك؟ فالجواب: أن من الأمثال المشهورة: «إن كل ذي نعمة محسود» فطعن اليهود بهذا الكلام يدل على أن نعم الله تعالى في حقه كانت عظيمة، فحسن ذكره عند تعديد النعم[١].

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١]:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وهذا أيضاً من الامتنان عليه ﷺ بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً، ثم قيل: المراد بهذا الوحي وحي إلهام كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية: أي: ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا، قال الحسن البصري: ألهمهم الله ﷻ ذلك.

قال ابن كثير: ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك فقالوا: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: ١١٢]:

قال الزمخشري: وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم، وكذلك قول عيسى ﷺ لهم معناه: اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ولا تقترحوا عليه، ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة، وقرئ «هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ» أي: هل تستطيع سؤال ربك، والمعنى: هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله، والمائدة: الخوان إذا كان عليه طعام[٣].

---

(١) «محاسن التأويل» (٦/ ٤٢٧).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١١٥).
(٣) «الكشاف» (١/ ٦٩٣).

﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: ١١٣]:

قال العلامة محمد رشيد رضا: أي: نطلبها لأربع فوائد:

إحداها: أننا نريد أن نأكل منها لأننا في حاجة إلى طعام، ولا نجد ما يسد حاجتنا، وقيل: المراد أكل التبرك.

الثانية: نريد أن تطمئن قلوبنا بما نؤمن به من قدرة الله بمشاهدة خرقه للعادة؛ أي: بضم علم المشاهدة واللمس والشم إلى علم السمع منك وعلم النظر والاستدلال.

الثالثة: أن نعلم هذا النوع من العلم ـ أي: علم المشاهدة ـ أي: الحال والشأن معك هو أنك قد صدقتنا ما وعدتنا من ثمرات الإيمان كاستجابة الدعاء ولو بخوارق العادات.

الرابعة: أن نكون من الشاهدين على هذه الآية عند بني إسرائيل فيؤمن المستعد للإيمان ويزداد الذين آمنوا إيماناً. فهذا ما نراه في توجيه أقوالهم على المختار من صحة إيمانهم.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٤]:

أي: لما علم عيسى عليه السلام صحة قصدهم، وأنهم لا يريدون تعجيزاً ولا تجربة، دعا الله تعالى بهذا الدعاء، فناداه باسم الذات الجامع لمعنى الألوهية والقدرة والحكمة والرحمة وغير ذلك فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ ومعناه: يا الله، ثم باسم الرب الدال على معنى الملك والتدبير والتربية والإحسان خاصة، فقال: ﴿رَبَّنَآ﴾ أي: يا ربنا ومالكنا كلنا ومتولي أمورنا ومربينا أنزل علينا مائدة سماوية جثمانية أو ملكوتية، يراها هؤلاء المقترحون بأبصارهم وتتغذى بها أبدانهم أو أرواحهم، ولم يقل: من السماء لشمل الطلب إعطاءهم مائدة من الأرض ولو بطريقة عادية.

ثم وصف عيسى عليه السلام هذه المائدة بما أحب أن يستفاد من إنزالها، فقال في وصفها: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي: عيداً خالصاً بنا معشر المؤمنين دون غيرنا، أو تكون كرامة ومتاعاً لنا في عيدنا.

وكلمة العيد تستعمل بمعنى: الفرح والسرور، وبمعنى: الموسم الديني أو المدني الذي يجتمع له الناس في يوم معين أو أيام معينة من السنة للعبادة أو لشيء آخر من أمور الدنيا.

وقوله: ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ معناه: وتكون آية وعلامة منك على صحة نبوتي ودعوتي[1].

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٥]:

قال القرطبي رحمه الله: هذا وعد من الله تعالى أجاب به سؤال عيسى كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين، وهذا يوجب أنه قد أنزلها ووعده الحق، فجحد القوم وكفروا بعد نزولها فمسخوا قردة وخنازير، قال ابن عمر: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون».

قال: واختلف العلماء في المائدة: هل نزلت أم لا؟ فالذي عليه الجمهور ـ وهو الحق ـ نزولها لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾[2].

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]:

قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى أنه يسأل عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة على سبيل الإكرام له، والتقريع والتوبيخ لعابديه ممن كذب عليه وافترى وزعم أنه ابن الله أو أنه الله أو أنه شريكه تعالى الله عما يقولون. فيسأله وهو يعلم أنه لم يقع منه ما يسأله عنه، ولكن لتوبيخ من كذب عليه فيقول له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: تعاليت أن يكون معك شريك. ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي: ليس هذا يستحقه أحدٌ سواك ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وهذا تأدب عظيم في الخطاب والجواب ﴿مَا قُلْتُ

---

(١) «تفسير المنار» (٧/ ٢٥٢، ٢٥٣) باختصار.

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٢٣٦٦) باختصار.

لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ أي: ما قلت غير ما أمرتني به حين أرسلتني إليهم على الكتاب الذي كان يتلى عليهم، ثم فسر ما قاله لهم بقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ أي: خالقي وخالقكم ورازقي ورازقكم ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ أي: رفعتني إليك حين أرادوا قتلي وصلبي فرحمتني وخلصتني منهم وألقيت شبهي على أحدهم حتى انتقموا منه، فلما كان ذلك ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثم قال على وجه التفويض إلى الرب ﷻ والتبري من أهل النصرانية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي: وهم يستحقون ذلك.

﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهذا التفويض والإسناد إلى المشيئة بالشرط لا يقتضي وقوع ذلك، ولهذا ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: الغفور الرحيم[(١)].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ **فوائد وآثار إيمانية:**

{١} **قال الأستاذ سيد قطب** رحمه الله: يكشف لنا هذا الحوار - حوار طلب المائدة - عن طبيعة قوم عيسى المستخلصين منهم - وهم الحواريون - فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا ﷺ فرق بعيد.

إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى فآمنوا وأشهدوا عيسى على إسلامهم، ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا يطلبون خارقة جديدة تطمئن بها نفوسهم، ويعلمون منها أنه صدقهم ويشهدون بها لمن وراءهم.

فأما أصحاب محمد ﷺ فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم، لقد آمنت واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان، ولقد صدّقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهانَ، ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن[(٢)].

---

(١) «قصص الأنبياء» (٥٨٦، ٥٨٧). (٢) «في ظلال القرآن» (٢/ ٩٩٨) بتصرف.

{٢} **يقول العلامة محمد رشيد رضا:** إن هذه العبادة التي توجهها النصارى إلى مريم والدة المسيح ﷺ منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء واستغاثة واستشفاع، ومنها صيام ينسب إليها ويسمى باسمها، وكل ذلك يقرن بالخضوع والخشوع لذكرها ولصورها وتماثيلها واعتقاد السلطة الغيبية لها التي يمكنها بها في اعتقادهم أن تنفع وتضر في الدنيا والآخرة بنفسها أو بواسطة ابنها، وقد صرحوا بوجوب العبادة لها، ولكن لا نعرف عن فرقة من فرقهم إطلاق كلمة (إله) عليها بل يسمونها (والدة الإله) ويصرح بعض فرقهم بأن ذلك حقيقة لا مجاز. والقرآن يقول هنا: إنهم اتخذوها وابنها إلهين، والاتخاذ غير التسمية، فهو يصدق بالعبادة وهي واقعة قطعاً، وبيّن في آية أخرى أنهم قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢] وذلك معنى آخر، وقد فسر النبي ﷺ قوله تعالى في أهل الكتاب: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] أنهم اتبعوهم فيما يحلون ويحرمون لا أنهم سموهم أرباباً[١].

{٣} **الغلو في المخلوق سبب شرك الأمم:** فالنصارى ـ لعنهم الله ـ غلوا في عيسى ﷺ حتى جعلوه ابن الله أو ثالث ثلاثة، وقد رَدَّ الله ﷻ عليهم ذلك بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٣ ـ ٧٥].

قال ابن كثير رحمه الله: بيّن حال المسيح وأمه وأنه عبد رسول، وأمه صديقة؛ أي: ليست بفاجرة كما يقول اليهود لعنهم الله، وفيه دليل على أنها ليست بنبية كما زعمه طائفة من علمائنا، وقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] كناية عن خروجه منهما كما يخرج من غيرهما؛ أي: من كان

(١) «تفسير المنار» (٧/ ٢٦٢، ٢٦٣).

بهذه المثابة كيف يكون إلهاً، تعالى الله عن قولهم وجهلهم علواً كبيراً[١].اهـ.

ولما كان الإطراء والغلو في المخلوق من أعظم أسباب شرك الأمم نهى النبي ﷺ عن إطرائه فقال ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»[٢].

(١) «قصص الأنبياء» (٥٨٥، ٥٨٦).

(٢) رواه البخاري (٦/٤٧٨) «الأنبياء»، وهذا الحديث طرف من حديث السقيفة. ورواه البغوي في «شرح السنة» (١٣/٢٤٦) «الفضائل».

رفع عيسى عليه السلام
وكذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب

قال الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقد تقدم شرح الآية في الفضائل.

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٥ ـ ١٥٩].

قال ابن كثير رحمه الله: وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه، أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يبرئ بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشهد طيرانه بإذن الله ﷻ إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها، وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان، وكان رجلاً مشركاً من عبَدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته: اليونان وأنهوا إليه أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه،

فغضب الملك من هذا وكتب لنائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ويكف أذاه عن الناس، فلما وصل الكتاب امتثل والي بيت المقدس ذلك وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى ﷺ، وهو في جماعة من أصحابه اثني عشر أو ثلاثة عشر، وقيل: سبعة عشر نفراً، وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت فحصروه هنالك، فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم، قال لأصحابه: أيكم يلقى عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو، وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، وفتحت روزنة من سقف البيت، وأخذت عيسى ﷺ سِنة من النوم فرفع إلى السماء، وهو كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ...﴾ الآية، فلما رفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾[(١)].

انتهى بحمد الله ما جمعناه، والله الموفق لما يحبه ويرضاه ويمنّ علينا بإتمام ما بدأناه، ويرزقنا بره وذخره يوم نلقاه.

(١) باختصار من «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٥٧٣، ٥٧٤).

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة آدم عليه السلام

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة آدم عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٩].

وقبل أن نبدأ في شرح هذه الآيات الكريمات التي تبين لنا كيف خلق الله ﷻ آدم عليه السلام، وهذا لا شك من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله؛ لأن الغيب يشمل الماضي والمستقبل: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] نبدأ بالتعرف على آدم عليه السلام، وهو أيضاً من الغيب، ولا سبيل إلى معرفة الغيب إلا الكتاب والسنة الصحيحة.

□ كيف خلق آدم عليه السلام؟:

آدم عليه السلام هو أبو البشر، وأول الأنبياء، خلافاً لما يزعمه الفلاسفة من أن

البشرية كانت علىٰ الشِّرْكِ في ابتداء أمرها، فعبدت الشمس والقمر والشجر والبقر باجتهادها، ويدل على بطلان هذا القول كذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما وهو في حكم الرفع: **«كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها على الإسلام»**(١).

وخلافاً لما يزعمه اليهودي «دارون» في نظريته التي ألقيت في مزبلة التاريخ، حيث شهد الشرع والعقل ببطلانها، وهو أن الإنسان إنما هو حيوانٌ متطور عن قردٍ! وإنما نشأ لهم هذا الضلال المبين، والإفك المشين؛ لأنهم عَمِيتْ أعينهم عن وحي السماء، وطُمِسَتْ قلوبهم فلم تَعِ ما جاءت به الأنبياء ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وهذا الوحي الصادق القرآن والسنة الصحيحة، يبين له كيف خُلِقَ آدم عليه السلام، وما هي صفته، وكيف خُلِقَتْ منه زوجته.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: ٥٩].

عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: **«إنَّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدْرِ الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحَزَنُ وبين ذلك»**(٢).

وعن أنس رَفَعَهُ: **«لما خلق الله آدم تركه ما شاء الله أن يدعه، فجعل**

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٤٤٢) عن ابن عباس موقوفاً، وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الترمذي (١١/ ١٦، ١٧) «عارضة التفسير»، وأبو داود (٤٦٦٨) «السنة»، باب «القدر».

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٦٣٠)
وقوله: **«فجاء بنو آدم على قدر الأرض»**:
قال شمس الحق أبادي: قال في «النهاية»: أي: مبلغها من الألوان والطباع جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود بحسب ترابهم وهذه الثلاثة هي أصول الألوان وما عداها مركب منها وهو المراد بقوله: **«بين ذلك»** أي: بين الأحمر والأبيض والأسود باعتبار أجزاء أرضه، قاله القاري. و«السهل» أي: منهم السهل؛ أي: اللين المناقد، و«الحزن» أي: الغليظ الطبع، و«الخبيث» أي: خبيث الخصال. «عون المعبود» (١٢/ ٤٥٦، ٤٥٧).

إبليس يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه لا يتمالك»[١].

قال الحافظ: وآدم اسم سرياني وهو عند أهل الكتاب «آدَام» بإشباع فتحة الدال بوزن خاتام، وزنه فاعال، وامتنع صرفه للعُجمة والعلمية.

وقال الثعلبي: التراب بالعبرانية آدام فسمي آدم به، وحُذفت الألف الثانية، وقيل: هو عربي، جزم به الجوهري والجواليقي، وقيل: هو بوزن أفعل من الأدمة، وقيل: من الأديم؛ لأنه خلق من أديم الأرض، وهذا عن ابن عباس[٢].

□ **أما عن صفته عليه السلام:**

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب فسلِّم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يجيبونك، تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»**[٣] وقال ﷺ: **«إنَّ الله تعالى خلق آدم على صورته»**[٤].

قال العلامة حمود بن عبد الله بن حمود التويجري: قال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله تعالى في ردِّه على الرازي: «إن هذا الحديث مستفيضٌ من طرق متعددة عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم، وأنه لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أن الضمير عائد إلى الله تعالى، وأن سياق الأحاديث كلها تدل على ذلك».

وقال أيضاً: «إن الأمة قد اتفقت على تبليغه وتصديقه، ولكن لما

---

(١) رواه مسلم (١٦/ ١٦٤) «البر»، وأحمد (٣/ ١٥٢، ٢٢٩، ٢٤٠، ٢٥٤).
قال النووي: ومعنى: **«لا يتمالك»**، لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب، والمراد جنس بني آدم. «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٦/ ١٦٤).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٣٦٤).

(٣) رواه البخاري (٦/ ٣٦٢) «أحاديث الأنبياء»، ومسلم (٢٨٤١) في «الجنة» باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير.

(٤) رواه أحمد (٢/ ٣٢٣)، وقال الألباني في «الصحيحة» (١٠٧٧): الحديث بطرقه صحيح.

انتشرت الجهمية في المائة الثالثة جعل طائفةٌ الضمير فيه عائداً إلى غير الله تعالى» وسيأتي كلامه في الرد على هذه الطائفة مستوفى إن شاء الله تعالى[(١)].

أما عن زوج آدم فلم يحدثنا القرآن عن اسمها، ولا عن كيفية خلقها، بل أشار إلى ذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وأكثر المفسرين يذهبون إلى أن الله ﷻ خلقها من ضِلَع آدم، وربما يستأنسون لذلك بقوله ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خُلقن من ضلع، وإن أعوج ما في الضِلَع أعلاه**»[(٢)].

وذهب بعضهم إلى أن معنى قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] أي: خلقها من جنسه، حتى لا يكون بينهما تنافر[(٣)].

ولنبدأ في شرح الآيات الكريمات في القصة ثم نردف ذلك بالفوائد والآثار الإيمانية:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]:

قال القاسمي: أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

وقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف: ٦٠][(٤)].

---

(١) عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمٰن (ص٥)، دار اللواء.

(٢) رواه البخاري (٦/٣٦٣) «الأنبياء» قال القرطبي: قال العلماء: ولهذا كانت المرأة عوجاء لأنها خلقت من أعوج وهو الضلع وقال الشاعر:

هِيَ الضِّلْعُ العَوْجَاءُ لَسْتَ تُقِيمُهَا ... أَلَا إِنَّ تَقْوِيْمَ الضُّلُوعِ انْكِسَارُهَا
أَتَجْمَعُ ضَعْفاً وَاقْتِدَاراً عَلَى الفَتَى ... أَلَيْسَ عَجِيباً ضَعْفُهَا وَاقْتِدَارُهَا

(٣) انظر: «القصص القرآني إيماؤه ونفحاته» للدكتور فضل حسن عباس (ص٦٢)، دار الفرقان.

(٤) «محاسن التأويل» (١/ ٩٤، ٩٥).

وقال الشنقيطي رحمه الله: وقوله: «**خليفة**» وجهان في التفسير للعلماء.

أحدهما: أن المراد بالخليفة أبونا آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام؛ لأنه خليفة الله في أرضه في تنفيذ أوامرِه، وقيل: لأنه صار خلفاً من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبله.

الثاني: أن قوله: «**خليفة**» مفردٌ أريد به الجمعَ؛ أي: خلائف، وهو اختيار ابن كثير، والمفرد إذا كان اسم جنس يكثر في كلام العرب إطلاقه مراداً به الجمع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر: ٥٤] يعني: وأنهار، بدليل قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥]، وإذا كانت الآية الكريمة تحتمل الوجهين المذكورين، فاعلم أنه قد دلت آياتٌ أُخَرُ على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالخليفة: الخلائف من آدم وبنيه لا آدم نفسه وحده كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ...﴾ الآية [البقرة: ٣٠] والمعلوم أن آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ليس ممن يفسد فيها، ولا ممن يسفك الدماء، وكقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية [فاطر: ٣٩] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ...﴾ الآية [الأنعام: ١٦٥]. وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ...﴾ الآية [النمل: ٦٢] ونحو ذلك من الآيات[١].

قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قال الزمخشري: فإن قلتَ: لأي غرضٍ أخبرهم بذلك؟ قلت: ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به، فيعرفوا حكمته في استخلافهم قبل كونهم، صيانةً لهم عن اعتراض الشبهةِ في وقت، وقيل: ليعلِّمَ عبادَه المشاورةَ في أمورهم قبل أن يقدموا عليها، وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة[٢].

وقال القاسمي: هذا تعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها،

---

(١) «أضواء البيان» (١/ ٤٨، ٤٩) باختصار.

(٢) «الكشاف» (١/ ١٢٤)، الريان.

من يفسد فيها، واستعلام عن الحكمة في ذلك؛ أي: كيف تستخلف هؤلاء مع أن منهم من يفسد الأرض ويسفك الدماء فإن كان المراد عبادتك، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ـ أي: لا يصدر عنا شيء من ذلك ـ وهلا وقع الاقتصار علينا...؟ فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: إن لي حكمةً في خلق الخليقة لا تعلمونها(١).

ثم بين الله تعالى لهم شيئاً من حِكْمته في تفضيل آدم وذريته واستخلافهم في الأرض فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣١، ٣٢].

قال القاسمي: ولما بيّن ﷻ لهم أولاً على وجه الإجمال والإبهام أن في الخليفة فضائلَ غائبةً عنهم ليستشرفوا إليها، أبرز لهم طرفاً منها ليعاينوه جهرة، ويظهر لهم بديعُ صُنعِهِ وحكمته، وتنزاح شبهتهم بالكلية، فقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ...﴾ الآية(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: ثم بيّن لهم شرف آدم عليهم في العلم، فقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ قال ابن عباس: هي الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وجمل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها(٣).

قال الشنقيطي: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ يعني: مسميات الأسماء لا الأسماء كما يتوهم من ظاهر الآية، وقد أشار إلى أنها المسميات بقوله: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ...﴾ الآية، كما هو ظاهر(٤).

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة: ٣٢]:

قال القاسمي: تقديسٌ وتنزيهٌ من الملائكة لله تعالى: أن يحيط أحدٌ بشيء من علمه، إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى، واعتراف

(١) «محاسن التأويل» (٢/ ٩٥، ٩٦).
(٢) «محاسن التأويل» (٢/ ٩٨).
(٣) «قصص الأنبياء» (٩).
(٤) «أضواء البيان» (١/ ٦١).

منهم بالعجز والقصور عما كُلِّفوهُ، وأنه العالم بكل المعلومات التي من جملتها استعداد آدم عليه السلام لما نحن بمعزل عن الاستعداد له من العلوم الخفية المتعلقة بما في الأرض من أنواع المخلوقات التي عليها يدور فلك خلافة الحكيم، الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحِكمة، ومن جملته: تعليم آدم عليه السلام ما هو قابل له من العلوم الكلية والمعارف الجزئية المتعلقة بالأحكام الواردة على ما في الأرض وبناء الخلافة عليها[1].اهـ.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣٣]:

قال أبو جعفر ابن جرير الطبري: إن الله جل ثناؤه عرَّف ملائكته الذين سألوه أن يجعلهم الخلفاء في الأرض، ووصفوا أنفسهم بطاعته والخضوع لأمره دون غيرهم الذين يفسدون فيها ويسفكون الدماء، أنهم من الجهل بمواقع تدبيره، ومحل قضائه قبل إطلاعه إياهم عليه على نحو جهلهم بأسماء الذين عرضهم عليهم إذ كان ذلك عالم يعلمهم فيعلموه، وأنهم وغيرهم من العباد لا يعلمون من العلم إلا ما علمهم إياه ربهم، وأنه يخص بما شاء من العلم من شاء من الخلق ويمنعه منهم من شاء، كما علم آدم أسماء ما عرض على الملائكة ومنعهم علمها إلا بعد تعليمه إياهم[2].

وبعد أن أظهر الله عز وجل مزية آدم عليه السلام واستحقاقه للخلافة تمنن عليه بكرامة عظيمة فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، وقد دل على ذلك أحاديث أيضاً كثيرة، منها: حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى عليه السلام: «**ربِّ أرني آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة، فلما اجتمع به**

(١) «محاسن التأويل» (٢/ ٩٩، ١٠٠).
(٢) «جامع البيان في تفسير القرآن» (١/ ١٧٥)، دار المعرفة.

قال: **أنت آدم الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته**»[١].

وقال رحمه الله **في «القصص»**: فهذه أربع تشريفات، خَلْقُه بيده الكريمة، وَنَفْخُهُ من روحه، وأمْرُهُ الملائكة بالسجود له، وتعليمُهُ أسماء الأشياء، ولهذا قال له موسى الكليم حين اجتمع هو وإياه في الملإ الأعلى وتناظرا كما سيأتي: «**أنت آدم أبو البشر، الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء**» وهكذا يقول له أهل المحشر يوم القيامة كما تقدم[٢].

قال القاسمي: للناس في هذا السجود أقوال: أحدها أنه تكريم لآدم وطاعة لله ولم يكن عبادة لآدم، وقيل: السجود لله، وآدمُ قِبْلَةٌ، أو السجود لآدم تحية، أو السجود لآدم عبادة بأمر الله وفرضه عليهم، ذكر ابن الأنباري عن الفراء وجماعة من الأئمة أن سجود الملائكة لآدم كان تحية ولم يكن عبادة، وكان سجودَ تعظيم وتسليم وتحية لا سجود صلاة وعبادة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: قال أهل العلم: السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه وعلى هذا إجماع كل من يُسْمَعُ قوله، فإن الله تعالى قال: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ ولم يقل: إلى آدم، وكل صرف له معنى، وفَرْقٌ بين «سَجَدتُ له» وبين «سجدتُ إليه» قال الله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ [فصلت: ٣٧] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥] أجمع المسلمون على أن السجود للأحجار والأشجار والدواب محرم، وأما الكعبة فيقال: كان النبي ﷺ يصلي إلى بيت المقدس ثم صلى إلى الكعبة، ولا يقال: صلى لبيت المقدس ولا للكعبة، والصواب: أن الخضوع بالقلوب والاعتراف بالعبودية لا يصلح على الإطلاق إلا لله سبحانه، وأما السجود فشريعة من الشرائع، يتبع الأمر، فلو أمرنا سبحانه أن نسجد لأحدٍ من خلقه لسجدنا طاعة واتباعاً لأمره، فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة وقربة يتقربون بها إليه، وهو لآدم تشريف وتعظيم وتكريم، وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام، ولم يأت

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٧٥)، دار المعرفة، بيروت.
(٢) «قصص الأنبياء» (١١).

أن آدم سجد للملائكة، بل لم يؤمر بالسجود إلا لله رب العالمين، وبالجملة أهل السنة قالوا: إنه سجود تعظيم وتكريم وتحية له. وقالت المعتزلة: كان آدم كالقبلة يسجد إليه ولم يسجدوا له. اهـ ملخصاً(١).

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]:

قال الشنقيطي رحمه الله: لم يبين هنا موجب استكباره في زعمه، ولكنه بينه في مواضع أخر، كقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: ٣٣].

تنبيه: مثل قياس إبليس نفسه على عنصره الذي هو من النار، وقياسه آدم على عُنصرِهِ الذي هو الطين، واستنتاجه من ذلك أنه خير من آدم، ولا ينبغي أن يؤمر بالسجود لمن هو خير منه، مع وجود النص الصريح الذي هو قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ يسمى في اصطلاح الأصوليين «فاسد الاعتبار»، وإليه الإشارة بقول صاحب مراقي السعود:

«والخلص للنَّص أو إجماع دعا ... فساد الاعتبار كل من وعى»(٢)

فكل من رد نصوص الوحي بالأقيسة فسلفه في ذلك إبليس(٣).

---

(١) «محاسن التأويل» (٢/ ١٠١، ١٠٢). (٢) لعلها: والخُلْفُ.

(٣) أحب أن أنبه هنا إلى خطأ صاحب المنار ـ رحمه الله وغفر له ـ حيث إنه جزم بأن إبليس من الملائكة فيقول رحمه الله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أي: سجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس وهو فرد من أفراد الملائكة كما يفهم من الآية وأمثالها في القصة إلا آية الكهف فإنها ناطقة بأنه كان من الجن: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ (المنار: ١/ ٢٦٥)، ولو أنصف رحمه الله لقال هذه الآية في سورة الكهف نص في محل النزاع أما قوله: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فيجوز في اللغة أن يكون المستثنى خلاف المستثنى منه كما تقول مثلاً: خرج التلاميذ إلا المدرس، ثم قال رحمه الله: «وليس عندنا دليل على أن بين الملائكة والجن فصلاً جوهرياً يميز أحدهما عن الآخر» وهذا أيضاً مردود بقول النبي ﷺ: **«وخلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم...»** الحديث رواه مسلم (١٨/ ١٢٣ ـ نووي). والمارج: لهب النار المختلط بسوادها.

وقياس إبليس هذا ـ لعنه الله ـ باطل من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه فاسد الاعتبار لمخالفة النَّص الصريح كما تقدم قريباً.

الثاني: أنا لا نسلم أن النار خير من الطين، بل الطين خير من النار؛ لأن طبيعتها الخفة والطيش والإفساد والتفريق، وطبيعته الرزانة والإصلاح فتودِعُهُ الحبةَ فيعطيكها سنبلة، والنواة فيعطيكها نخلة. وإذا أردت أن تعرف قدر الطين فانظر إلى الرياض الناضرة وما فيها من الثمار اللذيذة والأزهار الجميلة، والروائح الطيبة، تعلم أن الطين خير من النار.

الثالث: أنا لو سلمنا تسليماً جدلياً أن النار خير من الطين، فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم؛ لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع، بل قد يكون الأصل رفيعاً والفرع وضيعاً، كما قال الشاعر:

وإِذَا افْتَخَرْتَ بِآبَاءٍ لَهُمْ شَرَفٌ ... قُلْنَا صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْس مَا وَلَدُوا[(١)]

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ

= والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون أما الجن فكما قال الله تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: ١٤، ١٥]. ثم قال رحمه الله بعد ذلك: «فالظاهر أن الجن صنف من الملائكة». مع أنه رحمه الله سمي وازع الإيمان في نفس العبد ملكاً حيث قال في موضع آخر (المنار: ٢٦٨): «يشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير، ووجه للباطل أو للشر، بأن في نفسه تنازعاً كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى فهذا يورد وذاك يدفع وأحد يقول: افعل، وآخر يقول: لا تفعل حتى ينتصر أحد الطرفين ويترجح أحد الخاطرين فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكراً، وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه، وروح لا تُكْتنه حقيقتها، لا يبعد أن يسميه الله تعالى: ملكاً (أو يسمي أسبابه: ملائكة) أو ما شاء من الأسماء، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع.

وهذا الكلام فساده يغني عن توجيه النقد إليه، فإن الملائكة مخلوقات نورانية وصفهم الله تعالى بأن لهم أجنحة مثنى وثلاث ورباع إلى غير ذلك من صفاتهم، والواجب على المسلم أن يتعرف عليهم وأن يؤمن بما ورد في الكتاب والسنة من صفاتهم ووظائفهم لأن ذلك من أصول الإيمان الستة.

(١) «أضواء البيان» (١/ ٦٢، ٦٣).

شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥]:

اختلف العلماء في الجنة التي أُدخلها آدم: هل هي في السماء أو في الأرض؟

قال ابن كثير رحمه الله: والجمهور على أنها هي التي في السماء، وهي جنة المأوى، لظاهر الآيات والأحاديث، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] والألف واللام ليست للعموم، ولا لمعهود لفظي، وإنما تعود على معهود ذهني، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى، وكقول موسى عليه السلام لآدم عليه السلام: «**علام أخرجتنا ونفسك من الجنة**»[١].

وعن أبي هريرة وحذيفة قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا.. استفتح لنا الجنة. فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم؟...**» وذكر الحديث بطوله[٢].

هذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنَّة المأوى، وليست تخلو عن نظر[٣].

وقال آخرون: بل الجنة التي أُسكنها آدم لم تكن جنةَ الخلد؛ لأنه كلف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة، ولأنه نام فيها، وأخرج منها، ودخل عليه إبليس فيها، وهذا مما ينافي أن تكون جنة المأوى[٤].

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ﴾ [البقرة: ٣٦]:

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: ويا للتعبير المصور «أَزَلَّهُمَا» إنه لفظ يرسم صورة الحركة التي يعبر عنها، وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما

(١) رواه البخاري (١١/٥٠٥) «القدر»، ومسلم (١٦/٢٠٢) «القدر»، وأبو داود (٤٦٧٦)، والترمذي (٨/٢٩٨) «القدر».

(٢) الحديث رواه مسلم (٣/٦٩، ٧٠) «الشفاعة».

(٣) انظر تحقيق المسألة في: «حادي الأرواح» لابن القيم رحمه الله.

(٤) «قصص الأنبياء» (١/٥٢).

عن الجنة، ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوى[١].

يقول الشيخ أبو بكر الجزائري: أخبر تعالى أن الشيطان أوقع آدم وزوجه في الخطيئة، حيث زين لهما الأكل من الشجرة فأكلا منها فبدت لهما سوءاتها، فلم يصبحا أهلاً للبقاء في الجنة، فأهبطا إلى الأرض مع عدوهما إبليس ليعيشوا بها بعضهم لبعض عدو، إلى نهاية الحياة[٢].

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧]:

قال الزمخشري: معنى تلقِّي الكلمات: استقبالها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها، وقُرئ بنصب «آدمَ» ورفع الكلمات، على أنها استقبلته بأن بلغته واتصلت به، فَإن قلتَ: ما هن؟ قلتُ: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ...﴾ الآية[٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]:

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته حين أهبطهم من الجنة ـ والمراد الذرية ـ أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل والبينات والبيان. وقال مقاتل بن حيان: «الهدى» محمد ﷺ، وقال الحسن: «الهدى» القرآن، وهذان القولان صحيحان، وقول أبي العالية أعم. ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ أي: من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا كما في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣]. قال ابن عباس: فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤] كما

(١) «في ظلال القرآن» (١/ ٥٢).
(٢) «أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير» (١/ ٣٩).
(٣) «الكشاف» (١/ ١٢٨).

قال ههنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٩] أي: مخلدون لا محيد لهم عنها ولا محيص[١].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال القرطبي**: هذه الآية - أي: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ...﴾ - أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطاع، لتجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الخليفة، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة، إلا ما روي عن الأصم حيث كان عن الشريعة أصم، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه، قال: إنها غير واجبة في الدين بل يسوغ ذلك، وإن الأمة متى أقاموا حَجَّهم وجهادهم وتناصفوا فيما بينهم وبذلوا الحق من أنفسهم وقسموا الغنائم والفيء، والصدقات على أهلها وأقاموا الحدود على من وجبت عليه أجزأهم ذلك ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماماً يتولى ذلك!! ودليلنا قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، وَقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] أي: يجعل منهم خلفاء... إلى غير ذلك من الآي. وأجمعت الصحابة على تقديم الصِّدِّيق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة في التعيين، حتى قالت الأنصار: منَّا أمير ومنكم أمير، فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك وقالوا لهم: إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش، ورووا لهم الخبر في ذلك، فرجعوا وأطاعوا لقريش، فلو كان فرضُ الإمامة غيرَ واجب لا في قريش ولا في غيرهم، لما ساغت هذه المناظرة والمحاورة عليها، ولقال قائل: إنها ليست بواجبة لا في قريش ولا في غيرهم فما لتنازعكم وجه، ولا فائدة في أمر ليس بواجب، ثم إن الصديق رضي الله عنه لما حضرته الوفاة عهد إلى عمر في الإمامة ولم يقل له أحد: هذا أمر غير واجب علينا ولا عليك، فدل على وجوبها وأنها ركن من أركان الدين الذي به قوام المسلمين،

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٨٢).

والحمد لله رب العالمين[1].

{٢} **قال العلامة السعدي**: ومنها ـ أي: من فوائد هذه القصة ـ أن الله جعل هذه القصة لنا معتبراً، وأن الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد، فكِبْرُ إبليس وحسده لآدم صيَّره إلى ما ترى، وحرص آدم وزوجته حملهما على تناول الشجرة، ولولا تدارك رحمة الله لهما لأودت بهما إلى الهلاك، ولكن رحمة الله تكمل الناقص، وتجبر الكسير، وتنجي الهالك وترفع الساقط.

{٣} **وقال** رحمه الله: ومنها أنه ينبغي للعبد إذا وقع في ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف، ويقول ما قاله الأبوان من قلب خالص وإنابة صادقة، فما قص الله علينا صفة توبتهما إلا لنقتدي بهما، فنفوز بالسعادة وننجو من الهلكة، وكذلك ما أخبرنا بما قاله الشيطان من توعدنا وعزمه الأكيد على إغوائنا بكل طريق إلا لنستعد لهذا العدو، الذي تظاهر بهذه العداوة البليغة المتأصلة، والله يحب منا أن نقاومه بكل ما نقدر عليه من تجنب طرقه وخطواته، وفعل الأسباب التي يخشى فيها الوقوع في شباكه، ومن عمل الحصون من الأوراد الصحيحة والأذكار القلبية والتعوذات المتنوعة، ومن السلاح المهلك له من صدق الإيمان، وقوة التوكل على الله، ومراغمته في أعمال الخير، ومقاومة وساوسه، والأفكار الرديئة التي يدفع بها إلى القلب كل وقت بما يضادها من العلوم النافعة والحقائق الصادقة[2].

{٤} **قال القاسمي** رحمه الله: دلت الآية ـ وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: على أن الله تعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه وما يخفى عليهم من أسراره في خلقه، لا سيما عند الحيرة ـ والسؤال يكون بالمقال ويكون بالمجال والتوجه إلى الله تعالى في إفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التي جرت سنته تعالى بأن يفيض منها ـ كالبحث العلمي والاستدلال العقلي، والإلهام الإلهي.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٢٢٦)، ط. «الشعب».
(٢) «خلاصة تيسير اللطيف المنان» (١٠٦، ١٠٧).

الثاني: إذا كان من أسرار الله تعالى وحكمه ما يخفى على الملائكة، فنحن أوْلَى بأن يخفى علينا، فلا مطمع للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها؛ لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً..!

الثالث: أن الله تعالى هدى الملائكة في حيرتهم، وأجابهم عن سؤالهم بإقامة الدليل ـ بعد الإرشاد ـ إلى الخضوع والتسليم ـ وذلك أنه بعد أن أخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون ـ علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة[1].

{٥} **وقال** رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قولان:

أحدهما: أنه وقت العبادة كان منافقاً، **والثاني**: أنه كان مؤمناً ثم كفر، وهذا قول الأكثرين. فقيل في معنى الآية: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في علم الله؛ أي: كان عالماً في الأزل أنه سيكفر، والذي عليه الأكثرون: أن إبليس أول كافر بالله. أو يقال: معنى الآية: أنه صار من الذين وافقوه في الكفر بعد ذلك، واختلف السلف بأي سبب كفر إبليس لعنه الله، فقالت الخوارج: إنما كفر بمعصية الله، وكل معصية كفر! وهذا قول باطل بالكتاب والسنة وإجماع الأمة؛ وقال آخرون: كفر بترك السجود لآدم ومخالفته أمر الله؛ وقال آخرون: كفر لأنه خالف الأمر الشفاهي من الله، فإن الله خاطب الملائكة وأمرهم بالسجود ومخالفة الأمر الشفاهي أشد قبحاً.

وقال جمهور الناس: كفر إبليس لأنه أبى السجودَ، واستكبر وعاند، وطعن[2]، واعتقد أنه محق في تمرده، واستدل بـ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ كما يأتي فكأنه ترك السجود لآدم تسفيهاً لأمر الله وحكمته، وهذا الكبر عبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[3].

{٦} **قال الحافظ ابن كثير** رحمه الله: اعلم أن في هذه الآية ـ وهي قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ...﴾ ـ تهديداً عظيماً عن كل المعاصي من وجوه (الأول): أن من تصوّر ما جرى على آدم بسبب إقدامه على

(١) «محاسن التأويل» (٢/ ٩٧). (٢) كذا، ولعله: «وطغى».
(٣) «محاسن التأويل» (٢/ ١٠٤، ١٠٥).

هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصي، قال الشاعر:

يَا نَاظِراً يَرْنُو بِعَيْنَي رَاقِدِ ... وَمُشَاهِداً لِلأَمْرِ غَيْرُ مُشَاهِدِ
تَصِلُ الذُّنُوبَ إلى الذنوبِ ... وتَرْتَجِي دَرْجَ الجِنَانِ ونَيْل فَوزِ العَابِدِ
أنَسَيْتَ رَبَّكَ حينَ أخْرَجَ آدَمَا ... مِنْهَا إلى الدُّنْيا بِذَنْبٍ وَاحِدِ

قال ابن القاسم:

وَلَكِنَّنَا سَبْيُ العَدُوِّ فَهَلْ تَرَى ... نَعُودُ إلى أَوْطَانِنَا وَنُسَلَّمُ

قال الرازي عن فتح الموصلي أنه قال: كنا قوماً من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها(١).

{٧} **وقال** رحمه الله: فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أخرج منها في السماء ـ كما يقول الجمهور من العلماء ـ فكيف تمكن إبليس من دخول الجنة وقد طرد من هنالك طرداً قدرياً، والقدري لا يُخَالف ولا يُمَانع؟

فالجواب: أن هذا بعينه استدل به من يقول: إن الجنة التي كان فيها آدم، في الأرض لا في السماء، وأجاب الجمهور بأجوبة:

أحدها: أنه منع من دخول الجنة مُكرّماً، فأما على وجه السرقة والإهانة فلا يمتنع، ولهذا قال بعضهم كما جاء في التوراة: إنه دخل في فم الحية إلى الجنة.

وقد قال بعضهم: إنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة.

وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض وهما في السماء، ذكرها الزمخشري وغيره(٢).

{٨} **يقول الأستاذ سيد قطب** رحمه الله: وفي أحداث المعركة التي تصورها القصة بين الإنسان والشيطان مُذكِّر دائم بطبيعة المعركة إنها بين عهد الله وغواية الشيطان، بين الإيمان والكفر، بين الحق والباطل، بين الهدى والضلال.. والإنسان هو نفسه ميدان المعركة، وهو نفسه الكاسب أو الخاسر

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٨١).
(٢) السابق (١/ ٨١) بتصرف يسير.

فيها، وفي هذا إيحاء دائم له باليقظة وتوجيه دائم له بأنه جندي في ميدان، وأنه صاحب الغنيمة أو السلب في هذا الميدان.

{٩} **وقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: وأخيراً تجيء فكرة الإسلام عن الخطيئة والتوبة... إن الخطيئة فردية والتوبة فردية في تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض، ليست هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده كما تقول نظرية الكنيسة، وليس هناك تكفير لاهوتي، كالذي تقول الكنيسة: إن عيسى عليه السلام (ابن الله بزعمهم) قام به بصلبه، تخليصاً لبني آدم من خطيئة آدم!!.. خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يُسر وبساطة، وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية، والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة، تصور مريح صريح، يحمل كل إنسان وزره، ويوحي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة، وعدم اليأس والقنوط.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢][١].

{١٠} **قال الشنقيطي** رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الله تعالى عامل إبليس اللعين بنقيض قصده، حيث كان قصده التعاظم والتكبر فأخرجه الله صاغراً حقيراً ذليلاً متصفاً بنقيض ما كان يحاوله من العلو والعظمة، وذلك في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] والصَّغَار أشد الذل والهوان، وقوله: ﴿... ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨]، ونحو ذلك من الآيات، ويفهم من الآية أن المتكبر لا ينال ما أراد من العظمة والرفعة، وإنما يحصل له نقيض ذلك وصرح تعالى بهذا المعنى في قوله: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦][٢].

{١١} **أشار قوله** عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] أن ظهور السوءات وبُدُوَّ العورات إنما هو عقوبة من عقوبات الذنوب والمعاصي، وليس علامة على المدنية والتحضر، وإنما هو ارتكاس وبعدٌ عن الفطرة، وقد تمنن الله عَزَّ وَجَلَّ على بني آدم باللباس الذي يواري السوءات والرياش التي يتجمل بها فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا

---

(١) «في ظلال القرآن» (١/ ٥٥).
(٢) «أضواء البيان» (٢/ ٢٦٣).

عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ﴾ [الأعراف: ٢٦].

{١٢} **قوله تعالى لآدم وزوجه بعد المعصية** ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ يدلُ على أن المعصية تكون سبباً في الحرمان من أسباب السعادة، كذلك من كان له حال مع الله ﷻ يجد بها حلاوة الإيمان والعمل الصالح، إذا عصى الله ﷻ فإنه يحرم من هذه السعادة ويهبط عن هذه الدرجة كما قيل لبعض الصالحين: أيجد لذة الطاعة من يعصي؟ قال: لا، ولا من يَهِم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة هود عليه السلام

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة هود عليه السلام

قبيلة عاد قوم هود عليه السلام من أقدم الأمم، قال الله تعالى حاكياً عن هود عليه السلام أنه قال لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وكانت بالأحقاف باليمن بين عمان وحضرموت وكانوا عمالقة عظام الأجسام كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨]. وهم عادٍ الأولى.

قال ابن كثير: كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، فبعث الله عز وجل إليهم هوداً عليه السلام.

وسوف نذكر ـ إن شاء الله تعالى ـ دعوته كما جاءت في سورة الأعراف، حيث فصلت السورة دعوة هود عليه السلام وأجملت قصة عذاب قومه وهلاكهم، ثم نذكر ما جاء في سورة فصلت، والخاتمة حيث بيّن الله عز وجل كيف أهلكهم، ثم نردف ذلك بالفوائد والآثار الإيمانية للقصة.

□ **دعوة هود عليه السلام:**

قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٥ ـ ٧٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ﴾ [الأعراف: ٦٥]:

قال القاسمي: أي: أخاهم في النسب لأنه منهم في قول النسابين.

وقيل: الناس كلهم إخوة في النسب؛ لأنهم ولد آدم وحواء، فالمراد صاحبهم وواحد من جملتهم كما يقال: «أخا العرب» للواحد منهم، وإنما أرسل منهم لأنهم أفهم لقوله من قول غيره وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله، وأرغب في اقتفائه[1].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف: ٦٥، ٦٦]:

قال ابن كثير: المقصود أن عاداً كانوا جفاة كافرين، عتاة متمردين في عبادة الأصنام، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه، وتنقّصوه، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ أي: هذا الأمر الذي تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يُرتجى منها النصر والرزق، ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأعراف: ٦٧]:

أي: ليس الأمر كما تظنون ولا كما تعتقدون ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ والبلاغ يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم أداءه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها

---

(١) «محاسن التأويل» (٧/ ١٦٤).

ولا اختلاف ولا اضطراب، وهو مع هذا البلاغ على هذا الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم، ولا يبتغي منهم أجراً، ولا يطلب منهم جُعلاً بل هو مخلص لله ﷻ في الدعوة إليه والنصح لخلقه لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه، وأمره إليه، ولهذا قال: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود: ٥١][1].

📖 قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ﴾ [الأعراف: ٦٩]:

قال الشنقيطي رحمه الله: أنكر تعالى في هذه السورة الكريمة على قوم نوح وقوم هود عَجَبَهم من إرسال رجل، وبيّن في مواضع أُخر أن جميع الأمم عجبوا من ذلك. قال في عجب قوم نبينا ﷺ من ذلك: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢]. وقال: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ٢].

وقال عن الأمم السابقة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ [التغابن: ٦].

وصرح بأن هذا العجب من إرسال بشر مانع للناس من الإيمان بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤] ورد عليهم ذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا . . .﴾ الآية [الأنبياء: ٧][2].

📖 قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]:

قال العلامة محمد رشيد رضا: أي: واذكروا فضل الله عليكم ونعمه إذ جعلكم خلفاء الأرض من بعد قوم نوح، وزادكم في المخلوقات بسطة، وسعة في الملك والحضارة، أو زادكم بسطه في خلق أبدانكم، إذ كانوا طوال الأجسام أقوياء الأبدان، فاذكروا نِعم الله واشكروها له لعلكم تفوزون بما

---

(١) «قصص القرآن» (٩٩).
(٢) «أضواء البيان» (٢/ ٢٨٩، ٢٩٠).

أعدَّه للشاكرين[١].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧٠﴾ [الأعراف: ٧٠]:

قال القرطبي رحمه الله: طلبوا العذاب الذي خوفهم به وحذرهم منه فقال لهم: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾ ومعنى «وقع»: أي: وجب، و«الرجس»: العذاب[٢].

وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ۝٧١﴾ [الأعراف: ٧١]:

قال الشنقيطي رحمه الله: لم يبين هنا شيئاً من هذا الجدال الواقع بين هود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وبين عاد، ولكنه أشار إليه في مواضع أُخر كقوله: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٦][٣].

وقال ابن كثير رحمه الله: أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهةً، وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً ولهذا قال: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾.

وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ولهذا عقَّبه بقوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٧٢﴾[٤] [الأعراف: ٧٢].

□ **هلاك عاد قوم هود:**

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ

---

(١) باختصار وتصرف من «تفسير المنار» (٨/٤٩٨).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٣/٢٦٧٣). (٣) «أضواء البيان» (٢/٢٩٠).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٢/٢٢٥).

مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

قال ابن كثير رحمه الله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بغوا وعتوا وعصوا ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: مَنُّوا بشدة تركيبهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وأن بطشه شديدٌ كما قال ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧]، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسله فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: هي الشديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت، والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحاً شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جداً كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] أي: باردة شديدة البرد، وكانت ذات صوت مزعج[١]. اهـ.

📖 ووصف الله ﷻ حالهم بعد هذه الريح الشديدة فقال تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٧، ٨].

قال القرطبي: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا﴾ أي: في تلك الليالي والأيام ﴿صَرْعَىٰ﴾ جمع صريع، يعني: موتى، وقيل: ﴿فِيهَا﴾ أي: في الريح ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ أي: أصول ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي: بالية قاله أبو الطفيل. وقيل: خالية الأجواف لا شيء فيها، وقال ابن شجرة: كانت الريح تدخل في أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحشو من أدبارهم، فصاروا كالنخل الخاوية ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ أي: من فرقة باقية، أو نفس باقية. وقال ابن جريج: كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عذاب الله من الريح، فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر، فذلك قوله ﷻ: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٩٤، ٩٥).

بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾» وقوله ﷻ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥][(١)].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ **الفوائد والآثار الإيمانية:**

{١} **قال القاسمي:** قال الزمخشري: في إجابة الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم: أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله ﷻ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغضون عنهم، ويسبلون أزيالهم على ما يكون منهم. اهـ.

وزاد القاضي: أن في ذلك كمال النصح والشفقة، وهضم النفس، وحسن المجادلة، قال: وهكذا ينبغي لكل ناصح.

{٢} **وقال** رحمه الله: لا يعتمد على ما يذكره بعض المؤرخين في المبالغة في طول قوم عادٍ وضخامة أجسامهم، وأن أطولهم كان مائة ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعاً، فإن ذلك لم يقم عليه دليل عقلي ولا نقلي وهو وهم، وأما قوله جل شأنه مخاطباً لقوم عاد: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ فإنه لا يدل على ما أرادوا، وإنما يدل على عظم أجسادهم وقوتها وشدتها وهذا من الأمور المعتادة، فإن الأمم ليست متساوية في ضخامة الجسم وطوله وقوته، بل تتفاوت لكن تفاوتاً قريباً، ومما يدل على أجسام من سلف كأجسامنا ـ لا تتفاوت عنها تفاوتاً كبيراً ـ مساكن ثمود قوم صالح الباقية، وآثارهم البادية[(٢)].

(١) «تفسير القرطبي» (٨/ ٦٧٤٠) بتصرف واختصار.

(٢) «محاسن التأويل» (٧/ ١٦٧، ١٦٨).

والدليل أن آدم عليه السلام كان طوله ستون ذراعاً ثم تناقص الخلق، وكذلك وصف الله ﷻ لهم بعد هلكهم أنهم ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ووصف ثمود بأنهم كانوا: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ فالظاهر ـ والله أعلم ـ أن هناك تفاوتاً ليس قريباً كما قال الشيخ رحمه الله إلا أن المبالغة الزائدة كذلك مردودة.

{٣} وقال رحمه الله في موضع آخر: قال الرازي: استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ على أن بعض الأيام قد يكون نحساً، وبعضها قد يكون سعداً؛ لأن النحس يقابله السعد، والكدر يقابله الصافي، ثم أطال الرازي في الجواب والإيراد، ولا يخفى أن السعد والنحس إنما هو أمر إضافي لا ذاتي وإلا لكان اليوم الذي يراه المنجمون نحساً مشؤوم الطالع على كل ما أشرقت عليه الشمس، وكذا ما يرونه سعداً! والواقع بخلاف ذلك، إذ اليوم النحس عند زيد قد يكون سعداً عند بكر، بل الساعة بل الدقيقة، فأين تلك الدعوى؟! والقرآن أتى على أسلوب العرب البديع، ومن لطائفهم تسمية وقت الشدة والبؤس بالنحس، ومقابلتها بالسعد فالنحس نحس على صاحب، والسعد سعد على صاحبه[(١)].

{٤} يقول الدكتور فضل حسن عباس: إن هوداً عليه السلام أراد أن لا يحارب مشاعر قومه وينال من عواطفهم بادئ ذي بدء، بل جاراهم وتلطف معهم، فقد نجد قوماً ما، طغت عليهم عاطفة حب المال فإذا جئنا لنسفه هذه العواطف في نفوسهم وننال منها، فإن ذلك سيحدث ردة فعل لا تنتج إلا عكس ما نريده ونقيض ما نبتغيه، لكن الطريقة المثلى إذا أردنا أن نستأصل هذه العاطفة ونبعدها: أن نقوي عاطفة أخرى من العواطف الخيرة كالإنفاق في سبيل الله وبذل الخير، فإن أراد الله بهم خيراً فإن ما يحدث هو أن تتصارع العاطفتان فتقوى إحداهما على الأخرى، وهذا النَّهجُ الذي كان من هود عليه السلام فلقد أراد أن يشذب هذا الذي في نفوسهم ويهذب تلك العواطف فها هو يقول لهم: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ [هود: ٥٢][(٢)].

{٥} الجزاء من جنس العمل فلما كانت عاد قد مَنَّ الله عليهم بالقوة الجسدية وبالأسباب المادية، وكان عندهم من الكبر والطغيان حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ كانت عقوبتهم بأن سلط الله عليهم ريحاً هي أشد منهم قوة،

---

(١) السابق (١٤/٢٦١، ٢٦٢).

(٢) «القصص القرآني إيماؤه ونفحاته» (١٠٥).

فكانت تحمل الواحد منهم على ضخامته وقوته إلى السماء ثم تقذف به ظاهر الأرض فتنكسر رأسه ويصير بدنه كأنه جذع نخلة، فكان هذا جزاء كِبْرهم وقوة بطشهم، وما ربك بظلام للعبيد، وما هي من الظالمين ببعيد.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة صالح عليه السلام

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة صالح عليه السلام

قبيلة ثمود قوم صالح عليه السلام كانوا يسكنون الحِجْر بين الحجاز وتبوك، وقد مر النبي ﷺ عليهم وهو ذاهبٌ إلى تبوك، روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبلَ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذِّبوا فقال: «**إني أخشى أن يصيبكم ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم**»[1]، وعنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «**لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم**»[2].

وفي بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام لما مر بمنازلهم قنعَ رأسه وأسرع راحلته، ونهى عن دخول منازلهم إلا أن يكونوا باكين، أما زمانهم فدل القرآن على أنهم بعد قوم عاد كما قال تعالى حاكياً عن نبيه صالح: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وكثيراً ما يقرن الله ﷻ بين ذكر عاد وثمود، ويأتي غالباً ذكر ثمود بعد ذكر عاد ـ وقال العلامة السعدي: وهي عاد الثانية[3] ـ.

وكانوا أهل مواشٍ كثيرة وأهل حروث وزروع، وتواصلت عليهم النعم، ولكنهم كفروا بنعم الله ﷻ، فأرسل الله ﷻ لهم رسولاً منهم يعرفون صدقه وأمانته وهو صالح عليه السلام، فكان مما قصه الله ﷻ علينا القرآن.

📖 **قال الله تعالى في سورة الأعراف:** ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ

(١) رواه البخاري (٦/٣٧٨) «الأنبياء». (٢) رواه البخاري (٦/٣٧٩) «الأنبياء».
(٣) «خلاصة تيسير اللطيف المنان» (١١٤).

يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٣ ـ ٧٩].

أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب والوطن صالحاً، فدعاهم بدعوة الأنبياء قبله وبعده، وهي قوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ثم ذكَّرهم بالآية وهي المعجزة العظيمة التي أجراها الله ﷻ على يده، فبعد أن قال لهم: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فصَّل هذه البينة فقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: وقد ذكر المفسرون أن ثموداً اجتمعوا يوماً في ناديهم، فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة هناك ـ ناقة من صفتها كيت وكيت، وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها وتعنتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلة، من صفتها كذا وكذا، فقال لهم النبي صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟ قالوا: نعم، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله ﷻ ما قدر له ثم دعا ربه ﷻ أن يجيبهم إلى ما طلبوا، فأمر الله ﷻ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو على الصفة التي نعتوا.

فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً، ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة،

ودليلاً قاطعاً، وبرهاناً ساطعاً، فآمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣] أي: جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها؛ أي أكثرهم[(١)].

وقال محمد رشيد رضا رحمه الله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ هذا بيان مستأنف للبينة ـ أي: هذه ناقة الله تعالى ـ أضافها إلى اسمه الكريم تعظيماً لشأنها، وقيل: لأنه خلقها على خلاف سنته في خلق الإبل وصفاتها، وقيل: لأنه ليس لها مالك.

قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: فدل مجموع الآيات على أن آية الله تعالى في الناقة أن لا يتعرض لها أحدٌ من القوم بسوءٍ في نفسها، ولا في أكلها ولا في شربها، وأن ماء ثمود قسمة بينهم وبين الناقة إذ كان ماءً قليلاً فكانوا يشربونه يوماً وتشربه هي يوماً، وورد أنهم كانوا يستعيضون في يومها بلبنها، رُوي هذا عن ابن عباس وقتادة[(٢)].

ثم ذكرهم بنعم الله عز وجل عليهم، وكيف أن الواجب عليهم إزاء هذه النعم الشكر وإفراده عز وجل وحده بالعبادة:

فقال عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤]:

قال القاسمي: قال الشهاب: لم يقل: خلفاء عاد، إشارةً إلى أن بينهما زماناً طويلاً، ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أنزلكم في أرض الحجر والمباءة: المنزل، ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون في سهولها قصوراً لتسكنوها أيام الصيف ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ أي: لتسكنوها أيام الشتاء[(٣)].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ

---

(١) «قصص القرآن» (١١٧).

(٢) بتصرف واختصار من «تفسير المنار» (٨/ ٥٠٢).

(٣) «محاسن التأويل» (٧/ ١٨٠) بتصرف واختصار.

ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦]:

قال القاسمي: عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا: (نعم) أو (إنه مرسل منه تعالى) مسارعة إلى تحقيق الحق، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر، الذي تُنبِئ عنه الجملة الاسمية، وتنبيهاً على أن أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغي أن يسأل عنه، وإنما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به، أفاده أبو السعود.

فهذا من الأسلوب الحكيم، وهو تلقي السائل والمخاطب بخلاف ما يترقب تنبيهاً على أنه هو الذي ينبغي أن يسأل عنه.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾. وإنما لم يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون وإظهاراً لمخالفتهم إياهم ورداً لمقالتهم قال في «الانتصاف»: ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون، ولكن أَبَوا ذلك حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته وهم يجحدونها، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم كما قال فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٧]، فأثبت إرساله تهكماً، وليس هذا موضع التهكم فإن الغرض إخبار كل واحدٍ من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله، فلهذا خلَّص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة احتياطاً للكفر، وغلواً في الإصرار. انتهى، ولذلك أنكروا آية الناقة وكذبوه في إصابة العذاب عن مسها بالسوء كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: ٧٧][(١)].

قال الزمخشري: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ أسند العقر إلى جميعهم؛ لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة الضخمة: أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحدٌ منهم، ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وتولوا عنه واستكبروا عن

---

(١) «محاسن التأويل» (٧/ ١٨٣) بتصرف.

امتثاله عاتين، و﴿أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾: ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أو شأن ربهم وهو دينه[1].

وقال محمد رشيد رضا: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: تمردوا مستكبرين عن امتثال أمر ربهم، ضمَّن العتو معنى الاستكبار، والعتو في اللغة: التمرد والامتناع، ويكون عن ضعف وعجز ومنه: عتا الشيخ وبلغ من الكبر عتياً: إذا أسن فامتنع من المواتاه على ما يراد منه، وعن قوة وعتو كوصف الريح الشديدة بالعاتية، ومنه عتو الجبارين والمستكبرين، وتوصف النخلة العالية بالعاتية، لامتناعها على من يريد جناها، إلا بمشقة التسلق والصعود[2].

روى أحمد والحاكم بإسناد حسنه الحافظ ابن حجر عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «**لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح، وكانت الناقة ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، وكانت تشرب يوماً ويشربون لبنها يوماً، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله** - وهو أبو رغال - **فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه**».

﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]:

قال العلامة عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي عليه رحمة ربنا العلي: وكان في المدينة تسعة رهط من شياطينهم قد قاوموا ما جاء به صالح أشد المقاومة، يصدون عن سبيل الله ويفسدون في الأرض ولا يصلحون، وكان صالحٌ قد حذرهم من عقر الناقة لما رأى من كِبرهم وردِّهم الحق فأول ما فعل أولئك الملأ الأشرار أن عقدوا مجلساً عاماً ليتفقوا على عقر الناقة فاتفقوا، فانتدب لذلك أشقى القبيلة ولهذا قال تعالى: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾﴾ أي: بعد اتفاقهم وندبهم إياه بعثوه لذلك، فانبعث واستعد وتكفل لهم بعقرها؛ وهم جميعاً راضون بل آمرون فعقرها، فكان هذا العقر مؤذناً بهلاك القبيلة بأسرها، فلما شعر صالح بالأمر ورأى منظراً فظيعاً علم أن العذاب قد تحتم لا محالة؛ لأن الجريمة قد تفاقمت ولم يبق حالة يرجى فيها لهم تقويم، فقال لهم

---

(١) «الكشاف» (٢/١٢٣).

(٢) «المنار» (٨/ ٥٠٥، ٥٠٦).

صالح: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب، ونبه بهذا الكلام دانيهم وقاصيهم، ففي أثناء هذه المدة اتفق هؤلاء الرهط التسعة على أمر أغلظ من عقر الناقة، على قتل نبيهم صالح، وتعاهدوا وتعاقدوا وحلفوا الأيمان المغلظة، وكتموا أمرهم خشية من منع أهل بيته لأنه في بيت عزٍّ وشرفٍ، وقالوا: لَنُبيتَنَّه وأَهْلَهُ، ثم إذا ظُنَّ بنا أننا قتلناه حلفنا لأوليائه أننا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون، فدبروا هذا المكر العظيم ولكنهم يمكرون ويمكر الله لنبيه صالح، فحين كمنوا في أصل الجبل لينظروا الفرصة في صالح بدأ الله بعقوبتهم، فكانوا سلفاً مقدماً لقومهم إلى نار جهنم، فأرسل الله صخرة من أعلى الجبل فشدختهم وقتلوا أشنع قتلة، ثم لما تمت ثلاثة هذه الأيام جاءتهم صيحة من فوقهم ورجفة من أسفل منهم فأصبحوا خامدين ونجى الله صالحاً ومن معه من المؤمنين وقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾[1] [الأعراف: ٧٩].

وقال ابن كثير رحمه الله: أي: جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أي: لم تكن سجايكم تقبل الحق، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل إلى الأبد، وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع عنكم يدان، والذي وجب علي من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد[2].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال القاسمي: قال الرازي**: زعم بعض الملحدين أن ألفاظ التنزيل في حكاية هذه الواقعة اختلفت، وهي الرجفة والطاغية والصيحة، والجواب ما قاله أبو مسلم: إن الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده سواءٌ كان حيواناً أو غير حيوان، وألحق الهاء به للمبالغة، فالمسلمون يسمون الملك العاتي بالطاغية والطاغوت.

---

(١) «خلاصة تيسير اللطيف المنان» (١١٥). (٢) «قصص الأنبياء» (١٢٤).

وأما الرجفة فهي الزلزلة في الأرض، وهي حركة خارجة عن المعتاد فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها.

وأما الصيحة فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة، وأما الصاعقة فالغالب أنها الزلزلة، وكذلك الزجرة قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤][(١)].

﴿٢﴾ **قال العلامة محمد رشيد رضا** رحمه الله: مضت سنة الله تعالى بأن يسبق الفقراء المستضعفون من الناس إلى إجابة دعوة الرسل واتباعهم وإلى كل دعوة إصلاح؛ لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تبعاً لغيرهم وأن يكفر بهم أكابر القوم المتكبرون والأغنياء المترفون؛ لأنه يشق عليهم أن يكونوا مرءوسين، وأن يخضعوا للأوامر والنواهي التي تحرم عليهم الإسراف الضار وتوقف شهواتهم عند حدود الحق والاعتدال، وعلى هذه السنة جرى الملأ من قوم صالح عن قولهم للمؤمنين منهم: أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟ قيل: إن السؤال للتهكم والاستهزاء. ولا مانع من جعله استفهاماً حقيقياً إن سألوهم عن العلم بأنه مرسل لارتيابهم في اتباعهم إياه عن علم برهاني، وتجويزهم أن يكون عن استحسان ما وتفضيل له عليهم واختيار لرياسته على رياستهم[(٢)].

﴿٣﴾ أهل الباطل يبغضون من يدعوهم إلى الحق ويحاول أن يحملهم عليه، فصالح عليه السلام كان محبوباً عندهم قبل أن يدعوهم إلى التوحيد ونبذ الشرك، كما قال تعالى ـ حكاية عنهم ـ: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ ثم تغير الحال بعد دعوته إياهم حتى صار من أبغض الناس إليهم مع أنه تلطف معهم في الدعوة وصبر عليهم، وأجاب طلبتهم من سؤال ربه الناقة التي طلبوها، ولكن الحق الذي عليه هو الذي بغضه إليهم كما قال تعالى عن أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨] فأهل الحق ليس لهم أهداف دنيوية، ولا ينافسون أهل الدنيا على مناصبها والغُلُوِّ فيها، ولكنه الصراع بين الحق والباطل، والعاقبة للمتقين.

---

(١) «محاسن التأويل» (٧/ ١٩٣) باختصار.

(٢) «تفسير المنار» (٨/ ٥٠٤).

{٤} أهل الإيمان يتفاضلون في الإيمان كما هو معتقد أهل السنة والجماعة، فإيمان الصديق رضي الله عنه ليس كإيمان فساق الأُمّة، كذلك أهل الشر والفساد يتفاضلون في الشر والفساد، وبعض الشر أهون من بعض، فمع أن أكثر قوم صالح كانوا كافرين مفسدين إلا أن تسعة منهم كانوا أكثرهم شراً وفساداً، ولـذا قـال الله عز وجل: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨] وقد عجل الله عز وجل لهم العقوبة والهلاك قبل بقية قومهم، وإلى ذلك كذلك الإشارة بقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ [مريم: ٦٩، ٧٠].

{٥} ينبغي للحِفْنَة المؤمنة أن تثق بنصر الله عز وجل، وأن لا يهولها مكر الماكرين من المفسدين والذين يصدون عن سبيل رب العالمين، فإن الله من ورائهم محيط، وإن كانوا يمكرون بأهل الإيمان فإن الله يمكر بهم من فوق سبع سماوات، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥٣].

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة لوط عليه السلام

رفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة لوط عليه السلام

لوط عليه السلام كان معاصراً لإبراهيم، وقد ذكر كثير من المفسرين أنه كان ابن أخيه(١)، وقال السعدي بأنه تلميذه، وكان له بمنزلة الابن، فنبأه الله بحياة الخليل وأرسله إلى قرى سدوم من غور فلسطين.

قال ابن كثير رحمه الله: وكان لوط قد نزح عن محلة عَمِّه الخليل عليه السلام بأمره له وإذنه، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر، وكانت أم تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية، وأردأهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيلَ ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون. ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحدٌ من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وتَرْك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين(٢).

□ **دعوة لوط عليه السلام:**

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨٤].

قال القاسمي رحمه الله: ﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بفعل مضمر معطوف على ما

---

(١) وهذا مأخوذ من التوراة المحرفة التي لا نصدق ما فيها ولا نكذب، ولكن القرآن بيّن أنه ممن آمن بدعوة إبراهيم قال الله ﷻ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ فالأول ما ذكره السعدي رحمه الله.

(٢) «قصص الأنبياء» (١٩٢).

سبق؛ أي: وأرسلنا لوطاً، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام، وهاجر معه إلى الشام وتوطنا بلد الكنعانيين من فلسطين، وهي الأرض المقدسة، ثم حدثت مشاجرة بين رعاتهما فنزح لوط إلى وادي الأردن وسكن مدينة سدوم فبعثه الله إلى أهلها.

ثم بيّن تعالى إنكار لوط عليهم بقوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: الفعلة المتناهية في القبح.

وقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١].

قال أبو مسعود: والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع، فإن مباشرة القبح قبيح، واختراعه أقبح، فأنكر تعالى عليهم أولاً إتيان الفاحشة، ثم وبخهم بأنهم أول من عملها، ثم استأنف بيان تلك الفاحشة تأكيداً للإنكار السابق وتشديداً للتوبيخ بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨١].

قال الألوسي: ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ دون الغلمان والمردان ونحوهما ـ كما قال شيخ الإسلام مبالغة في التوبيخ، كأنه قال لتأتون أمثالكم ﴿شَهْوَةً﴾ نصب على أنه مفعول له أو لأجل الاشتهاء لا غير، أو على الحالية بتأويل مشتهين، وجوز أن يكون منصوباً على المصدرية، وناصبه ﴿لَتَأْتُونَ﴾ لأنه بمعنى: تشتهون، وفي تقييد الجماع الذي لا ينفك عن الشهوة بها إيذاناً بوضعهم على المصدرية بالبهيمية الصرفة، وأن ليس غرضهم إلا قضاء الشهوة، وفيه تنبيه على أنه ينبغي للعاقل أن يكون الداعي إلى المباشر طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الشهوة، وجوز أن يكون الإنكار عليهم وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة القذرة الخبيثة، كما ينبئ عليه قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: متجاوزين النساء اللاتي هن محل الاشتهاء عند ذوي الطباع السليمة، كما يؤذن به قوله سبحانه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: ٨٢]:

---

(١) «محاسن التأويل» (٧/ ١٩٥، ١٩٦). (٢) «روح المعاني» (٨/ ١٧٠).

قال الشوكاني: ما كان لهم جواب إلا هذا القول المباين للإنصاف المخالف لما طلبه منهم وأنكره عليهم، وجملة ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ تعليل لما أمروا به من الإخراج، ووصفهم بالتطهر يمكن أن يكون على حقيقته، وأنهم أرادوا أن هؤلاء يتنزهون عن الوقوع في هذه الفاحشة فلا يساكنونا في قريتنا، ويحتمل أنهم قالوا ذلك على طريق السخرية والاستهزاء(١).

وقال الزمخشري: يعني ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة وتعظيم أمرها، ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشر كله، ولكنهم جاءوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ضجراً بهم وبما يسمعون من وعظهم ونصحهم، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش، وافتخاراً بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشُّطَّارُ من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف، وأريحونا من هذا المتزهد(٢).

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٨٣ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٨٤﴾ [الأعراف: ٨٣ ـ ٨٤].

فأجْمَلَ هنا في سورة الأعراف كيف أنجاه الله ﷻ وأهله إلَّا امرأته وكيف أهلك الظالمين، وما أُجْمِلَ هنا فصِّلَ في مواضع أخر، ومن ذلك سورة هود.

◻ قصة هلاك قوم لوط:

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ

---

(١) «فتح القدير» (٢/ ٢٢٢).
(٢) «الكشاف» (٢/ ١٢٥ ـ ١٢٩).

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٧٧ ـ ٨٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود: ٧٧]:

قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قومَ لوطٍ هذه الليلة، فانطلقوا من عنده فأتوا لوطاً عليه السلام وهو على ما قيل في أرض له، وقيل: في منزله، ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاءً من الله وله الحكمة والحجة البالغة فساءَه شأنهم، وضاقت نفسه بسببهم، وخشي إن لم يضفهم أن يضيفهم أحدٌ من قومه فينالهم بسوء ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود: ٧٨].

قال الشوكاني رحمه الله: المعنى: أن قوم لوط لما بلغهم مجيء الملائكة في تلك الصورة أسرعوا إليه، كأنما يدفعون دفعاً لطلب الفاحشة من أضيافه، ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: ومن قبل مجيء الرسل في هذا الوقت كانوا يعملون السيئات؛ وقيل: ومن قبل لوط كانوا يعملون السيئات؛ أي: كانت عادتهم إتيان الرجال، فلما جاءوا إلى لوط وقصدوا أضيافه لذلك العمل قام إليهم لوط مدافعاً ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أي: تزوجوهن ودعوا ما تطلبونه من الفاحشة بأضيافي، وقد كان له ثلاث بنات وقيل: اثنان، وكانوا يطلبون أن يزوجهم بهن فيمتنع لخبثهن، وكان لهن سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما بنتيه، وقيل: أراد بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ النساء جملة؛ لأن

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٤٥٣).

نبي القوم أبٌ لهم، وقالت طائفة: إنما كان هذا القول منه على طريق المدافعة ولم يرد الحقيقة، ومعنى ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أي: أحلُّ وأنزه، والتطهر: التنزه عما لا يحل، وليس في صيغة أطهر دلالة على التفضيل، بل هي مثل «الله أكبر»(١).

قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]:

قال القاسمي: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: أن تعصوه بما هو أشد من الزنا خبثاً ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي: ولا تهينوني وتفضحوني في شأنهم؛ فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة.

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي: فيرعوي عن القبيح ويهتدي إلى الصواب(٢).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود: ٧٩]:

قال العلامة محمد رشيد رضا: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ فإنهن محرمات علينا في دينك، أو يعنون أن الحق عندهم نكاح الذكور مستشهدين بعلمه به تهكماً، أو الحق هنا الحاجة والأرب، والمعنى: لقد علمت من قبل ليس لنا في بناتك من حاجة أو رغبة في تزوجهن فتصرفنا بعرضهن علينا عما نريده، أو لقد علمت الذي لنا في نسائنا اللواتي تسميهن بناتك من حق الاستمتاع وما نحن عليه معهن، فلا معنى لعرضك إياهن علينا لصرفنا عما نريد ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من الاستمتاع بالذكران وأننا لا نؤثر عليه شيئاً؛ أي: تعرف ذلك حق المعرفة لا ترتاب فيه فلم تحاول صدنا عنه؟(٣).

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]:

قال ابن كثير رحمه الله: ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوطاً عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق، وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو

---

(١) «فتح القدير» (٢/ ٥١٤). (٢) «محاسن التأويل» (٩/ ١٥٥).
(٣) «تفسير المنار» (١٢/ ١٣٥).

يعظهم وينهاهم من وراء الباب، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ لأحللت بكم النكال، قالت الملائكة: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم(١).

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ [القمر: ٣٧ ـ ٣٨].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: ٨١]:

قال الشنقيطي رحمه الله: ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أمر نبيه لوطاً أن يسري بأهله بقطع من الليل، ولم يبين هنا هل هو من آخر الليل أو وسطه أو أوله ولكن بين في «القمر» أن ذلك من آخر الليل وقت السحر، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ ولم يبين هنا أنه أمر أن يكون من ورائهم وهم أمامه، ولكنه بين ذلك في «الحجر» بقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجر: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ قرأه جمهور القراء: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنصب وعليه الأمر واضح لأنه استثناء من الأهل؛ أي: أسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسر بها واتركها في قومها فإنها هالكة معهم.

ويدل لهذا الوجه قوله فيها في مواضع: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣] والغابر: الباقي؛ أي: الباقين في الهلاك.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتُكَ﴾ بالرفع على أنه بدل من «أحد» فالمعنى: أنه أمر لوطاً أن ينهى جميع أهله عن الالتفات إلا امرأته فإنه أوحي إليه أنها هالكة لا محالة، ولا فائدة في نهيها عن الالتفات، لكونها من جملة الهالكين(٢).

---

(١) باختصار من «قصص القرآن» (٢٠٠). (٢) «أضواء البيان» (٣/٢٩، ٣٠).

📖 **قوله تعالى**: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]:

قال القاسمي رحمه الله: أي: موعدهم بالهلاك الصبح، والجملة كالتعليل للأمر بالإسراء، أو جواب لاستعجال لوط واستبطائه العذاب، أو ذكرت ليتعجل في السير فإن قرب الصبح داعٍ إلى الإسراع في الإسراء للتباعد عن موقع العذاب(١).

وقال الشوكاني: والمعنى: أن موعد عذابهم الصبح المسفر عن تلك الليلة والاستفهام في ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ للإنكار التقريري، والجملة تأكيد للتعليل(٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: ٨٢].

📖 **قوله**: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾:

قال الشوكاني: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: الوقت المضروب لوقوع العذاب فيه، أو المراد بالأمر نفس العذاب ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: عَالي قُرى لُوطٍ سَافِلها، والمعنى: أنه قلبها على هذه الهيئة، وهي كون عاليها صار سافلها، وسافلها صار عاليها، وذلك لأن جبريل أدخل جناحه تحتها فرفعها من تخوم الأرض، حتى أدناها من السماء ثم قلبها عليهم(٣).

📖 **قوله تعالى**: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾:

قال الشنقيطي: اختلف العلماء في المراد بحجارة السجيل اختلافاً كثيراً، والظاهر أنها حجارة من طين في غاية الشدة والقوة، والدليل على أن المراد بالسجيل الطين قوله تعالى في «الذاريات» في القصة بعينها: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات: ٣٣، ٣٤] وخير ما يفسر به القرآن القرآن.

والدليل على قوتها وشدتها أن الله ما عذبهم بها في حالة غضبه عليهم إلا لأن النكال بها بالغ شديد، وأيضاً فإن بعض العلماء قالوا: السجيل

---

(١) «محاسن التأويل» (٩/ ١٥٨). (٢) «فتح القدير» (٢/ ٥١٥).
(٣) السابق (٢/ ٥١٥).

والسجين أختان، كلاهما الشديد من الحجارة والضرب[1].

قوله تعالى: ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٣] قال الشوكاني: المسومة أي: التي لها علامة. قيل: كان عليها أمثال الخواتيم. وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رُمِيَ به.

ومعنى ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾: في خزائنه.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: وما هذه الحجارة الموصوفة ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهم قوم لوط ﴿بِبَعِيدٍ﴾، أو ما هي من كل ظالم من الظلمة ومنهم كفار قريش ومن عاضدهم على الكفر بمحمد ﷺ ﴿بِبَعِيدٍ﴾، فهم لظلمهم مستحقون لها[2].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ **الفوائد والآثار الإيمانية:**

{١} **قال العلامة السعدي** رحمه الله: في هذه القصة أكبر دليل على أن فاحشة اللواط من أشنع القبائح، وأنها توجب العقاب الشديد، وأن من ابتلي بهذه الفاحشة ـ والعياذ بالله ـ فمع ذهاب دينه قد انقلب عليه الحسن بالقبيح، فاستحسن ما كان قبيحاً ونفر من الطيب، وذلك دليل على انحراف الأخلاق[3].

{٢} **قال العلامة محمد رشيد رضا:** جملة القول في هذه الفاحشة أنها:

١ ـ جناية على الفطرة البشرية.

٢ ـ مفسدة للشبان بالإسراف في الشهوة لأنها تنال بسهولة.

٣ ـ مذلة للرجال بما تحدثه فيهم من داء الأبَنَة، وقد أشرنا آنفاً إلى ما فيه من خزي ومهانةٍ.

٤ ـ مفسدة للنساء اللاتي تُصرف أزواجهن عنهن، حتى يقصروا فيما يجب عليهم إحصانهن.

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٣٤).
(٢) «فتح القدير» (٢/ ٥١٦) باختصار.
(٣) «خلاصة تيسير اللطيف المنان» (١٢٥).

٥ ـ قلة النسل بفشوها، فإن من لوازمها الرغبة عن الزواج، والرغبة في إتيان الأزواج في غير مأتى الحرث، ولعن فاعل ذلك.

٦ ـ أنها ذريعة للاستمناء ولإتيان البهائم، ومما يدل على ذلك قوله تعالى حكاية عن رسوله لوط عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف: ٨١] فقصد الشهوة لذاتها يفضي إلى وضعها في غير موضعها، وإنما موضعها الزوجة الشرعية[١].

{٣} **قال القرطبي** رحمه الله: واختلف العلماء فيما يجب على من فعل ذلك بعد إجماعهم على تحريمه، فقال مالك: يُرْجم، أُحصن أو لم يحصن، وكذلك يرجم المفعول به إن كان محتلماً، وروي عنه أيضاً: يرجم إن كان محصناً، ويحبس ويؤدب إن كان غير محصن، وهو مذهب عطاء والنخعي وابن المسيب وغيرهم.

وقال أبو حنيفة: يُعَزَّر المحصن وغيره، وروي عن مالك.

وقال الشافعي: يُحَدُّ حد الزنا قياساً عليه.

واحتج مالك بقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] فكان ذلك عقوبة لهم، وجزاء على فعلهم.

فإن قيل: لا حجة فيه لوجهين:

أحدهما: أن قوم لوط إنما عوقبوا على الكفر والتكذيب كسائر الأمم.

الثاني: أن صغيرهم وكبيرهم دخل فيها، فدل على خروجها من باب الحدود.

قيل: أما الأول فغلط، فإن الله سبحانه أخبر عنهم أنهم كانوا على معاصي فأخذهم بها منها هذه، وأما الثاني: فكان منهم فاعل وكان منهم راضٍ، فعوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه، وهي حكمة الله وسنته في عباده وبقي أمر العقوبة على الفاعلين مستمراً والله أعلم، وقد روى أبو داود

---

(١) «تفسير المنار» (٨/ ٥٢١، ٥٢٢) باختصار.

وابن ماجه والترمذي والنسائي والدارقطني أن رسول الله ﷺ قال: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»(١) لفظ أبي داود وابن ماجه، وعند الترمذي: «**أحصنا أو لم يحصنا**»(٢).

{٤} **عن أبي هريرة** رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي**»(٣).

وفي رواية عن أبي هريرة رضي الله عنه عنه أن النبي ﷺ قال: «**يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد**»(٤).

قال الحافظ: قوله: «**يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد**» أي: إلى الله عز وجل، ويشير ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ويقال: إن قوم لوط لم يكن منهم أحدٌ يجتمع معه في نسبه لأنهم من سدوم وهي من الشام، وكان أصل إبراهيم ولوط من العراق، فلما هاجر إبراهيم إلى الشام هاجر عنه لوط، فبعث الله لوطاً إلى أهل سدوم، فقال: لو أن لي منعة وأقارب وعشيرة لكنت أستنصر بهم عليكم ليدافعوا عن ضيفاني، ولهذا جاء بعض طرق الحديث كما أخرجه أحمد من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**قال لوط: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد، قال: فإنه يأوي إلى ركن شديد، ولكنه عنى عشيرته فما بعث الله نبياً في ذروة من قومه**». وزاد ابن مردويه من هذا الوجه ألم تر إلى قوم شعيب: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾.

وقيل: معنى قوله: «**لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»: أي: إلى عشيرته،

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٢٦٧٩، ٢٦٨٠) باختصار، والحديث رواه الترمذي (٦/ ٢٤٠) «الحدود»، وأبو داود (٤٤٣٨) «الحدود» وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٦/ ٤١) «الحدود».

(٣) رواه البخاري (٦/ ٤١١) «أحاديث الأنبياء»، ومسلم (١٥/ ١٢٣) «الفضائل».

(٤) رواه البخاري (٦/ ٤١٥) «أحاديث الأنبياء».

ولكنه لم يأوِ إليهم وأوى إلى الله. انتهى، والأول أظهر لما بيناه، وقال النووي: يجوز أنه لما اندهش بحال الأضياف قال ذلك، أو أنه التجأ إلى الله في باطنه وأظهر هذا القول للأضياف اعتذاراً، وسمى العشيرة ركناً لأن الركن يستند إليه ويمتنع به فشبههم بالركن من الجبل لشدتهم ومنعتهم[١].

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤١٥، ٤١٦).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة شعيب عليه السلام

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة شعيب عليه السلام

أرسل الله ﷻ شعيباً إلى قوم مدين، وهي قرية من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، وهي القرية التي توجه إليها موسى عليه السلام بعد أن قتل المصري، واخْتلِف هل هو صهر موسى عليه السلام أم لا؟ والراجح أنه غيره وقد كانوا يُسمُّون بأسماء أنبيائهم والصَّالحين منهم(١).

وكان أهل مدين كفاراً يعبدون الأيكة، وهي ـ كما قال ابن كثير رحمه الله ـ شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا مع كفرهم بالله ﷻ يبخسون الناس أشياءهم، ويطففون المكيال والميزان، فدعاهم شعيب عليه السلام بدعوة جميع الأنبياء قبله: من عبادة الله ﷻ، ثم نبههم على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات وحذرهم بأس الله ﷻ وعقوبته، فكان ما كان مما قصّه الله ﷻ في غير مكان، والظاهر أنهم كانوا بعد قوم لوط عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۝٨٩﴾ [هود: ٨٩]، ويبدو أن هذا القرب كان قرباً زمانياً ومكانياً.

□ **دعوة شعيب عليه السلام:**

قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ

---

(١) ومن الدليل على أن شعيباً لم يكن معاصراً لموسى عليه السلام أن الله ﷻ لما ذكر نوحاً ثم هوداً ثم صالحاً ثم لوطاً ثم شعيباً قال: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ ومثل ذلك في سورة يونس وهود والحج، و(ثم) تفيد تراخي ما بعدها عما قبلها فهو ظاهر والله أعلم في أن زمن موسى عليه السلام كان بعد زمن شعيب بفترة، وانظر: «قصص الأنبياء» لعبد الوهاب النجار (١٨٥)، وانظر كذلك ما ذكر في قصة موسى في الجزء الأول من هذا الكتاب المبارك.

بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٨٥ ـ ٩٣].

لا شك أن أنبياء الله ﷻ ورسله هم أنصح الناس للناس وهم قدوة الدعاة إلى الله ﷻ في دعوة أقوامهم، كيف يخاطبونهم ويتلطفون معهم ويصبرون على جهلهم وغباوتهم وإيذائهم. وقد روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً قال: «**ذاك خطيب الأنبياء**».

ويظهر من دعوة شعيب عليه السلام أن البيئة التي كانت فيها قد انتشر فيها الفساد: من الشرك، وأكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله، مع أنهم كانوا في نعمة وعافية، فبدأ شعيب عليه السلام دعوته كما بدأها جميع الأنبياء، وهي دعوة الناس إلى التوحيد؛ لأن وظيفة الرسل وأتباعهم تعبيد الناس لله ﷻ، كما قال ربعي بن عامر: «إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

فوظيفة الداعية تطويع الناس وتعبيدهم لله، فالناس إما عبيد حجر، أو عبيد شجر، أو عبيد بقر، أو عبيد للطواغيت الذين يحكمونهم بغير الشرع، ويسوسونهم بغير حكم الله ﷻ، فالداعية يحرر الناس من عبادة غير الله، ثم

يُعَبِّدُهم لله ﷻ، فيجعلهم يكفرون بالطاغوت ويؤمنون بالله، ويكون في دعوته متأسياً بالأنبياء الكرام لأنهم أئمة الدعوة إلى الله، هم أعلم الناس بها، وأقوم الناس فيها: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وسوف نَجد بإذن الله تعالى ذلك واضحاً جلياً في شعيب عليه السلام: كيف أنه كان يعمل بما يعلِّمه للناس، ولا يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه، وكيف نَوَّعَ معهم أساليب الدعوة فتارة ينهاهم عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف وغيره، وتارة يحذرهم من العقوبة التي لحقت بالمكذبين من الأمم السابقين: كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط، وتارة يذكرهم بنعم الله عليهم، وكيف أنهم يحافظون عليها بطاعة الله ﷻ، وتارة يتوجه الداعية إذا وجد القلوب القاسية وفقد الآذان الواعية، يتوجه إلى الله ﷻ الذي أرسله بأن يفتح بينه وبين قومه بالحق، ولذلك كان خاتمة دعوته بعد أن أهلك الله ﷻ الظالمين المكذبين ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥]:

قال الزمخشري: كان يقال لشعيب عليه السلام: خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه، وكانوا أهل بخسٍ للمكاييل والموازين، ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجب عليكم الإيمان بي والأخذ بما آمركم به والانتهاء عما أنهاكم عنه، فأوفوا ولا تبخسوا، فإن قلتَ: ما كانت معجزته؟ قلتُ: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ولأنه لا بد لمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه وإلا لم تصح دعواه[1] وكان متنبئاً لا نبياً، غير أن معجزته لم تذكر في القرآن

(١) ومن الأدلة كذلك قوله ﷺ: **«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيٍ أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة»** رواه البخاري (٨/ ٦١٩) «السلفية»، وغيره.

كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ[١].

قــولــه: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]:

قال صاحب «المنار»: كان قوم شعيب من المطففين الذين إذا اكتالوا على الناس أو وزنوا عليهم لأنفسهم ما يشترون من المكيلات والموزونات يستوفون الكيل والميزان؛ أي: ينقصونه، فيبخسونهم أشياءهم، وينقصونهم حقوقهم، والبخس أعم من نقص المكيل والموزون، فإنه يشمل غيرهما من المبيعات كالمواشي والمعدودات، ويشمل البخس في المساومة والغش والحيل التي تنتقص بها الحقوق، وكذا بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل[٢].

وقال القرطبي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ البخس النقص وهو يكون في السلعة بالتعييب والتزهيد فيها، أو المخادعة عن القيمة والاحتيال في التزيد في الكيل والنقصان منه، وكل ذلك من أكل المال بالباطل، وذلك منهي عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥]:

قال القرطبي: وهو لفظ يعم دقيق الفساد وجليله، قال ابن عباس: كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيباً رسولاً يعمل فيها بالمعاصي، وتستحل فيهما المحارم وتسفك فيها الدماء فذلك فسادها فلما بعث الله شعيباً ودعاهم إلى الله صلحت الأرض، وكل نبي بعث إلى قومه فهو صلاحهم[٣].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]:

قال صاحب «المنار»: الإشارة إلى كل ما تقدم من أمر ونهي؛ أي: هو خير لكم في دينكم ودنياكم لا تكليف إعنات، فربكم لا يأمركم إلا بما هو نافع لكم، ولا ينهاكم إلا عما هو ضار بكم، وهو على كل حال غني عنكم

---

(١) «الكشاف» (٢/ ١٢٧). (٢) «تفسير المنار» (٨/ ٥٢٥).
(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٢٦٨٤) بتصرف.

ولو شاء لأعنتكم، ولكنه رحيم بكم لا يفعل ذلك[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٨٦]:

قال الشوكاني: الصراط: الطريق؛ أي: لا تقعدوا بكل طريق توعدون الناس بالعذاب، قيل: كانوا يقعدون في الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه، كما كانت قريش تفعله مع النبي ﷺ، قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي وغيرهم، وقيل: المراد القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها، وليس المراد به القعود على الطرق الحقيقية، ويؤيده: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾.

وقيل: المراد بالآية النهي عن قطع الطريق وأخذ السلب، وقيل: إنهم كانوا عشارين يأخذون الجباية في الطريق من أموال الناس فنُهوا عن ذلك.

والقول الأول أقربها للصواب مع أنه لا مانع من حمل النهي على جميع هذه الأقوال المذكورة.

وجملة ﴿تُوعِدُونَ﴾ في محل نصب على الحال وكذلك ما عطف عليها.

أي: لا تقعدوا بكل طريق، موعدين لأهله صادِّيْنَ عن سبيل الله باغين لها عوجاً[٢].

وقال الزمخشري: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجاً؛ أي: تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة لتصدوهم عن سلوكها والدخول فيها، أو يكون تهكماً بهم وأنهم يطلبون لها ما هو محال لأن طريق الله لا يعوج[٣].

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]:

قال صاحب «المنار»: أي: وتذكروا ذلك الزمن الذي كنتم فيه قليلي

---

(١) «تفسير المنار» (٨/ ٥٢٧).
(٢) «فتح القدير» (٢/ ٢٢٤).
(٣) «الكشاف» (٢/ ١٢٨).

العدد فكثركم الله تعالى بما بارك في نسلكم، فاشكروا له ذلك بعبادته وحده واتباع وصاياه في الحق والعدل وترك الفساد في الأرض.

﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ من الشعوب المجاورة لكم كقوم لوط وقوم صالح وغيرهم، وكيف أهلكهم الله تعالى فسادهم، فيجب أن يكون لكم عبرة في ذلك[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف: ٨٧]:

قال الألوسي: خطاب للكفار ووعيد لهم أن تربصوا لتروا حكم الله تعالى بيننا وبينكم، فإنه سبحانه سينصر المحق على المبطل، ويظهره عليه أو هو خطاب للمؤمنين وموعظة لهم وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين، إلى أن يحكم الله تعالى بينهم، وينتقم لهم منهم، ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين؛ أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوؤهم من إيمان مَن آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب، والظاهر الاحتمال الأول، وكان المقصود أن إيمان البعض لا ينفعكم في دفع بلاء الله تعالى وعذابه ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا معقب لحكمه، ولا حَيْفَ فيه، فهو في غاية السداد[٢].

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف: ٨٨]:

قال ابن كثير رحمه الله: هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نَبِيَّه شعيباً ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول، والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة وقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ يقول: أو أنتم فاعلو ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه، فإنا إن رجعنا إلى

---

(١) «تفسير المنار» (٨/ ٥٣٢).

(٢) «روح المعاني» (٨/ ١٧٩).

ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً، وهذا تعبير منه عن اتباعهم[١].

قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٩]:

قال صاحب «الظلال»: ولكنَّ شعيباً بقدر ما يرفع رأسه وبقدر ما يرفع صوته في مواجهة طواغيت البشر من الملإ الذين استكبروا من قومه، بقدر ما يخفض هامته ويسلم وجهه في مواجهة ربه الجليل الذي وسع كل شيء علماً، فهو في مواجهة ربه لا يتألى عليه، ولا يجزم بشيء أمام قدره، ويدع له قياده وزمامه، ويعلن خضوعه واستسلامه.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٩]:

إنه يفوض الأمر لله ربه في مستقبل ما يكون من أمره وأمر المؤمنين معه، إنه يملك رفض ما يفرضه عليه الطواغيت من العودة في ملتهم، ويعلن تصميمه والمؤمنين معه على عدم العودة، ويعلن الاستنكار المطلق للمبدإ ذاته، ولكنه لا يجزم بشيء من مشيئة الله به وبهم، فالأمر موكول إلى هذه المشيئة، وهو والذين آمنوا معه لا يعلمون، وربهم وسع كل شيء علماً، فإلى علمه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم.

إنه أدب ولي الله مع الله، الأدب الذي يلتزم به أمره، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره، ولا يتأبى على شيء يريده به ويقدره عليه.

وهنا يدع شعيب طواغيت قومه وتهديدهم ووعيدهم، ويتجه إلى وليه بالتوكل الواثق، يدعوه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق:

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٢٢).

(٢) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٣٢١، ١٣٢٢).

لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩٠ ـ ٩٢]:

قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ فلهذا عقَّبه بقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ أخبر تعالى أنهم أخذتهم الرجفة، وذلك كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: ٩٤].

والمناسبة هناك ـ والله أعلم ـ أنهم لما تهكموا به في قولهم: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ ...﴾ الآية، فجاءت الصيحة فأسكتتهم.

وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩] وما ذاك إلا لأنهم قالوا في سياق القصة: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ . . .﴾ الآية [الشعراء: ١٨٧] فأخبر أنهم أصابهم عذاب يوم الظُّلَّة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله، أصابهم عذاب يوم الظلة ـ وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ـ ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ﴾ أي: كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها، ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣]:

قال الزمخشري: الأسى: شدة الحزن، قال العجاج:

وَاغْلَبَت عَيْنَاهُ مِن فَرْطِ الأَسَى

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٣٢).

اشتد حزنه على قومه، ثم أنكر على نفسه فقال: فكيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم، واستحقاقهم مما نزل بهم، ويجوز أن يريد: لقد اعتذرت إليكم في الإبلاغ والنصيحة والتحذير مما حل بكم فلم تسمعوا قولي، ولم تصدقوني، فكيف آسى عليكم؛ يعني: أنه لا يأسى عليهم لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى[1].

قال صاحب «الظلال»: ويطوي صفحتهم مشيعة بالتكبيت والإهمال والمفارقة والانفصال من رسولهم الذي كان أخاهم، ثم افترق طريقه عن طريقهم، فافترق مصيره عن مصيرهم، حتى لو لم يعد يأسى على مصيرهم الأليم، وعلى ضيعتهم في الغابرين.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣]:

إنه من ملة وهم من ملة، فهو أمة وهم أمة، أما صلة الأنساب والأقوام فلا اعتبار لها في هذا الدين ولا وزن لها في ميزان الله، فالوشيجة الباقية هي وشيجة هذا الدين، والارتباط بين الناس إنما يكون في حبل الله المتين[2].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} بعد أن قصَّ الله تعالى علينا في هذه السورة الكريمة سورة الأعراف قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وفيها ما فيها من العظات والعبر، وهي تشترك في أمور منها تمرد أقوام هؤلاء الرسل الكرام على أنبيائهم، مع بذل الأنبياء الكرام غاية الجهد والنصحية من الترغيب والترهيب والإنذار والإعذار، ولا يزيدهم إلا تمرداً ونفوراً، ولا يتعظ اللاحق بالسابق فينزل بأس الله ﷻ وعذابه على الكافرين، عبرة للمعتبرين، وذكرى لعباد الله المؤمنين، عقب الله ﷻ هذه القصص بعدة آيات كلها عبرٌ وعظات وحكم

(١) «الكشاف» (٢/ ١٣١).
(٢) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٣٢٢).

بالغات، أنقلها ليتدبرها القارئ الكريم حتى نقف على فضل الله العظيم على المؤمنين وبأسه الذي لا يرد عن القوم الكافرين.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٩٤ ـ ١٠٢].

ثم ذكر الله ﷻ بعد ذلك قصة موسى وفرعون، نسأل الله تعالى أن يرزقنا حسن التدبر للقرآن والعمل به، والاتعاظ بمواعظه، فلا خير فيمن إذا أُمر لا يأتمر، وإذا زُجر لا ينزجر.

{٢} **قال ابن كثير** رحمه الله: ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين فقوله ضعيف، وإنما عمدتهم شيئان:

أحدهما: أنه ﷻ قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧] ولم يقل: أخوهم كما قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ﴾ [الأعراف: ٨٥، هود: ٨٤، العنكبوت: ٣٦].

الثاني: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة، والجواب عن الأول: أنه لم يذكر الأخوَّة بعد قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة فلا يناسب ذكر الأخوة ها هنا، ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب أنه أخوهم.

وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة.

وأما احتجاجهم بيوم الظلة، فإن كان دليلاً بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلاً على أنهما أمتان أخريان وهذا لا يقوله أحدٌ يفهم شيئاً من هذا الشأن.

فأما الحديث الذي أورده الحافظ ابن عساكر في ترجمة النبي شعيب ﷺ من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد عن شقيق بن أبي هلال، عن ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «**إنَّ قَوْمَ مَدْيَنَ وَأصحاب الأَيْكَةِ بَعَثَ اللهُ إلَيْهِما شُعَيْباً النَّبي ﷺ**».

فإنه حديث غريب، وفي رجاله من تُكلم فيه، والأشبه أنه من كلام عبد الله بن عمرو مما أصابه يوم اليرموك من تلك الزاملتين من أخبار بني إسرائيل، والله أعلم.

ثم قد ذكر الله ﷻ عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين: من التطفيف في المكيال والميزان، فدل على أنهم أمة واحدة، أهلكوا بأنواع من العذاب، وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب[١].

{٣} **قال القاسمي** رحمه الله: قال القاشاني: لما رأى شعيب ﷺ ضلالتهم بالشرك واحتجابهم عن الحق بالجِبْتِ، وتهالكهم على كسب الحطام بأنواع الرذائل، وتماديهم في الحرص على جمع المال بأسوإ الخصال نهاهم عن ذلك، وقال: إني أراكم بخير في استعدادكم من إمكان حصول كمال وقبول هداية، وإني أخاف عليكم إحاطة خطيئاتكم لاحتجابكم عن الحق ووقوفكم مع الغير، وصَرْف أفكاركم بالكلية إلى طلب المعاش، وإعراضكم عن المعاد، وقصور هممكم على إحراز الفاسدات الفانيات، عن تحصيل الباقيات الصالحات، فلازِموا التوحيد والعدالة، واعتزِلوا عن الشرك والظلم الذي هو جماع الرذائل وأم الغوائل[٢].

---

(١) «قصص القرآن» (٢١٥، ٢١٦).

(٢) «محاسن التأويل» (٩/ ١٦١).

{٤} **قال العلامة السعدي عليه رحمة ربنا العلي:** وفي قصة شعيب فوائد متعددة:

منها: أن بخس المكاييل والموازين خصوصاً، وبخس الناس أشياءهم عموماً: من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة.

ومنها: فيه دلالة على أن الصلاة سبب لفعل الخيرات وترك المنكرات وللنصيحة لعباد الله وقد علم ذلك الكفار بما قالوا لشعيب: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] ومن هنا تعرف حكمة الله ورحمته في أن فرض علينا الصلوات تتكرر في اليوم والليلة لعظم وقعها وشدة نفعها وجميل آثارها، فللّه على ذلك أتم حمد.

ومنها: أن الناصح للخلق الذي يأمرهم وينهاهم من تمام قبول الناس لقوله أنه إذا أمرهم بشيءٍ أن يكون أول الفاعلين له، وإذا نهاهم عن شيءٍ كان أول التاركين لقول شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨][1].

---

(١) «خلاصة تيسير اللطيف المنان» (١٢٧، ١٢٨).

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة
يعقوب ويوسف عليهما السلام

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة يعقوب ويوسف عليهما السلام

هذه القصة العظيمة قصة يعقوب ويوسف عليهما السلام من أبدع القصص القرآني؛ ولذا قال الله عز وجل في التقديم لهذه القصة العظيمة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] ومن مميزات هذه القصة أنها جمعت أطرافها وأحكم نظمها في مكان واحدٍ من كتاب الله، ولم تأت مفرقة في سور القرآن العظيم، ولله الحكمة البالغة، ومن الصعوبة بمكان أن ننقل السورة بأجمعها وننقل أقوال المفسرين فيها كما أسلفنا فيما تقدم من القصص، وسوف نقتصر بإذن الله تعالى على تلخيص أحداث القصة، ثم نفيض في نقل الفوائد والآثار الإيمانية، ومن أراد النص القرآني فعليه العودة إلى كتاب الله عز وجل، وإنما قصدنا ذلك خشية الإطالة.

وتتلخص أحداث هذه القصة في أن يوسف عليه السلام رأى في منامه أحدَ عشرَ كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، فقص رؤياه على أبيه يعقوب عليه السلام فاستبشر بهذه الرؤيا، وعلم أن لابنه هذا شأناً عظيماً وكانت علاماتُ النجابة بادية على يوسف عليه السلام مع ما رزقه الله عز وجل من جمال الهيئة وبهاء الطلعة، فتمكّن حب يوسف عليه السلام من قلب أبيه، وخاف عليه حسد إخوته وكيدهم له فنهاه أن يقص رؤياه على إخوانه حتى لا يأكلهم الحسد فيكيدوا له كيداً، فنزغ الشيطان بين يوسف وبين إخوته لأبيه، فبدأوا في الكيد له، وأجمعوا أن يلقوه في بئر مهجورة لعل بعض السَّيَّارة يلتقطونه، ويَدَّعون أن الذئبَ قد أكله، فيحزن أبوهم فترة ثم ينسى يوسف عليه السلام، ويخلو لهم وجه أبيهم، ويكونوا من بعده قوماً صالحين، وبدأوا في نسج خيوط المؤامرة وطلبوا من أبيهم أن يرسل معهم يوسف عليه السلام من أجل أن يمرح ويلعب وهم يتعهدون بالمحافظة عليه ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٦، ١٧] ولكنهم لم يكن من طبيعتهم الكذب مع إحساسهم بجريمتهم فكانت قرائن أحوالهم تكذب مقالتهم ﴿وَجَاءُو

عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ أي: أن طريقة تلطيخ القميص بالدم يدل كذلك على كذبهم فقال لهم أبوهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] ثم يسدل الستار على هذا المشهد من مشاهد يعقوب عليه السلام مع بنيه، ثم تحكي القصة كيف تعهّد الله عز وجل يوسف عليه السلام، وكيف رفعه من الجُبِّ إلى خزائن الأرض.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةًۚ﴾ [يوسف: ١٩] أي: إن قافلة أرسلت تستسقي الماء من البئر فخرج يوسف عليه السلام فاعتبروه رقيقاً، فباعوه إلى عزيز بلدهم ـ وهو كما يُشير إليه السياق ليس هو الملك، ولكنه في منزلة محافظ أو أمير من أمراء المدينة ـ ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠] ومن تَعَهُّدِ الله عز وجل له بالتربية والعناية، أوصى العزيزُ امرأتَه أن تحسن إليه، وأن تكرم مثواه عسى أن ينفعهما أو يتخذوه ولداً، ويسكت السياق عن هذه النشأة، ولكنه يشير إلى أنه نشأ على الطهر والعفاف، واكتملت شخصيته وتمت مروءته، وظهرت علامات صدقه ونجابته، وكل ذلك يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف: ٢٢].

ثم حدث ما حدث له مع امرأة العزيز، فقد امتلأ قلبها بحبه وراودته عن نفسه، وغلّقت الأبواب وقالت: هيت لك، ويوسف كما قال النبي ﷺ: **«الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، إنه يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم نبي الله»** إن الله عز وجل جهزه وأعده من أجل أن يرفع به الدين، وأن يدعو إلى سبيل الله المستقيم فما له ولسبيل المجرمين! فبادر يوسف عليه السلام إلى الإنكار عليها، وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ﴾ [يوسف: ٢٣] ثم نصح نفسه وإياها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣] فهمَّت به وهمَّ بها يدفعها عن نفسها ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: ٢٥] وإنما خيَّرته في العقوبة بين السجن والعذاب؛ وذلك لمزيد حبها له وخشية أن يأمر بقتله، فقال يوسف عليه السلام يدفع عن نفسه: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ﴾ [يوسف: ٢٦] ثم من

تقدير الله ﷻ له ومن حسن دفاعه عن المؤمنين أن شهد شاهد من أهلها إن كان قميصه تمزق من الأمام فقد صدقت هي، وإن كان من الخلف فهو الصادق وهي الكاذبة، ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف: ٢٨]، وعلى عادة الأوساط «الأرستقراطية» والمجتمعات المترفة التهاون في مثل هذه الحوادث، وعدم تعظيم الحرمات، طلبوا من يوسف عليه السلام أن يسكت عن هذه الحادثة، وطلبوا منها الاستغفار من هذا الذنب، ومثل هذه الحوادث وخاصة في المجتمعات الفارغة التافهة لا تخفى وخاصة إذا كان في الحادث طرفٌ نسائي، انتقلت الأخبار ولاكتها الألسن، وأنكرت نساء المدينة كيف تراود امرأة العزيز غلامها عن نفسه، فأحبت أن يلتمسن لها الأعذار برؤية جمال يوسف وبهائه ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: ٣١] واستمر كيدها بيوسف عليه السلام رجاء أن تنال منه شيئاً مما تهواه، فلجأ يوسف عليه السلام إلى ربه وسأله المخرجَ من هذه المحنة والنجاة من هذه الفتنة التي لا أشد منها على شاب غريب مملوك في بيت امرأة من أهل الترف والإسراف وليس في عقولهن وقلوبهن إلا فتنة الآخرين ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: ٣٤] والضعيف دائماً تلفق له التهم؛ حتى يظهرَ أهل الجاه والسلطان أبرياء من كل ريبة وتهمة، فصدرت الأوامر بعقوبة السجن ليوسف عليه السلام، وقد تكون المحنة مِنحة والرزية عطية، كيف لا وقد تمنى يوسف السجن لبدنه وآثر ذلك على سجن قلبه في الهوى والمعصية، وقد كان شيخ الإسلام يقول: المحبوس من حُبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسَرَه هواه.

والمؤمن مبارك أينما كان، ولا تخفى علامات الصلاح والإحسان عن عيون الناظرين، والأنبياء هم سادة المؤمنين، فلا تخفى علامات صدقهم وإحسانهم كما قال حسان بن ثابت في وصف نبينا ﷺ:

لَوْ لَمْ تكُنْ فِيهِ آياتٌ مُبَيِّنَةٌ ... كانَتْ بَدِيْهَتُهُ تَأْتِيكَ بالخَبَرِ

دخل يوسف عليه السلام السجن ودخل معه فتيان: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ

﴿أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] فعلما أنه لا يوفق للتأويل الصحيح إلا أهل الإحسان وأصحاب البصائر.

والداعية الصادق حياتُهُ هي الدعوة إلى الله عز وجل، وهمه هداية الناس إلى طريق الله وتعبيدهم لله فانتهز يوسف عليه السلام هذه الفرصة وهذه الآذان الصاغية إلى معرفة تأويل الرؤيا فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠].

وبعد أن بلغهم دعوته وأظهر لهم حُجته، أخبرهما بتأويل رؤياهما، وقال ملتزماً بآداب المعبِّر الذي لا يواجه صاحب الرؤيا بالتأويل الذي يكرهه: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ أي: ينجو من السجن ويعود إلى قصر الملك، ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ [يوسف: ٤٠] يقتل ويعلق مصلوباً حتى تأكل الطير من رأسه ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: عند الملك ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢] والضمير يعود على الذي ظن أنه ناجٍ منهما وربه هو الملك، وذلك لأن الضمير يعود على أقرب مذكور، وهو أقرب مذكور.

ثم يظهر في السياق الآن الملك وقد رأى رؤيا، وسأل عن وجوه الناس عنده فما وجد عندهم ما يشفيه ويروي غليله فيها: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤)﴾ [يوسف: ٤٤].

فتذكر الذي نجا يوسف عليه السلام، فذهب إليه وأخبره برؤيا الملك وهي أنه رأى سبع بقرات سِمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، ففسر يوسف عليه السلام الرؤيا: بسبع سنين رخاء يعقبها سبع سنين قحط، ثم يأتي بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، فلما بلغ هذا التأويل الملك طلب رؤيته وإحضاره، ويوسف عليه السلام لا يتعجل الخروج من السجن حتى يُبرِّؤوا ساحته ويظهر للجميع نزاهته وطهارته فقال: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠] وحقق

الملك في القضية بنفسه، وقالت امرأة العزيز: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

فخرج يوسف عليه السلام من السجن إلى خزائن الأرض، وصدق فيه قول نبينا ﷺ: «**وما ظلم عبدٌ مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزاً**» فارتفع بالطاعة والصبر على الشهوة، وهبطت المعصية بامرأة العزيز، كما هبطت بإخوته الذين جاؤوه يطلبون حظهم ونصيبهم ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨] فلما وَفَّى يوسف عليه السلام كيلهم، وأحسن إليهم، طلب منهم أن يحضروا معهم في العام المقبل أخاً لهم من أبيهم، وخوَّفهم من عدم إحضاره أنه سوف يمنعهم الكيل بالكلية، فقالوا: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ﴾ [يوسف: ٦١] وقال يوسف لفتيانه: ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢] والراجح أنها ثمن القمح والطعام الذي أخذوه، حتى يستعينوا بذلك على العودة في العام المقبل.

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بما حدث مع العزيز - يوسف عليه السلام - وكيف أنه أكرم مثواهم، ورد إليهم ثمن ما أخذوه، فرغبهم في العودة، وطلب منهم أخاهم لأبيهم، وهددهم بمنعهم الكيل إذا لم يحضروه، وطلبوا من أبيهم السماح بأخيهم، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، إلا أن الحاجة الشديدة والقحط جعله يسلم لهم أخاهم، مع أخذ العهود والمواثيق أن يحضروه معهم مرة ثانية إلا أن يحاط بهم، والقدر ما زال يخفي ليعقوب عليه السلام ما يزيد من بلائه ومحنته، ولترتفع بذلك درجته، ويكون الفرج بعد الشدة في أكمل أحواله ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦] ومبالغة في الحيطة معهم، وحتى لا تصيبهم العين لكثرتهم وجمالهم أمرهم أن لا يدخلوا من باب واحدٍ وأن يدخلوا من أبواب متفرقة ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف: ٦٩] ثم احتال عليه السلام على إخوته من أجل أن يستخلص أخاه من بينهم، ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ [يوسف: ٧٠] أي: صاع الملك الذي يكيل به في ﴿رَحْلِ أَخِيهِ﴾ فلما همُّوا بالسفر والعودة إلى أبيهم إذا هم بصائح يقول لهم: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] وكان القانون الذي يرتضونه أن السارق يؤخذ رقيقاً ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ قال الله

تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦] فقالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] يعنون: يوسف عليه السلام، فأجابهم سراً لا جهاراً حلماً وكرماً وصفحاً وعفواً: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧] ثم توسلوا إليه في ترك أخيهم وأخذ أحد منهم شفقة بأبيهم، فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف: ٧٩].

فلما رجعوا إلى أبيهم عليه السلام قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣] وذكره ما حدث بيوسف عليه السلام: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: ٨٤] فحرَّك هذا الحزن الجديد حزنه القديم، كما قال القائل:

لَقَدْ لامَني عند القُبُورِ عَلى البُكا ... رَفِيقي لِتِذْرافِ الدُّمُوعِ السَّوافِكِ(١)
فَقالَ أَتَبكي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ؟ ... لِقَبْرٍ ثَوى بِيْنَ اللَّوَى فَالدَّكادِكِ(٢)
فَقُلْتُ لَهُمْ إنَّ الأسَى يَبْعَثُ الأسَى ... فدعْني فَهَذا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

واشتد الكرب على يعقوب عليه السلام، والأنبياء كما قال النبي ﷺ: «**أشد الناس بلاء**»(٣) فلما أشفق عليه بَنُوه وخافوا عليه الهلاك ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] وهذه الشكوى هي اللائقة بالأنبياء الكرام ولا تنافي الصبر كما قال أيوب كذلك: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤] وهنا قال يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨].

والمؤمن لا ييأس من روح الله، والرؤيا التي قصها يوسف عليه السلام لا بد أن تتحقق، فقال يعقوب عليه السلام: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧] فلما دخلوا على يوسف عليه السلام دخول الفقراء المحاويج، الذين ضاقت عليهم السبل،

---

(١) السوافك: المصبوبة المراقة.

(٢) اللوى: الرمل الملتوي، والدكادك: الرمل ذو التراب المتلبد.

(٣) رواه الترمذي (٩/ ٢٤٣) «الزهد»، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وقال الألباني: حسن صحيح، وكذا في «تحقيق جامع الأصول».

وليس معهم من المال ما يوافي ما يحتاجونه من الطعام، وقد أصابهم من الهم والضيق ما أصابهم، و﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨] فكشف لهم يوسف عليه السلام عن شخصه اللثام، وقال: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يوسف: ٨٩] فقال قائل منهم: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ﴾، ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] فاعترفوا بفضله وشرفه كما اعترفوا بخطئهم، والأنبياء أولى الناس بالمواقف الكريمة والصفات الجليلة، فما وجدها يوسف عليه السلام فرصة ينتقم فيها لنفسه ولأخيه، فقال عليه السلام: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ﴾ ثم زادهم ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

ثم أمرهم بأن يذهبوا بقميصه فيضعوه على وجه أبيهم فيرجع إليه بصره الذي أذهبه الحزن، وهذا من خوارق العادات، ودلائل النبوات، وأكبر المعجزات.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يوسف: ٩٤ ـ ٩٦].

فطلبوا منه أن يستغفر لهم الله عز وجل فقال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ﴾ [يوسف: ٩٨].

قال ابن مسعود وغيره: أرجأهم إلى وقت السحر.

ثم حصل لهم الفرج بعد الشدة العظيمة، اجتمع الشمل بعد الفراق، ورفع يوسف عليه السلام أبويه على العرش ـ أي: أجلسهما على سرير الملك ـ وسجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر تعظيماً وتكريماً وكان هذا جائزاً في شريعتهم.

قال يوسف: ﴿يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: ١٠٠].

قال ابن كثير رحمه الله: ثم لما رأى يوسف عليه السلام نعمته قد تمت، وشمله قد اجتمع، عرف أن هذه الدار لا يقرّ بها قرار، وأن كل شيءٍ فيها ومن عليها فان، وما بعد التمام إلا النقصان، فعند ذلك أثنى على ربه بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه وفضله، وسأل منه وهو خير المسؤولين أن يتوفاه - أي حين يتوفاه - على الإسلام، وأن يلحقه بعباده الصالحين، وهكذا كما يقال في الدعاء: «**اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين**» أي: حين تتوفانا[1].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

الفوائد والآثار الإيمانية في هذه القصة البديعة كثيرة جداً كما قال تعالى: ﴿۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف: ٧] وكنت أتعجب من قول الإمام ابن القيم: إن في هذه القصة أكثر من ألف فائدة، ولما اطلعت على شيء من التفاسير وما استنبطه العلماء من فوائد زال هذا التعجب وظننت أنه رحمه الله كان ينبغي أن يزيد على هذا العدد، فإن في كل آية فوائد متعددة، وهي جديرة بقول الله عز وجل في التقديم للقصة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ٣] وأستأذن القارئ الكريم في الإطالة قليلاً في نقل الفوائد، وكان حق هذه القصة مصنفاً كاملاً، ولكن لا نحرم إن شاء الله من إلقاء بعض الضوء على أماكن العبرة والعظة، والله تعالى يتولانا برحمته ويجمعنا بحبنا لأنبيائه ورسله، ونشر فضائلهم ورفع منازلهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فإن المرء كما قال النبي ﷺ: «**مع من أحب**».

فمن الفوائد ما ذكره العلامة السعدي رحمه الله وهي كثيرة نذكر بعضها مختصراً:

{١} منها: أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها؛ لما فيها من أنواع التنقلات من حالٍ إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة

---

(١) «قصص الأنبياء» (٢٦٤).

ومنة، ومن ذلٍّ إلى عزٍّ، ومن أمنٍ إلى خوف وبالعكس، ومن ملك إلى رقٍّ وبالعكس، ومن فُرقة وشتات إلى انضمام وائتلاف وبالعكس، ومن ضيق إلى سعة وبالعكس، ومن وصول إلى عواقب حميدة فتبارك مَن قَصَّها وجعلها عبرة لأولي الألباب.

{٢} ومنها: ما فيها من أصول تعبير الرؤيا المناسبة، وأن علم التعبير علمٌ مهمٌّ يعطيه الله من يشاء من عباده، وأن أغلبه ما تبنى عليه المناسبات، وضرب الأمثال، والمشابهة في الصفات.

فإن قيل: من أين أخذ قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾ [يوسف: ٤٩] فإن بعض المفسرين قال: هذه زيادة من يوسف في التعبير بوحي أوحي إليه.

فالجواب: ليس الأمر كذلك وإنما أخذها من رؤيا الملك، فإن السنين المجدبة سبع فقط فدل على أنه سيأتي بعدها عام عظيم الخصب كثير البركات يزيل الجدب العظيم الحاصل من السنين المجدبة، الذي لا يزيلها عام خصب عادي، بل لا بد فيه من خصب خلاف العادة، وهذا واضح من مفهوم العدد.

{٣} ومنها: أنه ينبغي للعبد البُعد عن أسباب الشر وكتمان ما تخشى مضرته؛ لقول يعقوب ليوسف ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥].

{٤} ومنها: أن نعمة الله على العبد نعمة على من يتعلق به ويتصل من أهل بيته وأقاربه وأصحابه فإنه لا بد أن يصلهم ويشملهم منها جانب لقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦] أي: بما يحصل لك، ولهذا لما تمت النعمة على يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين والسرور وزوال المكروه وحصول المحبوب ما ذكر الله في آخر القصة.

{٥} ومنها: أن النعم الكبيرة الدينية والدنيوية لا بد أن يتقدمها أسباب ووسائل إليها؛ لأن الله حكيم وله سنن لا تتغير، قضى بأن المطالب العالية لا تنال إلا بالأسباب النافعة خصوصاً العلوم النافعة وما يتفرع عنها من الأخلاق والأعمال، فلهذا عرف يعقوب أن وصول يوسف إلى تلك الحالة التي يخضع

له فيها أبوه وأمه وإخوته مقام عظيم ومرتبة عالية، وأنه لا بد أن ييسر الله ليوسف من الوسائل ما يوصله إليها، ولهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٦].

{٦} ومنها: أن العدل مطلوب في جميع الأمور الصغار والكبار في معاملة السلطان لرعيته، ومعاملة الوالدين للأولاد، والقيام بحقوق الزوجات وغير ذلك في المحبة والإيثار ونحوها، وأن القيام بالعدل في ذلك تستقيم الأمور صغارها وكبارها به ويحصل للعبد ما أحب، وفي الإخلال بذلك تفسد الأحوال، ويحصل للعبد المكروه من حيث لا يشعر، لهذا لما قدَّم يعقوب عليه السلام يوسف في المحبة وجعل وجهه له، جرى منهم على أبيهم وأخيهم من المكروه ما جرى.

{٧} ومنها: الحذر من الخلْوة بالنساء الأجنبيات وخصوصاً اللاتي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضاً من المحبة التي يُخشى ضررها؛ فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب توحدها بيوسف وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه فسجن ذلك السجن الطويل.

{٨} ومنها: أن من دخل الإيمانُ قلبه، ثم استنار بمعرفة ربه ونور الإيمان به، وكان مخلصاً لله في كل أحواله، فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وإخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاءٌ لإيمانه وإخلاصه؛ لأن الله علل صَرْف هذه الأمور عن يوسف بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإن من أخلصه الله واجتباه فلا بد أن يكون مخلصاً، فالمعنيان متلازمان.

{٩} ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا ابتُلي بالوقوع في محلٍّ فيه فتنة وأسباب معصية أن يفر ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من ذلك الشر، كما فر يوسف هارباً للباب وهي تمسك بثوبه، وهو مدبر عنها.

{١٠} ومنها: أن يوسف اختار السجن على المعصية، فهكذا إذا ابتلي العبد بأحد أمرين؛ إما أن يلجأ إلى فعل المعصية وإما أن يعاقب عقوبة دنيوية، فعليه أن يختار العقوبة الدنيوية التي فيها الثواب من هذا الوجه بعدة

أمور: ثوابٌ من جهة اختياره الإيمان على السلامة من العقوبة الدنيوية، وثوابٌ من جهة أن هذا من باب التخليص للمؤمن والتصفية، وهو يدخل في الجهاد في سبيل الله، وثوابٌ من جهة المصيبة التي نالته والألم الذي أصابه، فسبحان من ينعم ببلائه ويلطف بأصفيائه وهذا أيضاً عنوان الإيمان وعلامة السعادة.

{١١} ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه بفعله أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون نقصاً ولا شكوى إلى المخلوق ممنوعة، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض فيها، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناجٍ منهما: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

{١٢} ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عَمَّا في نفسه من الصفات الكاملة من العلم وغيره إذا كان في ذلك مصلحة وسلم من الكذب ولم يقصد به الرياء لقول يوسف عليه السلام: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] وكذلك لا تذم الولاية إذا كان المتولي لها يقوم بما يقدر عليه من إقامة الشرع، وإيصال الحقوق إلى أهلها، وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أهلاً وأعظم كفاءة من غيره، وإنما المذموم إذا لم يكن فيه كفاءة، أو كان موجود من هو أمثل منه أو مثله، أو لم يرد بها إقامة أمر الله بل أراد الترأُس والمأكلة المالية.

{١٣} ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: ٦٤]، وقال: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا﴾ [يوسف: ١٨] فهم في الأخيرة وإن لم يكونوا مفرطين فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن يقول ما قال من غير لوم عليه.

{١٤} ومنها: أن الفرج مع اشتداد الكرب، فإنه لما تراكمت الشدائد المتنوعة، وضاق العبد ذرعاً بحملها فرَّجها فارج الهم كاشف الغم مجيب دعوة المضطرين، وهذه عوائده الجميلة خصوصاً لأوليائه وأصفيائه، ليكون لذلك الوقع الأكبر والمحل الأعظم، وليجعل من المعرفة بالله والمحبة له ما يوازن ويرجح بما جرى على العبد بلا نسبة.

{١٥} ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وإن عاقبة أهلهما أحسن العواقب لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

{١٦} وفيها: أنه ينبغي للعبد إذا أُنعم عليه بنعمة بعد ضدها، أن يتذكر الحالة السابقة لِيُعَظِّم وقع هذه النعمة الحاضرة ويكثر شكره لله تعالى؛ ولهذا قال يوسف: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٠].

{١٧} ومنها: ما في هذه القصة من الألطاف المتنوعة المسهلة للبلاء منها: رؤيا يوسف السابقة فإن فيها رَوْحاً ولطفاً بيوسف ويعقوب عليهما السلام، وبشارة بالوصول إلى تأويلها، ولطف الله بيوسف إذ أوحى إليه وهو في الجب ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] وتنقلاته من حال إلى حال، فإن فيها ألطافاً ظاهرة وخفية، ولهذا قال في آخر الأمر: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] يلطف به في أحواله الداخلية، ويلطف له في الأمور الخارجية، ويوصله إلى أعلى المطالب من حيث لا يشعر(١).

{١٨} **قال ابن كثير**: اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم(٢).

---

(١) باختصار من «تيسير الكريم المنان» (١٥٤ ـ ١٦٣).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٢/٤٦، ٤٧)، وانظر كلام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ فاستدل بها على أنها لم يكونوا أنبياء؛ لأن الأنبياء =

{١٩} **قال القاسمي** رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]: تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لن تصدقنا في هذه الحالة، ولو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا.

وقد استفيد من الآية أحكام: منها: أن بكاء المرء لا يدل على صدقه لاحتمال أن يكون تصنعاً، نقله ابن العربي(١).

ومنها: مشروعية المسابقة، وفيه من الطب: رياضة النفس والدواب وتمرين الأعضاء على التصرف، كذا في «الإكليل».

قال بعض اليمانيين: اللعب إن كان بين الصغار جاز بلا مفسدة فيه ولا تشبه بالفسقة، وأما بين الكبار ففيه ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون في معنى القمار فلا يجوز.

الثاني: أن لا يكون في معناه، وفيه استعانة وحث على القوة والجهاد كالمناضلة بالقسي، والمسابقة على الخيل، فذلك جائز اتفاقاً.

الثالث: أن لا يكون فيه عوض كالمصارعة ونحوها ففي ذلك قولان للشافعية، رُجِّحَ الجواز إن كان بغير عوض، أو بعوض يكون دفعه على سبيل الرضا لأنه ﷺ صارع يزيد بن ركانة.

= لا يدبرون في قتل مسلم، بل كانوا مسلمين فارتكبوا معصية ثم تابوا.
«الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٣٣٦٢).
ورجح السعدي عكس ذلك وقال: إنَّ العبرة للعبد في حال كمال النهاية لا بنقص البداية؛ فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر من الجرائم المتنوعة، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح والاعتراف التام والعفو التام عنهم من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد بحق الله، فالله أولى بذلك، وهو خير الراحمين الغافرين، ولهذا في أصح الأقوال: إن الله جعلهم أنبياء، لمحو ما سبق منهم، وكأنه ما كان، ولقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وهم أولاد يعقوب الاثني عشر وذريتهم، ومما يؤيد هذا أن في رؤيا يوسف أنهم هم الكواكب التي منها النور والهداية وهي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء عباد. «خلاصة تيسير اللطيف المنان» (١٥٧).

(١) قال القرطبي: وقد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى كما قال حكيم:
إذا اشتَبَكَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ ... تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

وفي الحديث: «**ليس من اللهو ثلاثة: ملاعبة الرجل أهله، وتأديبه فرسه، ورميه بقوسه**»(١). انتهى.

{٢٠} **قال الشنقيطي** رحمه الله: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ...﴾ الآية [يوسف: ٢٤] ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام هَمَّ بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه؛ ولكن القرآن العظيم بيّن براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي، حيث بيّن شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته، وشهادة الله له بذلك، واعتراف إبليس به.

أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم: يوسف والمرأة وزوجها والنسوة والشهود، أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ...﴾ [يوسف: ٣٣].

وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢].

وقولها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾ [يوسف: ٢٨ ـ ٢٩].

وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦].

وأما شهادة الله جل وعلا ببراءته ففي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

---

(١) «محاسن التأويل» (٩/٢٠٣).
والحديث رواه أبو داود (٢٥١٣) «الجهاد»، «باب في الرمي».

قال الفخر الرازي في «تفسيره»: قد شهد الله تعالى في هذه الآية الكريمة على طهارته أربع مرات:

أولها: قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة. والثاني: قوله: ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي: وكذلك نصرف عنه الفحشاء. والثالث: قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾ مع أنه تعالى قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣]، والرابع: قوله: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وفيه قراءتان قراءة باسم الفاعل، وأخرى باسم المفعول، فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته.

وعلى كلا الوجهين: فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه إليه. اهـ من «تفسير الرازي».

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

أما إقرار إبليس بطهارة يوسف ونزاهته ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣] فأقرَّ بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ولا شك أن يوسف من المخلصين كما صرح تعالى به في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فظهرت دلالة القرآن من جهات متعددة على براءته مما لا ينبغي.

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية ما نصه: وعند هذا نقول: هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه الفضيحة إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته[1].

{٢١} قال العلامة محمد رشيد رضا في قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ [يوسف: ٧] أي: لقد كان في قصة يوسف

---

(١) «أضواء البيان» (٤٩ ـ ٥١).

وإخوته لأبيه أنواع الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده، وتربيته لهم وحسن عنايته بهم للسائلين عنها من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها؛ لأنهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجوه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه، فإن للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها، فإخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخِبْ في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما ألقي في السجن لإخفاء هذا الأمر، ولو لم يسجن لما عرفه ساقي ملك مصر، وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به وله، وجعله على خزائن الأرض، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة ويأتي بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده، بل لَمَا تم قول أبيه له: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦] فما من حَلَقة من هذه السلسلة إلا وكان ظاهرها محرقاً وباطنها مشرقاً، وبدايتها شراً وخُسراً، وعاقبتها خيراً وفوزاً، وصدق الله ﷻ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] فهذه أنواع من آيات الله في القصة للسائلين عن وقائعها الحسية الظاهرة، وما هو أعلى منها من علومها وحكمها الباطنة[١].

﴿٢٢﴾ وقال رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩] أي: تائبين إلى الله من هذه الجريمة، مصلحين لأعمالكم بما يكفر إثمها وعدم التصدي لمثلها، فيرضى عنكم أبوكم ويرضى ربكم، هكذا يزين الشيطان للمؤمن المتدين معصية الله تعالى، ولا يزال ينزغ له ويسول ويَعِدُ ويمني ويأوِّل حتى يرجع داعي الإيمان أو يجيب داعي الشيطان، وهذا الذي غلب على إخوة يوسف فكان ما كان ولكن بعد رأفة مخففة لحكم الانتقام، وهو مقتضى الحكمة التي أرادها الله[٢].

(١) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٥٩) باختصار. (٢) «تفسير المنار» (١٢/ ٢٦٢).

﴿٢٣﴾ **قال القرطبي** رحمه الله: واختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقاصيص؟ فقيل: لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة، وبيانه قوله في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] وقيل: سماها أحسن القصص بحسن مجاوزة يوسف عن إخوته وصبره على أذاهم وعفوه عنهم - بعد التقائهم - عن ذكر ما تعاطو وكرمه في العفو عنهم حتى قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢] وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطير وسير الملوك والممالك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا، وقيل: لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسِيَرِهِما وقيل: أحسن هنا بمعنى: أعجب. وقال بعض أهل المعاني: إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة، انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز قيل: والملك أيضاً، أسلم بيوسف وحسن إسلامه ومستعبر الرؤيا الساقي، والشاهد فيما يقال، فما كان أمر الجميع إلا إلى خير(١).

﴿٢٤﴾ وقال رحمه الله في قوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: ٥٥]: قال بعض أهل العلم: في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعلٍ لا يعارضه فيه فيصلح منه ما شاء، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك، وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصة وهذا اليوم غير جائز، والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه، والله أعلم(٢).

﴿٢٥﴾ **قال القاسمي** في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ...﴾

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٣٣٤٩). (٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٣٣٤٩).

الآية [يوسف: ٢٦] ومن اللطائف ما قيل: إن هذا الشاهد أراد أن لا يكون هو الفاضح لها، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبرٍ، فنصبه أمارة لصدقه وكذبها، ثم ذكر القسم الآخر وهو قَدُّه من قُبُل على علم بأنه لم ينقد من قُبُل؛ حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة وقصد الفضيحة، فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده، ومن ثم قدم أمارة صدقها على أمارة صدقه في الذكر، إزاحة للتهمة ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هي الواقعة فلا يضره تأخيرها، وهذه اللطيفة بعينها والله أعلم هي التي راعها مؤمن آل فرعون في قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ [غافر: ٢٨] فقدَّم قسم الكذب على قسم الصدق إزاحة للتهمة التي خشي أن تتطرق إليه في حق موسى عليه السلام، ووثوقاً بأن القسم الثاني ـ وهو صدقه ـ هو الواقع، فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة، ومن ثم قال: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ ولم يقل: كل ما يعدكم تعريضاً بأنه معهم عليه، وأنه حريص على أن يبخسه حقه، وبنحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام وعاء أخيه الآتي ذكره لأنه لو بدأ به لظنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه، والله أعلم[1].

﴿٢٦﴾ **قال أبو السعود** في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٣٣﴾ [يوسف: ٣٣]:

هذا فزع منه عليه السلام إلى ألطاف الله تعالى جرياً على سنن الأنبياء والصالحين في قصر نيل الخيرات والنجاة من الشرور على جناب الله عز وجل، وسلب القوى والقدر عن أنفسهم، ومبالغة في استدعاء لطفه في صَرْفِ كيدهن بإظهار أن لا طاقة له بالمدافعة، كقول المستغيث: أدركني وإلا هلكت، لا أنه يطلب الإجبار والإلجاء إلى العصمة والعفة وفي نفسه داعية تدعوه إلى هواهن. انتهى[2].

﴿٢٧﴾ **وقال الزمخشري** في قوله تعالى: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾ [يوسف: ٣٧].

---

(١) «محاسن التأويل» (٩/ ٢١٦، ٢١٧). (٢) نقلاً عن «محاسن التأويل» (٩/ ٢٣١).

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان افترص[١] ذلك، فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء وهو الإخبار بالغيب وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت، فيجدانه كما أخبرهما وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد، ويعرض عليهما الإيمان، ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله، وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة إذا استفتاه واحدٌ منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه بما استفتى فيه، ثم يفتيه بعد ذلك، وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده، وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين، لم يكن من باب التزكية[٢].

﴿٢٨﴾ **قال ابن القيم** رحمه الله في المفاسد العاجلة والآجلة لعشق الصور: والله سبحانه إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس، وهم: قوم لوط والنساء، فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف، وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبَّره الله عليه، فإن موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي ها هنا في غاية القوة وذلك لوجوه:

أحدها: ما ركب الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة، كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً.

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شاباً، وشهوة الشباب وحدته أقوى.

الثالث: أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سُرِّية تكسر حدة الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلاد غربة لا يتأتى للغريب فيها قضاء الوطر ما يتأتى لغيره في وطنه وأهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها.

---

(١) «افترص» أي: اتخذها فرصة.

(٢) «الكشاف» (٢/ ٤٦٩، ٤٧٠).

السادس: أنها غير آبية ولا ممتنعة، فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها، لما يجد في نفسه من ذل النفس والخضوع والسؤال لها.

السابع: أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشى أن تنم عليه هي ولا أحد من جهتها؛ فها هي الطالبة والراغبة، وقد غَلَّقت الأبواب وغَيَّبَتِ الرقباء.

العاشر: أنه كان مملوكاً لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها، ولا ينكر عليه، وكان الأمن سابقاً على الطلب، وهو من أقوى الدواعي.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن؛ لتستعين بهن عليه، فاستعان هو بالله عليهن، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

الثاني عشر: أنها توعدته بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراه؛ إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوعُ ما هدَّد به، فيجتمع داعي الشهوة، وداعي حب السلامة من ضيق السجن والصغار.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوةِ ما يفرق به بينهما ويبعد كلّاً منهما عن صاحبه.

ومع هذه الدواعي كلها فقد آثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن يختار السجن على الزنا، فقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه[1].

---

(١) باختصار من «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لشيخ الإسلام وعلم الأعلام ابن القيم الجوزية (٢١٩ ـ ٢٢١)، المكتبة القيمة.

{٢٩} **قال القاسمي** رحمه الله: قال بعضهم: إن من أمعن النظر في قصة يوسف عليه السلام علم يقيناً أن التَّقِيَّ الأمين لا يضيع الله سعيه، بل يحسن عاقبته ويعلي منزلته في الدنيا والآخرة، وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه، ولا يخاف صروفه ونوائبه؛ فإن الله يعضده وينجح مسعاه ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار، فإن يوسف عليه السلام لما لم يخش للنوائب وعيداً، ولا للتجارب تهديداً، ولم يخف للسجن ظلماً وشراً، ولا للتنكيل به ألماً وضراً، بل ألقى توكله على الرب، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب، نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ولسان الصدق طول أيام الدهر، وها إن فضيلته لم يعف جميل ذكراها مرور الأيام، ولم يعبث بنضارتها كرور الأعوام، بل ادخرت لنا مثالاً نقتفي أثره عند طروء التجارب، وملاذاً نعوذ به في المحن والمصائب، ومقتدى نتدرب به على التثبت في مواقف العثار، وننهج منهاجه في التقوى وطيب الإزار، فننال في الدنيا سمة المجد، ونفوز في الآخرة بدار الخلد[١].

{٣٠} **قال عبد الوهاب النجار** رحمه الله تحت عنوان «العظة البالغة» من قصصه: إنكم ترون أن يوسف تقلب في الحالين: بؤس ورخاء، وتداولته أيدي رِيْحَيْنِ: زعزع ورخاء، وهو كالذهب الإبريز لا يزيد على التقلب في النار إلا صفاء، أو كالياقوت لا تؤثر فيه النيران، فبينما هو في كنف أبٍ يؤثره بالكرامة ويحوطه بالمحبة ويخاف عليه من الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس، إذا هو في يد إخوته يسلفونه الإهانة والمذلة يضربونه ظالمين، ويلقونه في غيابة الجب غير نادمين، وبينما هو على هذه الحال إذا هو يشم نسيم الحياة من جديد ولكنها حياة الرق والعبودية، ثم انتقل إلى عبودية هي أشبه بالحرية إذ صار رئيس العبيد والخدم في بيت سيده، وبينما هو في هذه النعمة التي يغبطه عليها كثير من الأحرار، إذا هو في غيابة السجن بلا ذنب اقترف ولا جريمة اجترح، وبينما هو في هذه الحال إذا هو في السجن مبشر ديني يدعو إلى عبادة الله ويصد الناس عن كل ما سواه من الأرباب المتفرقين، وإذا هو يقسم الحظوظ ويخبر بالأشياء الغائبة، ثم ترقت به الحال إلى أن صار مُعَبِّر منام الملك

(١) «محاسن التأويل» (٩/ ٢٤٢).

ونذيره بقحط عقب رخاء يعم كل منهما البلاد فيصيره على خزائن الأرض، واصطفاه لنفسه واستخلصه لمملكته، فصار قسيم الملك وكافل المملكة المصرية، وعليه إعاشة مصر والبلاد القريبة منها، فهو وزير التموين، وبينما هو على هذه الحال لا ينقصه إلا أن يشاهد أباه وأمه، إذا هو بإخوته قد وقعوا في شَرَكِه فداعبهم أجمل مداعبة وعبث معهم عبثاً كله جد[1] واحتال عليهم حتى أتوه بأخيه لأمه وأبيه، ثم أتوه بأهلهم أجمعين، وهو في كل هذه الأطوار المختلفة مستمسك بأكمل الخصال وجميل الأخلاق:

وإن امـرَءاً دَامَـتْ مَـواثِـيـقُ عَـهْـدِهِ   عَـلَـى كُـلِّ هَـذا إنَّـهُ لَـكَـرِيْـمُ

فهذه القصة الجميلة عبرة وعظة بالغة، لا تلمح العبرة منها عين كل ناظر إليها، ولا ينفذ إلى لبابها كل قارئ لها، ولكنها كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١][2].

تكميل الأحاديث الواردة في فضل يوسف عليه السلام:

{١} عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام**»[3].

{٢} وعن أبي هريرة رضي الله عنه سئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «**أتقاهم لله**» قالوا: ليس عن هذا نسألك! قال: «**فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**». قالوا: ليس عن هذا نسألك! قال: «**فعن معادن العرب تسألوني؟ الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[4].

---

(١) هذا المعنى لا يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكتاب النجار مليء بما لا يليق بالأنبياء وما نزههم الله عنه، وإنما أوقعه في هذا الضلال المبين والإفك المشين ثقته بكتب أهل الكتاب وكثرة استدلاله بنصوصهم التي أمر النبي ﷺ ألا نصدقها ولا نكذبها، وأي تصديق لها أعظم من الاستشهاد بها وكأنها من صحاح الأخبار، والله يغفر لنا وله.

(٢) «قصص الأنبياء» (ص١٨٠)، مكتبة دار التراث.

(٣) رواه البخاري (٦/ ٤١٧) «أحاديث الأنبياء».

(٤) رواه البخاري (٦/ ٤١٧) «أحاديث الأنبياء»، ومسلم (١٥/ ١٣٤) «الفضائل».

{٣} عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يرحَم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبته**»[١].

قال الحافظ: أي: لأسرعت الإجابة في الخروج من السجن ولما قدمت طلب البراءة، فوصفه بشدة الصبر حيث لم يبادر بالخروج، وإنما قاله ﷺ تواضعاً، والتواضع لا يحط مرتبة الكبير بل يزيده رفعة وجلالاً، وقيل: من جنس قوله: «**لا تفضلوني على يونس**»[٢]، وقد قيل: إنه قاله قبل أن يعلم أنه أفضل من الجميع[٣].

---

(١) رواه البخاري (٦/٤١٨) «أحاديث الأنبياء».
(٢) سيأتي تخريجه إن شاء الله تعالى في قصة يونس عليه السلام.
(٣) «فتح الباري» (٦/٤١٣).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة أيوب عليه السلام

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة أيوب عليه السلام

ونحن في هذه القصة مع علم من الأعلام، ونبي من أنبياء الله الكرام اشتهر بالصبر واليقين، وعظيم التوكل على الله رب العالمين، والأنبياء كلهم حلَّاهم الله ﷻ بالفضائل، ونزههم عن القصور والرذائل، إلا أن كل واحد منهم كان قدوة في خصلةٍ من خصال الخير، يتأسى به الحاضرون ويكون عبرة ومثالاً يقتدي به السالكون، ما دارت الأيام والسنون، فهو من أنبياء بني إسرائيل الكرام من ذرية إبراهيم المباركة عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

وقد أخبر الله ﷻ أنه من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ [النساء: ١٦٣].

قال الحافظ رحمه الله: أصح ما ورد في قصته ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن جريج وصححه ابن حبان والحاكم من طريق نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس: «أن أيوب ابتلي فلبث في بلائه ثلاث عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه، فكانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما للآخر: لقد أذنب أيوب ذنباً عظيماً، وإلا لكشف عنه هذا البلاء، فذكره الآخر لأيوب ـ يعني: فحزن ـ ودعا الله حينئذٍ، فخرج لحاجته وأمسكت امرأته بيده فلما فرغ أبطأت عليه، فأوحى الله إليه أن اركض برجلك، فضرب برجله الأرض فنبعت عين فاغتسل منها فرجع صحيحاً، فجاءت امرأته فلم تعرفه، فسألته عن أيوب فقال: إني أنا هو، وكان له أندران: أحدهما للقمح والآخر للشعير، فبعث الله له سحابة فأفرغت في أندر القمح الذهب حتى فاض، وفي أندر الشعير الفضة حتى فاض»[1].

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٢١).

ولعل هذا الذهب والفضة هو المعنى بما أغناه الله ﷻ كما في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**بينما أيوب يغتسل عرياناً خَرَّ عليه رِجْل جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك**»[١].

ووقع عند أحمد: «**لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب**».

وقوله: «**رجل جراد**»: أي جماعة جراد.

قال الحافظ: وفي الحديث جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حق من وثق من نفسه بالشكر عليه، وفيه تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة، وفيه فضل الغني الشاكر، واستنبط منه الخطابي جواز أخذ النثار في الإملاك، وتعقبه ابن التين فقال: هو شيءٌ خص الله به نبيه أيوب، وهو بخلاف النثار، فإنه من فعل الآدمي فيكره لما فيه من السَّرف، ورد عليه بأنه أذن فيه من قبل الشارع إن ثبت الخبر ويستأنس فيه بهذه القصة، والله أعلم[٢].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤١ ـ ٤٤].

قال ابن كثير رحمه الله: قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران، وحكى ابن عساكر: أنها كانت كلها له، وكان له أولاد وأهلون كثير.

فسُلب منه ذلك جميعُهُ، وابتلي في جسده بأنواع من البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله ﷻ بهما، وهو في ذلك كله صابرٌ محتسب ذاكرٌ لله ﷻ في ليله ونهاره وصبحه ومسائه.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤٢٠) «أحاديث الأنبياء».

(٢) باختصار من «الفتح» (٦/ ٤٢١).

وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأخرج من بلده، وألقي على مزبلة خارجها، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها، وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه، وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته، وضعف حالها، وقلَّ مالها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأوده رضي الله عنها وأرضاها، وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج وضيق ذات اليد، وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة فإنا لله وإنا إليه راجعون، وقد ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل**»[(١)]، وقال: «**يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه**»[(٢)]، ولم يزد هذا أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً وحمداً وشكراً حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا[(٣)].

وقال القاسمي رحمه الله: يذكر كثير من المفسرين ها هنا مرويات وقصصاً إسرائيلية في ابتلائه عليه السلام، ولا وثوق من ذلك كله إلا بمجمله وهو ما أشار إليه التنزيل الكريم لأنه المتيقن، وهو أنه عليه الصلاة والسلام أصابته بلوى عظيمة في نفسه وماله وأهله، وأنه صبر على ذلك صبراً صار يضرب به المثل لثباته وسعة صدره وشجاعته، وأنه جوزي بحسنة صبره أضعافاً مضاعفة.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص: ٤١]:

قال الزمخشري رحمه الله: فإن قلت: لم نَسَبَهُ إلى الشيطان، ولا يجوز أن يسلطه الله عز وجل على أنبيائه ليقضي من إتعابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرر في القرآن أن لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب؟ قلت: لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس

---

(١) تقدم تخريجه (ص٢٣٧).
(٢) هو تكملة للحديث السابق.
(٣) «قصص الأنبياء» (٢٦٨، ٢٦٩).

سبباً فيما مسه الله به من النصَب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل(١).

قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾ [ص: ٤٢]:

قال العلامة السعدي: لما تطاول به المرض العظيم، ونسيه الصاحب والحميم، نادى ربه ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] فقيل له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ فركض فنبعت بركضته عين ماء بارد فقيل له: اشرب منها واغتسل، ففعل ذلك، فذهب ما في ظاهره وباطنه من البلاء(٢).

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣﴾ [ص: ٤٣]:

قال الألوسي: بإحيائهم بعد هلاكهم على ما روي عن الحسن، وقيل - وإليه أميل -: وهبه من كان حياً منهم، وعافاه من الأسقام، وأرغد لهم العيش فتناسلوا، حتى بلغ عددهم عدد من مضى ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فكان له ضعف ما كان، والظاهر أن هذه الهبة كانت في الدنيا، وزعم البعض أن هذا وعد، وتكون تلك الهبة في الآخرة ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: لرحمة عظيمة عليه من قِبَلِنا.

﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وتذكيراً لهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبر، ويلجأوا إلى الله تعالى فيما يصيبهم كما لجأ، ليفعل سبحانه بهم ما فعل به من حسن العاقبة(٣).

قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٤٤﴾ [ص: ٤٤]:

قال ابن كثير رحمه الله: وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب

---

(١) «الكشاف» (٤/٩٧) باختصار.
(٢) «خلاصة تيسير اللطيف المنان» (١٤٥).
(٣) باختصار من «روح المعاني» (٢٣/٢٠٧).

على زوجته ووجد عليها في أمرٍ فعلته، قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فَلامَها على ذلك، وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة، وقيل لغير ذلك من الأسباب، فلما شفاه الله ﷻ وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله ﷻ أن يأخذ ضغثاً ـ وهو الشمراخ فيه مائة قضيب ـ فيضربها به ضربة واحدة، وقد بَرَّت يمينه وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه، ولهذا قال جل وعلا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رجاع منيب[١].

❀ ❀ ❀ ❀. ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال العلامة السعدي**: في قوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾:

في هذا دليل على أن كفارة اليمين لم تشرع لأحدٍ قبل شريعتنا، وأن اليمين عندهم بمنزلة النذر الذي لا بد من وفائه، وفي هذا دليل على أن من لا يحتمل إقامة الحد عليه لضعفه ونحوه أنه يقام عليه مسمى ذلك؛ لأن الغرض التنكيل ليس الإتلاف والإهلاك[٢].

{٢} **قال القرطبي**: تضمنت هذه الآية: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ جواز ضرب الرجل امرأته تأديباً، وذلك أن امرأة أيوب أخطأت فحلف ليضربنها مائة، فأمره الله تعالى أن يضربها بعثكول من عثاكيل النخل، وهذا لا يجوز في الحدود إنما أمره الله بذلك لئلا يضرب امرأته فوق حد الأدب، وذلك أنه ليس للزوج أن يضرب امرأته فوق حد الأدب، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: **«واضربوهن ضرباً غيرَ مُبرِّح»**[٣].

{٣} **وقال** رحمه الله: استدل بعض جهال المتزهدة وطغام المتصوفة بقوله

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٠) باختصار.

(٢) «خلاصة تيسير اللطيف المنان» (١٤٥)، وخالف القرطبي ذلك وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٥٦٦٨).

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٥٦٥٧) بتصرف.

تعالى لأيوب: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ على جواز الرقص. قال أبو الفرج بن الجوزي: وهذا احتجاج بارد؛ لأنه لو كان أمر بضرب الرِّجل فرحاً كان لهم فيه شبهة، وإنما أمر بضرب الرجل لينبع الماء.

قال ابن عقيل: أين الدلالة في مبتلى أُمر عند كشف البلاء بأن يضرب برجله الأرض لينبع الماء إعجازاً من الرقص(١).

{٤} **وقال أيضاً** في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾، ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾ أي: على البلاء ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أي: تواب رجاعٌ مطيع. وسئل سفيان عن عبدين ابتلي أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر؟ فقال: كلاهما سواء لأن الله تعالى أثنى على عبدين أحدهما صابر والآخر شاكر ثناءً واحداً فقال في وصف أيوب: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾، وقال في وصف سليمان: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

قال: وقد رد هذا الكلام صاحب «القوت» واستدل بقصة أيوب في تفضيل الفقير على الغني، وذكر كلاماً كثيراً شيد به كلامه، وخفي عليه أن أيوب عليه السلام كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبعده، وإنما ابتلي بذهاب ماله وولده وعظيم الداء في جسده، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، صبروا على ما به امتحنوا وفتنوا، فأيوب عليه السلام دخل في البلاء على صفة فخرج منه كما دخل فيه، وما تغير منه حال ولا مقال فقد اجتمع مع أيوب في المعنى المقصود وهو عدم التغير الذي يفضل فيه بعض الناس بعضاً، وبهذا الاعتبار يكون الغني الشاكر، والفقير الصابر سواء، وهو كما قال سفيان، والله أعلم(٢).

{٥} **قال القاسمي** رحمه الله: واستدل بهذه الآية ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا ..﴾ على أن الاستثناء شرطه الاتصال إذ لو لم يشترط لأمره تعالى بالاستثناء ولم يحتج

---

(١) السابق (٧/ ٥٦٥٩) باختصار.

(٢) السابق (٨/ ٥٦٥٩، ٥٦٦٠) بتصرف.

وانظر أدلة المفضلين لأحدهما على الآخر والفصل في القضية في كتاب: «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» لابن القيم رحمه الله، ورجح رحمه الله أن أفضلهما أتقاهما لله عز وجل.

إلى الضرب بالضغث، واستدل عطاء بالآية على مسألة أخرى: فأخرج سعيد بن منصور عنه بسند صحيح أن رجلاً قال له: إني أردت أن لا أكسي امرأتي ذراعاً حتى تقف بعرفة فقال: احملها على حمار ثم اذهب فقف بها بعرفة، فقال: إنما عنيت يوم عرفة. فقال عطاء: وأيوب حين حلف ليجلدن امرأته مائة جلدة ما نوى أن يضربها بالضغث وإنما أمره الله أن يأخذ ضغثاً فيضربها به، قال عطاء: إنما القرآن عبر. انتهى كلام صاحب «الإكليل»(١).

هذه الفتوى من عطاء رحمه الله مصير منه أن هذا الحكم عام وهو خلاف بين السلف، وروي نحوه عن الشافعي، وقال مالك: من حلف ليضربن عبده مائة فجمعوا فضربه بها ضربة واحدة لم يبر، فقال القرطبي: قال بعض علمائنا ـ يريد مالك ـ قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: إن ذلك منسوخ، وهذا مذهب أصحاب الرأي.

{٦} **وقال ابن القيم** رحمه الله: وأما قوله تعالى لأيوب عليه السلام: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ﴾ فمن العجب أن يحتج بهذه الآية على من يقول: إنه لو حلف ليضربنهُ عشرة أسواط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة لم يبر في يمينه، هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب أحمد، وقال الشافعي: إن علم أنها مَسَّتْهُ كلها برَّ في يمينه، وإن علم أنها لم تمسه لم يبر، وإن شك لم يحنث، ولو كان هذا موجباً لبر الحالف لسقط عن الزاني والقاذف وشارب الخمر بعدد الضرب، بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ويضربه بها ضربة واحدة، وهذا إنما يجري في المرض، كما قال الإمام أحمد في المريض: عليه الحد، ويضرب بعثكال يسقط عنه الحد.

وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق، فإن امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته وخلاصه من دائه تلتمس له الدواء بما تقدر عليه، فلما لقيها الشيطان وقال ما قال أخبرت أيوب عليه السلام بذلك، فقال: إنه الشيطان، ثم حلف لئن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوطٍ فكانت معذورة محسنة في شأنه، ولم يكن في شرعهم كفارة، فإنه لو كان في شرعهم كفارة لعدل إلى التكفير، ولم يحتج

---

(١) «محاسن التأويل» (١٤/ ١٧٧).

إلى ضربها، فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود، وقد ثبت أن المحدود إذا كان معذوراً خفف عنه، بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط فيضرب بها ضربة واحدة، وامرأة أيوب كانت معذورة لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان، وإنما قصدت الإحسان فلم تستحق العقوبة فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام لنص السنة في شأن الضعيف الذي زنى، فلا يتعدى بهما عن محلهما[١].

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٩٢).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة يونس عليه السلام

رَفعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة يونس عليه السلام

هو يونس بن متى كما ثبت في الصحيح، وهو من أنبياء بني إسرائيل، ذكر أكثر المفسرين أنه أرسل إلى أرض أهل نينوى من أرض الموصل، ويكفي في شرفه وفضله قول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩﴾ [الصافات: ١٣٩] والرسل هم أشرف الخلائق، ولذا قال النبي ﷺ: **«لا يقولن أحدكم: إني خير من يونس»** زاد مسدد: **«يونس بن متى»**[١] وقال: **«ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متى»**[٢].

قال الحافظ: قيل: خص يونس بالذكر لما يخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيص له، فبالغ في ذكر فضله لسد هذه الذريعة[٣].

وقد وقع في هذه الخشية المذكورة «النجار» في «قصصه» فقال: وفي اعتقادي أن يونس كلف بالذهاب إلى أولئك القوم عقيب نبوته، ولم يكن قد مُرِّنَ على النبوة وواجباتها وآداب أهلها؛ لأن العلم بذلك يستدعي مدة، وتكرر الوحي والازدياد من معرفة الله تعالى والارتياض على الوحي وتلقيه، فحداثته في النبوة هي التي خيلت إليه ما قلنا، من أنه خيّل إليه أنه بابتعاده، وتغربه في البلاد، ربما استتبع إعفاءه من تلك المأمورية، أضف إلى ذلك أنه كان حدث السن، فقد أورد الألوسي في «تفسيره» أن سنَّه كانت ثمانياً وعشرين سنة ومن كان حديث العهد بالنبوة، وفي مثل سن يونس يغتفر الله تعالى لهم ما عملوه من غير تمرد وقصد جازم إلى المعصية[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤٥٠) «أحاديث الأنبياء»، ومسلم (١٥/ ١٣٤) «الفضائل» بلفظ: **«ما ينبغي لأحدٍ أن يقول أنا خير من يونس بن متى»**.

(٢) رواه البخاري (٦/ ٤٥١) «أحاديث الأنبياء».

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٤٥٢).

(٤) «قصص الأنبياء» لعبد الوهاب النجار (٤٣١)، دار التراث.

ولا شك أن هذا الكلام في حق يونس عليه السلام ينضح بسوء الأدب، وعدم معرفة الرسل الكرام وما يليق بأحوالهم وصفاتهم وفيه غفلة شنيعة عن قول الله عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وقوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]؛ فلا يليق لِعُلُوِّ مراتبهم وارتفاع منازلهم نسبتهم إلى القصور والعيب والنقص، بل في ذلك سوء أدب مع الله عز وجل الذي اصطفاهم ونزههم من العيوب ورباهم على عينه واصطنعهم لنفسه فقد قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ولم يقل: هؤلاء الرسل؛ لأن «تلك» للبعيد فكأن ذلك لارتفاع منازلهم جميعاً وعلو مراتبهم.

وهذا الذي ذكره النجار إنما هو من اتباع الظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً، وهذه طامة جديدة من طامات هذا الكتاب وقد أشرنا قبل ذلك إلى كثرة تعظيمه للإسرائيليات ونقله منها وكأن كتبهم لم تحرف، ومن أدلة التحريف من نص الكتاب المنزل وبيان النبي المرسل ﷺ اشتمال هذه الكتاب على ما لا يليق بالله عز وجل، وكذلك نسبة الأنبياء إلى النقص والعيب، فلعل المؤلف تأثر بذلك فجاء قصصه مليئاً بما لا يليق بأحوال الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام.

* * * * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨].

قال ابن كثير رحمه الله: بعث الله يونس عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه، وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم، ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث.

قال ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد من السلف

والخلف: فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم، فلبسوا المُسُوحَ وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عَجُّوا إلى الله ﷻ وصرخوا وتضرعوا إليه وتمسكنوا لديه، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات، وجأرت الأنعام والدواب والمواشي، فَرَغَتِ الإبل وفصلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحملانها، وكانت ساعة عظيمة هائلة.

فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي كان اتصل بهم سببه، ودار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ [يونس: ٩٨] أي: هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكاملها، فدل على أنه لم يقع ذلك، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] أي: آمنوا بكمالهم(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات: ١٣٩، ١٤٠]:

قال الشوكاني: يونس هو ذو النون، وهو ابن متى. قال المفسرون: وكان يونس قد وعد قومه العذابَ، فلما تأخر عنهم العذاب وخرج عنهم، وقصد البحر، وركب السفينة فكان بذهابه إلى البحر كالفارّ من مولاه، فوُصِف بالإباق وهو معنى قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾(٢).

وقال القاسمي: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ أي: بغير إذن ربه عن قومه المرسَل إليهم ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: السفينة المملوءة ليركب منها إلى بلد آخر. روي أنه نزل من يافا وركب الفلك إلى ترسيس فهبت ريح شديدة كادت تغرقهم فاقترعوا ليعلموا بسبب مَن أصابهم هذا البلاء، فوقعت على يونس فألقوه في البحر، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾﴾ أي: قارع

---

(١) «قصص الأنبياء» (٢٨٦، ٢٨٧). (٢) «فتح القدير» (٤/ ٤١٠).

﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي: المغلوبين بالقرعة وأصله الزلق عن الظفر ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: ابتلعه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: آتٍ بما يلام عليه من السفر بغير أمر ربه(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]:

قال ابن الجوزي رحمه الله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: من المصلين. قاله ابن عباس وسعيد بن جبير.

والثاني: من العابدين. قاله مجاهد ووهب بن منبه.

والثالث: قول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] قاله الحسن.

وروى عمران القطان عن الحسن قال: والله ما كانت إلا صلاة أحدثها في بطن الحوت.

فعلى هذا القول يكون تسبيحه في بطن الحوت، وجمهور العلماء على أنه أراد: لولا ما تقدم له قبل التقام الحوت إياه من التسبيح ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

قال قتادة: لصار بطن الحوت له قبراً إلى يوم القيامة، ولكنه كان كثير الصلاة في الرخاء فنجاه الله تعالى بذلك(٢).

قوله تعالى: ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات: ١٤٥]:

قال الشوكاني: والمعنى: أن الله طرحه من بطن الحوت في الصحراء الواسعة التي لا نبات فيها، وهو عند إلقائه سقيم لما ناله في بطن الحوت من الضرر، قيل: صار بدنه كبدن الطفل حين يولد.

وقد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ

---

(١) «محاسن التأويل» (١٤/ ١٢٩، ١٣٠).
(٢) «زاد المسير في علم التفسير» (٧/ ٨٧).

بِٱلْعَرَآءِ﴾ وقوله في موضع آخر: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾﴾ [القلم: ٤٩] فإن هذه الآية تدل على أنه لم ينبذ بالعراء! وأجاب النحاس وغيره بأن الله سبحانه أخبرنا هنا أنه نبذ بالعراء وهو غير مذموم، ولولا رحمته ﷻ لنبذ بالعراء وهو مذموم[١].

قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [الصافات: ١٤٦]:

قال ابن عباس: هو القرع.

وقد قال أمية بن أبي الصلت قبل الإسلام:

فَأَنْبَتَ يقطِيْنَا عَلَيهِ بِرَحمةٍ مِنَ اللّهِ لَولا اللّهُ أُلفِيَ ضَاحيا

قال الزجاج: كل شجرة لا تنبت على ساق وإنما تمتد على وجه الأرض نحو القرع والبطيخ والحنظل فهو يقطين، واشتقاقه من قَطَن بالمكان: إذا أقام: فهذا الشجر ورقه كله على وجه الأرض، فلذلك قيل له: يقطين.

فإن قيل: ما الفائدة في إنبات شجرة اليقطين عليه دون غيرها؟

فالجواب: أنه خرج كالفرخ على ما وصفنا، وجِلْدُه قد ذاب، فأدنى شيء يمر به يؤذيه، وفي ورق اليقطين خاصية وهو أنه إذا ترك على شيء لم يقربه ذباب، فأنبته الله عليه ليغطيه ورقها، ويمنع الذباب ريحهُ أن يسقط عليه فيؤذيه[٢].

وقال ابن كثير رحمه الله: وذكر بعضهم في القرع فوائد: منها سرعة نباته وتظليل ورقه لكبره ونعموته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة تغذية ثمره نيئاً ومطبوخاً، وقشره أيضاً، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدُّباء ويتبعه من نواحي القصعة[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧ ـ ١٤٨]:

قال الشوكاني: هم قومه الذين هرب منهم إلى البحر وجرى له ما جرى

(١) «فتح القدير» (٤/ ٤١١).
(٢) باختصار من «زاد المسير» (٧/ ٨٨، ٨٩).
(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢١، ٢٢).

بعد هربه، و﴿أَوْ﴾ في ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قيل: هي بمعنى الواو، والمعنى: ويزيدون، وقد وقع الخلاف بين المفسرين: هل هذا الإرسال المذكور هو الذي كان قبل التقام الحوت له، وتكون الواو في ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ﴾ لمجرد الجمع بين ما وقع له من الحوت وبين إرساله إلى قومه من غير اعتبار تقديم ما تقدم في السياق وتأخير ما تأخر، أو هو إرسال له بعد ما وقع له مع الحوت ما وقع، على قولين، وقد قدمنا الإشارة إلى الاختلاف بين أهل العلم، هل كان قد أُرسل قبل أن يهرب من قومه إلى البحر أو لم يُرسَل إلا بعد ذلك؟ والراجح أنه كان رسولاً قبل أن يذهب إلى البحر كما يدل عليه ما قدمنا في سورة يونس وبقي مستمراً على الرسالة وهذا الإرسال المذكور هنا هو بعد تقدم نبوته ورسالته.

﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾ أي: وقع منهم الإيمان بعدما شاهدوا أعلام نبوته فمتعهم الله في الدنيا إلى حين انقضاء آجالهم ومنتهى أعمارهم[(١)].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ **الفوائد والآثار الإيمانية:**

{١} **قال الزمخشري** في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤]: عن قتادة قال: كان كثير الصلاة في الرخاء قال: وكان يقال: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثر، وإذا صدع وجد متكئاً وهذا ترغيب من الله ﷻ في إكثار المؤمن من ذكره بما هو أهله، وإقباله على عبادته، وجمع همِّه لتقييد نعمته بالشكر في وقت المهلة والفسحة؛ لينفعه ذلك عنده تعالى في المضايق والشدائد[(٢)].

{٢} **قال السعدي**: إن العبد إذا كانت له مقدمة صالحة مع ربه، وقد تعرف إلى ربه في حال الرخاء، أن الله يشكر له ذلك ويعرفه في حال الشدة بكشفها بالكلية أو تخفيفها، ولهذا قال في قصة يونس: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾.

---

(١) «فتح القدير» (٤/ ٤١١).

(٢) «الكشاف» (٤/ ٦١، ٦٢) باختصار.

{٣} **وقال** رَحِمَهُ اللهُ: وفي هذه القصة عتاب الله ليونس ﷺ، وحبسه في بطن الحوت ليكون كفارة وآية عظيمة وكرامة ليونس، ومن نعمة الله عليه أنه استجاب له هذا العدد الكثير من قومه، فكثرة أتباع الأنبياء من جملة فضائلهم.

{٤} وفيها ما قال النبي ﷺ: «**دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه**: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]»(١).

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١﴾: ففي هذا من الفقه أن القرعة كانت معمولاً بها في شرع من قبلنا، وجاءت في شرعنا على ما تقدم في آل عمران، وقد وردت القرعة في الشرع في ثلاثة مواطن:

الأول: كان النبي ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

الثاني: أن النبي ﷺ رفع إليه أن رجلاً أعتق ستة أعبدٍ لا مال له غيرهم، فأقرع بينهم فأعتق اثنين وأرق أربعة.

الثالث: أن رجلين اختصما إليه في مواريث قد درست، فقال: «**اذهبا وتوخَّيا الحق واستهما، وليحلل كل واحدٍ منكما صاحبه**».

فهذه ثلاثة مواطن وهي القَسْم في النكاح، والعتق، والقسمة، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال وحسم داء التشهي، واختلف علماؤنا في القرعة بين الزوجات في الغزو على قولين، الصحيح منها الإقراع، وبه قال فقهاء الأمصار، وذلك أن السفر بجميعهن لا يمكن، واختيار واحدة منهن إيثارٌ، فلم يبق إلا القرعة، وكذلك في مسألة الأعبد الستة، فإن كل اثنين منهما ثلث، وهو القدر الذي يجوز له فيه العتق في مرض الموت وتعيينهما بالتشهي لا يجوز شرعاً، فلم يبق إلا القرعة، وكذلك التشاجر إذا وقع في أعيان المواريث

---

(١) «تيسير اللطيف المنان» (١٣٧)، والحديث رواه الترمذي (١٣/ ٣٣)، «عارضة» وابن أبي الدنيا (٢٥/ ٢٦) «الفرج بعد الشدة»، والحاكم (٢/ ٣٨٣) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني.

لم يميز الحق إلا القرعة فصارت أصلاً في تعيين المستحق إذا أشكل.

قال: والحق عندي أن تجرى في كل مُشْكِلٍ فذلك أبين لها وأقوى لفصل الحكم فيه، وأجلى لرفع الإشكال عنها، ولذلك قلنا: إن القرعة بين الزوجات في الطلاق كالقرعة بين الإماء في العتق.

{٥} **وقال** رحمه الله: الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز، وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه، وزيادة في إيمانه، فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يقتل، ولا يرمى في النار أو البحر، وإنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته، وقد ظن بعض الناس أن البحر إذا هاج على القوم، فاضطروا إلى تخفيف السفينة، أن القرعة تضرب عليهم فيطرح بعضهم تخفيفاً، وهذا فاسد، فإنها لا تخف برمي بعض الرجال، وإنما ذلك في الأموال، ولكنهم يصبرون على قضاء الله عز وجل[1].

{٦} **وقال** رحمه الله في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ الآية ومن هذا المعنى قوله ﷺ: «**من استطاع منكم أن تكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل**»[2] فيجتهد العبد، ويحرص على خصلة من صالح عمله يخلص فيها بينه وبين ربه ويدخرها ليوم فاقته وفقره ويخبؤها بجهده ويسترها عن خلقه، يصل إليه نفعها أحوج ما كان إليه. وقد خرّج البخاري ومسلم من حديث ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**بينما ثلاثة نفر - في رواية: ممن كان قبلكم - يتماشون أخذهم المطر فآووا إلى غارٍ في جبل فانحطت على فم الغار صخرة فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعضٍ: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله بها لعله يفرجها عنكم...**» الحديث بكماله وهو مشهور شهرته أغنت عن تمامه[3].

{٧} **وقال الشنقيطي** رحمه الله: وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٥٥٦٩، ٥٥٧٠).

(٢) الحديث صححه الألباني في «الجامع» رقم (٥٨٩٤) ونسبه للضياء.

(٣) السابق (٧/ ٥٥٧١)، والحديث: رواه البخاري (٤/ ٤٤٩، ٤٥٠) «الإجارة»، واللفظ له، ومسلم (١٧/ ٥٧٥٥) «الذكر والدعاء والتوبة».

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] يدل على أنه ما من مؤمن يصيبه الكرب والغم فيبتهل إلى الله داعياً بإخلاص، إلا نجاه الله من ذلك الغم، ولا سيما إذا دعا بدعاء يونس هذا وقد جاء في حديث مرفوع عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال في دعاء يونس المذكور: «**لم يدع به مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له**» رواه أحمد والترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم، والآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث شهادة قوية كما ترى؛ لأنه لما ذكر أنه أنجى يونس شبه بذلك إنجاء المؤمنين وقوله: ﴿نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] صيغة عامة في كل مؤمن كما ترى[١].

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٦٨٦). والحديث تقدم تخريجه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة داود عليه السلام

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة داود عليه السلام

جمع داود عليه السلام بين الملك والنبوة، كما جمع بين العلم والعبادة فكان كثير الصوم والصلاة، وكان حسن الصوت جداً بالقرآن الذي نزل عليه، وسوف ننقل شيئاً من فضائله وما تفضل الله عز وجل به عليه من الخير العميم والفضل العظيم، ثم نذكر شيئاً من سيرته وأيامه ودلائل نبوته وأعلامه.

□ فضائل داود عليه السلام:

{١} قوته وشجاعته قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

قال الحافظ: الأيد: القوة، وكان داود موصوفاً بفرط الشجاعة(١).

ومما يدل على ذلك كذلك قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ولما كان داود عليه السلام يستعمل قوته في طاعة الله عز وجل سخر الله عز وجل له الحديد وألانه له، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

قال الشوكاني: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي: آتيناه بسبب إنابته فضلاً منا على سائر الأنبياء، واختلف في هذا الفضل على أقوال: فقيل: النبوة،

---

(١) «فتح الباري» (٦/٤٠٦). والعجيب من عبد الوهاب النجار وهو يعدد العبر في قصص داود عليه السلام قال: إن الشخص الضعيف لا ينبغي له أن ييأس من النجاح وإحراز أسباب الفلاح ما دام معتصماً بأسباب التقوى والشكر لنعم الله تعالى، فمن أين استنبط رحمه الله ضعف داود عليه السلام، مع أن الدلائل كلها تشير إلى قوته؟! ولعل الأصل عنده كتب أهل الكتاب فما وافقها من شرعنا أخذ به وما خالفها أخذ بالإسرائيليات، نعوذ بالله من سوء الفهم وسوء المنقلب.

وقيل: الزبور، وقيل: العلم، وقيل: القوة، كما في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وقيل: تسخير الجبال كما في قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ وقيل: التوبة، وقيل: الحكم بالعدل، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦] وقيل: هو إلانة الحديد، وقيل: حسن الصوت[1].

قال ابن كثير رحمه الله: أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء، وأرشده إلى صنعها وكيفيتها فقال: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: لا تدق المسمار فيفلق، ولا تغلظه فيفصم، قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة.

قال الحسن البصري وقتادة والأعمش: كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده، لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة. قال قتادة: فكان أول من عمل الدروع من زرد، وإنما كانت قبل ذلك من صفائح.

وقد ثبت في الحديث: «**إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وأن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده**»[2].

{٢} **اجتهاده** عليه السلام في طاعة ربه عز وجل، قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وقال النبي ﷺ: «**أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه**»[3].

{٣} **وهبه الله** عز وجل صوتاً عظيماً فكان إذا سبح سبحت معه الجبال والطير قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٨، ١٩].

---

(١) «فتح القدير» (٤/ ٣١٥).

(٢) «قصص الأنبياء» (٤٨٥)، والحديث رواه البخاري بمعناه عن أبي هريرة مرفوعاً: «**ولا يأكل إلا من عمل يده**» (٦/ ٤٥٣) «أحاديث الأنبياء».

(٣) رواه البخاري (٦/ ٤٥٥) «أحاديث الأنبياء».

قال ابن كثير رحمه الله: وذلك أنه كان الله تعالى وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحداً بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشياً صلوات الله وسلامه عليه(١).

وروى أحمد عن عائشة قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال: «**لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود**»(٢).

{٤} **خفف عليه القرآن** ـ زبور داود ـ فكان يقرأه قبل أن تسرج دوابه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**خفف على داود عليه السلام القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يده**»(٣).

قال الحافظ: قيل: المراد بالقرآن والأصل في هذه اللفظة: الجمع، وكل شيء جمعته فقد قرأته، وقيل: المراد: الزبور، وقيل: التوراة، وقراءة كل نبي تطلق على كتابه الذي أوحي إليه، وإنما سماه قرآناً للإشارة إلى وقوع المعجزة به كوقوع المعجزة بالقرآن، أشار إليه صاحب «المصابيح»، والأول أقرب، وإنما ترددوا بين الزبور والتوراة لأن الزبور كله مواعظ، وكانوا يتلقون الأحكام من التوراة.

قال قتادة: كنا نتحدث أن الزبور مائة وخمسون سورة كلها مواعظ وثناء وليس فيها حلال ولا حرام(٤).

{٥} **جمع الله** عز وجل له بين الملك والنبوة والعلم والحكمة والقضاء. قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ٢٠]. **قال القاسمي** رحمه الله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: قويناه بوفْرة العدد والعُدد ونفوذ السلطان وإمداده بالتأييد والنصر ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة أو الكلام المحكم المتضمن للمواعظ والأمثال والحض على الآداب ومكارم الأخلاق، وكان

(١) «قصص الأنبياء» (٤٨٦).
(٢) رواه الإمام أحمد (٦/ ٣٧، ١٦٧، ٥/ ٣٥٩) وعن أبي هريرة (٢/ ٤٥٠).
(٣) رواه البخاري (٦/ ٤٥٣) «أحاديث الأنبياء».
(٤) «فتح الباري» (٦/ ٤٥٥).

زبوره عليه السلام كله حكماً غرراً ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ أي: فصل الخِصَام بتمييز الحق من الباطل ورفع الشبهة وإقامة الدلائل، وكان يقيم بذلك العدل الجالب محبة الخلائق، لا يخالفه أحد من أقاربه ولا من الأجانب(١).

{٦} **غفر الله** عز وجل له ووعده من الزلفى والكرامة شيئاً عظيماً كما قال تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢٥].

قال ابن كثير رحمه الله: أي: وإن له يوم القيامة قربةً يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية في الجنة لنبوته وعدله التام في ملكه، كما جاء في «الصحيح»: «**المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمٰن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا**»(٢).

{٧} **وهب الله** عز وجل لهذا النبي العظيم والملك الكريم ولداً صالحاً جمع الله عز وجل له بين الملك والنبوة، وستأتي قصته بعد هذه القصة. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠].

□ قصة داود والخصم إذ تسوروا المحراب:

قال تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٦].

---

(١) «محاسن التأويل» (١٤/ ١٥٤).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٢).
والحديث رواه مسلم وغيره، انظر: (آداب الزفاف ص٢٨٠) طبعة المكتبة الإسلامية.

قال ابن كثير رحمه الله: قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُرَدَّ علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق وما تضمنه حق[١].

وقال القاسمي رحمه الله: للمفسرين في هذا النبأ أقوال عديدة ووجوه متنوعة مرجعها إلى مذهبين: مذهب من يرى أنها تشير ـ تعريضاً ـ إلى وزر ألَمَّ به داود عليه السلام ثم غفر له، ومذهب من يرى أنها حكومة في خصمين لا إشعار لها بذلك.

فمن ذهب إلى الأول: ابن جرير، فإنه قال: هذا مثل ضربه الخصم المتسورون على داود محرابه، وذلك أن داود كانت له فيما قيل: تسع وتسعون امرأة وكانت للرجل ـ الذي أغزاه حتى قُتِل ـ امرأة واحدة، فلما قُتِل نكح فيما ذُكر داود امرأته، ثم لما قضى للخصمين بما قضى علم أنه ابتلي، فسأل غفران ذنبه، وخر ساجداً لله وأناب إلى رضا ربه وتاب من خطيئته.

وأما المذهب الثاني: فهو ما جزم به ابن حزم في الفِصَل، وعبارته: ما حكاه تعالى عن داود عليه السلام قول صادق صحيح لا يدل على شيء مما قاله المستهزؤون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود، وإنما كان ذلك الخصم قوماً من بني آدم بلا شك، مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر على نص الآية، ومن قال: إنهم كانوا ملائكة معرِّضين بأمر النساء فقد كذب على الله عز وجل، وقوَّلَهُ ما لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه، وكذَّب الله عز وجل وأقرّ على نفسه الخبيثة أنه كذَّب الملائكة لأن الله تعالى قال: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ فقال هؤلاء: لم يكونا قط خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعجة، ولا كان للآخر نعجة واحدة، ولا قال له: أكفلنيها، فاعجبوا لِمَ

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٢).

يقحمون في الباطل أنفسهم؟ ونعوذ بالله من الخذلان؛ ثم كل ذلك بلا دليل، بل الدعوى المجردة، وتالله إن كل امرئٍ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره، ثم يُعرِّض زوجها للقتل عمداً ليتزوجها، وعن أن يترك صلاته لطائر يراه[1]، وهذه أفعال السفهاء المتهوكين الفساق المتمردين لا أفعال أهل البر والتقوى، فكيف برسول الله داود ﷺ الذي أوصى إليه كتابَه وأجرى على لسانه كلامه؟ لقد نزهه الله ﷻ عن أن يمر هذا الفحش بباله، فكيف أن يستضيف إلى أفعاله، وأما استغفاره وخروره ساجداً ومغفرة الله له فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة، والاستغفار فعل خير لا ينكر من ملك ولا من نبي ولا من مذنب ولا من غير مذنب[2].

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ [صٓ: ٢١].

قال الزمخشري: ظاهره الاستفهام، ومعناه الدلالة على أنه من الأنباء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحدٍ، والتشويق إلى استماعه، والخصم: الخصماء وهو يقع على الواحد والجمع كالضيف، قال الله تعالى: ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤][3] قوله: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾.

قال الشوكاني: ومعنى ﴿تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾: أتوه من أعلى السور ونزلوا إليه، والمحراب: الغرفة؛ لأنهم تسوروا عليه وهو فيها[4].

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص: ٢٢]:

قال ابن كثير رحمه الله: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب؛ أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما[5].

---

(١) باختصار من «محاسن التأويل» (١٤/ ١٥٦ ـ ١٥٨).
(٢) باختصار من «محاسن التأويل» (١٤/ ١٥٦ ـ ١٥٨).
(٣) «الكشاف» (٤/ ٨٢).
(٤) «فتح القدير» (٤/ ٤٢٥) باختصار.
(٥) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص: ٢٣]:

قال القاسمي: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾ أي: أنثى من الضأن ﴿وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أي: فلم ينظر إلى غناه عنها ولا إلى افتقاري إليها، بل أراد التغلب عليَّ ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: ملكنيها، بمعنى: اجعلني كافلها كما أكفل ما تحت يدي، أو بمعنى: اجعلها كفلي؛ أي: نصيبي ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴾ أي: غلبني في المكالمة(١).

قوله: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [ص: ٢٤]:

قال القرطبي: قال النحاس: فيقال: إن هذه كانت خطيئة داود عليه السلام لأنه قال: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾ من غير تثبت بينة ولا إقرار من الخصم هذا كان كذا أو لم يكن، فهذا قول، وسيأتي بيانه في المسألة بعد هذا وهو حسن إن شاء الله تعالى(٢).

ثم قال في المسألة المشار إليها: قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فيه الفتوى في النازلة بعد السماع من أحد الخصمين وقبل أن يسمع من الآخر بظاهر هذا القول، قال ابن العربي: وهذا مما لا يجوز عند أحدٍ ولا في ملة من الملل، ولا يمكن ذلك للبشر، وإنما تقدير الكلام أن أحد الخصمين ادعى والآخر سلم في الدعوى فوقعت بعد ذلك الفتوى، وقد قال النبي ﷺ: **«إذا جلس إليك خصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر»**(٣) وقيل: إن داود لم يقض للآخر حتى اعترف صاحبه بذلك، وقيل: تقديره: لقد ظلمك إن كان كذلك، والله أعلم بتعيين ما يمكن من هذه الوجوه(٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِى بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡ﴾ [ص: ٢٤]:

قال الألوسي: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ أي: الشركاء الذين خلطوا أموالهم

---

(١) «محاسن التأويل» (١٤/ ١٥٤، ١٥٥). (٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٥٦١٩).
(٣) الحديث صحيح رواه أبو داود (٢/ ١١٤، ١١٥)، والحاكم (٤/ ٩٣)، وأحمد (١/ ٩٦ - ١١١) وغيرهم، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة» (١٣٠٠).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٥٦٢١).

ـ الواحد خليط ـ وهي الخلطة وقد غلبت في الماشية، وفي حكمها عند الفقهاء كلام ذَكَرَ بعضاً منه الزمخشري ﴿لَيَبْغِي﴾ ليتعدى ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ غير مراعٍ حق الشركة والصحبة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ منهم فإنهم يتحامون عن البغي والعدوان ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: وهم قليل جداً، فـ﴿قليلٌ﴾ خبر مقدم، و﴿هُمْ﴾ مبتدأ، وما زائدة، وقد جاءت المبالغة في القلة من التنكير وزيادة ما الإبهامية، ويتضمن ذلك التعجب فإن الشيء إذا بولغ فيه كان مظنة للتعجب منه، فكأنه قيل: ما أقلهم[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢٤، ٢٥]:

قال القاسمي: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: ابتليناه بتلك الحكومة ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما استغفر منه ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ أي: لقرباً ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أي: مرجعاً وحسناً وكرامة في الآخرة[(٢)].

قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦]:

قال ابن كثير رحمه الله: هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور، أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلُّوا عن سبيل الله، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد.

وقال عكرمة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم القيامة بما نسوا.

وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب، وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، والله تعالى الموفق للصواب[(٣)].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

(١) «روح المعاني» (٢٣/ ١٨١، ١٨٢). (٢) «محاسن التأويل» (٨/ ١٥٦).
(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٢) باختصار.

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال العلامة السعدي:** فمنها أن الله يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله لتثبيت فؤاده، وتطمين نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم ما يشوق إلى منافستهم، والتقرب إلى الله الذي تنافسوا في قربه؛ والصبر على أذى قومه، ولهذا لما ذكر الله تعالى في سورة (صٓ) ما قاله المكذبون لمحمد ﷺ وما آذوه به، قال بعدها: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ . . .﴾ الآيات [صٓ].

{٢} **ومنها:** أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الناس خصوصاً الحاكم والرؤساء، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة، ومن غير الباب، فزع منهم، واشتد عليه ذلك ورآه غير لائق بالمجال.

{٣} **ومنها:** أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

{٤} **ومنها:** أن المنصوح ولو كان كبير القدر كثير العلم عليه أن لا يغضب ولا يشمئز، بل يبادر بقبول النَّصيحة، والشكر لمن نصحه، ويحمد الله إذ قيض له النصيحة على يد الناصح، فإن داود لم يشمئز من قول الخصمين: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [صٓ: ٢٢] بل حكم بالحق الصرف(١).

{٥} **قال القاسمي** رحمه الله: وفي قضائه عليه السلام هذا من الحكمة وفصل الخطاب ما يهيج الأفئدة ويقر عين المغبون، ذلك أنه صدع بالحق أبلغ صدع فجهر بظلم خصمه وبغيه جهراً لا محاباة فيه ولا مواربة، فأقرّ عين المظلوم، وعَرَّف الباغي ظلمه وحيفه، وأن سيف العدل والإنصاف فوقه - ثم نفَّس عن قلب المظلوم البائس، وروَّح عن صدره بذكر ما عليه الأكثر من هذه الخلة - خلة البغي - وعدم الإنصاف مع الخلطة والخلة، ليأسى ويتسلى كما قيل: «إن روح التأسي روح كل حزين» ثم أكدّ الأمر بقلة القائمين بحقوق الأخوة ممن آمن

---

(١) «خلاصة تيسير اللطيف المنان» (١٤٢، ١٤٣).

وعمل صالحاً، فكيف بغيرهم، وكلها حكم وغرر ودرر وحقائق تنطبق على أكثرها السواد الأعظم من الناس، الذين يدَّعون المحبة والصداقة ولعظم شأن حقوق المحبة أسهب في آدابها علماء الأخلاق إسهاباً نوَّعوا فيه الأبواب، ولوَّنوا فيه الفصول، ومع ذلك لا تزال الشكوى عامة، وقد امتلأت من منظومها ومنثورها كتب الأدب كما لا يخفى على من له إلمام، وبالله التوفيق[١].

{٦} **وقال** رحمه الله: قال السيوطي في «الإكليل»: استدل بقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ [صٓ: ٢٤] من أجاز التعويض عن سجود التلاوة بركوع، والأكثرون على أن الركوع هنا مجاز مرسل عن السجود، لأنه لإفضائه إليه جعله كالسبب، ثم تجوز به عنه، أو هو استعارة له لمشابهته له في الانحناء والخضوع[٢].

{٧} **وقال القرطبي** رحمه الله: واختلف في سجدة داود: هل هي من عزائم السجود المأمور به في القرآن أم لا؟ فروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قرأ على المنبر ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [صٓ: ١] فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأ بها فتشزَّن الناس للسجود. فقال الرسول الله ﷺ: «**إنها توبة نبي ولكني رأيتكم تشزنتم للسجود**» ونزل وسجد. وهذا لفظ أبي داود، وفي البخاري وغيره عن ابن عباس أنه قال: «ص» ليست من عزائم القرآن وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها[٣].

قال: ومعنى السجود: أن داود سجد خاضعاً لربه، معترفاً بذنبه، تائباً من خطيئته فإذا سجد أحد فيها فليسجد بهذه النية، فلعل الله أن يغفر له بحرمة داود الذي اتبعه، وسواء قلنا: إن شرع من قبلنا شرع لنا أم لا، فإن هذا أمر مشروع في كل أمة لكل أحد، والله أعلم[٤].

---

(١) «محاسن التأويل» (٨/ ١٥٥، ١٥٦).

(٢) «محاسن التأويل» (٨/ ١٦٠، ١٦١).

والحديث رواه البخاري (٦/ ٤٥٦) كتاب «أحاديث الأنبياء»، ورواه النسائي في سننه (١/ ١٥٢)، وكذا الدارقطني (ص١١٤) بإسناده صحيح وصححه ابن السكن.

(٣) التشزن: التأهب والتهيؤ للشيء.

(٤) باختصار من «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٥٦٢٧).

{٨} وقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ الآية [ص: ٢٦]، هذه الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه؛ لأن الحكام لو مُكِّنوا أن يحكموا بعلمهم لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليه ويهلك عدوه إلا ادعى عليه فيما حكم به، ونحو ذلك؛ روي عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر قال: لو رأيت رجلاً على حدٍّ من حدود الله ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيري. وروي أن امرأة جاءت إلى عمر فقالت له: احكم لي على فلان بكذا فإنك تعلم ما لي عنده. فقال لها: إن أردت أن أشهد لك فنعم، وأما الحكم فلا، وفي «صحيح مسلم» عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قضى بيمين وشاهد، وروي عن النبي ﷺ أنه اشترى فرساً فجحده البائع فلم يحكم عليه بعلمه وقال: «**من يشهد لي؟**» فقام خزيمة فشهد فحكم، خرّج الحديث أبو داود وغيره[1].

{٩} ومما يستفاد من قصة داود عليه السلام أن العبد إذا رزقه الله نعمة فاستعملها في طاعة الله بارك الله له فيها وزاده من خيرها، فداود عليه السلام لما استعمل قوته في إعزاز الدين وكثرة العبادة والطاعة ألان الله ﷻ له الحديد.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٥٦٣٤، ٥٦٣٥).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة سليمان عليه السلام

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة سليمان عليه السلام

□ **فضائله عليه السلام:**

{١} **ثناء الله ﷻ** قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝﴾ [ص: ٣٠].

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان ـ أي: نبياً ـ كما قال ﷻ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦] أي: في النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه كان عنده مائة امرأة حرائر، وقوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله ﷻ[١].

{٢} **آتاه الله ﷻ** حكماً وعلماً كما قال تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

قال القاسمي: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ أي: الفتوى أو الحكومة المفهومين من السياق ﴿سُلَيْمَانَ﴾ أي: فكان القضاء فيها قضاؤه لا قضاء أبيه[٢].

قال ابن كثير رحمه الله: وقد ذكر شريح القاضي وغير واحدٍ من السلف، أن هؤلاء القوم كان لهم كَرْمٌ فنفشت فيه غنم قوم آخرين؛ أي: رعته بالليل، فأكلت شجره بالكلية، فتحاكموا إلى داود عليه السلام، فحكم لأصحاب الكرم بقيمته، فلما خرجوا على سليمان قال: بم حكم لكم نبي الله؟ فقالوا: بكذا وكذا فقال: أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجاً ودراً حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك، ويردوه إلى ما كان عليه، ثم يتسلموا غنمهم، فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٣).
(٢) «محاسن التأويل» (١١/ ٢٧٣).

وقريب من هذا ما ثبت في «الصحيحين» من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«بينما امرأتان معهما ابناهما، إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما، فتنازعا في الآخر، فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك، وقالت الصغرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود فحكم به للكبرى، فخرجتا على سليمان فقال: ائتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها، فقضى به لها»**[(١)].

ولعل كلّاً من الحكمين كان سائغاً في شريعتهم ولكن ما قاله سليمان أرجح، ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه إياه ومدح بعد ذلك أباه فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾[(٢)] [الأنبياء: ٧٩].

{٣} وجمع الله ﷻ له بين النبوة والملك كما جمع لأبيه، وزاده ملكاً عظيماً لم ينله أحدٌ قبله، ولا يناله أحدٌ بعده، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: ٣٦ ـ ٣٩].

قال السعدي: سخر الله له الريح تجري بأمره وتدبيره رخاء؛ أي: بسهولة حيث أراد، غدوها ورواحها شهر، وسخر الله له الجنَّ والشياطين والعفاريت يعملون له الأعمال الفخمة بحسب إرادته يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجَوَابِ وقدور راسيات، وتذهب وتجيء بأمره إلى حيث أراد، وسخر له الجنود من الإنس والجن والطير فهم يوزعون بتدبير عجيب ونظام غريب[(٣)].

وقال القرطبي: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ الإشارة بهذا إلى الملك؛ أي: هذا الملك عطاؤنا، فأعط من شئت، أو امنع من شئت لا حساب عليك[(٤)].

وقال ابن كثير: لما ترك الخيل ابتغاءَ وجه الله عوضه الله منها الريح

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤٥٨) «أحاديث الأنبياء».
(٢) «قصص الأنبياء» (٥١٠، ٥١١).
(٣) «خلاصة تيسير اللطيف المنان» (١٣٩).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٥٦٥).

التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة عليه لها[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣].

والمحاريب: هي الأماكن الحسنة وصدور المجالس.

والتماثيل: هي الصور في الجدران، وكان هذا سائغاً في شريعتهم وملتهم، كما قال ابن كثير رحمه الله.

والجفان: الأحواض.

والقدور الرَّاسيات: هي التي لا تتحرك من أماكنها.

وكان هذا العطاء العظيم والفضل الكبير استجابة من الله عز وجل لدعوة نبيه سليمان ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥].

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعناه يقول: «**أعوذ بالله منك**» ثم قال: «**ألعنك بلعنة الله**» ثلاثاً، وبسط يده كأنه يتناول شيئاً، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك؟! قال: «**إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت: أعوذ بالله منك - ثلاث مرات - ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر - ثلاث مرات - ثم أردت أخذه، والله! لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة**»[(٢)].

{٤} **ومما يدل على عظيم فضله** وقوة شخصيته ورباطة جأشه، ما أخبرنا الله عز وجل به في ذكر وفاته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤].

---

(١) «قصص الأنبياء» (٥١١).

(٢) رواه مسلم (المساجد ٤٠)، والنسائي (١١٥٧) «صحيح النسائي»، وابن خزيمة (٨٩١)، وغيرهم كثير.

قال القرطبي: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي: فلما حكمنا على سليمان بالموت حتى صار كالأمر المفروغ منه ووقع به الموت ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ وذلك أنه كان متكئاً على المنسأة: وهي العصاة بلسان الحبشة في قول السدي، وقيل: هي بلغة اليمن؛ ذكره القشيري، فمات كذلك وبقي خافيَ الحالِ إلى أن سقط ميتاً لانكسار العصا لأكل الأرَضة إياها، فعلم موته بذلك، فكانت الأرَضة دالة على موته؛ أي: سبباً لظهور موته، وكان سأل الله تعالى ألا يعلموا بموته حتى تمضي عليه سنة، واختلفوا في سبب سؤاله ذلك على قولين:

أحدهما: ما قاله قتادة وغيره قال: كانت الجن تدعي علم الغيب، فلما مات سليمان عليه السلام وخفي موته عليهم ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

وقيل: كان رؤساء الجن سبعة وكانوا منقادين لسلمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام أسس بيت المقدس، فلما مات أوصى إلى سليمان في إتمام مسجد بيت المقدس، فأمر سليمانُ الجنَّ به، فلما دنا وفاته قال لأهله: لا تخبروهم بموتي حتى يتموا بناء المسجد وكان بقي لإتمامه سنة(١).

□ قصة سليمان عليه السلام:

📖 **قوله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: ١٥، ١٦].

قال الشوكاني: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ أي: ورثه العلم والنبوة.

📖 **قوله**: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ قال سليمان هذه المقالة مخاطباً للناس تحدثاً بما أنعم الله به عليه وشكر النعمة التي خصه بها، وقدم منطق الطير لأنها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره.

ومعنى ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾: كل شيءٍ تدعو إليه الحاجة كالعلم والنبوة

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/٥٣٦) باختصار.

والحكمة والمال وتسخير الجن والإنس والطير والرياح والوحش والدواب وكل ما بين السماء والأرض(١).

قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل: ١٧].

قال الألوسي: أي: يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة، ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد في العساكر، والأول أولى، وأصل الوَزَع: الكفُّ والمنع ومنه قول عثمان رضي الله عنه: ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن(٢).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٨، ١٩].

قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس يسيرون معه، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة - أي: نقباء - يردون أوله على آخره، فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخر عنه، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور.

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها من الرأي السديد والأمر الحميد، وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره، وليس كما يقول بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان.

---

(١) باختصار من «فتح القدير» (٤/ ١٢٩، ١٣٠).
(٢) «روح المعاني» (٢٠/ ١٧٤) باختصار.

ولهذا قال عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ أي: ألهمني وأرشدني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره، وأن ييسر عليه العمل الصالح، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين، وقد استجاب الله تعالى له(١).

﴿ قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل: ٢٠، ٢١].

قال الألوسي: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أي: أراد معرفة الموجود منها من غيره، وأصل التفقد: معرفة الفقد، والظاهر أنه عليه السلام تفقد كل الطير وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك والاهتمام بالرعايا، لا سيما الضعفاء منها، وكان يأتيه من كل صنف واحد فلم ير الهدهد، قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وهذا التعذيب للتأديب، ويجوز أن يبيح الله تعالى له ذلك لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة، كما أباح سبحانه ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع، وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سُخِّر من أجله إلا بالتأديب والسياسة جاز أن يباح له ما يستصلح به ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ كالترقي من الشديد إلى الأشد، فإن في الذبح تجريع كأسِ المنية، وقد قيل: كلُّ شيءٍ دون المنية سهلٌ(٢).

قوله: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة تبين عذره في غيبته، وما ألطف التعبير بالسلطان دون الحجة هنا! لما أن ما أتى به من العذر انْجَرَّ إلى الإتيان ببلقيس وهي سلطان.

﴿ قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: ٢٢].

قال الزمخشري: ﴿فَمَكَثَ﴾ قرئ بفتح الكاف وضمها ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ غير زمان بعيد، كقوله: عن قريب، ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان، وليعلم كيف كان الطير مسخراً له، ولبيان ما أعطي من

(١) «قصص الأنبياء» (٤٩٩، ٥٠٠).
(٢) باختصار من «روح المعاني» (١٩/١٨٣، ١٨٤).

المعجزة الدالة على نبوته، وعلى قدرة الله تعالى ﴿أَحَطتُ﴾ بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق، ألهم الله الهدهد فكامح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجَمَّةِ، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاءً له في علمه، وتنبيهاً على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به، لتتحاقر إليه نفسه، ويتصاغر إليه علمه، ويكون لطفاً في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء، وأَعَظِمْ بها فتنة! والإحاطة بالشيء علماً أن يُعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم، قالوا: وفيه دليل على بطلان قول الرافضة: إن الإمام لا يخفى عليه شيء، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه[1].

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٣ ـ ٢٦].

قال السعدي رحمه الله: ففي هذه المدة القصيرة جاء الهدهد بهذه المعلومات العظيمة: أخبر سليمان عن ملك الديار اليمانية، وأن ملكتهم امرأة، وأنها قد أعطيت من كل شيء يحتاج الملك إليه، وأن لها عرشاً عظيماً، ومع فهمه لملكهم وقوتهم، فَهِمَ أيضاً دينهم، وأنهم مشركون يعبدون الشمس، وأنكر الهدهد عليهم غاية الإنكار، هذا من الأدلة على أن الحيوانات تعرف ربها وتسبحه وتوحده، وتحب المؤمنين، وتدين ربها بذلك، وتبغض الكفار المكذبين، وتدين لله بذلك[2].

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل: ٢٧، ٢٨].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿سَنَنظُرُ﴾ من النظر الذي هو التأمل والتصفح

---

(١) «الكشاف» (٣/ ٣٥٩).

(٢) «خلاصة تيسير اللطيف المنان» (١٣٩).

﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في مقالتك و﴿كُنتَ﴾ بمعنى: أنت، وقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ ولم يقل: سننظر في أمرك لأن الهدهد لما صرح بفخر العلم في قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ صرح له سليمان بقوله: سننظر أصدقت أم كذبت فكان ذلك [كفاء][(١)] لما قاله.

وفي قوله: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه.

قوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة، ودعائهم إلى الإسلام، وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار[(٢)].

قال الشوكاني: وخص الهدهد بإرساله بالكتاب لأنه المخبر بالقصة، ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم، ما يقتضي كونه أهلاً للرسالة، ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: تنح عنهم، أمره بذلك لكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسل الملوك، والمراد التنحي إلى مكان يسمع فيه حديثهم، حتى يخبر سليمان بما سمع، وقيل: معنى التولي: الرجوع إليه، والأول أولَى لقوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: تأمل وتفكر فيما يرجع بعضهم إلى بعضٍ من القول وما يتراجعون بينهم من الكلام[(٣)].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣٢].

قال ابن كثير رحمه الله: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولاً ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ ثم قرأته: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ ثم شاورتهم في أمرها وما قد حل بها

(١) في الهامش: «جفاء» والتصويب من «أحكام القرآن» لابن العربي.
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» بتصرف واختصار (٦/٤٩٠٥، ٤٩٠٦).
(٣) «فتح القدير» (٤/١٣٦).

وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يسمعون ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ يعني: ما كنت لأبت أمراً إلا وأنتم حاضرون[١].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٣٣ ـ ٣٥].

قال ابن كثير رحمه الله: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعنون: لنا قوة وقدرة على الجِلاد والقتال ومقاومة الأبطال، فإن أردتِ منا ذلك فإن عليه من القادرون ﴿وَ﴾ مع هذا ٱلْأَمْرُ ﴿إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فبذلوا لها السمع والطاعة، وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها في ذلك الأمر، لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم.

فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم، وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ولا يمانع ولا يخالف ولا يخادع ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ تقول برأيها السديد: إن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إليَّ ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا عليّ ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها، ولم تعلم أن سليمان عليه السلام لا يقبل منهم والحالة هذه صرفاً ولا عدلاً لأنهم كافرون، وهو وجنوده عليهم قادرون[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٦، ٣٧].

قال الشوكاني: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي: فلما جاء رسولها المرسل بالهدية ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾، ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر، والاستفهام للاستنكار؛ أي: قال منكراً لإمدادهم له بالمال مع علو سلطانه وكثرة ماله ﴿فَمَآ

(١) «قصص الأنبياء» (٥٠٤).

(٢) السابق (٥٠٤).

﴿ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: ما آتاني من النبوة والملك العظيم والأموال الكثيرة خير مما آتاكم من المال الذي هذه الهدية من جملته، ثم إنه أضرب عن الإنكار المتقدم فقال: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ توبيخاً لهم بفرحهم بهذه الهدية فرحَ فخرٍ وخيلاء، وأما أنا فلا أفرح بها وليست الدنيا من حاجتي لأن الله سبحانه قد أعطاني منها ما لم يعطه أحداً من العالمين، ومع ذلك أكرمني بالنبوة، والمراد بهذا الإضراب من سليمان بيان السبب الحامل لهم على الهدية والإزراء بهم والحط عليهم ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: قال سليمان للرسول، ومعنى ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم﴾: لا طاقة لهم بها ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم﴾ أي: لنخرجنهم من أرضهم التي هم فيها ﴿أَذِلَّةٗ﴾ أي: حال كونهم أذلة بعدما كانوا أعزةً ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ قيل: هي حال مؤكدة للصغار وقيل: إن المراد بالصغار هنا: الأسر والاستبعاد، وقيل: إن الصغار الإهانة التي تسبب عنها الذلة[(١)].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠].

قال الألوسي: اختلفوا في مقصوده عليه السلام من استدعائه عرشَها فعن ابن عباس وابن زيد أنه عليه السلام استدعى ذلك ليريها القدرة التي هي من عند الله تعالى وليغرب عليها وتقييد الإتيان بقوله: ﴿قَبۡلَ ...﴾ إلخ لما أن ذلك أبدع وأعزب وأبلغ من الوقوع عادة وأدل على عظيم قدرة الله عز وجل وصحة نبوته عليه السلام، وليكون اطلاعها على بدائع المعجزات في أول مجيئها[(٢)].

قال ابن كثير: لما طلب سليمان من الجان أن يُحْضروا له عرش بلقيس وهو سرير مملكتها التي تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ يعني: قبل أن ينقضي مجلس

---

(١) باختصار من «فتح القدير» (٤/ ٣٨).
(٢) باختصار من «روح المعاني» (١٩/ ٢٠١، ٢٠٢).

حكمك، وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب الزوال يتصدى لمهمات بني إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ أي: وإني لذو قدرة على إحضاره إليك وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ قيل: هو رجل من مؤمني الجان كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم، وقيل: رجل من بني إسرائيل من علمائهم ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قيل: قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته، وهذا أقرب ما قيل: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ أي: فلما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي: هذا من فضل الله عليَّ وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك عليه ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي: غني عن شكر الشاكرين، ولا يتضرر بكفر الكافرين[1].

قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: ٤١ ـ ٤٣].

قال القرطبي: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ يريد بلقيس ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ شبهته به لأنها خلفته تحت الأغلاق فلم تقر بذلك ولم تنكر فعلم سليمان كمال عقلها، قال عكرمة: كانت حكيمة فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وقال مقاتل: عَرَفَتْه ولكن شَبَّهتْ عليهم كما شبهوا عليها، ولو قيل لها: أهذا عرشك؟ لقالت: نعم هو.

﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ قيل: هو من قول بلقيس؛ أي: أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه الآية في العرش ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لأمره، وقيل: هو من قول سليمان؛ أي: أوتينا العلم بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المدة، وقيل: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها، وقيل: هو من كلام قوم سليمان، والله أعلم.

---

(١) «قصص الأنبياء» (٥٠٥، ٥٠٦) باختصار.

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الوقف على ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حسن، والمعنى: منعها من أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر؛ يعني: أي صدها عبادتها من دون الله وعبادتها إياها عن تعلم ما علمناه [عن أن تسلم](١).

قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

قال ابن كثير رحمه الله: والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة، ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما أتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره، انقادت لأمر الله تعالى، وعرفت أنه نبي كريم ومَلِك عظيم، وأسلمت لله عز وجل وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً(٢).

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

قال العلامة السعدي في فوائد هذه القصة العظيمة:

{١} **منها:** أن سليمان يعد من فضائل داود ومن مَنَّ الله عليه قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾ [ص: ٣٠] وهذا أعظم تزكية وأكبر فخر لسليمان.

{٢} **ومنها:** كثرة خير الله وفضله على عبيده الأخيار يمن عليهم بالأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ثم يثني عليهم بها، ويرتب عليها من الثواب أنواعاً منوعة، وهو المتفضل بالأسباب ومسبباتها.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٩٢٤) باختصار.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٦٦).

{٣} **ومنها**: أنه يؤخذ من أن سليمان أتلف الخيل الجياد ـ التي ألهته عن طاعة الله ـ فسخّر الله له الريح والشياطين، أن من ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه.

{٤} **ومنها**: أن الله أعطى سليمان ملكاً عظيماً فيه أمور لا يمكن أن تدرك بالأسباب وإنما هي من تقدير الملك الوهاب، مثل تسخير الريح تبعاً لأمره، وتسخير الشياطين وكون جنوده من الإنس والجن والطير، وأن الطيور كانت تخدمه الخدمة العظيمة، يرسلها للجهات توصل منه الأخبار وتأتيه بأخبار تلك الجهات، وقد أعطاها الله من الفهم ومعرفة أحوال الآدميين ما قَصَّ الله علينا نبأه في هذه القصة، وكذلك الذي عنده علم من الكتاب حين استعد أن يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتد إليه طرفه، وهذه آيات أنبياء، فلهذا مهما بلغ الخلق في الترقي في علوم الطبيعة والمهارة بالمخترعات فلن يصلوا إلى ما أعطيه سليمان[1].

{٥} **قال القرطبي** رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. في الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وزعة يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم، وقال ابن عون: سمعت الحسن يقول وهو في مجلس قضائه لما رأى ما يصنع الناس قال: والله ما يصلح هؤلاء الناس إلا وزعة.. وقال الحسن أيضاً: لا بدّ للناس من وازع؛ أي: من سلطان يكفهم، وذكر ابن القاسم قال: حدثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول: ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن؛ أي: من الناس، قال ابن القاسم: قلت لمالك: ما يزع؟ قال: يكف. قال القاضي أبو بكر بن العربي: وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام فظنُّوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع الناس أكثر مما تردعهم حدود القرآن، وهذا جهل بالله وحكمته قال: فإن الله ما وضع الحدود إلا مصلحة عامة كافة قائمة لقوام الخلق، لا زيادة عليها ولا نقصان معها، ولا يصلح سواها، ولكن الظلمة خاسوا بها، وقصروا عنها وأتوا ما أتوا بغير نية، ولم يقصدوا وجه الله في القضاء بها،

(١) «خلاصة تيسير اللطيف المنان» (١٤٤، ١٤٥) باختصار.

فلم يرتدع الخلق بها، ولو حكموا بالعدل وأخلصوا النية لاستقامت الأمور وصلح الجمهور[١].

{٦} **وقال** رحمه الله: وفي الآية - ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ...﴾ الآية - دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم: عندي ما ليس عندك إذا تحقق ذلك، وتيقنه، هذا عمر بن الخطاب مع جلالته رضي الله عنه وعلمه لم يكن عنده علم بالاستئذان، وكان علم التيمم عند عمار وغيره وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا: لا يتيمم الجنب، وكان حكم الإذن في أن تنفر الحائض عند ابن عباس، ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت، وكان غسل رأس المحرم معلوماً عند ابن عباس، وخفي عن المِسْوَر بن مخرمة، ومثله كثير فلا نطول به[٢].

{٧} **وقال** رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ...﴾ الآية روى البخاري من حديث ابن عباس: أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال: «**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**»، قال القاضي أبو بكر العربي: هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه، ونقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ولم يصح ذلك عنه، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق ولا بأن يكتب لها سطور بأن فلانه مقدمة على الحكم وإنما سبيل ذلك التحكم والاستبانة في القضية الواحدة، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير، - قال ابن العربي: إن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس، ولا تخالط الرجال، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير؛ لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها، وإن كانت برزة[٣] لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدحم فيه معهم وتكون مناظرة لهم، ولن يفلح قط من تصور هذا ولا من اعتقده[٤].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٨٨٤، ٤٨٨٥).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/٤٨٩٨).
(٣) البرزة: هي الكهلة التي لا تحتجب احتجاب الشواب، وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدثهم.
(٤) السابق (٦/٤٨٩٩، ٤٩٠٠) باختصار.

{٨} **وقال** رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ اتفقوا على كتب «بسم الله الرحمٰن الرحيم» في أول الكتب والرسائل، وعلى ختمها لأنه أبعد من الريبة، وعلى هذا جرى الرسم وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: أيما كتاب لم يكن مختوماً فهو أغلف[١].

{٩} **وقال** رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ...﴾ الآية، هذا من حسن نظرها وتدبيرها؛ أي: إني أجرب هذا الرجل بهدية وأعطيه فيها نفائس من الأموال وأغرب عليه بأمور المملكة، فإن كان ملكاً دنيوياً أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبياً لم يرضه المال ولازمنا في أمر الدين فينبغي لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس في تفصيلها[٢].

وقال رحمه الله: كان النبي ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامةً على ما في نفسها على ما ذكرناه من كون سليمان مَلِكاً أوْ نَبِياً؛ لأنه قال في كتابه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ وهذا لا تُقبل فيه فدية ولا يؤخذ عنه هدية، وليس هذا من الباب الذي تقرر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل، وهي الرشوة التي لا تحل، وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحدٍ وعلى كل حال، وهذا ما لم يكن من مشرك[٣].

{١٠} **وقال القاسمي** رحمه الله: مما استنبط من آيات هذه القصة الجليلة أن في قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ أنه لا بأس بالتبسم والضحك عند التعجب وغيره، وفي قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ استحباب تفقد الملك أحوال رعيته، وأخذ منه بعضهم تفقد الإخوان فأنشد:

تَـفَـقُّـدُ الإخـوَانِ مُـسْـتَـحْـسَـنٌ ... فَـمَـن بَـدَاهُ نِـعْـمَ مَـا قَـدْ بَـدَا

(١) السابق (٦/ ٤٩٠٩) باختصار.
(٢) السابق (٦/ ٤٩١٢).
(٣) السابق (٦/ ٤٩١٤).

سَـنَّ سُـلَـيْـمَـانُ لَـنَـا سُـنَّـةً   وَكَـانَ فِـيْـمَـا سَـنَّـهُ مُـقْـتَـدَى
تَـفَـقَّـدَ الـطَّـيْـرَ عَـلَـى مُـلْـكِـهِ   فَـقَـالَ مَـا لِـي لا أرَى الـهُـدْهُـدَا[1]

انتهى بحمد الله تعالى ما جمعناه، والله أسأل أن يكون العمل في رضاه، وأن يرزقنا برَّهُ وذخره يوم نلقاه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

---

(١) «محاسن التأويل» (١٣/ ٧١).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة
بقرة بني إسرائيل

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

١ ـ قصة بقرة بني إسرائيل

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٦٧ ـ ٧٣].

□ **بين يدي القصة:**

هذه القصة مما أراد الله تعالى أن يقصه علينا من أخبار بني إسرائيل في قسوتهم وفسوقهم للاعتبار بها، ومن وجوه الاعتبار أن التنطع في الدين والإحفاء في السؤال مما يقتضي التشدد في الأحكام، فمن شدَّد شُدِّدَ عليه؛ ولذلك نهى الله تعالى هذه الأمة عن كثرة السؤال بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [المائدة: ١٠١، ١٠٢].

وفي الحديث الصحيح: «**ويكره لكم قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال**»(١) وقد امتثل سلفنا الأمر فلم يشددوا على أنفسهم، فكان الدين

---

(١) رواه البخاري (١١/٣١٢) «الرقاق»، وأحمد (٢/٣٢٧ ـ ٣٦٠)، والدارمي (٢/٣١١) «الرقاق».

وفي الحديث الآخر: «**أعظم الناس جرماً مَنْ سأل عن شيء لم يحرم فحرم لأجل** =

عندهم حنيفياً سمحاً، ومن خَلْفِنَا مَنْ عمد إلى ما عفا الله عنه فاستخرج له أحكاماً استنبطها باجتهاده، وأكثروا منها حتى صار الدين حِمْلاً ثقيلاً على الأمة، فسئمته وملت، وألقته وتخلت.

جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذي لم يسبق إليه ولم يلحق فيه، فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين، ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع، حتى في القصة الواحدة وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك الفكر إلى النظر تحريكاً، ويهز النفس للاعتبار هزاً، وقد راعى في قصص بني إسرائيل أنواع المنن التي منحهم الله تعالى إياها، وضروب الكفران والفسوق التي قابلوها بها، وما كان في أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات، وابتلائهم بالحسنات والسيئات، وكيف كانوا يحدثون في أثر كل عقوبة توبة، ويحدث لهم في أثر كل توبة نعمة، ثم يعودون إلى بطرهم وينقلبون إلى كفرهم. اهـ ملخصاً[(١)].

نقل **ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ عدة سياقات في هذه القصة ثم قال: وهذه السياقات عن عبيدة وأبي العالية والسدي وغيرهم فيها اختلاف، الظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها ولكن لا نصدق ولا نكذب، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم[(٢)].

وسوف نضرب على هذه الروايات صفحاً لما انتهجناه في هذا الكتاب من الاقتصار على الصحيح، فلم يصح عن المعصوم ﷺ شيء في قصة القتيل الذي بسببه أمرهم الله ﷻ أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها حتى يخبر عن قاتله، ولنشرع في شرح الآيات الكريمات:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]:

قال محمد رشيد رضا: كان في الآيات السابقة يذكر النعمة، فالمخالفة

= مسألته» متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (١/ ٣٤٥، ٣٤٦) باختصار لمحمد رشيد رضا، ط. دار المعرفة ـ بيروت.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ١١٠) للحافظ ابن كثير، دار المعرفة ـ بيروت.

فالعقوبة فالتوبة فالرحمة، كالتفضيل على العالمين، وأخذ الميثاق والإنجاء من آل فرعون، وما كان في أثر ذلك على ما أشرنا الآن وأجملنا، وأوضحنا من قبل وفصلنا، وفي هذه القصة اختلف النسق، فذكر المخالفة بعد في قوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ ثم المنة في الخلاص منها في قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ...﴾ إلخ، وقدم على ذلك ذكر وسيلة الخلاص وهي ذبح البقرة بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ما وراءها [حيث لم يسبق في الكلام عهدٌ لسبب أمر موسى لقومه أن يذبحوا بقرةً، فالمفاجأة بحكاية ما كان من ذلك الأمر والجدال الذي وقع فيه يثير الشوق في الأنفس إلى معرفة السبب، فتتوجه الفكرة بأجمعها إلى تلقيه] إذ الحكمة في أمر الله أمة من الأمم بذبح بقرة خفيَّة وجديرة بأن يعجب منها السامع ويحرص على طلبها، لا سيما إذا لم يعتد فهم الأساليب الأخاذة بالنفوس الهازَّةُ للقلوب(١).

وظاهر الأمر أن نبيهم ﷺ أمرهم بذبح بقرة غير معينة ولكنهم تنطعوا وتشددوا فشدد الله عليهم.

فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أيُّ بقرة كانت، واعتبار الصفة تكلف كان الأولى بهم أن يتنزهوا عنه، وأن يمتثلو الأمر بذبح بقرة، ولو كان المراد ذبح بقرة معينة لما استحقوا التعنيف على طلب البيان، بل كانوا يستحقون المدح عليه فلما عنَّفَهُمُ الله تعالى في قوله: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ وفي قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ علمنا تقصيرهم في الإتيان بما أمروا به أولاً، وذلك إنما يكون لو كان المأمور به أولاً ذبح بقرة معينة، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأت منهم، لكنهم شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم.

وقد كانوا محتاجين إلى ذبح البقرة لمعرفة القاتل، ومع ذلك لم يبين الله ﷻ لها صفاتٍ معينة، فلو كانت معينة لكان ذلك تأخيراً للبيان عن وقت الحاجة، وهو غير جائز.

قال الرازي: واعلم أنا إذا فرعنا على القول بأن المأمور به بقرة أي بقرة

---

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (١/ ٣٤٦، ٣٤٧).

كانت، فلا بدّ وأن نقول: التكاليف مغايرة فكلفوا في الأول أي بقرة كانت، وثانياً: أن تكون لا فارضاً ولا بكراً بل عواناً، فلما لم يفعلوا ذلك كلفوا أن تكون صفراء فلما لم يفعلوا ذلك كلفوا أن تكون مع ذلك لا ذلولاً تثير الأرض ولا تسقي الحرث.

وإذا ثبتَ أن البيان لا يتأخر، فلا بدّ من كونه تكليفاً بعد تكليف، وذلك يدل على أن الأسهل قد ينسخ بالأشق، ويدل على جواز النسخ قبل الفعل، ولكنه لا يدل على جواز النسخ قبل وقت الفعل، ويدل على وقوع النسخ في شرع موسى ﵇ وله أيضاً تعلق بمسألة أن الزيادة على النسخ هل هو نسخ أم لا؟ ويدل على حسن وقوع التكليف ثانياً لم عصى ولم يفعل ما كُلف أولاً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]:

قال القفال: قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ استفهام على معنى الإنكار، الهزء يجوز أن يكون في معنى المهزوء به، كما يقال: كان هذا في علم الله؛ أي: في معلومه، والله رجاؤنا.

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ [المؤمنون: ١١٠].

وقال الزمخشري: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ أتجعلنا مكان هزء، أو أهل هزء، أو مهزوء بنا، والهزء نفسه فرط الاستهزاء.

وقال الرازي: القوم إنما قالوا ذلك لأنهم لما طلبوا من موسى ﵇ تعيين القاتل فقال موسى: اذبحوا بقرة لم يعرفوا بين هذا الجواب وذلك السؤال مناسبة، فظنوا أنه ﵇ يلاعبهم لأنه من المحتمل أن موسى ﵇ أمرهم بذبح البقرة وما أعلمهم أنهم إذا ذبحوا البقرة ضرب القتيل ببعضها فيصير حياً، فلا جرم وقع هذا القول موقع الهزء[1] ويحتمل أنه ﵇ وإن كان

---

(١) وفي ذلك نظر، وكان عليه أن ينسب التقصير في الفهم إليهم والعيب في الرد السيء عليهم، وأن ينزه نبي الله عن القصور في البلاغ، خاصة وقد ذكر الله ﷻ ذلك لبيان جفائهم وسوء أدبهم، والأنبياء منزهون عن القصور والرذائل متصفون بالفضائل وكريم الشمائل.

قد بين لهم كيفية الحال؛ إلا أنهم تعجبوا من أن القتيل كيف يصير حياً بأن يضربوه ببعض أجزاء البقرة، فظنوا أن ذلك يجري مجرى الاستهزاء[١].

قال القاسمي: وأشْعَر جوابهم ما ثبت مِنْ فظاظتهم، إذ فيه سُوء الأدب على من ثبتت رسالته وقد علموها.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لأن الهزء في أثناء تبليغ أمر الله سبحانه جهلٌ وسفه نفى عنه ﷺ ما توهموه من قِبَلِه على أبلغ وجه وآكده، بإخراجه مخرج ما لا مكروه وراءه بالاستعاذة منه استفظاعاً له، واستعظاماً لما أقدموا عليه من العظيمة التي شافهوه ﷺ بها.

والعوذ: اللجأ مِنْ تخوف لكافٍ يكفيه، والجهل: التقدم في الأمور بغير علم[٢].

وقال صاحب المنار: وهذا القول من سفههم وخفة أحلامهم وجهلهم بعظمة الله تعالى وما يجب أن يقابل به أمره من الاحترام والامتثال، وإن لم تظهر حكمته بادي الرأي، ولولا ذلك لامتثلوا وانتظروا النتيجة بعد ذلك، ولما كان في جوابهم هذا رمي لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالسفه والجهالة.

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: ألتجئ إلى الله وأعتصم بتأديبه إياي من الجهالة والهزء بالناس.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة: ٦٨]:

فقوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٌ﴾ أي: غير مُسِنَّةٍ انقطعت ولادتها ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ لم تلد بالمرة، والمراد بها: التي لم تلد كثيراً ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ عوان: النصف في السن من النساء والبهائم؛ أي: هي بين ما ذكر من السنين الفارض والبكر[٣].

---

(١) التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، المسمى: «بمفاتيح الغيب» (٣/١٠٨، ١٠٩) باختصار، ط. دار الكتب العلمية.

(٢) «محاسن التأويل» (٢/١٥٢، ١٥٣).

(٣) «تفسير القرآن الحكيم» لمحمد رشيد رضا (١/٣٤٨).

قال ابن كثير: أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم، وهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم، ولكنهم شددوا فَشُدِّدَ عليهم فقالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما هذه البقرة، وأي شيء صفتها، قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا هشام بن علي عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ولكنهم شددوا فَشُدِّدَ عليهم. إسناده صحيح، وقد رواه غير واحدٍ عن ابن عباس(١).

وقوله تعالى: ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨]:

قال الألوسي: أي من ذبح البقرة، ولا تكرروا السؤال، ولا تتعنتوا، وهذه الجملة يحتمل أن تكون من قول الله تعالى لهم، ويحتمل أن تكون من قول موسى عليه السلام، حرضهم على امتثال ما أمروا به شفقة منه عليهم(٢).

وقال القرطبي: ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ تجديد للأمر وتأكيد وتنبيه على ترك التعنت. فما تركوه، وهذا يدل على أن مقتضى الأمر الوجوب كما تقوله الفقهاء، وهو الصحيح على ما هو مذكور في أصول الفقه، وعلى أن الأمر على الفور وهو مذهب أكثر الفقهاء أيضاً، ويدل على صحة ذلك أنه تعالى استقصرهم حين لم يبادروا إلى فعل ما أمروا به فقال: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ وقيل: لا بل على التراخي لأنه لم يعنفهم على التأخير والمراجعة في الخطاب قاله: ابن خويزْ منداد(٣).

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة: ٦٩]:

قال الرازي: ثم إنه تعالى حكى سؤالهم الثاني وهو قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ واعلم أنهم لما عرفوا حال السن شرعوا بعده في تعرف حال اللون، فأجابهم الله تعالى بأنها ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ١١٠).

(٢) «تفسير روح المعاني» (١/ ٢٨٨)، ط. دار التراث.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٩٢)، ط. الشعب.

والفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه، يقال في التوكيد: أصفر فاقع، وأسود حالك وأبيض يقق، وأحمر قانٍ، وأخضر ناضر[(١)].

وقوله تعالى: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٩]:

قال الألوسي: والسرور أصله لذة في القلب عند حصول نفع، ـ أو توقعه، أو رؤية أمر معجب رائق، وأما نفسه فانشراح مستبطن فيه ـ، وبين السرور والحبور والفرح تقارب، لكن السرور هو الخالص المنكتم، سمي بذلك اعتباراً بالإسرار، والحبور ما يرى حبره ـ أي: أثره ـ في ظاهر البشرة وهما يستعملان في المحمود، وأما الفرح فما يحصل بطراً أو أشراً، ولذلك كثيراً ما يذم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] والمراد هنا: عند بعض الإعجاب مجازاً للزومه له غالباً، والجملة صفة البقرة؛ أي: تعجب الناظرين إليها. وجمهور المفسرين يشيرون إلى أن الصفرة من الألوان السارة، ولهذا كان علي ـ كرم الله تعالى وجهه ـ يرغب في النعال الصفر، ويقول: من لبس نعلاً أصفر قل همه، ونهى ابن الزبير ويحيى بن أبي كثير عن لباس النعال السود لأنها تغم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة: ٧٠]:

قال الزمخشري: مرة ثانية تكرير للسؤال عن حالها وصفتها، واستكشاف زائد ليزدادوا بياناً لوصفها. عن بعض الخلفاء أنه كتب إلى عامله بأن يذهب إلى قوم فيقطع أشجارهم ويهدم بيوتهم، فكتب إليه: بأيهما أبدأ؟ فقال: إن قلت لك: بقطع الشجر، سألتني: بأي نوع منها أبدأ؟. وعن عمر بن عبد العزيز: إذا أمرتك أن تعطي فلاناً شاة سألتني: أضائن أم ماعز؟ فإن بينت لك قلت: أذكر أم أنثى؟ فإن أخبرتك قلت: أسوداء أم بيضاء؟ فإذا أمرتك بشيء فلا تراجعني[(٣)].

وقال القرطبي: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ استثناء

---

(١) «التفسير الكبير» (٣/ ١١٠).
(٢) روح المعاني (١/ ٢٨٩) باختصار.
(٣) الكشاف (١/ ١٥١) باختصار، ط. الريان.

منهم، وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنابة ما وانقياد، ودليل ندم على عدم موافقة الأمر(١).

وقال الرازي: قال الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده لو لم يقولوا: إن شاء الله لحيل بينهم وبينها أبداً**» واعلم أن ذلك يدل على أن التلفظ بهذه الكلمة مندوب في كل عمل يراد تحصيله، ولذلك قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

وفيه استعانة بالله، وتفويض الأمر إليه(٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝﴾ [البقرة: ٧١]:

وقال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ قال قتادة: لم يذلها العمل فتثير الأرض.

قال ابن قتيبة: يقال في الدواب: دابة ذلول: بينة الذل بكسر الذال، وفي الناس رجلٌ ذليل بين الذُّلِّ بضم الذال.

﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ تقلبها للزراعة، ويقال للبقرة المثيرة. قال الفراء: لا تقفن على ذلول؛ لأن المعنى ليست بذلول فتثير الأرض.

ومعنى ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾: لا يستقي عليها الماء لسقي الزرع.

قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ [البقرة: ٧١]:

فيه أربعة أقوال:

أحدها: مسلمة من العيوب: قاله ابن عباس وأبو العالية وقتادة ومقاتل.

والثاني: مسلمة من العمل.

والثالث: مسلمة من الشيه: قاله مجاهد وابن زيد.

والرابع: مسلمة القوائم والخلق قاله عطاء الخراساني.

فأما «الشية» فقال الزجاج: الوشي في اللغة خلط لون بلون. ويقال:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٨٤). (٢) التفسير الكبير (٣/ ١١١) باختصار.

وشيت الثوب أشيه شية ووشياً كقولك: وديت فلاناً أديه دية ونصب ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ على النفي ومعنى الكلام: ليس فيها لون يفارق سائر لونها. وقال عطاء الخراساني: لونها لون واحد(١).

قال الشوكاني: فلما سمعوا هذه الأوصاف التي لا يبقى بعدها ريب، ولا يخالج سامعها شك، ولا تحتمل الشركة بوجه من الوجوه، أقصروا من غوايتهم، وانتبهوا من رقدتهم، وعرفوا بمقدار ما أوقعهم فيه تعنتهم من التضييق عليهم ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أوضحت لنا الوصف، وبينت لنا الحقيقة التي يجب الوقوف عندها.

فحصلوا تلك البقرة الموصوفة بتلك الصفات ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ وامتثلوا الأمر الذي كان يُسْراً فعسروه، وكان واسعاً فضيقوه، ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ما أمروا به لما وقع منهم من التثبط والتعنت وعدم المبادرة، فكان ذلك مظنة للاستبعاد ومحلاً للمجيء بعبارة مشعرة بالتثبط الكائن منهم، وقيل: إنهم ما كادوا يفعلون لعدم وجدان البقرة المتصفة بهذه الأوصاف، وقيل: لارتفاع ثمنها. وقيل: لخوف انكشاف أمر المقتول والأول أرجح(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٢ ـ ٧٣]:

قال محمد رشيد رضا: هذه أول القصة المحتوية على المخالفة على ما أشرنا إليه، وهي القتل، ثم التنازع في القاتل، ثم تشريع الحكم لكشف الحقيقة بذبح البقرة، وما كان من إلحاحهم في السؤال على ما سبق، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٔتُمْ فِيهَا﴾ أسند فيه القتل إلى الأمة، وإن كان القاتل واحداً باعتبار ما تقدم من كونها في مجموعها وتكافلها، كالشخص الواحد، والتدارؤ تفاعل من الدرء، وهو الدفع، فمعناه: التدافع، وهو يدل على أنه كان خصام واتهام، وكان كل يدرأ عن نفسه، ويدعي البراءة ويتهم

---

(١) باختصار من «زاد المسير» لابن الجوزي (١/٩٨، ٩٩)، المكتب الإسلامي.
(٢) «فتح القدير» للشوكاني (١/٩٨) دار المعرفة ـ بيروت.

غيره، وكان للقاتلين والعارفين بهم حظوظ وأهواء كتموا فيها الحقيقة، ولذلك قال تعالى بعد التذكير بالجريمة: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من الإيقاع بقوم برآء تتهمونهم بالقتل لإخفاء القاتل؛ لأنه لا يخفى عليه مكركم[1].

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٣]:

قال الشوكاني: واختلف في تعيين البعض الذي أمروا بأن يضربوا القتيل به، ولا حاجة إلى ذلك، مع ما فيه من القول بغير علم، ويكفينا أن نقول: أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها، فأي بعض ضربوا به فقد فعلوا ما أمروا به، وما زاد على هذا فهو من فضول العلم، إذ لم يرد به برهان. قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في الكلام حذف والتقدير ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ﴾ فأحياه الله ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: إحياء مثل هذا الإحياء ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: علاماته الدالة على كمال قدرته: وهذا يحتمل أن يكون خطاباً لمن حضر القصة، ويحتمل أن يكون خطاباً للموجودين عند نزول القرآن[2].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال الزمخشري:** فإن قلت: فما للقصة لم تقص على ترتيبها، وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: وإذ قتلتم نفساً فادرأتم فيها فقلنا: اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت: كل ما قص من قصص بني إسرائيل إنما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات وتقريعاً لهم عليها، ولما جدد فيهم من الآيات العظام. وهاتان قصتان كل واحدة منها مستقلة بنوع من التقريع، وإن كانتا متصلَتين متحدتين، فالأولى: لتقريعهم على الاستهزاء، وترك المسارعة إلى الامتثال، وما يتبع ذلك، والثانية: للتقريع على قتل النفس المحرمة، وما يتبعه من الآية العظيمة، وإنما قدمتَ قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه

---

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (١/ ٣٥٠، ٣٥١).

(٢) «فتح القدير» للشوكاني (١/ ١٠٠).

لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض في تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعدما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع، وتثبيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة(١).

﴿٢﴾ **قال القرطبي**: في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ دليل على منع الاستهزاء بدين الله ودين المسلمين ومن يجب تعظيمه، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحق للوعيد، وليس المزاح من الاستهزاء بسبيل، ألا ترى أن النبي ﷺ كان يمزح والأئمة بعده(٢).

﴿٣﴾ **وقال في قوله تعالى**: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ...﴾ الآية. في هذه الآية أدل دليل على حصر الحيوان بصفاته، وإذا ضبط بالصفة وحصر بها جاز السلم فيه، وبه قال مالك وأصحابه والأوزاعي والليث والشافعي، وكذلك كل ما يضبط بالصفة لوصف الله تعالى البقرة في كتابه وصفاً يقوم مقام التعيين.

وقال رسول الله ﷺ: «**لا تصف المرأةُ المرأةَ لزوجها حتى كأنه ينظر إليها**»(٣). أخرجه مسلم فجعل ﷺ الصفة تقوم مقام الرؤيا وجعل ﷺ دية الخطأ في ذمة مَنْ أوجبها عليه ديناً إلى أجل ولم يجعلها على الحلول، وهو يرد قول الكوفيين أبي حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح، حيث قالوا: لا يجوز السلم في الحيوان، وروي عن ابن مسعود وحذيفة وعبد الرحمٰن بن سمرة؛ لأن الحيوان لا يوقف على حقيقة صفته من مشي

---

(١) «الكشاف» (١/ ١٥٤).   (٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٨١).

(٣) رواه البخاري بلفظ: «**لا تباشر المرأة المرأة فتصفها لزوجها كأنه ينظر إليها**» (٩/ ٢٥٠) «النكاح»، وأبو داود (٢١٣٦) «النكاح»، والترمذي (١/ ٢٣٧) «الأدب»، وأحمد (١/ ٣٨٠ ـ ٤٦٠) ولم أقف عليه في صحيح مسلم، فالله أعلم.
وقال الحافظ: قال القاسمي: هذا أصل لمالك في سد الذرائع، فإن الحكمة في هذا النهي خشية أن يعجب الزوج الوصف المذكور فيفضي ذلك إلى تطليق الواصفة أو الافتتان بالموصوفة. فتح الباري (٩/ ٢٥٠).

وحركة، وكل ذلك يزيد في ثمنه ويرفع من قيمته[١].

{٤} **قال القاسمي**: قال الراغب: قال بعض الناس: في هذه الآية دلالة على نسخ الشيء قبل فعله، فإن في الأول أمروا بذبح بقرة غير معينة، وكان لهم أن يذبحوا أي بقرة شاءوا، وفي الثاني والثالث أمروا بذبح بقرة مخصوصة، فكأنهم نهوا عما كانوا أمروا به من قبل، وليس كذلك، فإن الأول أمر مطلق والثاني والثالث كالبيان له لمَّا راجعوا، ولم يسقط عنهم ذبح البقرة بل زيد في أوصافها، وكشف عن المراد بالأمر الأول، وفي الآية دلالة على جواز تأخير البيان إلى وقت الحاجة[٢].

{٥} **وقال الشيخ أبو بكر الجزائري**: في هداية الآيات:

ـ بيان ما كان عليه قوم موسى من بني إسرائيل من العجرفة وسوء الأخلاق ليتجنب مثلها المسلمون.

ـ حرمة الاعتراض على الشارع، ووجوب تسليم أمره أو نهيه، ولو لم تُعرْفَ فائدة الأمر والنهي وعلتها.

ـ الندب إلى الأخذ بالمتيسر، وكراهة التشدد في الأمور.

ـ بيان فائدة الاستثناء بقول: إن شاء الله، إذ لو لم يقل اليهود: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ ما كانوا ليهتدوا إلى معرفة البقرة المطلوبة.

ـ ينبغي تحاشي الكلمات التي قد يفهم منها انتقاص الأنبياء، مثل قولهم: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾، إذ مفهومه أنه ما جاءهم بالحق إلا في هذه المرة من عدة مرات سبقت[٣].

{٦} **وقال الرازي**: وههنا سؤالان:

السؤال الأول: ما الفائدة في ضرب المقتول ببعض البقرة مع أن الله تعالى قادر على أن يحييه ابتداءً؟

الجواب: الفائدة فيه لتكون الحجة أوكد، وعن الحيلة أبعد، فقد كان

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٨٥، ٣٨٦).
(٢) «محاسن التأويل» (٢/ ١٥٦).
(٣) «أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير» لأبي بكر جابر الجزائري (١/ ٥٨).

يجوز لملحد أن يوهم أن موسى ﷺ إنما أحياه بضرب من السحر والحيلة، فإنه إنما حيي عندما يضرب بقطعة من البقرة المذبوحة، انتفت الشبهة في أنه لم يحي بشيءٍ انتقل إليه من الجسم الذي ضرب به، إذا كان ذلك إنما حيي بفعل فعلوه هم، فدل على أن إعلام الأنبياء إنما يكون من عند الله لا بتمويه من العباد، وأيضاً فتقديم القربان مما يعظم أمر القربان.

السؤال الثاني: هلا أمر بذبح غير البقرة؟ وأجابوا بأن الكلام في غيرها لو أمروا به كالكلام فيها، ثم ذكروا فيها فوائد، منها التقرب بالقربان الذي كانت العادة به جارية، ولأن هذا القربان كان عندهم من أعظم القرابين، ولما فيه من مزيد الثواب لتحمل الكلفة في تحصيل هذه البقرة على غلاء ثمنها، ولما فيه من حصول المال العظيم لمالك البقرة[1].

(١) «التفسير الكبير» (٣/ ١١٥).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة طالوت

رَفْعُ عبد الرحمن النجدي أسكنه الله الفردوس

٢ ـ قصة طالوت

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥٢].

□ **بين يدي القصة:**

هذه فترة من فترات الضعف في بني إسرائيل من بعد موسى، ثم هي

قصة بداية الصحوة من هذه الفترة، حيث استيقظت العقيدة في نفوس وجوه الناس منهم، وكانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما مات نبي بعث نبي، ولم يرد بسند صحيح اسم هذا النبي الذي عاصر هذه القصة، وقد اجتهد بعض المفسرين أو نقلوا عن السدي والكلبي من أخبار بني إسرائيل أن اسمه شمعون، وقيل: يوشع بن نون ولم يرد ذلك في سند صحيح عن المعصوم، وليس في تعيين اسمه كثير فائدة ولو كان في ذلك فائدة لأخبرنا الله ﷻ باسمه فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وبنو إسرائيل هم بنو إسرائيل في عنادهم وتمردهم وجدالهم وغدرهم، وأعلم الناس بهم نبيهم فأراد أن يتأكد من هذه الروح الجهادية التي استيقظت في نفوسهم ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ فأظهروا الإيمان وحب الجهاد والارتفاع من حالة الذل والصغار التي وصلوا إليها، ولكنهم في أول اختبار ظهرت طبائع النفوس التي امتلأت بحب الدنيا والظهور فيها، وعدم التسليم لأمر الله ﷻ ونهْيه فبعد أن أخبرهم نبيهم أن الله ﷻ قد اختار طالوت ملكاً قالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ وكان الواجب عليهم أن يسلموا لأمر الله ﷻ ولكنها طبيعة اليهود كما مرّ بنا في قصة البقرة، ثم اختبرهم ملكهم طالوت ليتأكد من صحة عزيمة جنوده، ومن أجل أن تبقى معه الفئة المؤمنة التي تستحق النصر، فبقيت معه بقية قليلة ولكنها مؤمنة صادقة، فتنزل عليهم نصر الله ﷻ، وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة، فهذا ملخص هذه القصة التي قصها الله تعالى علينا تربية لهذه الأمة، وحتى يقف أصحاب الدعوة على أن الاغترار والحماس الظاهر دون الإيمان والتسليم والانقياد لأمر الله ﷻ لا يفيد الدعوة شيئاً، وأن الثقة بالله ﷻ؛ واليأس من الأسباب ـ بعد الأخذ بها ـ من أهم أسباب النصر والتمكين، ولا شك أن ما حدث في هذه القصة كان سبب الملك العظيم لبني إسرائيل وهو داود وسليمان ﵉ فليس في عصور بني إسرائيل أزهى من هذين العصرين.

📖 **قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]:

قال الأستاذ قطب ﵀: ألم تر؟ كأنها حادث واقع ومشهد منظور، لقد

اجتمع الملأ من بني إسرائيل من كبرائهم وأهل الرأي فيهم إلى نبي لهم، ولم يرد في السياق ذكر اسمه، وذكره هنا لا يزيد شيئاً في إيحاء القصة، وقد كان لبني إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون في تاريخهم الطويل، لقد اجتمعوا إلى نبي لهم وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكاً يقاتلون تحت إمرته «في سبيل الله» وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال، وأنه «في سبيل الله» يشي بانتفاضة العقيدة في قلوبهم ويقظة الإيمان في نفوسهم، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل، ووضح الطريق أمامهم للجهاد في سبيل الله، وهذا الوضوح وهذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر، فلا بدّ للمؤمن أن يتضح في حسه أنه على الحق وأن عدوه على الباطل، ولا بدّ أن يتجرد في حسه الهدف.. في سبيل الله.. فلا يغشيه الغبش الذي لا يدري معه أين يسير.

وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم وثبات نيتهم وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة، وجدّهم فيما يعرضون عليه من الأمر.

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾(١) [البقرة: ٢٤٦]:

وقال ابن كثير: والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء سألوا نبي الله في ذلك الزمان، وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته ليقاتلوا من ورائه ومعه وبين يديه الأعداء، فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وأي شيء يمنعنا من القتال ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ يقولون: نحن محروبون موتورون، فحقيق لنا أن نقاتل عن أبنائنا المنهورين المستضعفين فيهم المأسورين في قبضتهم.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(٢).

---

(١) «في ظلال القرآن» (١/ ٢١٠)، ط. دار العلم بجده.
(٢) «قصص الأنبياء» لابن كثير (٤٧٩).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧]:

قال الرازي ما ملخصه: اعلم أنه لما بيّن في الآية الأولى أنه أجابهم إلى ما سألوا، ثم إنهم تولوا، فبين أن أول ما تولوا إنكارهم إمرة طالوت، وذلك لأنهم طلبوا من نبيهم أن يطلب من الله أن يعين لهم ملكاً فأجابهم بأن الله قد بعث لهم طالوتَ ملكاً.

ثم إن الله تعالى لما عينه لأن يكون ملكاً لهم أظهروا التولي عن طاعته، والإعراض عن حكمه وقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ واستبعدوا جداً أن يكون هو ملكاً عليهم قال المفسرون: وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط بني إسرائيل وهو سبط لأوى بن يعقوب، ومنه موسى وهارون، وسبط المملكة سبط يهوذا ومنه داود وسليمان، وأن طالوت ما كان من أحد هذين السبطين، بل كان من ولد بنيامين، فلهذا السبب أنكروه ملكاً لهم، وزعموا أنهم أحق بالملك منه، ثم إنهم أكدوا هذه الشبهة بشبهة أخرى، وهي قولهم: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ وذلك إشارة إلى أنه فقير ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وتقرير هذا الجواب أنهم طعنوا في استحقاقه للملك بأمرين:

أحدهما: أنه ليس من أهل بيت الملك.

الثاني: أنه فقير، والله تعالى بيّن أنه أهل للملك.

• **والوجه الأول:** في رد هذه الشبهة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾.

واعلم أن القوم لما كانوا مقرين بنبوّة ذلك النبي كان إخباره عن الله تعالى أنه جعل طالوت ملكاً عليهم حجة قاطعة في ثبوت الملك له، وإذا ثبت ذلك كان ملكاً واجب الطاعة وكانت الاعتراضات ساقطة.

• **والوجه الثاني:** في الرد على الشبهة قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾.

وقرر ذلك بأن حصل له وصفان؛ أحدهما: العلم. والثاني: القدرة.

وهذان الوصفان أشد مناسبة لاستحقاقه الملك من الوصفين الأولين وبيانه من وجوه:

أحدها: أن العلم والقدرة من باب الكمالات الحقيقية والمال والجاه ليسا كذلك.

والثاني: أن العلم والقدرة من الكمالات الحاصلة لجوهر نفس الإنسان، والمال والجاه أمران منفصلان عن ذات الإنسان.

والثالث: أن العلم والقدرة لا يمكن سلبهما عن الإنسان، والمال والجاه يمكن سلبهما عن الإنسان.

والرابع: أن العلم بأمر الحروب، والقوي الشديد على المحاربة يكون الانتفاع به في حفظ مصلحة البلد وفي دفع شر الأعداء أتم من الانتفاع بالرجل النسيب الغني، إذا لم يكن له علم يضبط المصالح، وقدرة على دفع الأعداء، فثبت بما ذكرنا أن إسناد الملك إلى العالم القادر، أولى من إسناده إلى النسيب الغني.

ثم قال: ههنا مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا في مسألة خلق الأعمال بقوله: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ وهذا يدل على أن العلوم الحاصلة للخلق إنما حصلت بتخليق الله تعالى وإيجاده.

المسألة الثانية: قال بعضهم: المراد بالبسطة في الجسم: طول القامة، وكان يفوق الناس برأسه ومنكبه، وإنما سمى طالوت لطوله، وقيل: المراد من البسطة في الجسم: الجمال، وكان أجمل بني إسرائيل، وقيل: المراد: القوة؛ وهذا القول عندي أصح؛ لأن المنتفع به في دفع الأعداء هو القوة والشدة لا الطول والجمال.

المسألة الثالثة: أنه تعالى قدم البسطة في العلم على البسطة في الجسم؛ وهذا منه تعالى تنبيه على أن الفضائل النفسانية أعلى وأشرف وأكمل من الفضائل الجسمانية.

• **والوجه الثالث**: في الجواب عن الشبهة قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ تقريره أن الملك لله والعبيد لله، فهو سبحانه يؤتي ملكه من يشاء، ولا اعتراض لأحدٍ عليه في فعله؛ لأن الملك إذا تصرف في ملكه فلا اعتراض لأحدٍ عليه في فعله.

• **والوجه الرابع**: في الجواب قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والتقدير: أنتم طعنتم في طالوت لكونه فقيراً، والله تعالى واسع الفضل والرحمة، فإذا فوض الملك إليه فإن علم أن الملك لا يتمشى إلا بالمال فالله تعالى يفتح عليه باب الرزق والسعة في المال، ثم بيّن بقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ أنه تعالى مع قدرته على إغناء الفقير عالم بمقادير ما يحتاج إليه في تدبير الملك، وعالم بحال ذلك الملك في الحاضر والمستقبل، فيختار لعلمه بجميع العواقب ما هو مصلحته في قيامه بأمر الملك[(١)].

📖 **قوله تعالى**: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٨]:

قال القاسمي: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ أي: علامة مُلْكه: أنه من الله تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ أي: يرد الله إليكم التابوت الذي أُخذ منكم وهو صندوق التوراة على ما سنذكره ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: وقار وجلال وهيبة، أو فيه سكون نفوس بني إسرائيل يتقوون به على الحرب ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ أي: فضلة جملة ذهب جلها ﴿مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ أي: من آثارهم الفاضلة ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في رد التابوت إليكم ﴿لَءَايَةً لَّكُمْ﴾ أن ملكه من الله تعالى ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بآيات الله وأنبيائه[(٢)].

📖 **قوله تعالى**: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ

---

(١) باختصار وتصرف من «التفسير الكبير» (٦/١٤٨).

(٢) «محاسن التأويل» (٣/٣٠٥، ٣٠٦).

فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ اللَّهِۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ما ملخصه: يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ أي: مختبركم ﴿بِنَهَرٍ﴾ قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين؛ يعني: نهر الشريعة المشهور ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ﴾ أي: فلا بأس عليه. قال الله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ﴾ قال ابن جريج: قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو، وقد روى ابن جرير من طريق إسرائيل وسفيان الثوري: ومسعر بن كدام عن أبي إسحاق السبيعي عن البراء بن عازب قال: «كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن»، ورواه البخاري عن عبد الله بن رجاء عن إسرائيل بن يونس عن أبي إسحاق عن جده عن البراء بنحوه(١) ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ أي: استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم، فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عَدد ولا عُدد، ولهذا قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ اللَّهِۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّٰبِرِينَ﴾(٢).

وقال القرطبي: قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾.

الفئة: الجماعة من الناس والقطعة منهم، من فأوت رأسه بالسيف وفأيته؛ أي: قطعته، وفي قولهم ﷺ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ...﴾ الآية؛

(١) رواه البخاري (٧/ ٣٢٩) «المغازي». (٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٣٠٢).

تحريض على القتال واستشعار للصبر واقتداء بمن صدق ربه.

قلت: هكذا يجب علينا نحن أن نفعل، ولكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك، حتى ينكسر العدد الكبير منا قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا، وفي البخاري: وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم. وفيه مُسْنَدٌ أن النبي ﷺ قال: «**هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم**» فالأعمال فاسدة، والضعفاء مهملون، والصبر قليل، والاعتماد ضعيف، والتقوى زائلة.

قال الله تعالى: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]، فهذه أسباب النصر وشروطه، وهي معدومة عندنا غير موجودة فينَا، فَإِنَا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا، بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه، لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد، حتى استولى العدو شرقاً وغرباً براً وبحراً، وعمّت الفتن، وعظمت المحن، ولا عاصم إلا من رحم[(١)].

وقال الرازي: أما قوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾.

المراد منه: تقوية قلوب الذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ والمعنى: أنه لا عبرة بكثرة العدد، إنما العبرة بالتأييد الإلهي، والنصر السماوي، فإذا جاءت الدولة فلا مضرة في القلة والذلة، وإذا جاءت المحنة فلا منفعة في كثرة العدد والعدة[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠]:

قال ابن كثير: طلبوا من الله أن يفرغ عليهم الصبر؛ أي: يغمرهم به من

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/١٠٦٣).
(٢) «التفسير الكبير» (٦/١٥٧).

فوقهم فتستقر قلوبهم ولا تقلق، وأن يثبت أقدامهم في مجال الحرب ومعترك الأبطال وحومة الوغى والدعاء إلى النزال فسألوا التثبيت الظاهر والباطن، وأن ينزل عليهم النصر على أعدائهم وأعدائه من الكافرين الجاحدين بآياته وآلائه، فأجابهم العظيم القدير السميع البصير الحكيم الخبير إلى ما سألوا، وأنالهم ما إليه فيه رغبوا(١).

وقال الرازي مَا ملخصه: فيه مسائل:

المسألة الأولى: المبارزة في الحرب، هي: أن يبرز كل واحدٍ منهم لصاحبه وقت القتال.

المسألة الثانية: أن العلماء والأقوياء من عسكر طالوت لما قرروا مع العوام والضعفاء أنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وأوضحوا أن الفتح والنصرة لا يحصلان إلا بإعانة الله، لا جرم لما برز عسكر طالوت إلى عسكر جالوت، وأروا القلة في جانبهم والكثرة من جانب عدوهم لا جرم اشتغلوا بالدعاء والتضرع فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ ونظيره ما حكى الله عن قوم آخرين أنهم قالوا حين الالتقاء مع المشركين: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾ [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧] وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ في كل المواطن، وروي عنه في قصة بدر أنه ﷺ لم يزل يصلي ويستنجز من الله وعده، وكان متى لقي عدواً قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن شُرُورِهِمْ وَأَجْعَلُكَ فِي نُحُورِهِمْ**»(٢)، وكان يقول: «**اللَّهُمَّ بِكَ أَصُولُ وَبِكَ أَجُولُ**»(٣).

(١) «قصص الأنبياء» (٤٨٢).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٣) «الصلاة»، وأحمد (٤/ ٤١٤، ٤١٥)، والبيهقي في «السنن» (٥/ ٢٥٣)، والحاكم (٢/ ١٤٢)، «قسم الفيء»، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. وأكبر ظني أنهما لم يخرجاه ووافقه الذهبي وابن حبان (١١/ ٨٣) رقم (٤٧٦٥). وقال المحقق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٥٠) عن ابن عباس، وقال الهيثمي: فيه عثمان بن سعد المكتب، وثقه أبو نعيم وأبو حاتم وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات وضعفه محقق «المعجم الكبير».

المسألة الثالثة: الإفراغ: الصَّب، والإفراغ: إخلاء الإناء مما فيه وإنما يخلو بصب كل ما فيه.

وإذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يدل على المبالغة في طلب الصبر من وجهين:

أحدهما: أنه إذا صب الشيء في الشيء فقد أثبت فيه بحيث لا يزول عنه، وهذا يدل على التأكيد.

والثاني: أن إفراغ الإناء هو إخلاؤه، وذلك يكون بصب كل ما فيه.

المسألة الرابعة: اعلم أن الأمور المطلوبة عند المحاربة مجموع أمور ثلاثة: فأولها: أن يكون الإنسان صبوراً على مشاهدة المخاوف والأمور الهائلة، وهذا هو الركن الأعلى للمحارب، فإنه إذا كان جباناً لا يحصل منه مقصود أصلاً.

وثانيها: أن يكون قد وجد من الآلات والأدوات والاتفاقات الحسنة مما يمكنه أن يقف ويثبت ولا يصير ملجأ إلى الفرار.

وثالثها: أن تزداد قوته على قوة عدوه حتى يمكنه أن يقهر العدو.

إذا عرفت هذا فنقول: المرتبة الأولى هي المراد من قوله: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾.

والثانية: هي المراد بقوله: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾.

والثالثة: هي المراد بقوله: ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١]:

قال القاسمي: ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي: هؤلاء القليلون. أولئك الكثيرين ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بنصره، إذ شجع القليلين وجَبَّنَ الكثيرين ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ﴾ وكان في جيش طالوت ﴿جَالُوتَ﴾ الذي هو رأس الأقوياء ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي:

(١) باختصار من «التفسير الكبير» (٦/١٥٧، ١٥٨).

أعطى الله داود ملك بني إسرائيل ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: الفهم والنبوة ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ من صنعة الدروع وغيرها، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم﴾ من أهل الشر ﴿بِبَعْضٍ﴾ من أهل الخير ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: بغلبة الكفار وظهور الشرك والمعاصي كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا . . .﴾ الآية [الحج: ٤٠].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: منَّ عليهم بالدفع، ولذلك قوى سبحانه هؤلاء الضعفاء وأعطى بعضهم الملك والحكمة ومن سائر العلوم ليدفع فساد الأقوياء بالسيف[(١)].

وقال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾.

فيه دلالة على شجاعة داود ﷺ وأنه قتله قتلاً أذل به جنده وكسر جيشه، ولا أعظم من غزوة يقتل فيها ملك عدوه، فيغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة، ويأسر الأبطال والشجعان والأقران، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان، ويدال لأولياء الله على أعدائه، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه[(٢)].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢٥٢]:

قال القاسمي رحمه الله: ﴿تِلْكَ﴾ أي: المذكورات من إماتة الألوف وإحيائهم، وتمليك طالوت، وإتيان التابوت، وانهزام جالوت، وقتل داود إياه وتملكه ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إذ هي أخبار غيوب تدل على كمال قدرته سبحانه وحكمته ولطفه ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ أي: ننزل عليك جبريل بها ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: اليقين الذي لا يرتاب فيه ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بما دلت عليه هذه الآيات من علمك بها من غير معلم من البشر، ثم بإعجازها الباقي على مدى الدهر، وفي هذه القصص معتبر لهذه الأمة في احتمال الشدائد في الجهاد كما احتملها المؤمنون في الأمم المتقدمة، كما أن فيها تسلية للرسول ﷺ من

(١) «محاسن التأويل» (٣/٢٠٩).
(٢) «قصص الأنبياء» (٤٨٢).

الكفار والمنافقين، فكأنه قيل: قد عرفت بهذه الآيات ما جرى على الأنبياء ﷺ في بني إسرائيل من الخلاف عليهم والرد لقولهم، فلا يعظمن عليك كفر من كفر بك، وخلاف من خالف عليك؛ لأنك مثلهم، وإنما بعث الكل لتأدية الرسالة ولامتثال الأمر على سبيل الاختيار والتطوع لا على سبيل الإكراه، فلا عتب عليك في خلافهم وكفرهم، والوبال في ذلك يرجع عليهم، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كالتنبيه على ذلك أشار له الرازي(١).

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ **الفوائد والآثار الإيمانية:**

{١} **قال العلامة محمد رشيد رضا** ما ملخصه: أذكر ما يظهر لي من السنن والأحكام الاجتماعية في آيات هذه القصة:

السُّنة الأولى: أن الأمم إذا اعتدي على استقلالها وأوقع الأعداء بها فهضموا حقوقها تنتبه مشاعرها لدفع الضيم، وتفكر في سبيله، فتعلم أنها الوحدة التي يمثلها الزعيم العادل، والقائد الباسل، فتتوجه إلى طلبه حتى تجده.

الثانية: أن شعور الأمة بوجوب حفظ حقوقها إنما يكون على حقيقته وكماله في خواصها، كما علمت من إسناد طلب الملك إلى الملأ.

الثالثة: متى عظم الشعور بوجوب حفظ الاستقلال ودفع ضيم الأعداء عنها، فإنه لا يلبث أن يسري إلى عامتها، فيظن الناقص أن عنده ما عند الكامل ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

الرابعة: أن من شأن الأمم الاختلاف في اختيار الرئيس، وقد جعل الإسلام ذلك إلى الحل والعقد، والناس تبع لهم.

الخامسة: أن الناس لا يتفقون على التقليد أو الاتباع فيما يرونه مخالفاً لمصلحتهم الاجتماعية.

السادسة: أن الأمم في طور الجهل ترى أن أحق الناس بالملك

---

(١) «محاسن التأويل» (٣/ ٢١٠).

والزعامة أصحاب الثروة الواسعة ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾.

السابعة: أن الشروط التي تعتبر في اختيار الرجل في الملك هو ما استفدناه من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ...﴾ الآية.

الثامنة: ما أفاده قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ على أن مشيئة الله تعالى إنما تنفذ بمقتضى سننه العامة في تغيير أحوال الأمم، بتغيير ما في أنفسهم، وفي سلب ملك الظالمين، وإيراث الأرض للصالحين.

التاسعة: أن طاعة الجنود للقائد في كل ما يأمر به وينهى عنه شرط الظفر واستقامة الأمر، وقوانين الجندية في هذا الزمان مبنية على طاعة الجيش لقواده في المنشط والمكره، والمعقول وغير المعقول(١).

العاشرة: أن الفئة القليلة قد تغلب بالصبر والثبات، وطاعة القواد الفئة الكثيرة التي أعوزهَا الصبر والاتحاد.

الحادية عشرة: أن الإيمان بالله والتصديق بلقائه من أعظم أسباب الصبر والثبات في مواقف الجلاء.

الثانية عشرة: أن التوجه إلى الله بالدعاء مفيد في القتال، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إذ عطفها بالفاء على آية الدعاء.

الثالثة عشرة: دفع الله الناس بعضهم ببعض من السنن العامة، وهو ما يعبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ يؤيد السنة التي يعبر عنها علماء الاجتماع بالانتخاب الطبيعي، أو بقاء الأمثل.

ومما يدل على ذلك كذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

---

(١) هذا وهم من الشيخ ـ غفر الله له ـ فإن طاعة ولي الأمر مقيدة بعدم مخالفة أمر الله ﷻ أو أمر رسوله ﷺ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأصرح دليل في ذلك قصة سرية عبد الله بن حذافة السهمي حين أمر جنوده بأن يقتحموا النار فقالوا: من النار هربنا، وقال النبي ﷺ: **«لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً»**.

فهو يفيد أن سيول الحوادث ونيران التنازع تقذف زبد الباطل الضار في الاجتماع وتدفعه وتبقي إبريز الحق النافع الذي ينمو فيه العمران، وإبريز المصلحة التي يتحلى بها الإنسان، وهناك آيات أخرى في أن الحق يزهق الباطل(١).

{٢} وقال الأستاذ سيد قطب ﷺ ما ملخصه:

العبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي: أن هذه الانتفاضة ـ انتفاضة العقيدة ـ على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلي القوم عنها فوجاً بعد فوج في مراحل الطريق، على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جداً.. فقد كان فيها النصر والعز والتمكين بعد الهزيمة المنكرة والمهانة الفاضحة والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين، ولقد جاءت لهم بملك داود ثم ملك سليمان، وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بني إسرائيل في الأرض، وهي عهدهم الذهبي الذي يتحدثون عنه، والذي لم يبلغوه من قبل في عهد النبوة الكبرى، وكان هذا النصر كله ثمرةٌ مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام، وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت.

وفي خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين:

من ذلك: أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها، فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة.

وفي ثنايا التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة المؤمنة وكلها واضح في قيادة طالوت، تبرز منها خبرته بالنفوس، وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه، ثم ـ وهذا هو الأهم ـ عدم تخاذله وقد تضائل جنوده تجربة بعد تجربة ولم يثبت معه في

(١) باختصار وتصرف من «تفسير القرآن الحكيم» (٢/ ٤٩٢ ـ ٤٩٨).

النهاية إلا تلك الفئة المختارة، فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص، ووعد الله الصادق للمؤمنين. والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة، أن القلب الذي يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته؛ لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل.

فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف وإنما حكمت حكماً آخر فقالت: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ ثم اتجهت لربها تدعوه: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين، إنما هو في يد الله وحده، وطلبت منه النصر، ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه[1].

{٣} **وقال القاسمي**: قال بعض مفسري الزيدية: ثمرة هذه الآية الكريمة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ الآية أنها دلت على أحكام:

الأول: وجوب الجهاد لأن الله تعالى إنما ذكر هذه القصة المشهورة في بني إسرائيل وما نالهم تحذيراً من سلوك طريقهم.

وأيضاً: شرائع من قبلنا تلزمنا.

الثاني: أن الأمير يحتاج إليه في أمر الجهاد لتدبير أمورهم وقد كان ﷺ إذا بعث سرية أمَّرَ عليها أميراً.

الثالث: وجوب طاعة الأمير في أمر السياسة وتدبير الحرب لأن سياق الآية يقضي بذلك، وفي الحديث عنه ﷺ **«أطيعوا الأمير ولو كان عبداً حبشياً»**[2].

---

(١) «في ظلال القرآن» باختصار (١/٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) رواه البخاري (١٣/ ١٣٠) «الأحكام».

بلفظ: **«اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشي كأن رأسه زبيبة»**.

وقد ذكر أهل علم المعاملة أنه ينبغي في الأسفار أن يجعل أهل السفر لهم أميراً[١] ودليلاً وإماماً وهذا محمود إذ بذلك ينقطع الجدال وتنتظم أمورهم. ويلزم مثل هذا في كل أمر يحتاج فيه إلى ترداد عن الآراء نحو أمور الأوقاف والمساجد والإمامة لكل مسجد ونحو هذا.

قال الحاكم: وفيه دلالة على أن للأنبياء تشديد العهود والمواثيق فيما يلزمهم ووجه ذلك أنه قال: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ وهذا نوع من التأكيد عليهم[٢].

الرابع: في هذه القصة كذلك: عزاء للصحوة الإسلامية المعاصرة، فإن الشباب المسلم في هذه الصحوة على ما فيه من نقص وعيب وزلل لم يبلغ درجة بني إسرائيل في ذلك، فبنو إسرائيل هم الذين ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] وهم الذين قالوا لموسى ﷺ: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] وهم الذين قيل لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: حُط عنا الذنوب فقالوا: حنطة، فبدلوا قولاً غير الَّذِي قيل لهم ويظهر في الآيات سوء أدبهم مع الله ﷻ ومع نبيهم، وغاية ما في شباب الصحوة إعراض البعض عن موجب الدليل إما لجهل أو تأويل، وتقديم البعض هوى النفس وطاعة الأمراء على أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ، ولا شك أن ذلك نقص في التربية، ولكن نرجو من رحمة الله ﷻ أن يُرَشِّدَ مسارهم وأن يوفق سعيهم إلى اتباع الشرع الحنيف، وتعظيم أمر الله ﷻ وأمر رسوله ﷺ، وكما كان عاقبة الصحوة في بني إسرائيل النصر والظهور، فنرجو أن يكلل الله ﷻ سعي الساعين وعمل العاملين لنصر الدين، ورفع راية رب العالمين والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

الخامسة: في هذه القصة كذلك: بيان أسباب النصر، فمن ذلك القيادة الرشيدة التي تعرف طبيعة الجنود، وتختبرهم حتى يقاتل معها العناصر الطيبة، ولا يشترط أن يكون المقاتل كامل الإيمان أو عالماً من العلماء، ولكن يكفي

(١) روى أبو داود عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم**» (٢٥٩١) «الجهاد»: القوم يسافرون يؤمرون (١)، «محاسن التأويل» (٢/ ٢٠٢، ٢٠٣) باختصار.

(٢) «محاسن التأويل» (٢/ ٢٠٢، ٢٠٣) باختصار.

وجود أصل الإيمان والانقياد والتذكير إذا ذكر، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ومن ذلك: الثقة بنصر الله ﷻ والإيمان بأن النَّصْرَ من عند الله لا بالعدد ولا بالعُدد، وذلك بعد الأخذ بالأسباب، والاعتماد بالقلوب على رب الأرباب، ومن ذلك: التضرع إلى الله ﷻ وطلب الثبات والتأييد منه تعالى، فهذه بعض أسباب النصر التي تظهر بجلاء في هذه القصة التي هي من أنفع القصص لشباب الصحوة الإسلامية.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة ابني آدم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٣ ـ قصة ابني آدم

قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٢].

□ **بين يدي القصة:**

مناسبة هذه القصة لما قبلها أن الله ﷻ يخبر محمداً ﷺ أن أعداءه يريدون النيل منه، ولا يدخلون في دينه، وذلك لأنهم حسدوا محمداً ﷺ على ما آتاه الله من فضله، من تفضيله بالرسالة، وقد قال الله تعالى فيما تقدم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ [المائدة: ١١].

وإنما فضل الله محمداً ﷺ لأنه من المتقين، واستحق اليهود والنصارى اللعنة بتمردهم وعصيانهم، فناسب هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ والله تعالى يعصم من يشاء ويهدي فضلاً ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً، والطاعات يولد بعضها بعضاً والمعاصي يولد بعضها بعضاً، فمن جزاء الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها، وفي ذلك تسلية

للنبي ﷺ وللصحابة الكرام، ومناسبة الآيات لما بعدها أن الله ﷻ قبل أن يشرع القصاص ويعظم حرمة الدماء حكى كيف بدأ الشر والفساد في الأرض، وقد قال النبي ﷺ: **«لا تقتل نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها لأنه أول من سن القتل»**(١) فهذه القصة تحكي بداية الصراع بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وكيف أن المعصية يعقبها من الندم والحسرة والمرارة ما ينبغي للعاقل أن يتجنبها، وذلك من العقوبات الدنيوية، وعقوبة الآخرة أنها تجر إلى النار وبئس القرار، وبالجملة هي حكاية المعصية والطاعة والشر والخير، ولنشرع في شرح الآيات الكريمات.

يقول الله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧]:

قال العلامة محمد رشيد رضا: ومعنى الجملة: واتل أيها الرسول على أهل الكتاب وسائر الناس النبأ العظيم ـ نبأ ابني آدم ـ تلاوة متلبسة بالحقِّ مظهرة له، بأن تذكره كما وقع مبيناً ما فيه من الحكمة، والكشف عن غريزة البشر، وهو ما جبلوا عليه من التباين والاختلاف، الذي يفضي إلى التحاسد والبغي والقتل؛ ليعلموا حكمة الله فيما شرعه في الدنيا من عقاب الباغين من الأفراد والجماعات والشعوب والقبائل، وكون هذا البغي من اليهود على رسول الله ﷺ والمؤمنين ليس من أمر دينهم، وإنما هو من حسدهم وبغيهم، فهم في هذا كابني آدم إذ حسد شرهما خيرهما، فبغى فقتله، وكانت عاقبة ذلك ما بينته هذه الآيات(٢).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد اختلف أهل العلم في ابني آدم المذكورين هل هما لصلبه أم لا؟ فذهب الجمهور إلى الأول، وذهب الحسن والضحاك إلى الثاني، وقال: إنهما كانا من بني إسرائيل، فضرب بهما المثل في إبانة

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤١٩) «أحاديث الأنبياء» (١٢/ ١٩٨) «الديات».

(٢) «تفسير القرآن الحكيم» (٦/ ٣٤١).

واستدل أصحاب هذا القول بقول الله تعالى بعد القصة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

حسد اليهود، وكانت بينهما خصومة فتقربا بقربانين، ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل.

قال ابن عطية: وهذا وهم، كيف يجهل صورة الدفن أحدٌ من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟ قال الجمهور من الصحابة فمن بعدهم: واسمهما قابيل وهابيل[(١)].

قال القاسمي: ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ وهو هابيل، ولم يتقبل من الآخر وهو قابيل ﴿قَالَ﴾ قابيل لهابيل ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ على قبول قربانك ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: إنما أتيت من قبل نفسك، لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلي، فلم تقتلني؟ وما لَكَ لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعانٍ، وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن مُتَّقٍ، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم!

وعن عامر بن عبد الله: أنه بكى حين حضرته الوفاة، فقيل له: ما يبكيك وكنت؟ قال: إني أسمع الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. كذا في «الكشاف»[(٢)].

وقال الرازي: ثم حكى الله تعالى عن قابيل أنه قال لهابيل[(٣)]: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ في الكلام حذف، والتقدير؛ كان هابيل قال: لِمَ تقتلني؟ قالَ: لأن قربانك صار مقبولاً، فقال هابيل: وما ذنبي؟ إنما يتقبل الله من المتقين. وقيل: هذا من كلام الله تعالى لنبيه محمد ﷺ اعتراضاً بين القصة كأنه تعالى بيّن لمحمد ﷺ أنه إنما لم يتقبل قربانه لأنه لم يكن متقياً[(٣)].

---

(١) «فتح القدير» (٢/ ٣٠).
(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ١٥٦).
(٣) قال العلامة أحمد شاكر رحمه الله: أما أنهما ابنا آدم لصلبه فهو القول الثبت الصحيح، الذي يدل عليه سياق الآيات مؤيداً بالسنة الصحيحة كما سيأتي، وأما تسميتهما «قابيل وهابيل» فإنما هو من نقل العلماء عن أهل الكتاب ولم يرد به القرآن، ولا جاء في سنة ثابتة فيما نعلم، فلا علينا أن لا نجزم به ولا نرجحه، وإنما هو قول قيل. «هامش عمدة التفاسير» (٤/ ١٢٣).

ثم حكى الله ﷻ عن الأخ المظلوم أنه قال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٨].

قال الرازي وفي الآية سؤالان:

السؤال الأول: وهو أنه لِمَ لَمْ يدفع القاتل عن نفسه مع أن الدفع عن النفس واجب؟ وهب أنه ليس بواجب فلا أقل من أنه ليس بحرام، فَلِمَ قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

والجواب من وجوه: الأول: يحتمل أن يقال: لاح للمقتول بأمارات تغلب على الظن أنه يريد قتله فذكر له هذا الكلام على سبيل الوعظ والنصيحة؛ يعني: أنا لا أجوز من نفسي أن أبدأك بالقتل الظلم والعدوان، وإنما لا أفعله خوفاً من الله تعالى، وإنما ذكر له هذا الكلام قبل إقدام القاتل على قتله وكان غرضه منه تقبيح القتل العمد في قلبه، ولهذا يروى أن قابيل صبر حتى نام هابيل فضرب رأسه بحجر كبير فقتله.

والوجه الثاني في الجواب: أن المذكور في الآية ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ يعني: لا أبسط يدي إليك لغرض قتلك، وإنَّمَا أبسط يدي إليك لغرض الدفع، وقال أهل العلم: الدافع عن نفسه يجب عليه أن يدفع بالأيسر فالأيسر، وليس له أن يقصد القتل، بل يجب عليه أن يقصد الدفع، ثم إن لم يندفع إلا بالقتل جاز له ذلك.

الوجه الثالث: قال بعضهم: المقصود بالقتل إن أراد أن يستسلم جاز له ذلك، وهكذا فعل عثمان ﷺ، وقال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لمحمد بن مسلمة: «**ألق كمك على وجهك وكن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل**»[(١)].

الوجه الرابع: وجوب الدفع عن النفس أمر يجوز أن يختلف باختلاف الشرائع.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١١٠)، والآجري في «الشريعة» (ص٤٢، ٤٣)؛ والطبراني في «الكبير» (١/ ١٨٨)، وقال الألباني: ورجاله ثقات غير الرجل الذي لم يسم لكن يشهد له حديث جندب بن سفيان «إرواء الغليل» (٨/ ١٠٤)، وانظر كذلك لشواهده: «تلخيص الحبير» (٤/ ٨٤) «كتاب الصيال».

وقال مجاهد: إن الدفع عن النفس ما كان مباحاً في ذلك الوقت.

السؤال الثاني: لم جاء الشرط بلفظ الفعل، والجزاء بلفظ اسم الفاعل، وهو قوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ﴾.

والجواب: ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع، ولذلك أكده بالباء المؤكد للنفي(١).

وقال ابن كثير: وقوله له لما توعده بالقتل: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ دل على خلق حسن وخوف من الله تعالى وخشية منه وتورع أن يقاتل أخاه بالسوء الذي أراد منه أخوه مثله.

ولهذا ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المائدة: ٢٩]:

قال العلامة السعدي: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ﴾ أي: ترجع ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً أو تقتلني، فإني أوثر أن تقتلني، فتبوء بالوزرين ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دل هذا على أن القتل من كبائر الذنوب وأنه موجب لدخول النار(٣).

وقال العلامة محمد رشيد رضا: أي: إني أريد بما ذكرت من اتقاء مقابلة الجناية بمثلها أن ترجع أنت إذا فعلتها متلبساً بإثمي وإثمك؛ أي: إثم قتلك إياي، وإثمك الخاص بك الذي كان من شؤمه عدم قبول قربانك وهذا

---

(١) «التفسير الكبير» (١١/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) «قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير» (٤٨).

والحديث رواه البخاري (١/ ٨٥) «الإيمان»، (١٢/ ١٩٢) «الديات»، (١٣/ ٣١، ٣٢) «الفتنة»، ومسلم (١٨/ ١٠) «الفتن».

(٣) «تيسير الكريم المنان» (٢/ ٢٧٩، ٢٨٠).

التفسير مأثور عن ابن عباس ﷺ، وفيه وجه آخر وهو أنه مبني على كون القاتل يحمل في الآخرة إثم مَنْ قتله إن كان له آثام؛ لأن الذنوب والآثام التي فيها حقوق للعباد لا يغفر الله تعالى منها شيئاً حتى يأخذ لكل ذي حقٍ حقه، وإنما القصاص في الآخرة بالحسنات والسيئات، فيعطي المظلوم من حسنات الظالم، ما يساوي حقه إن كان له حسنات توازي ذلك، وما نقص من هذا أو ذاك يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء في الجنة أو النار، وفي ذكر المتكلم إثمه وإثم أخيه تواضع وهضم لنفسه بإضافة الإثم إليها على الوجه الثاني، وتذكير للمخاطب بأنه ليس له حسنات توازي هذا الظلم الذي عزم عليه، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: تكون بما حملت من الإثمين من أهل النار في الآخرة؛ لأنك تكون ظالماً والنار جزاء كل ظالم، فتكون من أهلها حتماً.

ترقى في صرفه عن عزمه من التبرؤ إليه من سبب حرمانه من قبول قربانه ببيان سبب التقبل عند الله تعالى وهو التقوى، إلى تنزيه نفسه من جزائه على جنايته بمثلها إلى تذكيره بما يجب من خوف الله تعالى رب العالمين الذي لا يرضيه ممن وهبهم العقل والاختيار إلا أن يتحروا إقامة سننه في تربية العالم، وإبلاغ كل حي يقبل الكمال إلى كماله ـ إلى تذكيره بأن المعتدي يحمل إثم نفسه وإثم من اعتدى عليه بعد الله تعالى في القصاص والجزاء، إلى تذكيره بعذاب النار، وكونها مثوى الظالمين الفجار، فماذا كان من تأثير هذه المواعظ في نفس الحاسد الظالم؟[1].

قال الله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: ٣٠].

قال الرازي: قال المفسرون: سهلت له نفسه قتل أخيه، ومنهم من قال: شجعته، وتحقيق الكلام أن الإنسان إذا تصور من القتل العمد العدوان كونه من أعظم الكبائر فهذا الاعتقاد يصير صارفاً له عن فعله، فيكون هذا الفعل كالشيء العاصي المتمرد عليه الذي لا يطيعه بوجه البتة، فإذا أوردت النفس

---

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (المنار) (٦/ ٣٤٤، ٣٤٥).

أنواع وساوسها صار هذا الفعل سهلاً عليه، فكأن النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له بعد أن كان كالعاصي المتمرد عليه، فهذا هو المراد بقوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾(١).

وقال القاسمي: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أي: رخصت وسهلت له نفسه، والتصريح بأخوته لكمال تقبيح ما سولته نفسه؛ أي: الذي حقه أن يحفظه من كل من قصده بالسوء بالتحمل على نفسه ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ديناً إذ صار كافراً حاملاً للدماء إلى يوم القيامة، ودنيا إذ صار مطروداً مبغضاً للخلائق.

وقد أخرج الجماعة غير أبي داود ـ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل**»(٢).

وقال محمد رشيد رضا: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: من جنس الذين خسروا أنفسهم بإفساد فطرتها وخسروا أقرب الناس إليهم وأبرهم بهم في الدنيا وهو الأخ الصالح التقي، وخسروا نعيم الآخرة إذ لم يعودوا أهلاً لها؛ لأنها دار المتقين(٣).

قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٣١]:

قال العلامة السعدي: فلما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به لأنه أول ميت مات من بني آدم ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يثيرها ليدفن غراباً آخر ميتاً ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾ بذلك ﴿كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أي: بدنه؛ لأن بدن الميت يكون عورة ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسار(٤).

---

(١) «التفسير الكبير لفخر الدين الرازي» (١١/ ١٦٤).

(٢) «محاسن التأويل» (٦/ ١٦٢)، والحديث تقدم تخريجه ص(٣٣٩).

(٣) «تفسير القرآن الحكيم» (٦/ ٣٤٦).

(٤) «تيسير الكريم المنان» (٢/ ٢٨٠).

وقال محمد رشيد رضا: لما كان هذا القتل أول قتل وقع من بني آدم، ولما كان هذا النوع من الخلق «الإنسان» موكولاً إلى كسبه واختياره في عامة أعماله لم يعرف القاتل الأول كيف يواري جثة أخيه المقتول الذي يسوءه أن يراها بارزة ـ فالسوءة: ما يسوء ظهوره، ورؤية جسد الميت ولا سيما المقتول يسوء كل من ينظر إليه ويوحشه ـ وأما سائر أنواع الحيوانات فَتُلْهَم عمل ما تحتاج إليه إلهاماً في الأكثر، وقلما يتعلم بعضها من بعض شيئاً، وقد علمنا الله تعالى أن القاتل الأول تعلم دفن أخيه من الغراب، ويدلنا ذلك على أن الإنسان في نشأته الأولى كان في منتهى السذاجة، وأنه لاستعداده الذي يفضل به سائر أنواع الحيوان كان يستفيد من كل شيءٍ علماً واختباراً ويرتقي بالتدريج.

ذلك بأن الله تعالى بعث غراباً إلى المكان الذي هو فيه فبحث في الأرض؛ أي: حفر برجليه فيها يفتش عن شيءٍ، والمعهود أن الطير تفعل ذلك لطلب الطعام، والمتبادر من العبارة أن الغراب أطال البحث في الأرض، لأنه قال: ﴿يَبۡحَثُ﴾ ولم يقل: بحث، والمضارع يفيد الاستمرار، فلما أطال البحث أحدث حفرة في الأرض فلما رأى القاتل الحفرة ـ وهو متحير في أمر مواراة سوءة أخيه ـ زالت الحيرة، واهتدى إلى ما يطلب، وهو دفن أخيه في حفرة من الأرض، هذا هو المتبادر من الآية. وقال أبو مسلم: إن من عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء غراب فدفن شيئاً فتعلم منه ذلك، وهذا قريب أيضاً، ولكن جمهور المفسرين قالوا: إن الله بعث غرابين لا واحداً وأنهما اقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر بمنقاره ورجليه حفرة ألقاه فيها، وما جاء هذا إلا من الروايات التي مصدرها الإسرائيليات(١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]:

قال الألوسي ما ملخصه: ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ كلمة جزع وتحسر، والويلة كالويل: الهلكة كأن المتحسر ينادي هلاكه وموته ويطلب حضوره، بعد تنزله منزلة مَنْ ينادي ولا يكون طلب الموت إلا ممن كان في حال أشد منه.

---

(١) «تفسير القرآن الحكيم» (٦/ ٣٤٦).

﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ تعجب من عجزه عن كونه مثله لأنه لم يهتد إلى ما اهتدى إليه، مع كونه أشرف منه ﴿فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ وكان ندمه على قتله لما كابد فيه من التحير في أمره، وتلمذة الغراب، فإنها إهانة، ولذا لم يلهم من أول الأمر ما ألهم[1].

وعقب الله ﷻ هذه القصة قصة الصراع بين الخير والشر، قصة الجريمة وما يعقبها من حسرة وندم في الدنيا، وعذاب وعقاب وخسارة وسفال في الآخرة، **بقوله تعالى**: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: ٣٢].

قال الشيخ أبو بكر الجزائري: يقول تعالى: إنه من أجل قبح جريمة القتل وما يترتب عليها من مفاسد ومضار لا يقادر قدرها أوجبنا على بني إسرائيل لكثرة ما شاع بينهم من القتل وسفك الدماء، فقد قتلوا الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس لأجل هذه الضراوة على القتل فقد قتلوا رسولين زكريا ويحيى وهَمُّوا بقتل كل من الْمرسَلَين العظيمين عيسى ومحمد ـ صلى الله عليهما وسلم ـ من أجل ذلك شددنا عليهم في العقوبة إذ مَنْ قتل منهم نفساً بغير نفس؛ أي: قوداً وقصاصاً، أو قتلها بغير فساد قامت به في الأرض وهو حرب الله ورسوله والمؤمنين فكأنما قتل الناسَ جميعاً، بمعنى: يعذب عذاب قتل الناس جميعاً يوم القيامة، ومن أحياها بأن استوجبت القتل فعفا عنها وتركها لله إبقاءً عليها، فكأنما أحيا الناس جميعاً، كل هذا فعله الله تعالى تنفيراً لهم من القتل الذي أصروا عليه، وترغيباً لهم في العفو الذي جافوه وبعدوا عنه.

📖 **وقوله تعالى**: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢]:

يخبر تعالى عن حالهم مسلياً رسوله محمداً ﷺ[2].

---

(١) «روح المعاني» باختصار وتصرف (٦/ ١١٦، ١١٧).

(٢) باختصار من «أيسر التفاسير» لكلام العلي الكبير (١/ ٥٢٤، ٥٢٥).

❁ **الفوائد والآثار الإيمانية:**

{١} **روى ابن جرير عن الحسن** ـ هو البصري ـ قال: كان الرجلان اللذان في القرآن اللذان قال الله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ من بني إسرائيل ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كان القربان من بني إسرائيل، وكان آدم أول من مات.

قال العلامة أحمد شاكر: وهذا غريب جداً وفي إسناده نظر[١].

وقد رده[٢] عقيبه بما ملخصه: أن الله تعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة، والمخاطبون يعلمون أن القربان لم يكن مشروعاً إلا في بني آدم فلو كان المراد رجلين من بني إسرائيل لم يكن في قوله: ﴿ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ﴾ فائدة جديدة، ثم رده مرة أخرى (ص٢١٩، ٢٢٠) بأنه خطأ؛ لأن رسول الله ﷺ قد أخبر عن هذا القاتل الذي قتل أخاه: أنه أول من سن القتل وقد كان لا شك القتل قبل إسرائيل، فكيف قبل ذريته، فخطأ من القول أن يقال: أول من سن القتل رجل من بني إسرائيل.

ثم رده مرة ثالثة (ص٢٢٤) عند قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ الآية: بأن «الرجلين اللذين وصف الله صِفَتهما في هذه الآية لو كانا من بني إسرائيل لم يجهل القاتل دفن أخيه ومواراة سوءَة أخيه، ولكنهما كانا من ولد آدم لصلبه؛ ولم يكن القاتل منهما أخاه علم سنة الله في عباده الموتى، ولم يدر ما يصنع بأخيه المقتول».اهـ.

قال أحمد شاكر: وهذا كله كلام قوي نفيس[٣].

{٢} **وفي هذه القصة** تعظيم لحرمة الدماء وقد كانت في الشرائع السالفة عظيمة وازدادت في هذا الدين حرمة، قال النبي ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» فقيل له: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»[٤] وقال ﷺ في أعظم

---

(١) «عمدة التفاسير» (١٢٨/٤، ١٢٩). (٢) أي: ابن جرير رحمه الله.

(٣) نقلاً عن هامش «عمدة التفاسير» (١٢٩/٤).

(٤) تقدم تخريجه ص(٣٤٢).

اجتماع شهدته البشرية: **«إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم؛ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»**(١)، وقال ﷺ: **«من حمل علينا السلاح فليس مِنَّا»**(٢)، وقال ﷺ: **«سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»**(٣).

فالواجب على من يرجو الله واليوم الآخر أن لا يستبيح دم أخيه المسلم لأدنى شبهة، وأن يفر بدينه من الفتن إذا خشي أن يلوث نفسه بدمٍ حرام.

وسد النبي ﷺ الذرائع إلى هذا الذنب العظيم فنهى أن يشير المسلم إلى أخيه المسلم بالسلاح فقال ﷺ: **«لا يشيرن أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار»**(٤).

ورأى النبي ﷺ رجلاً مرّ في المسجد بِأَسْهُم قد بدا نصولها فأمره أن يأخذ بنصولها حتى لا يخدش مسلماً(٥).

والاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ودمائهم من أعظم البغي وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الشورى: ٤٢].

والبغي مصرعة يصرع أهله في الدنيا والآخرة، لذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [يونس: ٢٣] وقال النبي ﷺ: **«ما من ذنب أحرى أن يعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا من البغي، وما من حسنة أحرى أن يعجل لصاحبها الثواب من صلة الرحم»**(٦).

---

(١) رواه مسلم (٩/ ١٨٢ ـ ١٨٤) «الحج»، وأبو داود (٥/ ٣٧٥ ـ ٣٧٧) «المناسك»، وابن ماجه (٢/ ١٠٢٥) «المناسك».

(٢) رواه البخاري (١٣/ ٢٣) «الفتن».

(٣) رواه البخاري (١/ ١١٠) «الإيمان»، ومسلم (٢/ ٥٤) «الإيمان».

(٤) رواه البخاري (١٣/ ٢٦) «الفتن»، ومسلم (١٦/ ١٧٠) «البر والصلة»؛ ورواه أيضاً بلفظ: **«من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه»** (١٦/ ١٦٩)، والترمذي (٩/ ٧) «أبواب الفتن».

(٥) الحديث رواه البخاري عن جابر بن عبد الله قال: مر رجل بسهام في المسجد فقال له رسول الله ﷺ: **«أمسك بنصالها»** قال: نعم (١٣/ ٢٦) «الفتن»؛ ومسلم (٦/ ١٦٨) «البر والصلة».

(٦) رواه الترمذي (٩/ ٣١٦) أبواب: «صفة القيامة»، وابن ماجه (٤٢١١) وقال الترمذي: =

وقال ابن مسعود ﷺ: لو بغى جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكاً.

وقال بعضهم:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـبَـغْـيَ يَـصْـرَعُ أَهْـلَـهُ وأَنَّ عَـلَـى الـبَـاغِـي تَـدُورُ الـدَّوائـرُ

فنسأل الله تعالى أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يمن علينا بأسباب رحمته وموجبات مغفرته إنه قريبٌ مجيبٌ.

{٣} في هذه القصة كذلك: بيان ثمرة التقوى، وكيف أنها سبب لقبول الأعمال التي بها نجاة العبد في الدنيا والآخرة؛ فإن المعول على القبول، وشرط القبول تقوى الله ﷻ، قال بعض السلف: لو أعلم أن الله ﷻ يقبل مني سجدة بالليل وسجدة بالنهار لطرت شوقاً إلى الموتِ، إن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

{٤} من الدروس المستفادة من هذه القصة كذلك: عظم الابتداع في دين الله ﷻ، وأن من ابتدع بدعة ضلالة تحمّل وزرها ووزر من عمل بها، كما أن من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً.

قال النبي ﷺ: «**لَا تُقْتَل نفسٌ ظُلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سَنَّ القتل**»[١]، والويل لأئمة الشر والفساد والابتداع في دين رب العباد فإنهم يحملون أوزارهم وأوزار من يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون.

{٥} **في قول المؤمن من ولدي آدم** ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المائدة: ٢٨] أدب حسن للمؤمن عند الفتنة، وقد أرشد إلى ذلك رسول الله ﷺ وقد سأله سعد بن أبي وقاص قال: يا رسول الله إن دخل عَلَيَّ بيتي وبسط يده إليّ ليقتلني؟ فقال رسول الله ﷺ: «**كن كخير ابني آدم**»، وتلا هذه الآية[٢].

= هذا حديث حسن صحيح، وهو في الصحيحة رقم (٩١٧).

(١) تقدم تخريجه ص(٣٣٩).

(٢) رواه أبو داود (٤٢٣٧) «الفتن»؛ والترمذي (٩/ ٤٨، ٤٩) «الفتن»؛ وأحمد (١/ ١٨٥)، =

ويجوز للمسلم أن يدفع ما يقصد ماله أو أهله أو دمه بما يندفع به ومهما دفع بالأيسر لا ينتقل إلى ما هو أشد، وإن كان لا يندفع إلا بالقتل جاز له قتله، وهو ما يسمى في كتب الفقه بدفع الصائل، والصائل: هو المعتدي.

{٦} **في القصة كذلك**: بيان عقوبات المعاصي، وكيف أنها يولد بعضها بعضاً، فتهاون ابن آدم في حدود الله ﷻ وما اقترفه من معاصٍ كان سبباً في عدم قبول قربانه، ثم كان عدم قبول قربانه وقبول قربان أخيه سبباً في حسد أخيه والإقدام على سفك دمه، وفيها كذلك خطر الحسد والبغضاء، وقد حذرنا النبي ﷺ منهما فقال: «**دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، وهي الحالقة لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**»[1]. وقد أمرنا الله ﷻ بالاستعاذة به من شره فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ١ ـ ٥].

= وقال الترمذي: وهذا حديث حسن، وصححه الألباني في الإرواء (٨/ ١٠٤)، وصحيح الترمذي (١٧٨٥).

(١) رواه الترمذي (٩/ ٣١٤، ٣١٥) «صفة القيامة»، وقال أبو عيسى: هذا حديث قد اختلفوا في روايته عن يحيى بن أبي كثير فروى بعضهم عن يحيى بن أبي كثير عن يعيش بن الوليد عن مولى الزبير ولم يذكروا فيه عن الزبير، وقال عبد القادر الأرناؤوط: للحديث شاهد لأوله عند الترمذي من حديث أبي هريرة وأبي الدرداء ﵄، وحسنه الألباني.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة
أصحاب الكهف

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٤ ـ قصة أصحاب الكهف

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا
عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ
أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ
أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟
بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ
وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ
ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ
ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ
رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ
عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ
قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ
فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ
مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ
يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم
بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾
سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ
سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا
مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا

﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: ٩ ـ ٢٦].

□ بين يدي القصة:

هذه القصة التي سجلها الله ﷻ لنا في محكم كتابه، تتلقاها الأجيال المؤمنة التي آمنت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ويظهر فيها بجلاء ما تفعله عقيدة التوحيد في نفوس المؤمنين، من التعالي على الشهوات، والإخلاص لرب الأرض والسماوات، فهي قصة فتية في ريعَانِ الشباب وغلبة الشهوة، ومع ذلك أعرضوا عن زيف الدنيا الزائل، لما كثرت المعاصي ودبَّ الشرك، حتى انتصر له أهله بإجبار النَّاس عَلَيْهِ، كما أشار إليه قولهم: ﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ﴾ إنهم لا يعرفون عندما يعتزلون قومهم أين يذهبون، وكيف يعيشون، وأيُّ بقعة يسكنون، فإنهم لا يعرفون بلداً مُوَحِّداً يذهبون إليه، ولكن الإيمان الذي مَلأَ قلوبهم والهدى الذي أكرمهم الله به وزادهم هدى؛ يجعلهم يثقون بأن الله ﷻ سوف يجعل لهم مخرجاً ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤]، فلم يتزودوا غير تقوى الله ﷻ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [البقرة: ١٩٧] واعتزلوا الشرك والمشركين وكلهم ثقة في الله ﷻ ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ [الكهف: ١٦]، كم يمكثون في الكهف يوماً أو بعض يوم، والقضية لا تزال قائمة، وسوف يضطرون إلى الرجوع إلى قومهم مرة ثانية، إنهم لا يفكرون بالأسباب الأرضية ولكن ثقتهم وتوكلهم على رب البرية، إنهم لا يرون المخْرج، ولكنهم يؤمنون بأن الله ﷻ سوف يجعل لهم مخرجاً، كيف يكون المخرج؟ لا يعلمون كيف يكون، ولكن الله ﷻ قادرٌ على أن يجعل لهم مخرجاً، وقد وعد الله ﷻ أهل التقوى بالمخرج، ما خطر ببالهم أن الله ﷻ سوف ينقلهم من زمان إلى زمان، ومن عصر إلى عصر، من عصر انتشر فيه الشرك وانتصر له المشركون، إلى عصر أهله مسلمون ويشير إليه

قولهم: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

إنه الإيمان بالله الذي جعلهم يحسنون توكلهم على الله وثقتهم به، فرفع شأنهم وأنجاهم من الشرك والمشركين، وجعلهم قصة من قصص الإيمان تتلى على مر الأزمان، فما أحوج الشباب المسلم وسائر المسلمين إلى دراسة قصص القرآن. ولنشرع في شرح الآيات الكريمات فإنها أقوى تأثيراً وأبلغ بياناً وتعبيراً.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف: ٩]:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعني: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي: ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء، أعجب من أخبار أصحاب الكهف كما قال ابن جريج عن مجاهد ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ يقول: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك[1].

وقال الشنقيطي: أم في هذه الآية الكريمة هي المنقطعة عن التحقيق، ومعناها عند الجمهور «بل والهمزة» وعند بعض العلماء بمعنى: «بل» فقط، فعلى القول الأول فالمعنى: بل أحسبت، وعلى الثاني فالمعنى: بل حسبت.

وأظهر الأقوال في معنى الآية الكريمة: أن الله يقول لنبيه ﷺ: إن قصة أصحاب الكهف وإن استعظمها الناس وعجبوا منها فليست شيئاً عجيباً بالنسبة إلى قدرتنا وعظيم صنعنا؛ فإن خلقنا للسماوات والأرض، وجعلنا ما على الأرض زينةً لها، وجعلنا إياها بعد ذلك صعيداً جرزاً، أعظم وأعجب مما

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٧٢، ٧٣).

فعلنا بأصحاب الكهف، ومن كوننا أنمناهم هذا الزمن الطويل ثم بعثناهم، والكهف الثقب المتسع في الجبل، فإن لم يك واسعاً فهو غار.

واختلف العلماء في المراد بالرقيم في هذه الآية على أقوال كثيرة، قيل: الرقيم اسم كلبهم، وهو اعتقاد أمية بن الصلت حيث يقول:

وَلَيْسَ بِهَا إلا الرَّقِيْمُ مُجَاوِراً ... وَصَيْدُهُمْ وَالقَوْمُ فِي الكَهْفِ هُمَّدُ

وعن الضحاك أن الرقيم: بلدة بالروم، وقيل: اسم الجبل الذي فيه الكهف. وقيل: اسم للوادي الذي فيه الكهف، والأقوال فيه كثيرة، وعن ابن عباس أنه قال: لا أدري ما الرقيم؟ أكتاب أم بنيان؟.

وأظهر الأقوال عندي بحسب اللغة العربية وبعض آيات القرآن: أن الرقيم معناه: المرقوم، فهو فعيل بمعنى مفعُول، من رقمت الكتاب إذا كتبته، ومنه قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ الآية [المطففين: ٩] سواء، قلنا: إن الرقيم كتاب كان عندهم فيه شرعهم الذي تمسكوا به، أو لوح من ذهب كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقصتهم وسبب خروجهم، أو صخرة نقشت فيها أسماؤهم، والعلم عند الله تعالى.

والظاهر أن أصحاب الكهف والرقيم: طائفة واحدة أضيفت إلىٰ شيئين، أحدهما معطوف على الآخر خلافاً لمن قال: إن أصحاب الكهف طائفة، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى.

واعلم أن قصة أصحاب الكهف وأسماءهم في أي محل من الأرض كانوا كل ذلك لم يثبت فيه عن النبي ﷺ شيء زائد على ما في القرآن، وللمفسرين في ذلك أخبار كثيرة إسرائيلية أعرضنا عن ذكرها لعدم الثقة بها(١).

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [الكهف: ١٠]:

قال الرازي ما ملخصه: التقدير: اذكر إذ أوى، ومعنى ﴿أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾: صاروا إليه وجعلوه مأواهم. قال: فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ

---

(١) باختصار من أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي (٤/١٨ ـ ٢٠)، السلفيون يتحدثون.

﴿رَحۡمَةً﴾ أي: رحمة من خزائن رحمتك، وجلائل فضلك وإحسانك، وهي الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والأمن من الأعداء وقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ يدل على عظمة تلك الرحمة، وهي التي تكون لائقة بفضل الله تعالى وواسع جوده، ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا﴾ أي: أصلح، من قولك: هيأت الأمر فتهيأ ﴿مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ الرشد والرشاد نقيض الضلال، وفي تفسير اللفظ وجهان: الأول التقدير: وهيِّئ لنا أمرنا ذا رشد حتى نكون بسببه راشدين مهتدين. الثاني: اجعل أمرنا رشداً كله، كقولك رأيت منك رشداً[1]. ثم قال تعالى: ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ۝١١ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ۝١٢﴾ [الكهف: ١١، ١٢].

قال القرطبي: عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم، وهذه من فصيحات القرآن التي أقرت العرب بالعجز عن الإتيان بمثله، قال الزجاج: منعناهم عن أن يسمعوا؛ لأن النائم إذا سمع انتبه. وقال ابن عباس: ضربنا على آذانهم بالنوم؛ أي: سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها.

وأما تخصيص الآذان؛ فلأنها الجارحة التي منها عظم فساد النوم، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه، ولا يستحكم نوم إلا من تعطل السمع. ومن ذكر الأذن في النوم قوله ﷺ: «**ذَاكَ رجل بال الشيطان في أذنه**»[2] أخرجه في الصحيح؛ أشار عليه الصلاة والسلام إلى رجل طويل النوم لا يقوم الليل.

و﴿عَدَدٗا﴾ نعت للسنين؛ أي: معدودة، والقصد به العبارة عن التكثير؛ لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عرف[3].

وقال الشنقيطي: وضربه ـ جل وعلا ـ في هذه الآية كناية على كونه

(١) «التفسير الكبير» (٢١/ ٧٠).

(٢) رواه البخاري (٣/ ٣٤) «التهجد»، ومسلم (٦/ ٦٣) «صلاة المسافرين»، والنسائي (٣/ ٢٠٤) «قيام الليل»، وقال الحافظ: هو كناية عن سد الشيطان أذن الذي ينام عن الصلاة حتى لا يسمع الذكر. وقيل: معناه: أن الشيطان ملأ سمعه بالأباطيل فحجب سمعه عن الذكر، وقيل: هو كناية عن ازدراء الشيطان به.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٩٨٠) باختصار.

أنامهم، ومفعول ﴿فَضَرَبْنَا﴾ محذوف؛ أي: ضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع فلا يسمعون شيئاً يوقظهم، والمعنى: أنامهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات.

وقال أبو حيان في البحر في قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾: عبر بالضرب ليدل على قوة المباشرة واللصوق واللزوم، ومنه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [البقرة: ٦١]، وضرب الجزية، وضرب البعث.

وقال الفرزدق:

ضَرَبَتْ عَلَيْكَ العَنكَبُوتُ بِنَسْجِهَا ... وقَضَىٰ عَلَيْكَ بِهِ الكِتَابُ المُنَزَّلُ[1]

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ [الكهف: ١٢]:

قال القاسمي: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: أيقظناهم إيقاظاً يشبه بعث الموتى ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ أي: لنعلم واقعاً ما علمنا أنه سيقع. وهو أي الحزبين المختلفين في مدة لبثهم، أشد إحصاءً؛ أي: إحاطة وضبطاً لغاية مدة لبثهم فيعلموا قدر ما حفظهم الله بلا طعام ولا شراب، وأمنهم من العدو، فيتم لهم رشدهم في شكره، وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته[2].

وقال الشنقيطي: ولم يبين هنا شيئاً عن الحزبين المذكورين، وأكثر المفسرين على أن أحد الحزبين ـ هم أصحاب الكهف، والحزب الثاني ـ هم أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم، حين كان عندهم التاريخ بأمر الفتية. وقيل: هما حزبان من أهل المدينة المذكورة، كأن منهم مؤمنون وكافرون. وقيل: هما حزبان من المؤمنين في زمن أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم، قاله الفراء. وعن ابن عباس: الملوك الذين تداولوا ملك المدينة حزب، وأصحاب الكهف حزب. . . إلى غير ذلك من الأقوال.

والذي يدل عليه القرآن أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف وخير ما يفسَّر به القرآن القرآن وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا

---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٢٢) باختصار. (٢) «محاسن التأويل» (٧/ ١٠).

لَبِثْتُمْ﴾، وكأن الذين قالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول. ولقائل أن يقول: قوله عنهم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ يدل على أنهم لم يحصوا مدة لبثهم، والله تعالى أعلم.

وقد يجاب عن ذلك بأن رد العلم إلى الله لا ينافي العلم، بدليل أن الله أعلم نبيه بمدة لبثهم في قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ...﴾ الآية، ثم أمره برد العلم إليه في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ...﴾ الآية[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية، وهم الشباب، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً. ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى ابن مريم فالله أعلم. والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمباينتهم لهم، وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذي القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب، وأنه مقدم على دين النصرانية، والله أعلم[٢].

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٢٢، ٢٣).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٧٤) باختصار.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾ [الكهف: ١٤]:

قال الألوسي: قويناهم بالصبر فلم تزحزحها عواصف فراق الأوطان وترك الأهل والنعيم والإخوان، ولم يزعجها الخوف من مَلِكهم الجبار، ولم يرعها كثرة الكفار وأصل الربط: الشد المعروف، واستعماله فيما ذكر مجاز كما قال غير واحد، وفي الأساس ربطت الدابة: شددتها برباط، والمربط: الحبل[١].

وقال الشنقيطي: ويفهم من هذه الآية الكريمة: أن من كان في طاعة ربه ـ جل وعلا ـ أنه تعالى يقوي قلبه، ويثبته على تحمل الشدائد والصبر الجميل، وقد أشار تعالى إلى وقائع من هذا المعنى في مواضع أخر كقوله في أهل بدر مخاطباً نبيه ﷺ وأصحابه: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا . . .﴾ الآية [الأنفال: ١١، ١٢]، وكقوله في أم موسى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ١٠].

وأكثر المفسرين على أن قوله: ﴿إِذْ قَامُوا﴾ أي: بين يدي ملك بلادهم وهو ملك جبار يدعو إلى عبادة الأوثان يزعمون أن اسمه دقيانوس.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤]:

ذكر ـ جل وعلا ـ في هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى، قالوا: إن ربهم هو رب السماوات والأرض، وأنهم لن يدعوا من دونه إلهاً، وأنهم لو فعلوا ذلك قالوا: شططاً؛ أي: قولاً ذا شطط.

وأصل مادة الشطط: مجاوزة الحد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾

---

(١) «روح المعاني» (١٥/٢١٨).

[ص: ٢٢] وهذه الآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن من أشرك مع خالق السماوات والأرض معبوداً آخر فقد جاء بأمر شطط بعيد عن الحق والصواب، في غاية الجور والتعدي؛ لأن الذي يستحق العبادة هو الذي يبرز الخلائق من العدم إلى الوجود؛ لأن الذي لا يقدر على خلق غيره مخلوق يحتاج إلى خالق يخلقه ويرزقه ويدبر شؤونه(١).

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾ [الكهف: ١٥]:

قال القاسمي: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ﴾ عملوا أو نحتوا لهم آلهة، فيفيد أنهم عبدوها، وفي الإشارة تحقير لهم ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم﴾ أي: على عبادتهم أو إلهيتهم أو تأثيرهم ﴿بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾ أي: حجة بينة وسلطان ظاهر، فإن الدين لا يؤخذ إلا به.

قال القاشاني: دليل على فساد التقليد، وتبكيت بأن إقامة الحجة على إلهية غير الله وتأثيره ووجوده محال كما قال: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [النجم: ٢٣] أي: أسماء بلا مسميات لكونها ليست بشيء.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ أي: لا مساوي له في الظلم والكفر. إشارة إلى أنهم لا يأتون ببرهان، فهم ظالمون في حق الله، لافترائهم عليه بأن في رتبته العليا شركاء يساوونه فيها(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ [الكهف: ١٦].

قال الرازي: اعلم أن المراد أنه قال بعضهم لبعض: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ واعتزلتم الشيء الذي يعبدونه إلا الله، فإنكم لم تعتزلوا عبادة الله ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ قال الفراء: هو جواب (إذ)، كما تقول: إذ فعلت كذا فافعل كذا، ومعناه: اذهبوا إليه واجعلوه مأواكم ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي: يبسطها عليكم ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم في «رواية:

---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٢٩، ٣٠). (٢) «محاسن التأويل» (١١/ ١٣).

مَرْفِقاً» والباقون ﴿مِّرْفَقًا﴾، قال الفراء: وهما لغتان، واشتقاقهما من الارتفاق[١].

قوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٧]:

قال الزمخشري ما ملخصه: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ أي: تمايل، أصله تتزاور فخفف بإدغام التاء في الزاي أو حذفها، ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ جهة اليمين، وحقيقتها الجهة المسماة باليمين ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ تقطعهم، لا تقربهم من معنى القطيعة والصرم ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ وهم في متسعٍ من الكهف. والمعنى: أنهم في ظل نهارهم كله، لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرض لإصابة الشمس، لولا أن الله يحجبها عنهم، وقيل: في منفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء، وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما صنعه الله بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة، آية من آياته، يعني: أن ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس، ولا تصيبهم اختصاصاً لهم بالكرامة.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله، وأسلموا له وجوههم، فلطف بهم وأعانهم، وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية. والاختصاص بالآية العظيمة، وأن من سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذي أصاب الفلاح واهتدى إلى السعادة، ومن تعرض للخذلان فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان الله[٢].

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف: ١٨]:

قال ابن كثير ما ملخصه: ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على

---

(١) «التفسير الكبير» (٢١/ ٨٤).
(٢) باختصار من «الكشاف» (٢/ ٧٠٧، ٧٠٨).

آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾، وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد، كما قال الشاعر:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي   بأخرى الرزايا فهو يقظان نائم

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قال بعض السلف: يقلبون في العام مرتين قال ابن عباس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض. وقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: الوصيد: الفناء. وقال ابن عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد، والصحيح: أنه بالفناء، وهو الباب ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨﴾ [همزة: ٨] أي: مطبقة مغلقة.

قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب، وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب، كما ورد في الصحيح(١)، ولا صورة ولا جنب ولا كافر، كما ورد في الحديث(٢) الحسن. وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن وقوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة، بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم، لما ألبسوا من المهابة والذعر لئلا يدنو منهم أحدٌ، ولا تمسهم يد لامس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضي رقدتهم التي شاء تبارك وتعالى

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٤٠٥) اللباس.

(٢) رواه أبو داود (٢٢٤) «الطهارة»، وليس فيه: «ولا كافر»، النسائي (١/ ١٤١) الطهارة، قال الأرناؤوط: وفيه نجى الحضرمي لم يوثقه غير ابن حبان وضعفه الألباني. وقال الحافظ: يحتمل كما قال الخطابي أن المراد بالجنب من يتهاون بالاغتسال ويتخذ تركه عادة لا من يؤخره ليفعله قال: ويقويه أن المراد بالكلب غير ما أذن في اتخاذه، وبالصورة ما فيه روح، وقال النووي: وفي الكلب نظر ويحتمل أن يكون المراد بالجنب في حديث علي: من لم يرتفع حدثه كله ولا بعضه وإذا توضأ ارتفع بعض حدثه على الصحيح. «عون المعبود» (١/ ٣٧٨).

فيهم، لما له في ذلك من الحكمة، والحجة البالغة، والرحمة الواسعة[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الكهف: ١٩]:

قال الشوكاني ما ملخصه: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ الإشارة إلى المذكورة قبله؛ أي: وكما فعلنا بهم ما فعلنا من الكرامات بعثناهم من نومهم، وفيه تذكير لقدرته على الإماتة والبعث جميعاً، ثم ذكر الأمر الذي لأجله بعثهم فقال: ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليقع التساؤل بينم والاختلاف والتنازع في مدة اللبث، لما يترتب على ذلك من انكشاف الحال، وظهور القدرة الباهرة، والاقتصار على علة التساؤل لا ينفي غيرها، وإنما أفرده لاستتباعه لسائر الآثار، وجملة ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ مبينة لما قبلها من التساؤل؛ أي: كم مدة لبثكم في النوم؟ قالوا ذلك لأنهم رأوا في أنفسهم غير ما يعهدونه في العادة ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قال المفسرون: إنهم دخلوا الكهف غدوة، وبعثهم الله سبحانه آخر النهار، فلذلك قالوا: يوماً، فلما رأوا الشمس قالوا: أو بعض يوم، وكان قد بقيت بقية من النهار ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أي: قال البعض الآخر هذا القول إما على طريق الاستدلال، أو كان ذلك إلهاماً لهم من الله سبحانه؛ أي: أنكم لا تعلمون مدة لبثكم، وإنما يعلمها الله سبحانه ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أعرضوا عن التحاور في مدة اللبث، وأخذوا في شيء آخر. والوَرِق الفضة مضروبة أو غير مضروبة ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: ينظر أي أهلها أطيب طعاماً وأحل مكسباً أو أرخص أسعاراً ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: يدقق النظر حتى لا يُعْرَف، أو لا يغبن، والأول أولى ويؤيده ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ثم عللوا ذلك بقولهم[(٢)]: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف: ٢٠].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٧٦) باختصار.

(٢) «فتح القدير» باختصار (٣/ ٢٧٥، ٢٧٦).

قال الرازي: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يطلعوا ويشرفوا على مكانكم، أو على أنفسكم، من قولهم: ظهرت على فلان: إذا علوته، وظهرت على السطح: إذا صرت فوقه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] أي: عالين. وكذلك قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] أي: ليعليه. وقوله: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم، والرجم بمعنى: القتل كثير في التنزيل، كقوله: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ [هود: ٩١]، وقوله: ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠] وأصله الرمي، قال الزجاج: أي: يقتلوكم بالرجم، والرجم أخبث أنواع القتل، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي: يردوكم إلى دينهم ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ أي: إذا رجعتم إلى دينهم لن تسعدوا في الدنيا ولا في الآخرة، قال الزجاج قوله: ﴿إِذًا أَبَدًا﴾ يدل على الشرط؛ أي: ولن تفلحوا إن رجعتم إلى ملتهم أبداً.

قال القاضي: ما على المؤمن الفار بدينه أعظم من هذين، فأحدهما فيه هلاك النفس وهو الرجم الذي هو أخبث أنواع القتل، والآخر هلاك الدين بأن يردوا إلى الكفر(١).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١]:

قال الزمخشري: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وكما أنمناهم وبعثناهم لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم، ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وهو البعث لأن حالهم في نومهم وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث، و﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ متعلق بـ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أي: أعثرناهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمر دينهم، ويختلفون في حقيقة البعث، فكان بعضهم يقول: تبعث الأرواح دون الأجساد، وبعضهم يقول: تبعث الأجساد مع الأرواح ليرتفع الخلاف، وليتبين أن الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها، كما كانت قبل الموت(٢).

---

(١) «التفسير الكبير» (٢١/ ٨٨).
(٢) «الكشاف» (٢/ ٧١١).

وقال ابن كثير: ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أي: سدوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين؛ أحدهما: أنهم المسلمون منهم، والثاني: أهل الشرك منهم، فالله أعلم، والظاهر. أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**» يحذر ما فعلوا[(١)]. وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده فيها شيءٌ من الملاحم وغيرها[(٢)].

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف: ٢٢]:

قال ابن كثير ﵀: يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف فحكى ثلاثة أقوال فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضعف القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي: قول بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد.

ثم حكى الثالث وسكت عليه وأقره بقوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فدل على صحته وأنه هو الواقع في نفس الأمر، وقوله: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وقفنا.

وقوله تعالى: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: من الناس. قال قتادة، قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله ﷻ كانوا سبعة. وعن عكرمة عن

---

(١) رواه البخاري (١/ ٥٣٢) «الصلاة»، ومسلم (٥/ ١٢/ ١٣) «المساجد»، وقوله: يحذر ما فعلوا؛ مدرج في الخبر من قول عائشة ﵂.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٧٨)، وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد بحث في مسألة إقامة المساجد على القبور.

ابن عباس: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه.

قوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: سهلاً هيناً، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي: فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب؛ أي: من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية فيه الحاكم على ما تقدمه من الكتب والأقوال(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]:

قال ابن جرير: وهذا تأديب من الله ﷻ لنبيه ﷺ، عهد إليه أن لا يجزم على ما يحدث من الأمور أنه كائن لا محالة إلا أن يصله بمشيئة الله؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله، وإنما قيل له ذلك فيما بلغنا من أجل أنه وعد سائليه عن المسائل الثلاث اللواتي قد ذكرناها فيما مضى، اللواتي إحداهن المسألة عن أمر الفتية من أصحاب الكهف أن يجيبهم عنهن غدا يومهم ولم يستثن، فاحتبس الوحي عنه فيما قيل من أجل ذلك خمس عشرة، حتى حزنه إبطاؤه، ثم أنزل الله عليه الجواب عنهنَّ، وعرف نبيه سبب احتباس الوحي عنه، وعلمه ما الذي ينبغي أن يستعمل في غداته(٢).

وقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾:

قال الرازي: قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ غير مختص بوقت معين، بل هو يتناول كل الأوقات فوجب أن يجب عليه هذا الذكر في أي وقت حصل هذا التذكر، وكل من قال: وجب هذا الذكر قال: إنه إنما وجب لدفع الحنث، وذلك يفيد المطلوب، واعلم أن استدلال ابن عباس ﵄ ظاهر في أن الاستثناء يجب أن يكون متصلاً، أما الفقهاء فقالوا: إنا لو جوزنا ذلك لزم أن لا يستقر شيءٌ من

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٧٨) باختصار.

(٢) «جامع البيان» (٨/ ١٥/ ١٥١).

العقود والأيمان[١] يحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ خالف ابن عباس في الاستثناء المنفصل، فاستحضره لينكر عليه فقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا يرجع عليك فإنك تأخذ البيعة بالأيمان أتفرض أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك؟ فاستحسن المنصور كلامه ورضي به. واعلم أن حاصل هذا الكلام يرجع إلى تخصيص النص بالقياس، وفيه ما فيه، وأيضاً فلو قال: إن شاء الله على سبيل الخفية بلسانه بحيث لا يسمعه أحدٌ فهو معتبر ودافع للحنث بالإجماع، مع أن المحظور الذي ذكرتم حاصل فيه، فثبت أن الذي عولوا عليه ليس بقوي، والأولى أن يحتجوا في وجوب كون الاستثناء متصلاً بأن الآيات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد والعهد، قال تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]، وقال: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ﴾ [الإسراء: ٣٤] فالآتي بالعهد يجب عليه الوفاء بمقتضاه لأجل هذه الآيات[٢].

وقال ابن كثير: وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي: إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك[٣].

وقال ابن جرير: وإذا نسي الإنسان أن يقول: إن شاء الله. قال: فتوبته من ذلك أو كفارة ذلك أن يقول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[٤].

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: ٢٥، ٢٦]:

قال الألوسي: ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ﴾ أحياء مضروباً على آذانهم ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ

---

(١) قال الشنقيطي: والتحقيق الذي لا شك فيه أن الاستثناء لا يصح إلا مقروناً بالمستثنى منه: وأن الاستثناء المتأخر لا أثر له ولا تحل به اليمين، ولو كان الاستثناء المتأخر يصح لما علم في الدنيا أنه تقرر عقد ولا يمين ولا غير ذلك لاحتمال طرو الاستثناء بعد ذلك وهذا في غاية البطلان كما ترى. ونقل رَحِمَهُ اللَّهُ مذهب ابن عباس صحيحاً في الاستثناء ما قال الله تعالى لأيوب: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤] بل يقول: استثن بـ:إن شاء الله. «أضواء البيان» (٤/ ٧٩) باختصار.

(٢) «التفسير الكبير» (٢١/ ٩٤) باختصار. (٣) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٧٨).

(٤) «جامع البيان» (٨/ ١٥/ ١٥٢).

سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ وهي: جملة مستأنفة مبينة كما قال مجاهد لما أجمل في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ واختار ذلك غير واحد، قال في الكشف: فعلى هذا قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ تقرير لكون المدة المضرب فيها على آذانهم هي هذه المدة كأنه قيل: قل الله أعلم بما لبثوا، وقد أعلم فهو الحق الصحيح الذي لا يحوم حوله شك، قط، وفائدة تأخير البيان التنبيه على أنهم تنازعوا في ذلك، أيضاً لذكره عقيب اختلافهم في عدة أشخاصهم، وليكون التذييل بقول: الله أعلم محاكياً للتذييل بقوله سبحانه: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ وللدلالة على أنه من الغيب الذي أخبر به ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليكون معجزاً له. ولو قيل: فضربنا على آذانهم سنين عدداً، وأوتي به مبيناً أولاً لم يكن فيه هذه الدلالة، فهذه عدة فوائد، والأصل الأخيرة. انتهى[1].

وقال القاسمي: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ أي: بمقدار لبثهم، فلا تقفوا ما ليس لكم به علم، وما هو غيب يرد إليه سبحانه، كما قال: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما غاب فيهما وخفي من أحوال أهلها؛ أي: أنه هو وحده العالم به ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أي: ما أبصره لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه شيء، ولا يحجب بصره وسمعه شيء[2].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال القرطبي** في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: ١٠]:

هذه الآية صريحة في الفرار بالدين، وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان، والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة.

وقد خرج النبي ﷺ فاراً بدينه، وكذلك أصحابه، وهجروا أوطانهم،

---

(١) «روح المعاني» (١٥/ ٢٥١، ٢٥٢). (٢) «محاسن التأويل» (٧/ ٣٢).

وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم رجاء السلامة بالدين؛ والنجاة من فتنة الكافرين.

وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك إن كنت بين أظهرهم.

وقال ابن المبارك في تفسير العُزلة: أن تكون مع القوم إذا خاضوا في ذكر الله فخض معهم، وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت.

وقد اعتزل رجالٌ من أهل بدر، فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم.

وذكر ابن المبارك قال: حدثنا وهيب بن الورد قال: جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال: إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا، وقد حدثتني نفسي ألا أخالطهم فقال: لا تفعل! إنه لا بد لك من الناس، ولا بد لهم منك، ولك إليهم حوائج، ولهم إليك حوائج، ولكن كن فيهم أصمَّ سَمِيْعاً، أعمى بَصِيراً، سكوتاً نطوقاً[1]. اهـ.

ولا شك أن الناس يختلفون في مشروعية الاعتزال فمن كان قوي الإيمان يؤثر في غيره دون أن يتأثر بهم كثير تأثير، فالمستحب في حقه أن يخالط الناس، وأن يؤثر فيهم بالخير ما استطاع.

ومن كان ضعيف الإيمان، ولا يؤثر فيهم، ويخشى عليه الفتنة بهم وضياع دينه وإيمانه، فالمستحب في حقه اعتزالهم.

أما اعتزال أهل الشر والفساد إذا عصوا الله ﷻ أو خاضوا فيما يغضب الله، فواجب على كل مسلم يرجو الله واليوم الآخر.

وإذا كان الناس يطيعون ويعصون، فعلى المسلم أن يخالطهم في الطاعة، كصلاة الجماعة، والجمعة، ودروس العلم، وتشييع الجنائز، وعيادة المرضى، وأن يعتزلهم إذا عصوا الله ﷻ وكذلك في المكروهات، وفضول المباحات، والله أعلم.

---

(١) باختصار من «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٣٩٧٧ ـ ٣٩٧٩).

{٢} اختلف العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ فزعم بعض المفسرين أنه لم يكن كلباً حقيقياً، وهذا خلاف ظاهر القرآن، وأشار الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن قوله: ﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ قرينة على أنه كلب حقيقي.

وقال **القرطبي** في مشروعية اقتناء الكلب:

ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان**»[١].

وروي في الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اتخذ كلباً إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط**»[٢].
قال الزهري: وذكر لابن عمر قول أبي هريرة فقال: يرحم الله أبا هريرة كان صاحب زرع[٣]. فقد دلت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية، وجعل النقص في أجر من اقتناها على غير ذلك من المنفعة، إما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه، أو لمنع دخول الملائكة البيت، أو لنجاسته على ما يراه الشافعي، أو لاقتحام النهي عن اتخاذ ما لا منفعة فيه والله أعلم، وقال في إحدى الروايتين: «**قيراطان**» وفي الأخرى: «**قيراط**» وذلك يحتمل أن يكون في نوعين من الكلاب إحداهما أشد أذى من الآخر، كالأسود الذي أمر ﷺ بقتله. وقال: «**عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين فإنه شيطان**»[٤]، ويحتمل أن يكون ذلك لاختلاف المواضع فيكون ممسكه بالمدينة مثلاً أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط.

وكلب الماشية المباح اتخاذه عند مالك هو الذي يسرح معها لا الذي يحفظها في الدار من السراق وكلب الزرع هو الذي يحفظها من الوحوش بالليل أو

(١) رواه البخاري (٩/ ٥٢٣) «الصيد»، ومسلم (١٠/ ٢٣٨) «المساقاة»، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٦٩) «الاستئذان»، والنسائي (٧/ ١٨٧) «الصيد».
(٢) رواه البخاري (٥/ ٨) «الحرث والمزارعة»، ومسلم (١٠/ ٢٤٠) «المساقاة»، والنسائي (٧/ ١٨٩) «الصيد»، وأبو داود (٢٨٢٧) «الصيد».
(٣) وقوله: «فذكر لابن عمر...» في رواية مسلم.
(٤) رواه مسلم (١٠/ ٢٣٧) «المساقاة»، وأبو داود (٢٨٢٩) «الصيد».

بالنهار لا من السراق، وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسرّاق الماشية والزرع[١].

{٣} **وقال القرطبي أيضاً**: قال ابن عطية: وحدثني أبي ﷺ قال: سمعت أبا الفضل الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إن من أحبَّ أهلَ الخير نال من بركتهم، كلبٌ أحب أهل فضلٍ وصَحِبَهمْ فذكره الله في محكم تنزيله[٢].

{٤} **قال الشنقيطي** في قوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩].

في قوله: ﴿أَزْكَىٰ﴾ قولان للعلماء:

أحدهما: أن المراد بكونه ﴿أَزْكَىٰ﴾ أطيب لكونه حلالاً، ليس مما فيه حرام ولا شبهة.

والثاني: أن المراد بكونه أزكى أنه أكثر، كقولهم: زَكَا الزَّرْعُ إذا كثر، وكقول الشاعر:

قَبَائِلُنَا سَبْعٌ وَأَنتُمْ ثَلاثَةٌ وَلَلْسَّبع أزْكى مِن ثَلاثٍ وَأطْيَبُ

والقول الأول هو الذي يدل له القرآن؛ لأن أكل الحلال والعمل الصالح أمر الله به المؤمنين، كما أمر المرسلين قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا . . .﴾ الآية [المؤمنون: ٥١] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢] ويكثر في القرآن إطلاق مادة الزكاة على الطهارة كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى: ١٤]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس: ٩]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: ٨١]، وقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ . . .﴾ الآية [الكهف: ٧٤]. . إلى غير ذلك من الآيات.

فالزكاة في هذه الآيات ونحوها: يراد الطهارة من أدناس الذنوب والمعاصي.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» باختصار (٥/ ٣٩٨٧، ٣٩٨٨).

(٢) السابق (٥/ ٣٩٨٨).

فاللائق بحال هؤلاء الفتية الأخيار المتقين أن يكون مطلبهم في مأكلهم الحِلِّية والطهارة لا الكثرة. وقد قال بعض العلماء: إن عهدهم بالمدينة فيها مؤمنون يخفون إيمانهم وكافرون، وأنهم يريدون الشراء من طعام المؤمنين دون الكافرين وأن ذلك هو مرادهم بالزكاة في قوله: ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ وقيل: كان فِيها أهل كتاب ومجوس، والعلم عند الله تعالى[1].

{٥} **وقال** رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن العذر بالإكراه من خصائص هذه الأمة؛ لأن قوله في أصحاب الكهف: ﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ ظاهر في إكراههم على ذلك، وعدم طواعيتهم، ومع هذا قال عنهم: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ فدل ذلك على أن ذلك الإكراه ليس بعذر، ويشهد لهذا المعنى حديث طارق بن شهاب في الذي دخل النار في ذباب قَرَّبه مع الإكراه بالخوف من القتل؛ لأن صاحبه الذي امتنع أن يقرب ولو ذباباً قتلوه[2].

ويشهد له أيضاً دليل الخطاب؛ أي: مفهوم المخالفة في قوله ﷺ: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه**»[3].

فإنه يفهم من قوله: «**تجاوز لي عن أمتي**» أن غير أمته من الأمم لم يتجاوز لهم عن ذلك.

أما هذه الأمة فقد صرح الله تعالى بعذرهم بالإكراه في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، والعلم عند الله تعالى[4].

{٦} شاع استدلال بعض من بَخُسَ حظه في العلم والهداية بقوله

---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٤٤، ٤٥).

(٢) حديث طارق بن شهاب رواه أحمد في الزهد (١٥، ١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٣) موقوفاً على سلمان بسند صحيح ولا يصح مرفوعاً.

(٣) رواه ابن ماجه (٢٠٤٣) «الطلاق»، والحاكم (٢/ ١٩٨) «الطلاق»، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الإرواء رقم (٨٢)، وحسنه النووي في الأربعين.

(٤) «أضواء البيان» (٤/ ٧٣، ٧٤).

تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١] على جواز بناء المساجد على قبور الصالحين، وهذا من الجهل بمكان، فإنها حكاية عن مقالة أهل الجاه والسلطان، والغالب عليهم الجهل، وهم يريدون أن يخلدوا ذكرى هؤلاء الفتية الذين ثبتت لهم هذه الكرامة، فقولهم هذا ليس حجة شرعية يجب المصير إليها بتسليم أن شرع مَنْ قبلنا شرع لنا، وهي محل خلاف، مع أن الحكم صريح، والخبر صحيح في شرعنا بحرمة هذا الفعل، ولعن فاعله، وهي أشد صيغ التحريم، قال النبي ﷺ: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[(١)]، ولما أخبر ﷺ عن كنيسة الحبشة وما فيها من التصاوير قال: «**أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح بنو على قبره ثم صوروا تلك الصور أولئك هم شرار الخلق عند الله يوم القيامة**»[(٢)]، ولو لم يرد في ذلك أخبار صحيحة صريحة لكان القول بالحرمة كذلك هو المتعين؛ لأن ذلك من أعظم ذرائع الشرك، فكم من دعاء وذبح ونذر وتوكل وخوف ورجاء وغير ذلك من العبادات تصرف لغير الله ﷻ، والله تعالى يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن: ١٨].

ورد العلامة الألباني هذه الشبهة في كتابه البديع: «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» من ثلاثة وجوه:

الأول: أن الصحيح المتقرر في علم الأصول أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا لأدلة كثيرة منها: قوله ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ قبلي** ـ فذكرها وآخرها: ـ **وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة**».

فإذا تبين هذا فلسنا ملزمين بالأخذ بما في الآية لو كانت تدل على أن جواز بناء المسجد على القبر، كان شريعة لمن قبلنا.

الثاني: هب أن الصواب قول مَنْ قال: «شريعة من قبلنا شريعة لنا» فذلك مشروط عندهم بما إذا لم يرد في شرعنا ما يخالفه، وهذا الشرط معدوم

(١) تقدم تخريجه (ص٣٦٥).

(٢) رواه البخاري (١/ ٦٢٤) «الصلاة»، ومسلم (٥/ ١١) «المساجد»، والنسائي (٢/ ٤١، ٤٢) «المساجد».

هنا؛ لأن الأحاديث تواترت في النهي عن البناء المذكور، كما سبق، فذلك دليل على أن ما في الآية ليس شريعة لنا.

الثالث: لا نسلم أن الآية تفيد أن ذلك كان شريعة لمن قبلنا، غاية ما فيها أن جماعة من الناس قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فليس فيها التصريح بأنهم كانوا مؤمنين، وعلى التسليم فليس فيها أنهم كانوا مؤمنين صالحين متمسكين بشريعة نبي مرسل، بل الظاهر خلاف ذلك، قال الحافظ ابن رجب في «فتح الباري في شرح البخاري» (٦٥/ ٢٨٠) من «الكواب الدراري» في شرح حديث: «**لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[١].

وقد دل القرآن على مثل ما دل عليه هذا الحديث، وهو قول الله ﷻ في قصة أصحاب الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فجعل اتخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور، وذلك يشعر بأن مستنده القهر والغلبة واتباع الهوى، وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل المنتصر لما أنزل الله على رسله من الهدى[٢].

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» باختصار (٤٨ ـ ٥٠) ط. جمعية إحياء التراث الإسلامي.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة
صاحب الجنتين

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٥ ـ قصة صاحب الجنتين

قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٤٤].

□ بين يدي القصة:

هذه القصة الثانية في هذه السورة المباركة سورة الكهف، الحافلة بالقصص القرآني الزاخر بالعبر والعظات والحكم والآيات، وهي قصة واقعة حقيقية خلافاً لمن زعم من المفسرين من أنها مَثَل ضربه الله ﷻ لورودها بصفة المثل في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ ...﴾ ولكنها والله أعلم لقوة دلالتها على ما سيقت من أجله استحقت اسم المثل، كما قال الله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

فلما كان شأنهم غريباً، ودلالة ما حدث لهم من تأخير النصر وما

أصابهم من البأساء والضراء عبر الله تعالى عن خبرهم بالمثل فقال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾.

وسبق هذه القصة من الآيات التي تعظم شأن الإيمان، وترغب في صحبة المؤمنين، وتزهد في أهل الدنيا الذين اغتروا بزينتها، وفتنوا بزخارفها، فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

ثم بيّن الله ﷻ عاقبة الكفر وعاقبة الإيمان، ثم قَصَّ القِصةَ التي نحن بصددها، وكيف أن أهل الدنيا الذين يغترون بزينتها ولا يؤمنون بالآخرة عرضة لخسارة الدنيا والآخرة، وأنهم يعاقبون بالحسرة والندم والحرمان في الدنيا، ثم ينقلبون بعد ذلك إلى عذاب الآخرة وهو أشد وأبقى.

ثم عقب الله ﷻ هذه القصة بضرب المثل للحياة الدنيا، وبيان أن الباقيات الصالحات خيرٌ ثواباً وخيرٌ أملاً.

فقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦]:

فتمت بذلك الموعظة، وتنوع أسلوب الخطاب، وجمع بين الترغيب والترهيب، والقصة، وضرب المثل ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

□ ولنشرع في تفسير الآيات الكريمات:

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الكهف: ٣٢، ٣٣]:

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وإحسانهم فضرب لهم ولهم مثلاً برجلين، جعل الله لأحدهما جنتين ـ أي:

بستانيْن ـ من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمرٌ مقبلٌ في غاية الجودة، ولهذا قال: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: أخرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ أي: ولم تنقص منه شيئاً ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: والأنهار متفرقة هنا وهناك[1].

وقال الشوكاني: قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ هذا المثل ضربه الله سبحانه لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسَة الفقراء، فهو على هذا متصل بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾.

وقد اختلف في الرجلين هل هما مقدران، أو محققان؟ فقال بالأول بعض المفسرين. وقال بالآخر بعض آخر، واختلفوا في تعيينهما، فقيل: هما أخوان من بني إسرائيل، وقيل: هما أخوان مخزوميان من أهل مكة، أحدهما مؤمن والآخر كافر، وقيل: هما المذكوران في سورة الصافات في قوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الصافات: ٥١][2].

وقال الرازي ما ملخصه: قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ فاعلم أن الله تعالى وصف تلك الجنة بصفات:

الصفة الأولى: كونها جنة، وسمي البستان: جنة لاستتار ما يستتر فيها بظل الأشجار، وأصل الكلمة من الستر والتغطية.

والصفة الثانية: وحففناهما بنخل؛ أي: وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥].

الصفة الثالثة: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ والمقصود منه أمور: أحدها: أن تكون الأرض جامعة للأقوات والفواكه، وثانيها: أن تكون تلك الأرض متسعة الأطراف متباعدة الأكناف، ومع ذلك فإنها لم يتوسطها ما يقطع بعضها عن بعض. وثالثها: أن مثل هذه الأرض تأتي في كل وقت بمنفعة أخرى وهي ثمرة أخرى، فكانت منفعتها دارة متواصلة.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٨٣).
(٢) «فتح القدير» (٣/ ٢٨٥).

أي: لم تنقص، والظلم: النقصان. يقول الرجل: ظلمني حقي: أي نقصني.

الصفة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي: كان النهر يجري في داخل تلك الجنتين. وقوله: ﴿خِلَٰلَهُمَا﴾ أي: وسطهما وبينهما.

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ هو جمع ثمار أو ثمرة، وذكر أهل اللغة أنه بالضم أنواع الأموال من الذهب والفضة وغيرهما وبالفتح حمل الشعر[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٤ ـ ٣٦]:

قال القاسمي: ﴿وَكَانَ لَهُۥ﴾ أي: لصاحب الجنتين ﴿ثَمَرٌ﴾ أي: أنواع من المال غير الجنتين من «ثَمَّرَ ماله»: إذا كثّره ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أي: يراجعه الكلام، تعييراً له بالفقر، وفخراً عليه بالمال والجاه ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي: أنصاراً وحشماً.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ أي: بصاحبه يطوف به فيها ويفاخره بها، كما يدل عليه السياق، ومحاورته له، وإفراد الجنة هنا مع أن له جنتين كما مر، إما لعدم تعلق الغرض بتعددها، وإما لاتصال إحداهما بالأخرى، وإما لأن الدخول يكون في واحدة فواحدة. وقيل: الإضافة تأتي لمعنى اللام فالمراد بها العموم والاستغراق؛ أي: كل ما هو جنة له يتمتع بها. فيفيد ما أفادته التثنية مع زيادة وهي الإشارة إلى أنه لا جنة له غير هذه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي: بما يوجب سلب النعمة، وهو الكفر والعجب، وفي (العناية) ظلمه لها إما بمعنى: تنقيصها وضررها لتعريض نعمته للزوال، ونفسه للهلاك، أو بمعنى: وضع الشيء في غير موضعه؛ لأن مقتضى ما شاهده التواضع المبكي، لا العجب بها وظنها أنها لا تبيد أبداً، والكفر بإنكار البعث، كما يدل عليه قوله: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي: تهلك وتفنى ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ أي: الجنة ﴿أَبَدًا﴾ لاعتقاده أبدية

---

(١) «التفسير الكبير» (٢١/١٠٦) باختصار.

الدهر، وأن لا كون سوى ما تقع عليه مشاعِرُهُ ولذا قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾[١].

قال الزمخشري: ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو معجب بما أوتي، مفتخر به، كافر لنعمة ربه، مُعَرّض بذلك نفسه لسخط الله، وهو أفحش الظلم، إخباره عن نفسه بالشك في بيدودة جنته لطول أمله، واستيلاء الحرص عليها، وتمادي غفلته، واغتراره بالمهلة، وإطراحه النظر في عواقب أمثاله، وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم، فإن ألسنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ إقسام منه على أنه إن رد إلى ربه على سبيل الفرض والتقدير، وكما يزعم صاحبه؛ ليجدن في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا، تطمعاً وتمنياً على الله، وادعاءً لكرامته عليه ومكانته عنده، وأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه واستئهاله، وأن معه الاستحقاق أينما توجه، كقوله: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[٢] [مريم: ٧٧].

وقال الشنقيطي: وما تضمنته هذه الآية الكريمة: من جهل الكفار، واغترارهم بمتاع الحياة الدنيا، وظنهم أن الآخرة كالدنيا ينعم عليهم فيها أيضاً بالمال والولد كما أنعم عليهم في الدنيا، جاء مبيناً في آيات أخر، كقوله في «فصلت»: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [٥٠]، وفي «مريم»: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [٧٧]، وقوله في «سبأ»: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [٣٥].

وقوله في هذه السورة الكريمة: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾. وبيّن ـ جل وعلا ـ كذبهم واغترارهم فيما ادعوه من أنهم يجدون نعمة الله في الآخرة كما أنعم عليهم بها في الدنيا في مواضع كثيرة كقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

---

(١) «محاسن التأويل» (١١/٤٢). (٢) «الكشاف» (٢/٧٢١، ٧٢٢).

وقــولــه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٧٨﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد: ٢].. إلى غير ذلك من الآيات[(١)].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٣٨﴾ [الكهف: ٣٧، ٣٨]:

قال محمد نسيب الرفاعي اختصاراً لكلام ابن كثير: يخبر تعالى عما وعظه به صاحبه المؤمن زاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أي: كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية لا ينكرها أحد، ويعلمها من نفسه، فإن كل أحدٍ من المخلوقات يعلم أنه كان عدماً، ولا يستند وجوده إلى شيءٍ من المخلوقات؛ لأنها مثله، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيءٍ، ولهذا قال المؤمن: ﴿لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية، ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾[(٢)].

وقال الزمخشري: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ أي: خلق أصلك؛ لأن خلق أصله سبب في خلقه، فكان خلقه خلقاً له، ﴿سَوَّاكَ﴾: عَدَّلَكَ وَكَمَّلَكَ إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال، جعله كافراً بالله جاحداً لأنعمه، لشكه في البعث كما يكون المكذب بالرسول ﷺ كافراً[(٣)].

---

(١) «أضواء البيان» (٤/ ١٠٠، ١٠١).

(٢) «تيسير العلي الكبير لاختصار تفسير ابن كثير»، اختصره وعلق عليه واختار أصح رواياته محمد نسيب الرفاعي (٣/ ٧٥)، مكتبة المعارف، الرياض.

(٣) «الكشاف» (٢/ ٧٢٢).

وقال القاسمي: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾ أي: لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية، ولا أشرك به أحداً معه من العلويات والسفليات، وقد قرأ ابن عامر ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ بإثبات الألف وصلاً ووقفاً، والباقون بحذفها وصلاً وبإثباتها وقفاً. فالوقف وفاق، وأصله «لكن أنا». وقرئ كذلك فحذفت الهمزة ثم أدغمت النون في مثلها فصار «لكن» ثم ألحق الألف إجراءً للوصل مجرى الوقف؛ لأن الوقف على «أنا» بالألف، ولأن الألف تدل على أن الأصل «لكن أنا» وبغيرها يلزم الإلباس بينه وبين «لكنَّ» المشددة.

قال الزمخشري: ونحوه قول القائل:

وَتَرْمِيْنَنِي بِالطَّرفِ أيْ أنتَ مُذْنِبٌ ... وَتَقْلِيْنَنِي لَكِنَّ إِيَّاكِ لا أَقْلِي

أي: لكن أنا لا أقليك.

ويقرب منه قول الآخر:

وَلَوْ كُنْتَ ضَبِّيّاً عَرَفْتَ قَرَابَتِي ... وَلَكِنَّ زَنْجِيٌّ عَظِيْمُ المَشَافِرِ

أي: ولكنك[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩﴾ [الكهف: ٣٩]:

قال ابن كثير: أي: هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعمَ به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف: مَنْ أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة[2].

وقال الشوكاني: أي: هَلا قُلْتَ: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، تحضيضاً له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها، وعلى الاعتراف بالعجز، وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوته وقدرته.

---

(١) «محاسن التأويل» (١١/ ٤٤). (٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٨٤).

قال الزجاج: لا يقوى أحد على ما في يده من ملكٍ ونعمة إلا بالله، ولا يكون إلا ما شاء الله، ثم لما علمه الإيمان وتفويض الأمور إلى الله سبحانه أجابه على افتخاره بالمال والنفر فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾[١].

قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف: ٤٠، ٤١]:

قال ابن جرير: يقول ـ جل ذكره ـ مخبراً عن قيل المؤمن الموقن للمعاد إلى الله للكافر المرتاب في قيام الساعة: إن ترن أيها الرجل أنا أقلَّ مِنك مالاً وولداً في الدنيا، فعسى ربي أن يرزقني خيراً من بستانك هذا، ويرسل عليها؛ يعني: على جنة الكافر التي قال لها: ما أظن أن تبيد هذه أبداً؛ حسباناً من السماء، يقول: عذاباً من السماء ترمي به رمياً، وتقذف، والحُسبان جمع حسبانة: وهي المرامي وقوله: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ يقول ـ عز ذكره ـ: فتصبح جنتك هذه أيها الرجل أرضاً ملساء لا شيء فيها، قد ذهب كل ما فيها من غرس ونبت، وعادت خراباً بلاقع زلقاً، لا يثبت في أرضها قدم، لاملساسها ودَرُوس ما كان نابتاً فيها.

وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ يقول: أو يصبح مائها غائراً، فوضع الغور وهو مصدر مكان الغائر[٢].

وقال الزمخشري: إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني لإيماني جنة ﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ ويسلبك لكفرك نعمته، ويخرب بستانك، والحسبان مصدر كالغفران والبطلان، بمعنى: الحساب؛ أي: مقداراً قدره الله وحسبه هو الحكيم بتخريبها[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف: ٤٢]:

قال الرازي: ثم أخبر الله تعالى أنه حقق ما قدره هذا المؤمن فقال:

(١) «فتح القدير» (٣/ ٢٨٧).
(٢) باختصار من «جامع البيان» (٨/ ١٥/ ١٦٣).
(٣) «الكشاف» (٢/ ٧٢٣).

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ وهو: عبارة عن إهلاكه بالكلية، وأصله من إحاطة العدو؛ لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه، ثم استعمل في كل إهلاك، ومنه قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يوسف: ٦٦].

ثم قال تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ وهو: كناية عن الندم والحسرة، فإن مَنْ عظمت حسرته يصفق إحدى يديه على الأخرى، وقد يمسح إحداهما على الأخرى، وإنما يفعل هذا ندامة على ما أنفق في الجنَّة التي وعظه أخوه فيها وعذله ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة على عروشها، فيمكن أن يكون المراد بالعروش عروش الكرم، فهذه العروش سقطت، ثم سقطت الجدران عليها، ويمكن أن يراد من العروش السقوف، وهي: سقطت على الجدران، وحاصل الكلام أن هذه اللفظة كناية عن بطلانها وهلاكها، ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ والمعنى أن المؤمن لما قال: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾ فهذا الكافر تذكر كلامه وقال: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣﴾ [الكهف: ٤٣]:

قال الشوكاني: المعنى: أنه لم تكن له فرقة وجماعة يلتجئ إليها، وينتصر بها، ولا نفعه النفر الذين افتخر بهم فيما سبق، ﴿وَمَا كَانَ﴾ في نفسه ﴿مُنتَصِرًا﴾ أي: ممتنعاً بقوته عن إهلاك الله لجنته وانتقامه منه[٢].

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾ [الكهف: ٤٤]:

قال ابن كثير: اختلف القراء ها هنا فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ ويبتدئ بقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ ثم اختلفوا في قراءة ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾ فمنهم من فتح الواو من الوَلاية فيكون المعنى: هنالك الموالاة لله.

أي: هنالك كل أحدٍ مؤمن أو كافر يرجع إلى الله، وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ

(١) «التفسير الكبير» (٢١/١٠٩). (٢) «فتح القدير» (٣/٢٨٨).

وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [غافر: ٨٤] وكقوله إخباراً عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

ومنهم من كسر الواو من الوِلاية؛ أي: هنالك الحكم لله الحق، ثم منهم مَنْ رفع الحق على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٦] ومنهم من خفض القاف على أنه نعت لله ﷻ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: جزاءً ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: الأعمال التي تكون لله ﷻ ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير[(١)].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال سيد قطب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس، صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسَبُ هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة، ولا الجاه، وصاحبه نموذجٌ للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه. يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره[(٢)].

{٢} **قال القرطبي** في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾ [الكهف: ٣٩].

قال أشهب قال مالك: ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا.

وقال ابن وهب قال لي حفص بن ميسرة: رأيت على باب وهب بن منبه مكتوباً: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٨٤، ٨٥).

(٢) «في ظلال القرآن» (٣/ ٢٢٧٠).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة: «**ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة** ـ أو قال: **كنز من كنوز الجنة؟** ـ » قلت: بلى. قال: «**لا حول ولا قوة إلا بالله إذا قالها العبد قال الله** ﷻ: **أسلم عبدي واستسلم**»(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى، وفيه فقال: «**يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة** ـ في رواية: **على كنز من كنوز الجنة**» ـ قلت: ما هي يا رسول الله؟ قال: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**»(٢).

وقال أنس بن مالك: قال النبي ﷺ: «**من رأى شيئاً فأعجبه فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره عين**»(٣).

{٣} **أشار بعض المفسرين** إلى أن قوله تعالى عن الكافر: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ إلى أن الدنيا هي: جنة الكافر، وأشار الشنقيطي إلى تضعيف ذلك، ولا شك أن الدنيا هي: سجن المؤمن وجنة الكافر، حيث إن الكافر ليس له في الآخرة خلاق، فالدنيا بالنسبة إلى آخرته هي: جنته لأنه لا يراعي فيها حدود الحلال والحرام، فالحلال ما حل بيده والحرام ما حُرم منه ولم يجد وسيلة إليه، والمؤمن يرى الشيء فيشتهيه فيقول: إنَّك لمن حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك، المؤمن يعلم أنه مؤاخذ في سمعه وبصره وجميع جوارحه، فهو يحبس نفسه عن المعاصي ويحبسها على الطاعات، والكافر واقفاً مع حظوظه وشهواته، لا يلتفت في رضى الله ﷻ أم في غضب الله.

والذي أنكره الشنقيطي ـ والله أعلم ـ أن هذا هو المراد بالآية الكريمة، وإن كانت الدنيا هي سجن المؤمن وجنة الكافر كما صح الحديث بذلك عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»(٤).

---

(١) رواه الترمذي (١٣/ ٩٠) «الدعاء»، وأحمد (٢/ ٣٣٣). وقال أبو عيسى: ليس إسناده بمتصل مكحول لم يسمع من أبي هريرة. وصححه الألباني بشواهد، انظر: الصحيحة (١٥٢٨).

(٢) رواه البخاري (١١/ ١٩١) «الدعوات»، ومسلم (١٧/ ٢٧) «الذكر والدعاء»، وأبو داود (١٥١٢) «الصلاة».

(٣) «الكلم الطيب» (ص١٩٩)، ط. وقفية جمعية إحياء التراث الإسلامي.

(٤) رواه مسلم (١٨/ ٩٣) «الزهد»، والترمذي (٩/ ١٩٩) «أبواب الزهد».

قال النووي: معناه: أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة، مكلف بفعْل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان، وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد[1].

(١) شرح النووي على صحيح مسلم هامش (١٨/ ٩٣).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة
الخضر وموسى عليهما السلام

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٦ - قصة الخضر وموسى

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ
ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى
ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾
قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ
وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾
فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ
مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا
﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ
أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾
فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا
﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ
نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾
قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ
فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ
مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ
أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ
أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾
وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا
فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ
تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٦٠ - ٨٢].

وقد وردت قصة الخضر وموسى في سنة النبي ﷺ بأطول من ذلك ونحن نسوق القصص كما رواها البخاري من حديث ابن عباس عن أُبي بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: **«قام موسى خطيباً في بني إسرائيل، فقيل له: أي الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتَبَ الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، وأوحى إليه بل عبد من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال: أي رب كيف السبيل إليه؟ قال: تأخذ حوتاً في مكتل فحيثما فقدت الحوت فاتبعه، فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت، حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها. قال: فوضع موسى رأسه فنام»**، قال سفيان: وفي حديث غير عمرو قال: **«وفي أصل الصخرة عين يقال لها: الحياة لا يصيب من مائها شيءٌ إلا حيى، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، قال: فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر، فلما استيقظ موسى قال لفتاه:** ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا ...﴾ **الآية. قال: ولم يجد النصب حتى جاوز ما أمره به. قال له فتاه يوشع بن نون:** ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ...﴾ **الآية، قال: فرجعا يقصَّان في آثارهما، فوجدا في البحر كالطاق ممر الحوت، فكان لفتاه عجباً، وللحوتِ سرباً. قال: فلما انتهيا إلى الصخرة، إذ هما برجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى، قال: وأنّى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال:** ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾**؟ قاله له الخضر: يا موسى إنك على علم من علم الله علمَكَهُ الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه. قال: بل أتبعك. قال: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً. فانطلقا يمشيان على الساحل، فمرت بهما سفينة فعُرِفَ الخضر فحملوهم في سفينتهم بغير نَوْلٍ ـ يقول: بغير أجر ـ فركبا السفينة، قال: ووقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره في البحر. فقال الخضر لموسى: ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره، قال: فلم يفجأ موسى إذ عمد الخضرُ إلى قَدوم فخرق السفينة، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها** ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ ...﴾ **الآية، فانطلقا، إذا هما بغلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فقطعه. قال له موسى:** ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾. **قال:**

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ **إلى قوله:** ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ **فقال بيده هكذا فأقامه: فقال له موسى: إنا دخلنا هذه القرية فلم يضيفونا ولم يطعمونا** ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. **قال:** ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾». قال رسول الله ﷺ: «**وددنا أن موسى صبر حتى يقصَّ علينا من أمرهما**».

قال: وكان ابن عباس يقرأ: «وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً، وأما الغلام فكان كافراً»[(١)].

□ بين يدي القصة:

لا شك أن هذه القصة تحتمل مجلداً لما فيها من الفوائد والحكم والآيات والعبر والعظات، فإن بدايتها كما في الحديث كانت عتاباً من الله ﷻ لموسى ﵇ حينما نسب العلم إلى نفسه، ولم يرد العلم إلى الله ﷻ ثم ما فيها من تواضع، فرحل ﷺ طلباً للعلم ثم في أدبه مع الخضر بيان لأدب المتعلم مع العالم، حيث قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ وكيف أنه رأى ما لا صبر له على إنكاره من الأمور التي ظاهرها مفاسد محضة وفي باطنها من الحكم والغايات ما لا يعلمه إلا الله ﷻ وموسى ﵇ كان عنده من محبة الحق والغيرة والقوة في الحق بحيث إنه لم يصبر على طول صحبة الخضر ﵇ وكان الخضر قد تنبأ بذلك فقال: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وكما أن في القصة آداب طلب العلم وآداب العالم والمتعلم ففيها أيضاً آداب العالم مع ربه ﷻ وكان أول هذه الآداب إذا سئل العبد: أي الناس أعلم فلا ينسى أن ينسب العلم إلى الله ﷻ، وقد قال الخضر لموسى عندما رأى عصفوراً وقف على حرف السفينة وغمس منقاره في البحر: ما علمي وعلمك وعلم جميع الخلائق في علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ومن ذلك عدم نسبة الشر إلى الله ﷻ أدباً مع الله ﷻ مع أن الله ﷻ هو خالق

(١) رواه البخاري (٨/ ٢٧٦، ٢٧٧) «التفسير»، ومسلم (١٥/ ١٣٧ ـ ١٤٢) «الفضائل»، والترمذي (١٢/ ٢ ـ ٧) «التفسير».

الخير والشر، فالشر المحض ليس إليه، بل في كل ما قدره الله ﷻ وقضاه حكم وغايات قد تخفى على البشر، وظهر هذا الأدب مع الله ﷻ عند قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فنسب الإرادة إلى نفسه وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾.

وقد علمنا القرآن ذلك في مواضع كثيرة، منها قوله ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] مع أنه ﷻ مقدر الخير والشر.

ومن ذلك قوله ﷻ حاكياً عن إبراهيم ﷺ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠] وقد قال النبي ﷺ: **«والخير كله بيديك والشر ليس إليك»**(١).

وفي القصة كذلك من الأحكام الفقهية والأصولية بيان تعريف المسكين وما يفترق به عن الفقير، والراجح: أنهما يأتيان بمعنى واحد، ويأتي المسكين بمعنى: أنه عنده ما لا يكفيه، والفقير: هو الذي ليس عنده شيء قال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ فسماهم مساكين مع أن معهم سفينة، وفيها دفع المفسدة العظمى بالمفسدة الصغرى، ولنشرع في شرح الآيات

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم (٦/ ٥٩) «صلاة المسافرين».
وقال النووي ما ملخصه: قال الخطابي وغيره: فيه الإرشاد إلى الأدب في الثناء على الله تعالى ومدحه بأن يضاف إليه محاسن الأمور دون مساويها على جهة الأدب.
وفيه خمسة أقوال:
أحدها: معناه: لا يتقرب به إليك، قاله الخليل بن أحمد والنضر بن شميل وإسحاق بن راهويه ويحيى بن معين وأبو بكر بن خزيمة والأزهري وغيرهم.
والثاني: حكاه الشيخ أبو حامد عن المزني وقال غيره أيضاً: معناه: لا يضاف إليك على انفراده لا يقال: يا خالق القردة والخنازير ويا رب الشر ونحو هذا، وإن كان خالق كل شيء، ورب كل شيء، وحينئذٍ يدخل الشر في العموم.
والثالث: معناه: والشر لا يصعد إليك إنما يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح.
والرابع: والشر ليس شراً بالنسبة إليك، فإنك خلقته بحكمة بالغة، وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين.
والخامس: حكاه الخطابي أنه كقولك: فلان إلى بني فلان إذا كان عداده فيهم أو صفوه إليهم، باختصار من شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٥٩).

الكريمات فإن ما ذكرناه، زهرة من رياض أو قطرة من حياض.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف: ٦٠]:

قال ابن الجوزي: سبب خروج موسى عليه السلام في هذا السفر ما روى ابن عباس عن أُبي بن كعب عن رسول الله ﷺ... وذكر الحديث وقد تقدم آنفاً ثم قال: فأما التفسير فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ المعنى: واذكر ذلك، وفي موسى قولان:

أحدهما: أنه موسى بن عمران، قاله الأكثرون ويدل عليه ما روي في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى بني إسرائيل ليس هو موسى الخضر، قال: كذب عدو الله، أخبرني أُبي بن كعب... فذكر الحديث(١).

والثاني: أنه موسى بن ميسا، قاله ابن إسحاق وليس بشيءٍ للحديث الصحيح الذي ذكرناه فأما فتاه فهو يوشع بن نون من غير خلاف، وإنما سمي فتاه لأنه كان يلازمه ويأخذ عنه العلم ويخدمه.

ومعنى ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾: لا أزال، والمعنى: لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين؛ أي: ملتقاهما، وهو الموضع الذي وعده الله بلقاء الخضر فيه، قال قتادة: بحر فارس وبحر الروم، فبحر الروم نحو المغرب وبحر فارس نحو المشرق.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ قال ابن قتيبة: الحُقُب: الدهر، والحِقَب: السنون، واحدتها: حقبة(٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ [الكهف: ٦١]:

قال ابن كثير: وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثَمَّة، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) باختصار من «زاد المسير» (٥/ ١٦١ ـ ١٦٤).

يقال لها: عين الحياة، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب، وكان في مكتل مع يوشع عليه السلام وطفر من المكتل إلى البحر، فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت في البحر، فجعل يسير في الماء والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي: مثل التسرب في الأرض[1].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: ٦٢]:

قال الرازي: فلما جاوز؛ أي: موسى وفتاه الموعد المعين وهو الوصول إلى الصخرة بسبب النسيان وذهبا كثيراً وتعبا وجاعا ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾، قال «الفتى»[2]: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الكهف: ٦٣].

قال الزمخشري: لما طلب موسى عليه السلام الحوت ذكر يوشع ما رأى منه وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية، فدهش وطفق يسأل موسى عليه السلام عن سبب ذلك، كأنه قال: أرأيت ما دهانا إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت[3].

وقال القاسمي: أي: خبر الحوت، وإسناد النسيان إليهما، أولاً إما بمعنى: نسيانِ طلبه والذهول عن تفقده لعدم الحاجة إليه، وإما للتغليب بناءً على أن الناسي إنما كان يوشع وحده، فإنَّهُ نسي أن يخبر موسى بشأنه العجيب؛ فيكون كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من المالح ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ أي: لك و﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بدل من الهاء في ﴿أَنسَىٰنِيهُ﴾ أي: وما أنساني ذكره إلا الشيطان[4].

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي: أمراً عجيباً، إذ سار الماء عليه سرباً[4].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٩٢).

(٢) «التفسير الكبير» (١١/ ٢١/ ١٢٥) بتصرف.

(٣) «الكشاف» (٢/ ٧٣٣).

(٤) «محاسن التأويل» (١١/ ٦١، ٦٢) باختصار.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف: ٦٤]:

قال الشوكاني: أي: قال موسى لفتاه: ذلك الذي ذكرت من فقد الحوت في ذلك الموضع هو الذي كنَّا نطلبه، فإن الرجل الذي نريده هو هنالك ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي: رجعا على الطريق الذي جاءا منه يقصان أثرهما، لئلا يخطئا طريقهما والقصص في اللغة: اتباع الأثر(١).

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥]:

قال الرازي ما ملخصه: قال الأكثرون: إن ذلك العبد كان نبياً واحتجوا عليه بوجوه:

الأول: أنه تعالى قال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ والرحمة هي: النبوة، بدليل قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، والمراد من هذه الرحمة: النبوة، ولقائل أن يقول: نُسَلِّمُ أن النبوة رحمةً أما لا يلزم أن يكون كل رحمة نبوة.

الحجة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا يقتضي أنه تعالى علمه لا بواسطة تعليم معلم ولا إرشاد مرشد، وكل من علمه الله لا بواسطة البشر وجب أن يكون نبياً يعلم الأمور بالوحي من الله.

الحجة الثالثة: أن موسى عليه السلام قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ والنبي لا يتبع غير النبي في التعليم.

الحجة الرابعة: أن ذلك العبد أظهر الترفع على موسى، حيث قال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ وأما موسى فإنه أظهر التواضع له حيث قال: ﴿لَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾.

الحجة الخامسة: احتج الأصم على نبوته بقوله في أثناء القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، ومعناه: فعلته بوحي الله.

---

(١) «فتح القدير» (٣/ ٢٩٩) باختصار.

الحجة السادسة: ما روي أن موسى ﷺ لما وصل إليه قال: السلام عليك فقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل فقال موسى ﷺ: من عرفك هذا؟ قال: الذي بعثك إليّ. قالوا: وهذا يدل على أنه إنما عرف ذلك بالوحي والوحي لا يكون إلا مع النبوة[١].

وقال الشوكاني: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ هو الخضر في قول جمهور المفسرين وعلى ذلك دلت الأحاديث الصحيحة، وخالف في ذلك من لا يعتد بقوله فقال: ليس هو الخضر بل عالم آخر. ثم وصفه الله سبحانه فقال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ قيل: الرحمة: هي النبوة، وقيل: النعمة التي أنعم الله بها عليه.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهو: ما علمه الله سبحانه من علم الغيب الذي استأثر به وفي قوله: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ تفخيم لشأن ذلك العلم وتعظيم له. قال الزجاج: وفيما فعل موسى وهو من جملة الأنبياء من طلب العلم والرحلة في ذلك ما يدل على أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يترك طلب العلم، وإن كان قد بلغ نهايته، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه، ثم قص الله سبحانه علينا ما دار بين موسى والخضر بعد اجتماعهما فقال[٢]:

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٦]:

قال القاسمي: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ أي: أصحبك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي: من لدن ربك ﴿رُشْدًا﴾ أي: علماً ذا رشد؛ أي: هدى وإصابة خير.

قال القاضي: وقد راعى في ذلك غاية التواضع والأدب، فاستجهل نفسه، واستأذن أن يكون تابعاً له، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه، بتعليم بعض ما أنعم الله عليه؛ أي: وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم[٣].

---

(١) باختصار من «التفسير الكبير» (١١/ ٢١/ ١٢٦، ١٢٧).

(٢) «فتح القدير» (٣/ ٢٩٩). (٣) «محاسن التأويل» (١١/ ٦١، ٦٢).

قوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٧، ٦٨]:

قال القرطبي: قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي؛ لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تُخبر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب، وهو معنى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ والأنبياء لا يقرون على منكر، ولا يجوز لهم التقرير؛ أي: لا يسعك السكوت، جرياً على عادتك وحكمك(١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف: ٦٩]:

قال الزمخشري: رجا موسى عليه السلام لحرصه على العلم وازدياده أن يستطيع معه صبراً، بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر، فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله، علماً منه بشدة الأمر وصعوبته، وأن الحمية التي تأخذ المصلح عن مشاهدة الفساد شيءٌ لا يطاق، هذا مع علمه أن النبي المعصوم الذي أمره الله بالمسافرة واتباعه واقتباسه العلم منه، بريءٌ من أن يباشر ما فيه غميزة في الدين، وأنه لا بد لما يستسمج ظاهره من باطن حسن جميل فكيف إذا لم يعلم(٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: ٧٠]:

قال القاسمي: أي: لا تفاتحني بالسؤال عن شيءٍ أنكرته مني ولم تعلم وجه صحته حتى أبتدئك ببيانه، وهذا من آداب المتعلم مع العالم، والمتبوع مع التابع(٣).

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف: ٧١]:

قال ابن جرير رحمه الله: فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، يتعرضان الناس

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٠٥٦). (٢) «الكشاف» (٢/ ٧٣٤).
(٣) «محاسن التأويل» (١١/ ٦٤).

يلتمسان من يحملهما حتى مرت بهما سفينة جديدة وثيقة لم يمر بهما من السفن شيءٌ أحسنَ ولا أجمل ولا أوثق منها، فسألا أهلها أن يحملوهما فحملوهما، فلما اطمأنا فِيها ولجّجت بهما مع أهلها، أخرج منقاراً له ومطرقة، ثم عمد إلى ناحية فيها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها، ثم أخذ لوحاً فطبقه عليها ثم جلس عليها يرقعها، قال له موسى ورأى أمراً أفظع به: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾[١]، وقوله: ﴿إِمْرًا﴾ أي: منكراً أو عجيباً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف: ٧٢، ٧٣]:

قال ابن كثير: فعندما قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يعني: وهذا الصنع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليّ فيها؛ لأنك لم تحط بها خُبْراً ولها دخل، هو مصلحة ولم تعلمه أنت، ﴿قَالَ﴾ أي: موسى، ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أي: لا تضيق عليّ ولا تشدد عليّ، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كانت الأولى من موسى نسياناً**»[٢].

وقال ابن الجوزي: قوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ في هذا النسيان ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه على حقيقته، وأنه نسي، روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «**أن الأولى كانت نسياناً من موسى**».

والثاني: أنه لم ينس، ولكنه من معاريض الكلام، قاله أُبي بن كعب وابن عباس.

والثالث: أنه بمعنى: الترك، فالمعنى: لا تؤاخذني بما تركته مما

---

(١) «جامع البيان» (٨/ ١٥/ ١٨١).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٩٧).
وقوله: «كانت الأولى من موسى نسياناً» من رواية البخاري في «التفسير» (٨/ ٢٦٢)، ومسلم (١٥/ ١٤١) «الفضائل».

عاهدتك عليه، ذكره ابن الأنباري[١].

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف: ٧٤ ـ ٧٦]:

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ في البخاري قال يعلى: قال سعيد: وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً فاضجعه ثم ذبحه بالسكين ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ لم تعمل بالخبث.

وفي الصحيحين وصحيح الترمذي[٢]:

ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، قال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ قال: هذه أشد من الأولى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ لفظ البخاري وفي التفسير أن الخضر مر بغلمان يلعبون، فأخذ بيده غلاماً ليس فيهم أضوأ منه وأخذ حجراً فضرب به رأسه حتى دمغه، قال أبو العالية: لم يره إلا موسى ولو رأوه لحالوا بينه وبين الغلام[٣].

قلت: ولا اختلاف بين هذه الأحوال الثلاثة فإنه يحتمل أن يكون دمغه أولاً بالحجر، ثم أضجعه فذبحه، ثم اقتلع رأسه، والله أعلم بما كان من ذلك، وحسبك بما جاء في الصحيح[٤].

قال الألوسي ما ملخصه: قال ـ أي: موسى عليه السلام ـ: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن

---

(١) «زاد المسير» (٥/ ١٧١).

(٢) البخاري (٨/ ٢٦٤) «التفسير»، باب: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾.
مسلم (١٥/ ١٣٩، ١٤٠) «الفضائل»، والترمذي (١٢/ ٧٠٢) «التفسير».

(٣) رواية البخاري في التفسير (٨/ ٢٦٤): «وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين».

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٠٥٩، ٤٠٦٠).

شَيۡءٍ﴾ تفْعله من الأعاجيب ﴿بَعۡدَهَا﴾ أي: بعد هذه المرة أو بعد هذه المسألة: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾ أي: فلا تكن صاحبي ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ أي: وجدت عذراً من قبلي.

وقال النووي: معناه: قد بلغت إلى الغاية التي تعذر بسببها في فراقي حيث خالفتك مرة بعد مرة. وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**رحمة الله علينا وعلى موسى لو صبر على صاحبه لرأى العجب، لكن أخذته من صاحبه ذمامة فقال ذلك**»[(١)].

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: ٧٧، ٧٨]:

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول تعالى مخبراً عنهما أنهما ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ بعد المرتين الأوليين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ روى ابن جريج عن ابن سيرين أنها الأيكة، وفي الحديث: «**حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً**» أي: بخلاء ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ إسناد الإرادة ها هنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة فإن الإرادة في المحدثات بمعنى: الميل، والانقضاض: هو السقوط. وقوله: ﴿فَأَقَامَهُۥۖ﴾ أي: فرده إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنَّهُ رده بيده ودعمه حتى رد ميله، وهذا خارق فعند ذلك قال موسى له: ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ أي: لأجل أنهم لم يُضَيِّفُونا كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً، ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ﴾ أي: لأنك شرطت عند قتل

---

(١) «روح المعاني» (١٦/ ٢) باختصار.
من رواية مسلم في الصحيح (١٥/ ١٤٤) «الفضائل».
وقال النووي: قال أصحابنا، فيه استحباب ابتداء الإنسان نفسه في الدعاء وشبهه من أمور الآخرة، وأما حظوظ الدنيا فالأدب فيها الإيثار وتقديم غيره على نفسه.
وقوله: «أخذته من صاحبه ذمامة» أي: استحياء لتكرار مخالفته، وقيل: ملامة والأول هو المشهور.
«شرح النووي» هامش (١٥/ ١٤٤، ١٤٥) باختصار.

الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بين وبينك ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أي: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(١).

قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٧٩]:

قال الشنقيطي: ظاهر هذه الآية الكريمة أن ذلك الملك يأخذ كل سفينة صحيحة كانت أو معيبة، لكنه يفهم من آية أخرى أنه لا يأخذ المعيبة، وهي قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أي: لئلا يأخذها، وذلك هو الحكمة في خرقه لها المذكور في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ ثم بيّن أن قصده بخرقها سلامتها لأهلها من أخذ ذلك الملك الغاصب؛ لأن عيبه يزهده فيها، ولأجل ما ذكرنا كانت هذه الآية الكريمة مثالاً عند علماء العربية لحذف النعت؛ أي: وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غير معيبة بدليل ما ذكرنا(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: ٨٠، ٨١]:

قال القاسمي: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ أي: الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا﴾ أي: لو تركناه ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أي: ينزل بهما طغيانه وكفره ويلحقه بهما. لكونه طبع على ذلك، فيخشى أن يُعْديهما بدائه ﴿فَأَرَدْنَا﴾ أي: بقتله ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾ أي: طهارة عن الكفر والطغيان ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: رحمة بأبويه وبرّاً(٣).

وقال القرطبي: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ جاء في صحيح الحديث: «**أنه طبع يوم طبعَ كافراً**»(٤) وهذا يؤيد ظاهره أنه غير بالغ: ويحتمل أن يكون خبراً عنه مع كونه بالغاً وقد تقدم.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٩٧، ٩٨). (٢) «أضواء البيان» (٤/ ١٨٠).

(٣) «محاسن التأويل» (١١/ ٦٧).

(٤) الحديث رواه مسلم (١٥/ ١٤٥) «الفضائل»، وقال النووي: قال القاضي: هذا حجة بينة لأهل السنة لصحة أصل مذهبهم في الطبع والدين والأكنة والأغشية والحجب والسد، وأشباه هذه الألفاظ الواردة في الشرع في أفعال الله تعالى بقلوب أهل الكفر والضلال. «شرح النووي» هامش (١٥/ ١٤٥).

قال ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد، وإن كانوا قطعاً من الأكباد، ومن سَلَّم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء.

قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل.

ولو بقي كان فيه هلاكهما، فالواجب على كل امرئٍ الرضا بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله تعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٨٢]:

قال الفخر الرازي: وأما المسألة الثالثة وهي: إقامة الجدار، فقد أجاب العالم عنها بأن الداعي له إليها أنه كان تحت ذلك الجدار كنز، وكان ذلك ليتيمين في تلك المدينة، وكان أبوهما صالحاً، ولما كان ذلك الجدار مشرفاً على السقوط، ولو سقط لضاع ذلك الكنز، فأراد الله إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعاية لحقهما، ورعاية لحق صلاح أبيهما، فأمرني بإقامة ذلك الجدار، رعاية لهذه المصالح، وفي الآية فوائد:

• **الفائدة الأولى:** أنه تعالى سمى ذلك الموضع قرية، حيث قال: ﴿إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وسماه أيضاً مدينة حيث قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾.

• **الفائدة الثانية:** اختلفوا في هذا الكنز، فقيل: إنه كان مالاً وهذا هو الصحيح لوجهين:

الأول: أن المفهوم من لفظ الكنز هو المال.

والثاني: أن قوله: ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ يدل على أن ذلك الكنز هو المال. وقيل: إنه كان علماً بدليل أنه قال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا﴾ والرجل الصالح يكون كنزه العلم لا المال، إذ كنز المال لا يليق بالصلاح بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ . . .﴾ الآية [التوبة: ٣٤].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» باختصار (٥/ ٤٠٧٥ ـ ٤٠٧٧).

• **الفائدة الثالثة:** قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ يدل على أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الأبناء، وعن جعفر بن محمد كان بين الغلامين وبين الأب الصالح سبعة آباء، وعن الحسن بن علي أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بما حفظ الله مال الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما قال: فأبي وجدي خير منه.

قوله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يعني: إنما فعلت هذه الفعال لغرض أن تظهر رحمة الله تعالى لأنها بأسرها ترجع إلى حرف واحدٍ وهو تحمل الضرر الأدنى، لدفع الضرر الأعلى، كما قررناه.

ثم قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ يعني: ما فعلت ما رأيت من هذه الأحوال عن أمري واجتهادي ورأيي، وإنما فعلته بأمر الله ووحيه؛ لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لا يجوز إلا بالوحي والنص القاطع. بقي في الآية سؤال وهو أنه قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وقال: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ كيف اختلفت الإضافة في هذه الإرادات الثلاث وهي: كلها في قصة واحدة وفعل واحد؟ والجواب: أنه لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه، فقال: أردت أن أعيبها، ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيهاً على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية، ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله تعالى؛ لأن المتكفِّل بمصالح الأبناء؛ لرعاية حق الآباء ليس إلا الله ﷻ(١).

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ **الفوائد والآثار الإيمانية:**

﴿١﴾ **قال الشنقيطي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ملخصه:

مسألة: اعلم أن العلماء اختلفوا في الخضر: هل هو حي إلى الآن أو هو غير حي، بل ممن مات فيما مضى من الزمان؟ فذهب كثير من أهل العلم

(١) باختصار «التفسير الكبير» (١١/ ٢١/ ١٣٨).

إلى أنه حي، وأنَّهُ شرب من عين تسمى عين الحياة، وممن نصر القول بحياته القرطبي في تفسيره، والنووي في شرح مسلم وغيره، وابن الصلاح والنقاش وغيرهم.

قال ابن عطية: وأطنب النقاش له في هذا المعنى؛ يعني: حياة الخضر وبقاءه إلى يوم القيامة، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب وغيره وكلها لا تقوم على ساق. انتهى بواسطة نقل القرطبي في تفسيره.

وحكايات الصالحين عن الخضر أكثر من أن تحصر، ودعواهم أنه يحج هو وإلياس كل سنة، ويروون عنهما بعض الأدعية كل ذلك معروف، ومستند القائلين بذلك ضعيفٌ جداً؛ لأن غالبه حكايات عن بعض مَنْ يظن به الصلاح، ومنامات وأحاديث مرفوعة عن أنس وغيره، وكلها ضعيف لا تقوم به حجة.

ومن أقواه عند القائلين به، آثار التَّعزية حين توفي النبي ﷺ.

والاستدلال على حياة الخضر بآثار التعزية مردود من وجهين:

الأول: أنَّه لم يثبت ذلك بسند صحيح، قال ابن كثير في تفسيره وقال النووي وغيره في بقاء الخضر إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين: ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه وذكروا في ذلك حكايات عن السلف وغيرهم، وجاء ذكره في بعض الأحاديث، ولا يصح شيءٌ من ذلك، وأشهرها حديث التعزية، وإسناده ضعيفٌ.

الثاني: أنه على فرض أن حديث التعزية صحيح لا يلزم من ذلك عقلاً ولا شرعاً ولا عرفاً أن يكون ذلك المعزي هو الخضر، بل يجوز أن يكون غير الخضر من مؤمني الجن؛ لأن الجن هم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] ودعوى أن ذلك المعزي هو الخضر تحكمٌ بلا دليل، وقولهم: كانوا يرون أنه الخضر ليس حجة يجب الرجوع إليها، لاحتمال أن يخطؤوا في ظنهم، ولا يدل ذلك على إجماع شرعي معصوم، ولا متمسك لهم في دعواهم أنه الخضر كما ترى.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الذي يظهر لي رجحانه بالدليل في هذه المسألة أن الخضر ليس بحيٍّ بل توفي لعدة أدلة:

الأول: ظاهر عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤] فقوله: ﴿لِبَشَرٍ﴾ نكرة في سياق النفي فهي تعم كل بشر؛ فيلزم ذلك نفي الخلد عن كل بشر من قبله، والخضر بشر من قبله.

الثاني: قوله ﷺ: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»[١] ومحل الشاهد منه قوله ﷺ: «**لا تعبد في الأرض**» فِعْلٌ في سياق النفي.

فاعلم أن ذلك النفي يشمل بعمومه وجود الخضر حَيّاً في الأرض؛ لأنه على تقدير وجوده حياً في الأرض فإن الله يعبد في الأرض.

الثالث: إخباره ﷺ: بأنه على رأس مائة سنة من الليلة تكلم فيها بالحديث لم يبق على وجه الأرض أحدٌ ممن هو عليها تلك الليلة، فلو كان الخضر حياً في الأرض لما تأخر بعد المائة المذكورة[٢].

الرابع: أن الخضر لو كان حياً إلى زمن النبي ﷺ لكان من أتباعه ولنصره وقاتل معه لأنه مبعوث إلى جميع الثقلين الإنس والجن والآيات الدالة على عموم رسالته كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ويوضح هذا أنه تعالى بيّن في سورة «آل عمران» أنه أخذ على جميع النبيين الميثاق المؤكد أنهم إذا جاءهم نبينا ﷺ مصدقاً لما معهم أن يؤمنوا به وينصروه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ

---

(١) رواه مسلم (١٢/ ٨٤) «الجهاد والسير»، والترمذي (١١/ ٢١١) «التفسير»، وأحمد (١/ ٣٠ ـ ٣٢/ ١٧٧).

(٢) رواه البخاري (١/ ٢٥٥) «العلم»، ومسلم (١٦/ ٩٠) «الفتن»، وأبو داود (٤٣٢٦) «الملاحم».

قال الحافظ: قال ابن بطال: إنما أراد رسول الله ﷺ أن هذه المدة تخترم الجيل الذي هم فيه فوعظهم بقصر أعمارهم وأعلمهم أن أعمارهم ليست كأعمار من تقدم من الأمم ليجتهدوا في العبادة. «فتح الباري» (١/ ٢٥٦).

إِصْرِيْ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: ٨١، ٨٢].

لو كان الخضر حياً لكان من جملة أمة محمد ﷺ وممن يقتدي بشرعه.

فتحصّل أن الأحاديث المرفوعة التي تدل على وجود الخضر حياً باقياً لم يثبت منها شيءٌ، وأنه قد دلت الأدلة المذكورة على وفاته كما قدمنا إيضاحه(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ملخصه: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٧].

هذه الآية الكريمة من أكبر الأدلة التي يستدل بها القائلون بأن المجاز في القرآن، زاعمين أن إرادة الجدار الانقضاض لا يمكن أن تكون حقيقة وإنما هي مجاز، وقد دلت آيات من كتاب الله على أنه لا مانع من كون إرادة الجدار حقيقة؛ لأن الله تعالى يعلم للجمادات إرادات وأفعالاً وأقوالاً لا يدركها الخلق كما صرح تعالى بأنه يعلم من ذلك ما لا يعلمه خَلقه في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ﴾ [الإسراء: ٤٤] فصرح بأننا لا نفقة تسبيحهم، وتسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها هو ـ جل وعلا ـ ونحن لا نعلمها، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن والسنة.

فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ . . .﴾ الآية [البقرة: ٧٤]؛ لأن تلك الخشية بإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه.

ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**إني لأعرف حجراً كان يُسَلِّم عليّ بمكة**»(٢)، وما ثبت في صحيح البخاري من حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ جزعاً لفراقه(٣)، فتسليم

---

(١) باختصار من «أضواء البيان» (٤/ ١٦٣ ـ ١٧١).

(٢) رواه مسلم (١٥/ ٣٦) «الفضائل»، والترمذي (١٣/ ١٠٠) «المناقب».

(٣) رواه البخاري (٢/ ٣٩٧) «الجمعة»، والنسائي (٣/ ١٠٢) «الجمعة»، والترمذي (١٣/ ١١١) «المناقب»، ورواه ابن ماجه (١٤١٥) بزيادة: «**لو لم أحتضنه لحن إلى يوم القيامة**». =

ذلك الحجر وحنين ذلك الجذع كلاهما بإرادة وإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه، كما صرح بمثله في قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وبذلك تعلم أن لا مانع من إبقاء إرادة الجدار على حقيقتها، لإمكان أن يكون الله علم منه إرادة الانقضاض، وإن لم يعلم خلقه تلك الإرادة، وهذا واضحٌ جداً كما ترى، مع أنه من أساليب العربية إطلاق الإرادة على المقاربة والميل، كما في قول الشاعر:

يُـرِيـدُ الـرُّمْـحُ صَـدْرَ أَبِـي بَـرَاءٍ وَيَـعْـدِلُ عَـن دِمَـاءِ بَـنِـي عَـقِـيـلِ

أي: يميل إلى صدر أبي براء[1].

{٢} **وقال القاسمي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال السيوطي في «الإكليل»: في هذه الآيات أنه لا بأس بالاستخدام واتخاذ الرفيق والخادم في السفر، واستحباب الرحلة في طلب العلم، واستزادة العالم من العلم، واتخاذ الزاد للسفر، وأنَّه لا ينافي التوكل، ونسبة النسيان ونحوه من الأمور المكروهة إلى الشيطان مجازاً وتأدباً عن نسبتها إلى الله تعالى، وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه، ولو كان دونه في المرتبة.

واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه في عدم تعليمه مما لا يحتمله طبعه، وتقديم المشيئة في الأمر، واشتراط المتبوع على التابع، وأنه يلزم الوفاء بالشروط وأن النسيان غير مؤاخذ به، وأن «للثلاث» اعتباراً في التكرار ونحوه وأنه لا بأس بطلب الغريب الطعام والضيافة، وأن صنع الجميل لا يترك ولو مع اللئام، وجواز أخذ الأجر على الأعمال، وأن المسكين لا يخرج عن المسكنة بكونه له سفينة أو آلة يكتسب بها، أو شيء لا يكفيه، وأن الغصب حرام. وأنه يجوز إتلاف بعض مال الغير، أو تعييبه لوقاية باقية، كمالِ المودع واليتيم، وإذا تعارضت مفسدتان ارتكب الأخف، وأن الولد يحفظ بصلاح أبيه، وأنه تجب عمارة ما يخاف منه، ويحرم إهمالها إلى أن تخرب، وأنه يجوز دفن المال في الأرض. انتهى.

وقال البيضاوي: ومن فوائد هذه القصة أنه لا يعجب المرء بعلمه، ولا

= وقال الألباني: هذه المعجزة متواترة عن النبي ﷺ، وقد جمع قسطاً كبيراً من طرقها الحافظ ابن كثير في «البداية» والسيوطي في «الخصائص».

(١) «أضواء البيان» (٤/١٧٨، ١٧٩) باختصار.

يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه فلعل فيه سراً لا يعرفه، وأن يداوم على التعلم ويتذلل للمعلم، ويُرَاعي الأدب في المقال، وأن ينبه المجرم على جرمه، ويعفو عنه حتى يتحقق إصراره، ثم يهاجر عنه. انتهى[(١)].

{٣} **وقال** كَلَّلَهُ ما ملخصه: ذكر الناصر في «الانتصاف» شذرات من لطائف بعض الآي المذكورة فنأثرها عنه:

قال عليه الرحمة: ومما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حمله على المبادرة بالإنكار الالتهاب والحمية للحق، وأنه قال حين خرق السفينة: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ ولم يقل: «لِتُغْرِقَنَا» فنسي نفسه واشتغل بغيره في الحالة التي كل أحدٍ فيها يقول: (نفسي نفسي) لا يلوي على مال ولا ولد وتلك حالة الغرق، فسبحان من جبل أنبياءَه وأصفياءَه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم، صلوات الله عليهم أجمعين وسلامه.

ثم قال القاسمي: أبدى بعضهم سراً للتعبير أولاً «بتستطيع» ثم أخيراً «بتسطع» بحذف التاء: قال: لما أن فسر الخضر لموسى وبيّن له تأويل ما لم يصبر معه ووضحه وأزال المشكل قال: «تسطع» بحذف التاء، وقبل ذلك كان الإشكال قويّاً ثقيلاً، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف، كما قال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧] هو الصعود إلى أعلاه ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧] وهو أشق من ذلك. فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى. انتهى.

وقال الشهاب: إنما خصَّ هذا بالتخفيف؛ لأنه لما تكرر في القصة ناسب تأخير الخفيف منه، وأما كونه للإشارة إلى أنه خفَّ على موسى عليه السلام ما لقيه ببيان سببه فيبعد أنَّهُ في الحكاية لا المحكي. انتهى.

وما ألطف قول الشهاب في مثله: هذه زهرة لا تحتمل هذا الفرك[(٢)].

{٤} **وقال القرطبي** في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٦] فيه مسألتان:

(١) «محاسن التأويل» (١١/ ٦٨، ٦٩).
(٢) باختصار من «محاسن التأويل» (١١/ ٧٠ ـ ٧٣).

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ هذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستذل المبالغ في حسن الأدب، المعنى: هل يتفق لك ويخف عليك وهذا كما في الحديث: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ[(١)].

الثانية: في هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب، ولا يظن أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله، فالخضر إن كان ولياً فموسى أفضل منه؛ لأنه نبي والنبي أفضل من الولي وإن كان نبيّاً فموسى فضله بالرسالة، والله أعلم[(٢)].

{٥} وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: قال شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هذه[(٣)] الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم، وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم، وقد جاء فيما ينقلون: «**استفت قلبك وإن أفتاك المفتون**»[(٤)].

---

(١) رواه مالك في «الموطأ» (١/ ١٨) «الطهارة»، وأبو داود (١١٨) «الطهارة»، والنسائي (١/ ٧١، ٧٢) «الطهارة» من حديث عبد الله بن زيد في كيفية الوضوء عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أنه قال لعبد الله زيد بن عاصم، وهو جد عمرو بن يحيى المازني وكان من أصحاب رسول الله ﷺ: «هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ»، وأصل الحديث في البخاري (١/ ٣٥٦) «الوضوء»، ومسلم (٣/ ١٢١ ـ ١٢٣) «الطهارة».

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٠٥٥، ٤٠٥٦).

(٣) لعلها هدم ولا يستقيم المعنى إلا بذلك.

(٤) رواه أحمد (٤/ ٢٢٨)، والدارمي (٢/ ٢٤٦) «البيوع»، بلفظ «**استفت نفسك**» قال =

قال شيخنا ﷺ: هذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب؛ لأنه إنكار ما علم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنته وأنفذ حكمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلغون عنه رسالته وكلامه، المبينون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك وخصهم بما هنالك، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج: ٧٥] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].. إلى غير ذلك من الآيات، وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي، واليقين الضروري، واجتماع السلف والخلف على أنه لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه ولا يعرف شيءٌ منها إلا من جهة الرسل، فمن قال: إن هناك طريقاً آخر يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل بحيث يستغنى عن الرسل فهو كافر يقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبي بعده ولا رسول، وبيان ذلك أن من قال يأخذ عن قلبه وأن ما يقع فيه حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة، فإن هذا نحو ما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**إنَّ رُوحَ القُدْسِ نَفَثَ في رَوْعِي...**»(١) الحديث.

= النووي في «الأربعين» حديث حسن رويناه في سندي الإمامين أحمد بن حنبل والدارمي بإسناد حسن.

وقال الحافظ ابن رجب: في إسناد هذا الحديث أمران يوجب كل منهما ضعفه: أحدهما: الانقطاع بين أيوب والزبير فإنه رواه عن قوم لم يسمعهم، والثاني: ضعف الزبير هذا. قال الدارقطني: روى أحاديث مناكير وضعفه ابن حبان أيضاً.. إلى أن قال: وقد روي هذا الحديث عن النبي ﷺ من وجوه متعددة وبعض طرقه جيدة. «جامع العلوم والحكم» (٢٣٦، ٢٣٧)، ط. الحلبي.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٠٧٩، ٤٠٨٠).

والحديث رواه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٨٥) رقم (١١٥١) عن ابن مسعود، وقال الألباني في تخريج أحاديث مشكلة الفقر: إسناده صحيح لولا الرجل الذي لم =

{٦} وقال العلامة عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي عليه رحمة ربنا العلي في فوائد وأحكام هذه القصة:

ـ **منها**: تواضع الفاضل للتعلم ممن هو دونه، فإن موسى بلا ريب أفضل من الخضر.

ـ **ومنها**: تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يَتَمهَّرَ فيه، ممن مَهُرَ فيه وإن كان دونه في العلم درجات، فإن موسى من أكابر أولي العزم من الرسل الذين مَنَحَهُمُ الله وأعطاهم من العلوم ما لم يعط سواهم، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا اشتد حرصه على التعلم منه.

ـ **ومنها**: أن العلم النافع هو العلم المرشد إلى الخير، وكل علم فيه رشد وهداية لطرق الخير وتحذير من طريق الشر، أو وسيلة إلى ذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى ذلك فإما أن يكون ضاراً، أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

ـ **ومنها**: أن من ليس له صبر على صحبة العالم ولا قوة على الثبات على طريقة التعلم فإنه قاصر ليس بأهل التلقي، فمن لا صبر له لا يدرك العلم، ومن استعمل الصبر ولازمه أدرك به كل أمر سعى إليه، فإن الخضر اعتذر عن موسى أنه لا يصبر على علمه الخاص.

ـ **ومنها**: فيه تنبيه على القاعدة المشهورة الكبيرة وهو أنه يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الخفيف، ويراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما، فإنَّ قتل الغلام الصغير شر، ولكن بقاءه حتى يبلغ أعظم شراً، وبقاء الغلام من دون قتل وإن كان في ظاهر الحال أنه خير فالخير ببقاء أبويه على دينهما خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر بعدما ألهمه الله الحقيقة فكان إلهامه الباطني بمنزلة البينات الظاهرة في حق غيره.

ـ **ومنها**: القاعدة الكبيرة الأخرى، وهي أن عمل الإنسان في مال غيره

= يسم. وقد أخرجه الحاكم (٢/ ٤) وصححه على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي عن جابر دون قوله: **«إن روح القدس نفث في روعي»**.
ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٧) عن أبي أمامة.
وصححه الألباني بشواهده، وكذا عبد القادر الأرناؤوط في تخريج «جامع الأصول».

إذا كان على وجه المصلحة ودفع المضرة يجوز بلا إذن، حتى ولو ترتب عليه إتلاف بعض المال، كما خرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غصب الملك الظالم، وتحت هاتين القاعدتين من الفوائد ما لا حصر له.

ـ **ومنها**: أنه ينبغي للعبد أن لا يفارق صاحبه في حال من الأحوال ويترك صحبته بل يفي له بذلك، حتى لا يجد للصبر محلاً، وأن موافقة الصاحب لصاحبه في غير الأمور المحذورة مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة[1].

{٧} **ورد في سبب تسمية الخضر** ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: **«إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء»**[2].

قال الحافظ: وقد زاد عبد الرزاق في مصنفه بعد أن أخرجه بهذا الإسناد: الفرو الحشيش الأبيض وما أشبهه. قال عبد الله بن أحمد بعد أن رواه عن أبيه عنه: أظن هذا تفسيراً من عبد الرزاق. انتهى. وجزم بذلك عياض وقال الحربي: الفروة من الأرض قطعة يابسة من حشيش وهذا موافق لقول عبد الرزاق. وعن ابن الأعرابي: الفروة: أرض بيضاء ليس فيها نبات وبهذا جزم الخطابي ومن تبعه[3].

---

(١) «تيسير الكريم المنان في خلاصة تفسير القرآن» (١٤٧ ـ ١٤٩) باختصار. وانظر بقية الفوائد من صفحة (١٤٦ ـ ١٤٩).
(٢) رواه البخاري (٦/ ٤٩٩) «أحاديث الأنبياء»، والترمذي (١٢/ ٩) «التفسير».
(٣) باختصار من الفتح (٦/ ٤٩٩).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة ذي القرنين

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٧ ـ قصة ذي القرنين

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا
(٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ
مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ
وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا
نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ
أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا
سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ
وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ
رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ
ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن
يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ
وَعْدُ رَبِّى حَقًّا (٩٨)﴾ [الكهف: ٨٣ ـ ٩٨].

□ بين يدي القصة:

هذه القصة الرابعة في هذه السورة المباركة، والقصة جواب لمن سأل من مشركي مكة تبعاً لليهود عن رجل يلقب بذي القرنين، وطريقة القرآن في القصص الإعراض عن التفصيل الذي ليس وراءه عبرة ولا حكمة، والاكتفاء بالإشارات التي تتضمن العبر والعظات، وقد اختلف الناس في ذي القرنين: هل كان نبياً أم مَلِكاً؟ ولم يأت خبر عن المعصوم في إثبات نبوته، وما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ غير ناهض لما زعموه، ثم اختلفوا كذلك في اسمه فرجح الرازي والقاسمي: أنه الإسكندر، واحتجوا بأنه الذي ملك المشارق والمغارب،

والصحيح عدم الجزم بذلك، والذي يظهر من سياق الآيات أنه ملك مؤمن أعطاه الله ﷻ من أسباب الملك والقدرة ما بلغ به مشارق الأرض ومغاربها، وأنه كان عادلاً يُقَرِّبُ أهل الإيمان ويعذب أهل الفسوق والعصيان، كما يظهر من قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ وهذا شأن الملك المسلم الذي يرفع أهل الدين ويعذب الكفار والفاسقين. عكس ما يفعله كثير من حكام المسلمين الذين يَدْعُون أهل الأوثان ويعذبون أهل الإسلام، وسجون الأرض مملوءة بالشباب المسلم الذي رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، وأكثر القائمين على الحكم في بلاد المسلمين إن لم يكن جميعهم ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ٦٧]، والله ﷻ وصف المؤمنين الصادقين فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١] ومن مظاهر صلاح هذا الملك أنه تعفف عمَّا في أيدي الناس، فلما قيل له: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ قال: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ﴾ كما قال سليمان ﷺ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦].

فمحصِّل القصة أنه ملكٌ قد دانت له المشارق والمغارب، ويساعد أهل الإيمان ويعذب أهل الأوثان، وأنه يقوم بمصالح رعيته، ويسعى بالإصلاح في الأرض، وأشارت الآيات إلى ذلك إجمالاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ وصرحت كما في نهاية القصة من إقامة السد، وأومأت إلى ذلك في قوله: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ فكأنه أقام لهم من المباني التي تحمي أجسادهم من حر الشمس، أو صرف لهم الملابس والأغطية، فهذا يفهم من سياق الآيات، ولنشرع في نقل كلام العلماء في تفسيرها والله المستعان.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف: ٨٣]:

قال الرازي: اختلف الناس في أن ذي القرنين من هو، وذكروا فيه أقوالاً:

الأول: أنه هو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني، قالوا: والدليل عليه أن القرآن دل على أن الرجل المسمى بذي القرنين بلغ ملكه إلى أقصى المغرب بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وأيضاً بلغ ملكه أقصى المشرق بدليل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾.

وأيضاً بلغ ملكه أقصى الشمال بدليل أن يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون في أقصى الشمال، وبدليل أن السد المذكور في القرآن يقال في كتب التواريخ: إنه مبني في أقصى الشمال، فهذا الإنسان المسمى بذي القرنين في القرآن قد دل القرآن على أن ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال، وهذا هو تمام القدر المعمور من الأرض، ومثل هذا الملك البسيط لا شك أنه على خلاف العادات، وما كان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلداً على وجه الدهر، وأن لا يبقى مخفياً مستتراً، والمَلِكُ الذي اشتهر في كتب التواريخ أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلا الإسكندر.

إلى أن قال: فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلاً ملك الأرض بالكلية أو ما يقرب منها، وثبت بعلم التواريخ أن الذي هذا شأنه ما كان إلا الإسكندر، وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني.

والقول الثاني: قال أبو الريحان الهروي المنجم في كتابه الذي سماه بالآثار الباقية عن القرون الخالية قيل: إن ذا القرنين هو أبو كرب شمر بن عبير بن أفريقش الحميري، فإنه بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها، وهو الذي افتخر به أحد الشعراء من حمير حيث قال:

قَدْ كَانَ ذُو القَرْنَيْن قَبْلِي مُسلِماً ... مِلَكاً عَلَا فِي الأرْضِ غَيْر مُفَنَّدِ

بَلَغَ المَشَارِقَ وَالمَغَارِبَ يَبْتَغِي ... أَسْبَابَ مُلْكٍ مِن كَرِيمٍ سَيِّدِ

ثم قال أبو الريحان: ويشبه أن يكون هذا القول أقرب؛ لأن الأذواء كانوا من اليمن، وهم الذين لا تخلو أساميهم من ذي، كذي النادي، وذي نواس، وذي النون، وغير ذلك..

والقول الثالث: أنه كان عبداً صالحاً ملكه الله الأرض، وأعطاه العلم والحكمة، وألبسه الهيبة، وإن كنا لا نعرف أنه مَنْ هُوَ.

والقول الرابع: أنَّ ذا القرنين مَلَكٌ من الملائكة.

عن عمر أنه سمع رجلاً يقول: يا ذا القرنين فقال: اللهم اغفر، أمَا رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء، حتى تسموا بأسماء الملائكة.

فهذا جملة ما قيل في هذا الباب، والقول الأول أظهر لأجل الدليل الذي ذكرناه. اهـ(١).

وما رجحه غير راجح والله أعلم، وأقرب الأقوال هو الثالث، وهو ما دل عليه ظاهر القرآن، فمعه الدليل، وغيره يحتاج إلى دليل صحيح يجب المصير إليه، ولا دليل، والله أعلى وأعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: ٨٤]:

قال ابن كثير: أي: أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحضارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها(٢).

قال الزمخشري: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من أسباب كل شيء أراده من أغراضه ومقاصده في ملكه ﴿سَبَبًا﴾ طريقاً موصلاً إليه، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة، فأراد بلوغ المغرب ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ يوصله إليه حتى بلغ، وكذلك أراد المشرق فأتبع وأراد بلوغ السدين فأتبع سبباً(٣).

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٦ ـ ٨٨]:

وقال الشوكاني: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ أي: نهاية الأرض من

(١) «التفسير الكبير» (١١/ ٢١/ ١٣٩، ١٤٠) باختصار.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٠١). (٣) «الكشاف» (٢/ ٧٤٣).

جهة المغرب؛ لأن من وراء هذه النهاية البحر المحيط، وهو لا يمكن المضي فيه ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي «حامية»: أي: حارة، وقرأ الباقون ﴿حَمِئَةٍ﴾ أي: كثيرة الحمأة: وهي الطينة السوداء.

وقوله: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ الضمير في عندها إما للعين أو للشمس قيل: هم قوم لباسهم جلود الوحش، وكانوا كفاراً، فخيره الله بين أن يعذبهم وبين أن يتركهم فقال: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي: إما أن تعذبهم بالقتل من أول الأمر، وإما أن تتخذ فيهم أمراً ذا حُسْنٍ أو أمراً حسناً، مبالغة بجعل المصدر صفة للأمر، والمراد: دعوتهم إلى الحق وتعليمهم الشرائع ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين مختاراً للدعوة التي هي الشق الأخير من الترديد ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ نفسه بالإصرار على الشرك ولم يقبل دعوتي ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ بالقتل في الدنيا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ فيها ﴿عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: منكراً فظيعاً[(١)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي: أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم، وقوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ معنى هذا: أن الله تعالى مَكَّنَهُ منهم، وحكَّمَهُ فيهم، وأظفره بهم، وخيّره إن شاء قتل وسَبَا، وإن شاء مَنَّ أو فَدَى، فعرض عدله وإيمانه فيما أبداه، وبيانه في قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: استمر على كفره وشركه بربه، فسوف نعذبه، قال قتادة: بالقتل.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: شديداً بليغاً وجيعاً أليماً، وفي هذا إثبات المعاد والجزاء، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ﴾ أي: تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: في الدار الآخرة عند الله ﷻ: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ قال مجاهد: معروفاً[(٢)].

---

(١) «فتح القدير» (٣/ ٣٠٨).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٠٢، ١٠٣).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١﴾ [الكهف: ٨٩ ـ ٩١]:

قال الرازي: اعلم أن الله تعالى لما بيّن أولاً أنه قصد أقرب الأماكن المسكونة من مغرب الشمس، أتبعه ببيان أنه قصد أقرب الأماكن المسكونة من مطلع الشمس، فبين الله تعالى أنه وجد الشمس تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً، وفيه قولان:

الأول: أنه ليس هناك شجر ولا جبل ولا أبنية تمنع من وقوع شعاع الشَّمْسِ عليهم؛ فلهذا السبب إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب واغلة في الأرض، أو غاصوا في الماء، فيكون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف في المعاش، وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش، حالهم بالضد من أحوال سائر الخلق.

والقول الثاني: أن معناه: أنَّه لا ثياب لهم، ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبداً، ويقال في كتب الهيئة: إن حال أكثر الزنج كذلك، وحال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك(١).

وقال الطبري: وأما قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فإن معناه: ثم أتبع سبباً كذلك حتى إذا بلغ مَطلع الشمس، وكذلك من صلة ﴿أَتْبَعَ﴾ وإنما معنى الكلام: ثم أتبع سبباً حتى بلغ مطلع الشمس كما أتبع سبباً حتى بلغ مغربها، **وقوله**: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ يقول: وقد أحطنا بما عند مطلع الشمس علماً لا يخفى علينا مما هنالك من الخلق وأحوالهم وأسبابهم ولا من غيرهم شيء، وبالذي قلنا في معنى الخبر قال أهل التأويل(٢).

وقال الزمخشري: قيل: بلغ مطلع الشمس مثل ذلك؛ أي: كما بلغ مغربها وقيل: تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذين تغرب عليهم؛ يعني: أنهم كفرة مثلهم، وحكمهم مثل حكمهم في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر وإحسانه إلى من آمن منهم(٣).

---

(١) «التفسير الكبير» (١١/٢١/١٤٣). (٢) «جامع البيان» (٨/١٦/١٢).
(٣) «الكشاف» (٢/٧٤٦).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف: ٩٢ ـ ٩٣]:

قال القاسمي: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾ أي: طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ قرأ بفتح السين وضمها؛ أي: بين الجبلين اللذين سد ما بينهما ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا﴾ أي: من ورائهما أمة من الناس ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لكون لغتهم غريبة مجهولة، ولقلة فطنتهم[(١)].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف: ٩٤ ـ ٩٥]:

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ ما ملخصه: حتى إذا بلغ بين السدين وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعثون فيها فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كما ثبت في الصحيحين: «**إن الله تعالى يقول: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك فيقول: ابعث بعث النار فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيءٍ إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج**»[(٢)].

وفي مسند أحمد عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك»[(٣)] قال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك وقال: إنما سمي هؤلاء: تركاً؛ لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة وإلا فهم أقرباء أولئك ولكن كان في أولئك بغي

---

(١) «محاسن التأويل» (١١/ ١٨).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٤٤١) عن أبي الدرداء، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٩٣): إسناده جيد وللحديث شواهد في مسند البزار وأبو يعلى والطبراني.

(٣) رواه الترمذي (١٣/ ٢٨٣) «المناقب»، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وأحمد (٥/ ٩ ـ ١١) وفيه عنعنة الحسن البصري وفي سماع الحسن من سمرة كلام، انظر: «جامع الأصول» (٤/ ٤٠)، ولم يذكره الألباني في «صحيح الترمذي».

وفساد وجرأة[(١)].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ ما ملخصه: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ استفهام على جهة حسن الأدب ﴿خَرْجًا﴾ أي: جُعْلاً والخرج أخصُّ من الخراج يقال: أدِّ خَرْج رأسك، وخراج مدينتك.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أي: ردماً، والردم ما جعل بعضه على بعض حتى يتصل، وثوب مردم أي: مرقق.

وقال عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة: ما كان من خلقة الله لم يشارك فيه أحدٌ بعمل فهو بالضم، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح، ويلزم أهل هذه المقالة أن يقرءوا ﴿سَدًّا﴾ بالفتح وقبله ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بالضم وهي: قراءة حمزة والكسائي.

الثانية: في هذه الآية دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضرباً ويحبسون، أو يكلفون ويطلقون، كما فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)].

قوله تعالى: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]:

قال الألوسي: أي: الذي مكني ﴿فِيهِ رَبِّي﴾ وجعلني فيه سبحانه مكيناً قادراً من الملك والمال وسائر الأسباب ﴿خَيْرٌ﴾ أي: مما تريدون أن تبذلوه إليّ من الخرج، فلا حاجة بي إليه ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: بما يتقوى به على المقصود من الآلات كزبر الحديد أو من الناس، أو الأعم منهُمَا[(٣)].

وقال القرطبي: وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين في هذه المحاورة فإن القوم لو جمعوا له خرجاً لم يعنه أحد، ولوكلوه إلى البنيان، ومعونته

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/١٠٣، ١٠٤) باختصار.
(٢) باختصار من «الجامع لأحكام القرآن» (٥/٤٠٩٨).
(٣) «روح المعاني» (١٦/٣٩ ـ ٤٠).

بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل، وربما أربى ما ذكروه له على الخرج.

وقرأ ابن كثير وحده «ما مكَّنَنِي» بنونين، وقرأ الباقون ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾[(١)].

قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف: ٩٦]:

قال الشوكاني: ومعنى الآية: أنهم أعطوه زبر الحديد[(٢)]، فجعل يبني بها بين الجبلين حتى ساواهما ﴿قَالَ ٱنفُخُواْۖ﴾ أي: قال للعملة: انفخوا على هذه الزبر بالكِيران ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أي: جعل ذلك المنفوخ فيه وهو الزبر ناراً؛ أي: كالنار في حرها، وإسناد الجعل إلى ذي القرنين مجاز، لكونه الآمر بالنفخ. قيل: كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة ثم يوقد عليه الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة، وهو معنى قوله: ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

قال أهل اللغة: القطر: النحاس الذائب، والإفراغ: الصب، وكذا قال أكثر المفسرين[(٣)].

وقالت طائفة: القطر: الحديد المذاب، وقالت فرقة أخرى منهم ابن الأنباري: هو الرصاص الذائب[(٤)].

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: ٩٧]:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج: أنهم ما

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٠٩٩).

(٢) قال أكثر المفسرين: زبر الحديد: هي قطعه.

(٣) وحجتهم قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ﴾ [سبأ: ١٢]، وهو قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك والسدي.

(٤) «فتح القدير» (٣/ ٣١٣).

قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفله، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاًّ بما يناسبه فقال: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه، فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، حدثنا أبو رافع عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، فيستثني فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفاً في رقابهم فيقتلهم بها**» قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم**»[(١)]. ورواه أحمد أيضاً عن حسن هو ابن موسى الأشهب عن سفيان عن قتادة به، وكذا رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان عن عبد الأعلى عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال: حدث أبو رافع وأخرجه الترمذي من حديث أبي عوانة عن قتادة ثم قال: غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه، وإسناده جيد قوي، ولكن متنه في رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه لإحكام بنائه وصلابته وشدته[(٢)]، ولكن هذا قد

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٨٠) «الفتن»، وأحمد (٢/ ٥١٠، ٥١١)، وابن حبان (١٩٠٨ موارد)، والحاكم (٤/ ٤٨٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٧٣٥).

(٢) قال الألباني في الرد على كلام الحافظ من نكارة متنه؛ لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه لإحكام بنائه وصلابته وشدته: لكن الآية لا تدل من قريب ولا بعيد أنهم لم يستطيعوا ذلك أبداً فالآية تتحدث عن الماضي والحديث عن المستقبل الآتي فلا تنافي ولا نكارة، بل الحديث يتمشى تماماً مع القرآن في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

روي عن كعب الأحبار أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون: غداً نفتحه، فيأتون من الغد وقد عاد كما كان فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل فيقولون: كذلك فيصبحون وهو كما كان فيلحسونه ويقولون: غداً نفتحه ويلهمون أن يقولوا: إن شاء الله فيصبحون وهو كما فارقوه فيفتحونه. وهذا متجه ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب فإنه كان كثيراً ما كان يجالسه ويحدثه، فحدث به أبو هريرة، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع فرفعه، والله أعلم.

ويؤيد ما قلناه: من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيءٍ منه ومن نكارة هذا المرفوع قول الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن الزهري عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبي سفيان عن أمها أم حبيبة عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ ـ قال سفيان: أربع نسوة ـ قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمرٌ وجهه وهو يقول: «**لا إله إلا الله ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا**» وحلّق، قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»[(١)] هذا حديث صحيح اتفق البخاري ومسلم على إخراجه من حديث الزهري، ولكن سقط في رواية البخاري ذكر أم حبيبة وأثبتها مسلم وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الإسناد: منها رواية الزهري عن عروة وهما تابعيان، ومنها اجتماع أربع نسوة في سنده كلهن يروي بعضهن عن بعض، ثم كلٌّ منهن صحابية، ثم ثنتان ربيبتان وثنتان زوجتان رضي الله عنهنَّ[(٢)].

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٨]:

قال الزمخشري: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى السد؛ أي: هذا السعد نعمة من الله و﴿رَحْمَةٌ﴾ على عباده. أو هذا الاقتدار والتمكين من تسويته ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ يعني: فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي جعل السد ﴿دَكَّآءَ﴾ أي: مدكوكاً مبسوطاً مُسوّىً بالأرض، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك،

(١) رواه البخاري (١٣/ ١١٣) «الفتن»، ومسلم (١٨/ ٢، ٣) «الفتن وأشراط الساعة».
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ١٠٤، ١٠٥).

ومنه الأدك: المنبسط السنام، وقرئ، دكاء بالمد؛ أي: أرضاً مستوية ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ آخر حكاية قول ذي القرنين(١).

❁ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} قال القاسمي ـ في ذكر فوائد القصة وقد جزم كما تقدم أنه الإسكندر وهو خلاف ما رجحناه، فليتنبه القارئ، وسوف نجعل «ذي القرنين» بين معكوفتين حتى تستقيم العبارة ـ ما ملخصه:

فمن فوائدها: الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض، ورزقه من يشاء بغير حساب ملكاً ومالاً، لِما له من خفي الحكم، وباهر القدرة، فلا إله سواه.

ومنها: الإشارة إلى القيام بالأسباب، والجري وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل، وأن على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر، فإن ما قص عن الإسكندر [ذي القرنين] من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمْسِ ومطلعها وشمالها، وعدم فتوره ووجدانه اللذة في مواصلة الأسفار وتجشم الأخطار، وركوب الأوعار والبحار، ثم إحرازه ذلك الفخار الذي لا يشق له غبار أكبر عبرة لأولي الأبصار.

ومنها: تنشيط الهمم لرفع العوائق، وأنه ما تيسرت الأسباب، فلا ينبغي أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز القفر عذراً في الخمول والرضا بالدون، بل ينبغي أن ينشط.

ومنها: أن مَنْ قدر على أعدائه وتمكن منهم، فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال، بل يعامل المحسن بإحسانه، والمسيء بقدر إساءته، فإن ما حكي عن الإسكندر [ذي القرنين] من قوله: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ . . .﴾ إلى آخره نهاية في العدل وغاية الإنصاف.

ومنها: أن على الملك التعفف عن أموال رعيته، والزهد في أخذ الأجرة

(١) «الكشاف» (٢/ ٧٤٨).

في مقابلة عمل يأتيه، ما أغناه الله عنه، ففي ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بمحبته.

ومنها: تعريف الغير ثمرة العمل المهم ليعرفوا قدره، فيظهروا شكره، ولذا قال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

ومنها: الإعلام بالدور الأخروي وانقضاء هذا الطور الأوَّلي، لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباقي والنعيم السرمدي ولذا قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾.

ومنها: الاعتبار بتخليد جميل الثناء، وجليل الآثار، فإن مَنْ أمعن النظر فيما قُصَّ عنه في هذه الآيات الكريمة، يتضح له جلياً حسن سجاياه وسمو مزاياه من الشجاعة وعلو الهمة والعفة والعدل، ودأبه على توطيد الأمن وإثابة المحسنين وتأديبه للظالمين والإحسان إلى النوع البشري، لا سيما في زمان كان فيه أكثر عوائد وأخلاق الأمم المتمدنة وغير المتمدنة وحشية فاسدة(١).

{٢} **وقال القرطبي** في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ [الكهف: ٩٥].

في هذه الآية دليل على أن المَلِك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق في حفظ بيضتهم، وسد فرجتهم، وإصلاح ثغورهم، من أموالهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي تجمعها خزانتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق وأنفذتها المؤن لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم، وذلك بثلاثة شروط:

الأول: ألَّا يستأثر عليهم بشيء.

الثاني: أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم.

الثالث: أن يسوي في العطاء بينهم على قدر منازلهم.

فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صفراً، فأطْلَعت الحوادث أمراً بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإن لم يغن ذلك فأموالهم تأخذ منهم على تقدير، وتصرف

---

(١) باختصار من محاسن التأويل (١١/٨٧ ـ ٩٠).

بتدبير، فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال في أن يكف عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج قال: لست أحتاج إليه، وإنما أحتاج إليكم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: اخدموا بأنفسكم معي، فإن الأموال عندي والرجال عندكم، ورأى أن الأموال لا تغني عنهم، فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه فيعود بالأجر عليهم، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى؛ وضابط الأمر: أنه لا يحل مال أحد إلا لضرورة تعرض، فيؤخذ ذلك المال جهراً لا سِرّاً، وينفق بالعدل لا بالاستئثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالأمر، والله تعالى الموفق للصواب[1].

{٣} اندكاك هذا السد وخروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى.

قال الشنقيطي: قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: ٩٨، ٩٩].

اعلم أولاً أنا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أنه إن كان لبعض الآيات بيان من القرآن لا يفي بإيضاح المقصود، وقد بينه النبي ﷺ فإنا نتمم بيانه بذكر السنة المبينة له: وقد قدمنا أمثلة متعددة لذلك فإذا علمت ذلك فاعلم أن هاتين الآيتين الكريمتين لهما بيان من كتاب أوضحته السنة فصار بضميمة السنة إلى القرآن بياناً وافياً بالمقصود، والله ـ جل وعلا ـ قال في كتابه لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. فإذا علمت ذلك فاعلم أن هذه الآية الكريمة وآية الأنبياء قد دلتا في الجملة على أن السد الذي بناه ذو القرنين دون يأجوج ومأجوج إنما يجعله الله دكاً عند مجيء الوقت الموعود بذلك فيه، وقد دلتا على أنه بقُرْب يوم القيامة؛ لأنه قال هنا: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ . . .﴾ الآية، وأظهر الأقوال في الجملة المقدرة التي عوض عنها تنوين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٤٠٩٩).

بَعۡضٖ﴾ أنه يوم إذا جاء وعد ربي بخروجهم وانتشارهم في الأرض ولا ينبغي العدول عن هذا القول لموافقته لظاهر سياق القرآن العظيم.

وآية الأنبياء المشار إليها هي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية [الأنبياء: ٩٦، ٩٧]؛ لأن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾، وإتباعه ذلك بقوله: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يدل في الجملة على ما ذكرنا في تفسير آية الكهف التي نحن بصددها. وذلك يدل على بطلان قول من قال: إنهم روسية وأن السد فتح منذ زمان طويل(١).

(١) باختصار من أضواء البيان (٤/ ١٨١، ١٨٢).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة قارون

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٨ ـ قصة قارون

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨٣].

□ بين يدي القصة:

هذه القصة التي سجلها الله ﷻ في كتابه عبرة للمعتبرين، وذكرى للمتقين، هي قصة فتنة المال حيث ينشغل الناس في جمعه، وحيث يدعو صاحبه إلى البغي وإلى العجب والكبر، فينسى حق الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧] والعبد لا يستغني عن ربه ﷻ طرفة عين، ولكنه بجاهه وماله يظن أنه استغنى، فيطغى عند ذلك على عباد الله، والقصة تتكرر في كل عصر ومصر، فأكثر أصحاب الأموال همهم أن يكثر المال فيبخلون بزكاته، وشدة حرصهم على المال وحبهم له يجعلهم

يجمعونه من الوجوه المباحة وغير المباحة، وقال ﷺ: **«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»**[١]، فطالب المال كشارب ماء البحر، كلما ازداد شُرباً ازداد عطشاً، ثم هذا الحرص وهو الحب الشديد والمبالغة في الطلب يفسد على العبد دينه الذي هو سبب السعادة في الدنيا والآخرة، وأكثر أصحاب الأموال لا يقولون بألسنتهم ما نطق به قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ ولكنه يعتقد ذلك بقلبه فيظن أنه بمهارته وذكائه، حَصَّل هذا المال الذي عجز عن تحصيله الآخرون. والناس ينخدعون بالمظاهر الكاذبة والزيف الظاهر ويتحاسدون غالباً على الأعراض والزخارف فليتهم يتحاسدون على العلم النافع والعمل الصالح، فأكثرهم إذا رأى أهل الدنيا يتقلبون في زينتها وزخارفها فيلبسون الثياب الفاخرة، ويركبون السيارات الفاخرة، وإن لم يقولوا بألسنتهم كما قال من قال: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ ولكنهم يتمنون ذلك بقلوبهم، ولكن أهل العلم والإيمان أصحاب الموازين الصحيحة يعلمون أن الدنيا ظلٌ زائل، وعرض حائل، وأن الآخرة هي الحيوان وأن ما عند الله خير.

وإنما ينفع المال إذا رزق العبد معه علماً وتقوى لله ﷻ وينفع العلم والتقوى كذلك بغير مال.

قال النبي ﷺ: **«إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي في ماله ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأحسن المنازل عند الله؛ ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فهو يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الأجر سواء؛ ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبط في ماله لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأسوأ المنازل عند الله؛ ورجل لم يؤته الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الوزر سواء»**[٢].

---

(١) رواه الترمذي (٩/ ٢٢٢، ٢٢٣) «الزهد»، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد (٣/ ٤٥٦)، وصححه الألباني في الصحيح (٥٤٩٦)، وكذا عبد القادر الأرناؤوط في تحقيق «جامع الأصول».

(٢) رواه الترمذي (٩/ ١٩٩، ٢٠٠) «أبواب الزهد»، وقال حسن: صحيح، وابن ماجه في =

فقصة قارون هي قصة الغنى المطغي الذي ينسى العبد نفسه، وينسيه ربه ﷻ فيتكبر ويتجبر ويبغي على عباد الله، وينخدع الناس بمظاهر هذا الغني، ويظنون أن صاحبه من أسعد النَّاس وأحسنهم حَظّاً، وما علموا أن الله ﷻ يعطي من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحبه، وذلك لحقارة الدنْيا وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥] فلولا أن يكون الناس أمة واحدة على الكفر وتكون الفتنة شديدة على أهل الإيمان، لفتح الله ﷻ على الكفار هذا الفتح في الدنيا لحقارتها، ثم جعل الله ﷻ الآخرة الباقية هي نصيب المؤمنين فنسأل الله ﷻ أن يجعلنا منهم، وأن يحشرنا في زمرتهم.

وظهر في نهاية القصة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ حقارة الدنيا وسرعة زوالها، وانقلاب حلاوتها مرارة، وزخرفها وزينتها دماراً وخسارة، وهكذا الدنيا من وثق بها واغتر بظاهرها ونسي الآخرة ولم يطلب وجه ربه الأعلى تتقلب به الليالي والأيام. ويذوق الويلات ويذهب إلى الآخرة صفر اليدين، وقد ترك أمواله وعقاراته، ولم يقدم لحياته، فلا يجد في الآخرة إلا النار، نعوذ بالله من حال أهل البوار.

ولنشرع في شرح الآيات فإنها أقوى تأثيراً وأقوم قيلاً...

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦]:

قال القرطبي: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ لما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ﴾ بيّن أن قارون أوتيها واغتر بها ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون، ولستم أيها المشركون بأكثر عدداً ومالاً من قارون وفرعون، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه.

= «الزهد» (٤٢٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٣٠، ٢٣١)، وصححه الألباني.

قال النخعي وقتادة وغيرهما: كان ابن عم موسى.

وقال ابن إسحاق: كان عم موسى لأب وأم.

وقيل: كان ابن خالته(١).

وقال القاسمي: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي: من شاكلتهم في الكفر والطغيان، وقوم موسى: جماعته الذين أرسل إليهم وهم القبط، وطاغيتهم فرعون ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بالكبر والاستطالة عليهم لما غلب عليه الحرص ومحبة الدنيا لغروره وتعززه برؤية زينة نفسه: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: من الأموال المدخرة ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ أي: مفاتيح صناديقه، على حذف مضاف، أو الإضافة لأدنى ملابسة، وقيل: خزائنه ﴿لَتَنُوٓأُ﴾ أي: تثقل ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أي: الجماعة الكثيرة من الرجال أو البغال ﴿أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ أي: بزخارف الدنيا فرحاً يشغلك عن الشكر، فيها والقيام بحقها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: هذا الفرح لما فيه من إيثارها عن الآخرة، والرضا بها عنها، والإخلاد إليها، وذلك أصل كل شر ومبعث كل فساد(٢).

وقال الزمخشري: وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن، وأما من قلبه إلى الآخرة، ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب لم تحدثه نفسه بالفرح، وما أحسن ما قال القائل:

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ ... تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالاً(٣)

قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧]:

قال الرازي ما ملخصه: ثم إنه تعالى بيّن أنه كان في قومه مَنْ وعظه بأمور:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/٥٠٢٦). (٢) «محاسن التأويل» (١٣/١٢٥، ١٢٦).
(٣) «الكشاف» (٣/٤٣٠).
قال في الهامش عن الشعر أنه لأبي الطيب، ومعناه: أشد الغم عندي وقت السرور الذي تيقن صاحبه الانتقال عنه وهكذا سرور الدنيا كله.

أحدها: قوله: ﴿لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ والمراد: أن لا يلحقه من البطر والتمسك بالدنيا ما يلهيه عن أمر الآخرة أصلاً.

وثانيها: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ﴾ والظاهر أنه كان مُقِرّاً بالآخرة، والمراد: أن يصرف المال إلى ما يؤديه إلى الجنة، ويسلك طريقة التواضع.

وثالثها: قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ وفيه وجوه أحدها: لعله كان مستغرق الهم في طلب الدنيا، فلأجل ذلك ما كان يتفرغ للتنعم والالتذاذ، فنهاه الواعظ عن ذلك، وثانيها: لما أمره الواعظ بصرف المال إلى الآخرة بيّن له بهذا الكلام أنه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة. وثالثها: المراد منه: الانفاق في طاعة الله، فإن ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذي يأكل ويشرب.

ورابعها: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ﴾ لمَّا أمره بالإحسان بالمال أمره بالإحسان مطلقاً، ويدخل فيه الإعانة بالمال والجاه، وطلاقة الوجه، وحسن اللقاء، وحسن الذكر، وإنما قال: ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ﴾ تنبيهاً على قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ﴾ [إبراهيم: ٧].

وخامسها: قوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ والمراد: ما كان عليه من الظلم والبغي، وقيل: إن هذا القائل هو موسى ﷺ وقال آخرون: بل مؤمنوا قومه، وكيف كان فقد جمع في هذا الوعظ ما لو قبل لم يكن عليه مزيد، ولكنه أبى أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨]:

قال ابن كثير رحمه الله ما ملخصه: يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين نَصحوه وأرشدوه إلى الخير ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ﴾ أي:

(١) «التفسير الكبير» (١٣/ ٢٥/ ١٤).

أنا لا أفتقر إلى ما تقولون، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ولمحبته لي فتقديرُه إنما أعطيته لعلم الله في أني أهل له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ [الزمر: ٤٩] أي: على علم من الله بي، وكقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ [فصلت: ٥٠] أي: هذا أستحقه، وقد روي عن بعضهم أنه أراد ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: كان يعاني علم الكيمياء، وهذا القول ضعيف؛ لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله ﷻ قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣] وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة**»[١] وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق الله في مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل، فكيف بمن يدعي أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى، هذا زورٌ ومحال وجهل وضلال، وإنما يقدرون على الصبغ في الصورة الظاهرة، وهي كذب وزغل وتمويه وترويج أنه صحيح في نفس الأمر وليس كذلك قطعاً لا محالة، ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحدٍ من الناس من هذه الطريقة التي يتعاطاها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه الله سبحانه من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك، فهَذا أمر لا ينكره مسلم، ولا يرده مؤمن، ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات، وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسماوات واختياره.

وقال بعضهم: إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم، فدعا الله به، فتمول بسببه، والصحيح المعنى الأول؛ ولهذا قال الله تعالى راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه الله من المال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: قد كان من هو أكثر منه

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٣٩٨) «اللباس»، ومسلم (١٤/ ٩٤) «اللباس».

مالاً، وما كان ذلك من محبة منا له، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لكثرة ذنوبهم[(١)].

وقال القاسمي: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤال ليعتذروا عنه، بل متى حق عليهم القول بفسقهم أهلكهم بغتة بلا معاتبة، وطلب عذر، ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بذلك لا بنصيحة قومه بقوله سبحانه[(٢)]: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

قال ابن كثير: ذكر كثير من المفسرين أنه خرج في تجمل عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله، وغبطوا بما عليه وله، فلما سمع مقالتهم العلماء ذووا الفهم الصحيح الزهاد الألباء، قالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ أي: ثواب الله في الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى، وهذه المقالة، وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية [لا يلقاها] إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده وأيد لبه وحقق مراده.

وما أحسن ما قال بعض السلف: إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٨١]:

قال الشوكاني: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يقال: خسف المكان يخسف خسوفاً: ذهب في الأرض، وخسف به الأرض خسفاً: أي غاب به فيها، والمعنى: أن الله سبحانه غيبه وغيب داره في الأرض، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما كان له جماعة يدفعون ذلك عنه ﴿وَمَا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٩٩، ٤٠٠) باختصار.

(٢) «محاسن التأويل» (١٣/ ٢٦١، ١٢٧). (٣) «قصص القرآن» (٤٢٢).

كَانَ﴾ هو في نفسه ﴿مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ من الممتنعين مما نزل به من الخسف[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: ٨٢]:

قال الزمخشري: قد يذكر الأمس ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك، ولكن الوقت المتقرب على طريق الاستعارة ﴿مَكَانَهُۥ﴾ منزلته في الدنيا «**وي**» مفصول عن **كأن**، وهي كلمة تنبه على الخطأ والتندُّم. ومعناه: أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وقولهم: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ وتندموا ثم قالوا: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح، وهو مذهب الخليل وسيبويه قال:

وَيْ كأنَّ من يكن له نَشبٌ يُحْبَبْ ... ومن يفتقر يَعِشْ عَيْشَ ضُرٍّ

وحكى الفراء أن أعرابية قالت لزوجها: أين ابنك؟ فقال: وي كأنه وراء البيت.

وعند الكوفيين «ويك» بمعنى: ويلك، وأن المعنى: ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون.

ويجوز أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى وي كقوله:

....ويك عنتر أقدم[(٢)]

وقال القاسمي: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: من شقي وسعيد ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقبض. فلا دلالة في البسط على السعادة، ولا في القبض على الشقاوة، بل يفعل سبحانه كل واحدٍ من البسط والقدر بمحض مشيئته، لا لكرامة توجب البسط، ولا لهوان يقتضي القبض ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: بعدم إيتائه متمنانا ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: كما خسف به ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي:

---

(١) «فتح القدير» (٤/ ١٨٧).

(٢) «الكشاف» (٣/ ٤٣٤) تكملة البيت:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقْدِمِ

لنعمة الله في صرفها في غير سبيلها، أو المكذبون برسله اغتراراً بزخارفهم[١].

ثم عقب الله ﷻ هذه القصة بالعبرة الظاهرة، وأتت في صورة السُّنة التي لا تبدل والقانون الذي لا يتغير لا يتحول، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣].

قال القرطبي: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ يعني: الجنة، وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها، يعني: تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: رفعة وتكبراً على الإيمان والمؤمنين ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ عملاً بالمعاصي قاله ابن جريج ومقاتل. وقال عكرمة ومسلم البطين: الفساد أخذ المال بغير حق. وقال الكلبي: الدعاء إلى غير عبادة الله. وقال يحيى بن سلام: هو قتل الأنبياء والمؤمنين.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال الضحاك: الجنة[٢].

وقال ابن كثير: ثم أخبر تعالى أن ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ وهي: دار القرار وهي: الدار التي يغتبط من أُعطيها، ويعزى من حرمها، إنما هي معدة ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ فالعلو هو: التكبر والفخر والأشر والبطر.

والفساد هو: عمل المعاصي اللازمة والمتعدية من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم والإساءة إليهم وعدم النصح لهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال القرطبي** في تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧]: أي: اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة، وهي: الجنة، فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة، لا في التجبر والبغي. ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ اختلف فيه: فقال ابن عباس والجمهور: لا تضيع عمرك في ألا

---

(١) «محاسن التأويل» (١٣/١٢٨).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/٥٠٣٦).

تعمل عملاً صالحاً في دنياك؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح، فالكلام على هذا التأويل شدة في الموعظة. وقال الحسن وقتادة: معناه: لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحَلال وطلبك إياه، ونظرك لعاقبة دنياك فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به، وإصلاح الأمر الذي يشتهيه، وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشِّدة، قاله ابن عطية.

قلت: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر في قوله: احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

وعن الحسن: قدِّم الفضل وأمسك ما يُبَلِّغ.

وقال مالك: هو الأكل والشرب بلا سرف.

وقيل: أراد بنصيبه: الكفن. فهذا وعظ متصل كأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذي هو الكفن، ونحو هذا قال الشاعر:

نصيْبُكَ ممَّا تَجْمَعُ الدَّهْرَ كُلَّه ... رِدَاءَانِ تُلْوَى فِيْهِمَا وحَنُوطُ

وقال آخر:

هي القناعةُ لا تَبْغِي بها بدلاً ... فيها النَّعيمُ وَفِيْهَا راحَةُ البَدَنِ
انْظُرْ لِمَنْ مَلكَ الدُّنيا بأجمَعِهَا ... هل راحَ مِنْهَا بغيرِ القُطْنِ[١] والكَفَن

قال ابن العربي: وأبدع ما فيه عندي قول قتادة: ولا تنس نصيبك الحلال، فهو نصيبك من الدنيا ويا ما أحسن هذا[٢].

{٢} **قال ابن كثير:** وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون في غير ما آية من القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤].

وقال تعالى في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ

---

(١) الأولى أن يقول: بغير الزاد والكفن. (٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٥٠٣٠).

ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩، ٤٠].

فالذي خسف به الأرض قارون كما تقدم، والذي أغرق فرعون وهامان وجنودهما، إنهم كانوا خاطئين.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمٰن، حدثنا سعيد، حدثنا كعب بن علقمة عن عيسى بن هلال الصدفي عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «**من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبي بن خلف**». انفرد به أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)].

﴿٣﴾ **قال الدكتور أحمد جمال العمري:** تمثل قصة قارون ـ في القرآن الكريم ـ جانب الطغيان بالمال والغرور بالعلم، وكيف مآلها إلى الفناء إذا تسلطت الأهواء، وسيطرت الأطماع، وتحول الإنسان من مجرد مخلوق من مخلوقات الله إلى متجبر متكبر يعلو بنفسه فوق الناس، ويزهو ويتعالى عليهم، وينظر إليهم بمنظار الاستعلاء والاستكبار، وقد وردت هذه القصة في القرآن على سبيل العظة والعبرة، لإثبات أن كل شيء مآله إلى زوال وأن الباقي هو وجه الله ذو الجلال والإكرام[(٢)].

﴿٤﴾ **وقال الأستاذ سيد قطب:** في كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا، ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها، فلا يسألون بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته، ولا أي

---

(١) «قصص الأنبياء» (٤٢٤، ٤٢٥).
والحديث: رواه أحمد (٢/ ١٦٩)، والدارمي (٢/ ٣٠١) «الرقاق»، وابن حبان (٤/ ٣٢٩) رقم (١٤٦٧) من «الإحسان»، ومحمد بن نصر المروزي (٥٨) «تعظيم قدر الصلاة»، وقال الهيثمي: رجال أحمد ثقات، وصححه شعيب الأرناؤوط في «الإحسان».

(٢) دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني للدكتور أحمد جمال العمري (٢٩٢)، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة.

الوسائل نال ما نال من عرض الحياة؟ من مالٍ أو منصب أو جاه ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى كما يتهافت الذباب على الحلوى ويتهاوى! ويسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذي أدوه، ولا إلى الطريق الدنس الذي خاضوه، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذوها[١].

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة، وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع، وهم أعلى نفساً وأكبر قلباً من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعاً، ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد وهؤلاء هم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ العلم الصحيح الذي يقومون به الحياة حق التقويم:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

ثواب الله خير من هذه الزينة، وما عند الله خير مما عند قارون، والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقّاها إلا الصابرون، الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم، الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها، الصابرون على الحرمان مما يتشهاه الكثيرون، وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة، درجة الاستعلاء على كل ما في الأرض، والتطلع إلى ثواب الله في رضى وثقة واطمئنان[٢].

❦ ❦ ❦

---

(١) وهذا في الغالب وليس على عمومه فإن جملة من الناس يوسع الله ﷻ عليهم من الحلال، وأما أكثرهم يجمعون المال من الوجوه المباحة والوجوه المحرمة ويمنعون الحقوق الواجبة.

(٢) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٧١٣).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة سبأ

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٩ ـ قصة سبأ

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: ١٥ ـ ٢١].

□ **بين يدي القصة:**

بعد أن قص الله ﷻ علينا في هذه السورة المباركة قصة داود وسليمان، وقد وهبهما الله ﷻ النبوّة والملك، وكانوا أمثلة للشكر، وأدام الله عليهما نِعَمَهُ، وزادهما من فضله ما لم يعط أحداً من العالمين، ذكر الله ﷻ قصة هذه القرية التي كانت تسكنها قبيلة سبأ، وكيف أن الله ﷻ وهبها من الخير العظيم والرزق العميم، وعاملهم بمغفرته وفضله، وكان عندهم من الزروع والنعيم وسهل لهم طرق السفر، وجعل بينهم وبين قرى الشام التي يقصدونها أماكن للاستراحة والقيلولة والمبيت، بحيث إنهم لا يحسون مشقة السفر، فكفروا بكل هذه النعم، ولم يقوموا بالشكر عليها، والله ﷻ حليم غفور شكور، لا يعاقب بعقوبات الاستئصال والعذاب الشديد إلا المبالغين في الكفر. ويعامل المؤمن بمغفرته ورحمته، وأشار إلى ذلك قوله ﷻ: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أي: بمثل هذا العذاب، فبدلهم الله ﷻ بهذه الجنان الوارفة الظل كثيرة الثمر بأشجار الأراك والشوك، ولما كان أفضل هذه الأشجار السدر قال: ﴿وَشَيْءٍ

مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وباعد بين أسفارهم، فصاروا يسيرون في مفاوزَ وقفار، وفقدوا أماكن الظل والراحة، وتفتتت قبيلتهم شذرَ مَذَرَ، فبدلهم الله بنعيمهم عذاباً، وبراحتهم مشقة، وبعد اجتماعهم، تفرقاً وشتاتاً، وَمَزَّقهم كل ممزق آية للصابرين، والشاكرين، وعبرة للمعتبرين وذكرى للعالمين.

◻ ولنشرع في شرح الآيات الكريمات:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ: ١٥]:

قال ابن كثير: كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل، والتفرق في البلاد، أيدي سبأ شذر مذر، كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ تفصيله وبيانه قريباً وبه الثقة، قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا أبو عبد الرحمٰن، حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن عبد الرحمٰن بن وعلة قال: سمعت ابن عباس يقول: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ: ما هو أرجل أم امرأة أم أرض؟ قال ﷺ: «**بل هو رجل ولد له عشرة، فسَكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير، وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان**»[١]، ورواه عبد عن الحسن بن موسى عن ابن لهيعة به وهذا إسناد حسن ولم يخرجوه، ومعنى قوله ﷺ: «**ولد له عشرة من العرب**»؛ أي: كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن، لا أنَّهم ولدوا من صلبه، بل منهم مَنْ بَيْنَهُ وبينَهُ الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر، كما هو

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣١٦).
قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف، وبقية رجالهما ثقات.

مقرر مبينٌ في مواضعه من كتب النسب، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً حتى ارتفع الماء وحُكِمَ على حافات ذينك الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن.

كما ذكر غير واحدٍ من السلف منهم قتادة: أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، وهو الذي تخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه، وكان هذا السد بمأرب بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ويعرف. وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شيءٌ من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شيءٌ من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم، ليوحدوه ويعبدوه كما قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ ثم فسرها بقوله ﷻ: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: من ناحيتي الجبلين، والبلدة بين ذلك ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: غفور لكم إذا استمررتم على التوحيد[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ: ١٦]:

قال القاسمي: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي: عن الشكر ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾، أي: سيل الأمر العرم أي: الصعب، والمطر الشديد ـ أو الوادي ـ أو السَّكْر الذي يحبس الماء ـ أو هو البناء الرَّصين المبني بين الجبلين لحفظ ماء الأمطار وخزنها، وقد ترك فيه أثقاب على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم، فلما طغوا أهلكهم الله بخراب هذا البناء، فانهال عليهم تيار مائه، فأغرق بلادهم، وأفسد عمرانهم وأرضهم، واضطر من نجا منهم للنزوح عنها، كما قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أي: ثمرٍ مُرٍّ، أو بَشعٍ لا يؤكل ﴿وَأَثْلٍ﴾ شجر يشبه الطرفاء من شجر البادية لا ثمر له، ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ

(١) باختصار من «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٣٠ ـ ٥٣٢).

قَلِيلٍ﴾ وهو شجر النبق؛ أي: قلة لا تسمن ولا تغني من جوع، فهذا تبديل النعم بالنقم، لمن لم يشكر النعم[(١)].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٧]:

قال الشوكاني: الإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدم من التبديل أو إلى مصدر ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ والباء في ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ للسببية؛ أي: ذلك التبديل أو ذلك الجزاء بسبب كفرهم للنعمة بإعراضهم عن شكرها، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي: وهل نجازي هذا الجزاء بسلب النعمة ونزول النقمة إلا الشديد الكفر المتبالغ فيه[(٢)].

وقال الزمخشري: والمعنى: أن مثل هذا الجزاء لا يستحقه إلا الكافر، وهو العقاب العاجل، وقيل: المؤمن تكفر سيئاته بحسناته، والكافر يحبط عمله فيجازى بجميع ما عمله من السوء.

ووجه آخر: وهو أن الجزاء عام لكل مكافأة يستعمل تارة في معنى المعاقبة وأخرى في معنى الإثابة، فلما استعمل في معنى المعاقبة في قوله: ﴿جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ بمعنى: عاقبناهم بكفرهم. قيل: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ بمعنى: وهل يعاقب؟ وهو الوجه الصحيح، وليس لقائل أن يقول: لم قيل: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ على اختصاص الكفور بالجزاء والجزاء عام للكافر والمؤمن؛ لأنَّهُ لم يرد الجزاء العام، وإنما أراد الخاص وهو العقاب، بل لا يجوز أن يراد العموم، وليس بموضعه. ألا ترى أنك لو قلت: جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكافر والمؤمن لم يصح، ولم يسد كلاماً، فتبين أن ما يتخيل من السؤال مضمحلٌ وأن الصحيح الذي لا يجوز غيره ما جاء عليه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا

---

(١) «محاسن التأويل» (١٤/ ١٢).

(٢) «فتح القدير» للشوكاني (٤/ ٣٢١).

(٣) «الكشاف» (٢/ ٥٧٠ ـ ٥٧٧).

وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٨، ١٩]:

قال القرطبي ما ملخصه: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾.

قال الحسن: يعني: بين اليمن والشام والقرى التي بورك فيها: الشام والأردن وفلسطين، والبركة قيل: إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية بورك فيها بالشجر والثمر والماء، ويحتمل أن يكون ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بكثرة العدد ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ يريد بين المدينة والشام.

وقال قتادة: معنى ﴿ظَٰهِرَةً﴾، متصلة على الطريق، يغدون فيقيلون في قرية، ويروحون فيبيتون في قرية، وقيل: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ أي: مرتفعة ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: جعلنا السير بين قراهم وبين القرى التي باركنا فيها سيراً مقدراً من منزل إلى منزل، ومن قرية إلى قرية؛ أي: جعلنا بين كل قريتين نصف يوم، حتى يكون المقيل في قرية والمبيت في قرية أخرى، وإنما يبالغ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء، ولخوف الطريق فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة، ونزل أينما أراد ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ أي: وقلنا لهم: سيروا فيها؛ أي: في هذه المسافة فهو أمر تمكين، أي: كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين فهو أمر بمعنى: الخبر؛ أي: كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه(١).

قال الرازي: وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قيل: بأنهم طلبوا ذلك وهو يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يسألوا بطراً كما طلبت اليهود الثوم والبصل، ويحتمل أن يكون ذلك لفساد اعتقادهم وشدة اعتمادهم على أن ذلك لا يقدر، كما يقول القائل لغيره: اضربني، إشارة إلى أنه لا يقدر عليه، ويمكن أن يقال: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ﴾ بلسان الحال؛ أي: لما كفروا فقد طلبوا أن يبعد بين أسفارهم، ويخرب المعمور من ديارهم، وقوله: ﴿وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ﴾ يكون بياناً لذلك،

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٥٣٧٢).

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلاً، يقال: تفرقوا أيدي سبأ. وقوله: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بيان لجعلهم أحاديث، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: فيما ذكرناه من حال الشاكرين، ووبال الكافرين[1].

وقال القرطبي: لما بطروا وطغوا وسئموا الراحة ولم يصبروا على العافية تمنوا طول الأسفار والكدح في المعيشة، كقول بني إسرائيل: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا﴾ [البقرة: ٦١]، وكالنضر بن الحارث حين قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأجابه الله تبارك وتعالى وقتل يوم بدر بالسيف صَبراً[2]؛ فكذلك هؤلاء تبددوا في الدنيا ومُزِّقوا كل ممزق، وجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل، ويتزودون الأزَواد[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١]:

قال ابن كثير ما ملخصه: لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباع الهوى والشيطان، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى، وخالف الرشاد والهدى فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧].

والآيات في هذا كثيرة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن

---

(١) «التفسير الكبير» (١٣/ ٢٥/ ٢١٩).

(٢) يقال للرجل إذا شدت يداه ورجلاه، أو أمسكه رجل آخر حتى يضرب عنقه، أو حبس على القتل حتى يقتل: قتل صبراً.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٥٣٧٢).

سُلْطَٰنٍ﴾ قال ابن عباس ﷺ: أي: من حجة. وقال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه.

قوله ﷻ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾؛ أي: إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء فيحسن عبادة ربه ﷻ في الدنيا ممن هو منها في شك.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: ومع حفظه ضل من ضل من أتباع إبليس، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من أتباع الرسل(١).

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ **الفوائد والآثار الإيمانية:**

{١} **قال القرطبي** في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٧].

في هذه الآية سؤال ليس في هذه السورة أشد منه، وهو أن يقال: لم خص الله تعالى المجازاة بالكفور، ولم يذكر أصحاب المعاصي؟ فتكلم العلماء في هذا فقال قوم: ليس يجازي بهذا الجزاء الذي هو الاصطلام والإهلاك إلا من كفر.

قال مجاهد: يجازي بمعنى: يعاقب؛ وذلك أن المؤمن يُكَفِّر الله تعالى عنه سيئاته، والكافر يجازى بكلِّ سوءٍ عمله، فالمؤمن يجزى ولا يجازى؛ لأنه يثاب.

وقال طاوس: هو المناقشة في الحساب، وأما المؤمن فلا يناقش الحساب.

وقال قطرب خلاف هذا، فجعلها في أهل المعاصي غير الكفار وقال: المعنى على من كفر بالنعم وعمل بالكبائر.

وقال النحاس: وأولى ما قيل في هذه الآية وأجل ما روي فيها أن الحسن قال: مثلاً بمثل.

(١) باختصار من «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٣٥، ٥٣٦).

وعن عائشة ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من حوسب هلك**» فقلت: يا نبي الله فأين قوله ﷿: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٧]، قال: «**إنما ذلك العرض، ومن نوقش الحساب هَلك**»[١] وهذا إسناد صحيح، وشرحه: أن الكافر يكافأ على أعماله ويحاسب عليها ويحبط ما عمل من خير، ويبين هذا قوله تعالى في الأول: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾، وفي الثاني: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾، ومعنى ﴿نُجَٰزِىٓ﴾: يكافأ بكل عمل عمله، ومعنى ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾: وَفَّيْنَاهُمْ، فهذا حقيقة اللغة، وإن كان «جَازَى» يقع بمعنى: «جَزَى» مجازاً[٢].

❦ ❦ ❦

(١) رواه البخاري (١١/ ٤٠٠) «الرقاق»، ومسلم (١٧/ ٢٠٨) «صفة يوم القيامة»، والترمذي (١١/ ٢٥٨) «صفة القيامة»، وأحمد (٦/ ٤٧، ٩١، ١٢٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٥٣٧٠، ٥٣٧١).

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة أصحاب القرية
إذ جاءها المرسلون

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

١٠ ـ قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ
أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا
إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ
تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ
قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾
اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ
شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ
﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ
﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم
مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ١٣ ـ ٣٠].

□ **بين يدي القصة:**

هذه القصة مثل من أمثلة الدعوة إلى الله ﷻ وقد استفرغ الدعاة إلى الله ﷻ جهدهم في البلاغ والنصيحة والتضحية من أجل هداية قومهم، وكان القوم غاية في الغباوة والكفر والتكذيب، فلم ينفعهم نصح الناصحين ووعظ الواعظين، وإن كانت عاقبة المؤمنين والمكذبين قد تتشابه في النظر القاصر على الدنيا، الجاحد للآخرة، إلا أن الله ﷻ الذي أحاط بكل شيء علماً ويستوي في علمه السر والعلانية، والغيب والشهادة، بيّن لنا كيف أن

المؤمن ما هي إلا لحظة القتل، والشهيد لا يذوق من مس القتل إلا كما يذوق من مس القرصة، فما هي إلا مَسُّ القرصة ثم ينتقل إلى كرامة الله ورحمته، والداعية تتغلغل الدعوة في قلبه مع أنه ليس عليه هداهم، إلا أنه حريص على هداية قومه كما قال الله تعالى في حق نبيه محمد ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣] فقال هذا المؤمن، وقد انتقل من دار الجهد والبلاء، إلى دار النعيم والجزاء: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾ فتمنى لو أن قومه الذين قتلوه نصراً للباطل وغيرة على الكفر اطلعوا على ما آل إليه أمره من النعيم المقيم والسعادة في جوار رب العالمين؛ لعل ذلك يجعلهم يراجِعُونَ أنفسهم ويثوبون إلى رشدهم ويتوبون إلى ربهم، وكما أن العاقبة كانت أحسن العواقب للمؤمن الذي قام بواجب الدعوة والبيان، كانت عاقبة الكفر والكافرين أوخم العواقب وأبشعها ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾ قال الله ﷻ ذلك تحقيراً لشأنهم وكيف أن الأمر لم يستأهل نزول ملائكة من السماء، وإنما كانت صيحة واحدة أرضية أو سماوية، أو من جبريل ﵇ فإذا هم خامدون، فأين التهديد؟ وأين الوعيد؟ وأين صولة الباطل وانتعاش المبطلين؟ ما هي إلا صيحة واحدة خسروا بها الدنيا والآخرة، وانتقلوا من عقوبة الدنيا وعذابها إلى عقوبة الآخرة وجحيمها ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٠﴾.

□ **ولنشرع في شرح الآيات الكريمات:**

قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٣﴾ [يس: ١٣]:

قال الشوكاني: المعنى: اضرب لأجلهم مثلاً، أو اضرب لأجل نفسك أصحاب القرية مثلاً: أي: مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية، فعلى الأول لما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾ وقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ قال: قل لهم: ما أنا بِدَعاً من الرسل، فإن قبلي بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون، وأنذروهم بما أنذرتكم، وذكّروا التوحيد، وخوفوا بالقيامة، وبشروا بنعيم دار الإقامة.

وعلى الثاني: لما قال: إن الإنذار لا ينفع من أضله الله وكتب عليه أنه لا يؤمن، قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: اضرب لنفسك ولقومك مثلاً؛ أي: مثل لهم عند نفسك مثلاً بأصحاب القرية، حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنُوا، وصبر الرسل على الإيذاء، وأنت جئت إليهم واحداً، وقومك أكثر من قوم الثلاثة، فإنهم جاءوا إلى أهل القرية؛ وأنت بعثتك إلى الناس كافة، والمعنى: واضرب لهم مثلاً مثل أصحاب القرية: أي: اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية، فترك المثل، وأقيم أصحاب القرية مقامه في الإعراب.

قال القرطبي: هذه القرية هي: أنطاكية في قول جميع المفسرين [وسوف يأتي ما في هذا القول إن شاء الله تعالى].

وقوله: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قيل: رسل من الله على الابتداء. وقيل: إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله[١].

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس: ١٤، ١٥]:

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ أي: بادروهما بالتكذيب ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ أي: لأهل تلك القرية ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أي: من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له، قاله أبو العالية وزعم قتادة أنهم كانوا رسل المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى أهل أنطاكية ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر، ونحن بشر، فلم لا أوحي إلينا مثلكم، ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة، وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة، كما أخبر الله في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦] أي: استعجبوا من ذلك وأنكروه.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ

---

(١) باختصار من «الجامع لأحكام القرآن» (٦/٥٤٥٨).

يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله تعالى حكاية عنهم في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾﴾(١) [الإسراء: ٩٤].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ [يس: ١٦، ١٧]:

قال الزمخشري: وقوله: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾ جار مجرى القسم في التوكيد، وكذلك قولهم: شهد الله، وعلم الله، وإنما حسن منهم هذا الجواب الوارد على طريق التوكيد والتحقيق مع **قولهم:** ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ أي: الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة لصحته، وإلا فلو قال المدعي: والله إنِّي لَصَادِق فيما أدعي، ولم يحضر البينة كان قبيحاً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٨، ١٩]:

قال الزمخشري ما ملخصه: ﴿تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ تشاءمنا بكم، وذلك أنَّهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه واشتهوه وآثروه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم نعمة أو بلاء قالوا: ببركة هذا وبشؤم هذا، كما حكى الله عن القبط: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: ١٣١] وعن مشركي مكة: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ [النساء: ٧٨] ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ وقرئ «طيركم» أي: سبب شؤمكم معكم، وهو كفركم أو أسباب شؤمكم معكم، وهي: كفرهم ومعاصيهم.

وقرئ ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ بهمزة الاستفهام وحرف الشرط، و«آئن» بألف بينهما بمعنى: أتطيرون إذ ذكرتم.

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ في العصيان؛ ومن ثَمَّ أتاكم الشؤم، لا من قبل

---

(١) باختصار من «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٦٧).

رسل الله وتذكيرهم، أو بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم متمادون في غيكم، حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله[١].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس: ٢٠، ٢١]:

قال الرازي ما ملخصه: ثم قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وفي فائدته وتعلقه بما قبله وجهان:

أحدهما: أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعي، وعلى هذا **فقوله**: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ فيه بلاغة باهرة، وذلك لأنه لما جاءَ ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ وهو قد آمن دل على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة.

وثانيهما: أن ضرب المثل لما كان لمحمد ﷺ تسلية لقلبه بعد الفراغ من ذكر الرسل بسعي المؤمنين في تصديق رسلهم، وصبرهم على ما أوذوا ووصول الجزاء الأوفى إليهم؛ ليكون ذلك تسلية لقلب أصحاب محمد، كما أن ذكر المرسلين تسلية لقلب محمد ﷺ.

وفي التفسير مسائل:

• **المسألة الأولى**: قوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ في تنكير الرجل مع أنه كان معروفاً معلوماً عند الله فائدتان:

الأولى: أن يكون تعظيماً لشأنه؛ أي: رجل كامل الرجولية.

الثانية: أن يكون مفيداً لظهور الحق من جانب المرسلين، حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به، فلا يقال: إنهم تواطئوا.

• **المسألة الثانية**: قوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ تبصرة للمؤمنين وهداية لهم؛ ليكونوا في النصح باذلين جهدهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيه معانٍ لطيفة:

الأول: في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ فإنه ينبيء عن إشفاق عليهم وشفقة، فإن

---

(١) باختصار من «الكشاف» (٤/ ٩).

إضافتهم إلى نفسه **بقوله**: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يفيد أنه لا يريد بهم إلا خيراً، وهذا مثل قول مؤمن آل فرعون ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ [غافر: ٣٨] فإن قيل: قال هذا الرجل: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقال ذلك: ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ فما الفرق؟ نقول: هذا الرجل جاءهم وفي أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته، فقال: اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل، وأوضحوا لكم السبيل، وأما مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مراراً فقال: اتبعوني في الإيمان بموسى وهارون عليهما السلام واعلموا أنه لو لم يكن خيراً لما اخترته لنفسي، وأنتم تعلمون أني اخترته، ولم يكن للرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى أن يقول: أنتم تعلمون اتباعي لهم.

الثاني: جمع بين إظهار النصيحة وإظهار إيمانه ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ نصيحة، وقوله: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إظهار أنه آمن.

الثالث: قدم إظهار النصيحة على إظهار الإيمان؛ لأنه كان ساعياً في النصح، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل، وقوله: ﴿رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ يدل على كونه مريداً للنُّصح.

ثم قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ وهذا في غاية الحسن، وذلك من حيث إنه لما قال: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كأنهم منعوا كونهم مرسلين، فنزل درجة وقال: لا شك أن الخلق في الدنيا سالكون طريقة، وطالبون للاستقامة، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه، والامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين: إما مغالاة الدليل في طلب الأجرة، وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق. لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة، وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق، فهبْ أنهم ليسوا بمرسلين هادين، أليسوا بمهتدين؟ فاتبعوهم[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٢، ٢٣]:

قال القاسمي: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: خلقني. وهذا تلطف

---

(١) باختصار من «التفسير الكبير» (١٣/٢٦/٤٨، ٤٩).

في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح، حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه، والمراد: تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره، كما ينبئ عنه قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: بعد الموت.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي: فأضرع إليها وأعبدها، وهي في المهانة والحقارة بحيث ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي: من ذلك الضر، بالنصر والمظاهرة، وفيه تحميق لهم؛ لأن ما يتخذ ويصنعه المخلوق كيف يعبد؟[1].

قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٥ ـ ٢٧]:

قال الزمخشري: يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني، فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه، أن العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم وما أدفع العقول وأنكرها؛ لأن تستحبوا على عبادته عبادة أشياء إن أرادكم هو بضر وشفع لكم هؤلاء لم تنفع شفاعتهم، ولم يمكنوا من أن يكونوا شفعاء عنده، ولم يقدروا على إنقاذكم منه بوجه من الوجوه إنكم لفي هذا الاستحباب في ضلالٍ ظاهر بيّنٍ لا يخفى على ذي عقل وتمييز. وقيل: لما نصح قومه أخذوا يرجمونه، فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتل فقال لهم: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ أي: اسمعوا إيماني تشهدوا لي به[2].

قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦، ٢٧]:

قال ابن كثير: قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً لا تلقاه غاشاً، لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هجم عليه.

وقال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته في قوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ

---

(١) «محاسن التأويل» (١٤/ ٦٥).
(٢) «الكشاف» (٤/ ١٠ ـ ١١) باختصار.

ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ رواه ابن أبي حاتم، وقال سفيان الثوري عن عاصم الأحول عن أبي مجلز: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ بإيماني بربي وتصديق المرسلين، ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل، فرحمه الله ورضي عنه فلقد كان حريصاً على هداية قومه[١].

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ٢٨، ٢٩]:

قال الزمخشري ما ملخصه: المعنى: أن الله كفى أمرهم بصيحة مَلَكٍ، ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء كما فعل يوم بدر والخندق، فإن قلت: وما معنى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ قلت: معناه: وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قوم حبيب جنداً من السماء، وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون البعض، وما ذلك إلا بناءً على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠] فإن قلت: فلم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق؟ قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩] ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤] ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]؟

قلت: إنما كان يكفي ملك واحد، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة منه، ولكن الله فضل محمداً ﷺ بكل شيء على كبار الأنبياء وأولي العزم من الرسل، فضلاً عن حبيب النجار، وأولاه من أسباب الكرامة والإعذار ما لم يوله أحداً؛ فمن ذلك: أنه أنزل له جنوداً من السماء، وكأنه أشار **بقوله**: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ إلى أن إنزال الجنود من عظائم الأمور، التي لا يؤهل لها إلا مثلك. وما كنا نفعله بغيرك ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ إن كانت الأخذة أو

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٦٨).

العقوبة إلا صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ خمدوا كما تخمد النار فتعود رماداً، كما قال لبيد:

وَمَا الـمَرْءُ إلا كـالشِّهَابِ وَضَوئِهِ يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إذْ هُوَا ساطعُ؟(١)

قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠].

قال الرازي: ثم قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ أي: هذا وقت الحسرة فاحضري يا حسرة، والتنكير للتكثير، وفيه مسائل:

• **المسألة الأولى:** الألف واللام في العباد يحتمل وجهين:

أحدهما: للمعهود الذين أخذتهم الصيحة، فيا حسرة على أولئك.

وثانيهما: لتعريف الجنس جنس الكفار المكذبين.

• **المسألة الثانية:** من المتحسر؟ نقول: فيه وجوه:

الأول: لا متحسر أصلاً في الحقيقة إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة، حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب.

الثاني: أن قائل: يا حسرة! هو الله على الاستعارة تعظيماً للأمر وتهويلاً له.

الثالث: المتلهفون من المسلمين والملائكة.

إلى أن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثم بيّن تعالى سبب الحسرة بقوله تعالى:

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهذا سبب الندامة، وذلك لأن من جاءه مَلِكٌ من بادية وأعرفه نفسه، وطلب منه أمراً هيناً، فكذبه ولم يجبه إلى ما دعاه، ثم وقف بين يديه وهو على سرير ملكه، فعرفه أنه ذلك، يكون عنده من الندامة ما لا مزيد عليه، فكذلك الرسل هم ملوك وأعظم منهم بإعزاز الله إياهم، وجعلهم نوابه كما قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وجاءوا وعرفوا أنفسهم، ولم يكن لهم عظمة ظاهرة في الحس، ثم يوم القيامة أو عند ظهور البأس، ظهرت عظمتهم عند الله لهم،

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/٥٦٩، ٥٧٠) باختصار.

وكان ما يدعون إليه أمراً هيناً نفعه عائد إليهم من عبادة الله، وما كانوا يسألون عليه أجراً، فعند ذلك تكون الندامة الشديدة، وكيف لا وهم لا يقتنعوا بالإعراض حتى آذوا واستهزؤوا واستخفوا واستهانوا[1].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} قال ابن كثير رحمه الله: قد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي: أنطاكية، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما نص عليه قتادة وغيره، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره، وفي ذلك نظر من وجوه:

أحدها: أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله ﷺ لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ إلى أن قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام، والله تعالى أعلم، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

الثاني: أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم.

الثالث: أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليه، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، ذكروه عند قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣].

---

(١) باختصار من «التفسير الكبير» (١٣/٢٦/٥٦).

فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية كما أطلق ذلك غير واحدٍ من السلف. أيضاً، أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة، مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت، لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك، والله ﷻ أعلم. اهـ ملخصاً[١].

{٢} **قال القرطبي** في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

وفي معنى تمنيه قولان:

أحدهما: أنه تمنى أن يعلموا بحاله، ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته.

الثاني: تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه، فيصيروا إلى مثل حاله، قال ابن عباس: نصح قومه حياً وميتاً. وفي هذه الآية تنبيه عظيم ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار، وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في افتدائه والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام[٢].

{٣} **قال الرازي** في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ لما قال: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ بين ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجماد إلى عبادة الحي القيوم، ومن عبادة ما لا ينفع إلى عبادة من منه كل نفع، وفيه لطائف أخرى: قوله: ﴿مَا لِيَ﴾ أي: مَا لِيَ مَانع من جانبي، إشارة إلى أن الأمر من جهة المعبود ظاهر لا خفاء فيه، فمن يمتنع من عبادته يكون من جانبه مانع ولا مانع من جانبي، فلا جرم عبدته، وفي العدول عن مخاطبة القوم إلى حال نفسه حكمة أخرى، ولطيفة ثانية: وهي: أنه لو قال: ما لكم لا تعبدون الذي فطركم، لم يكن في البيان مثل قوله: ﴿وَمَا لِيَ﴾ لأنه لما قال: ﴿وَمَا لِيَ﴾ وأحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل أحدٍ أنه لا يطلب

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٦٩، ٥٧٠) باختصار.

(٢) باختصار من «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٥٤٦٤). وهو بتصرف من «الكشاف» (٤/ ١١).

العلة وبيانها من أحد؛ لأنه أعلم بحال نفسه، فهو يبين عدم المانع، وأما لو قال: ﴿مَا لَكُمْ﴾ جاز أن يفهم منه أن يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه، فإن قيل: قال الله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣] نقول: القائل هناك غير مدعو، وإنما هو داع، وههنا الرجل مدعو إلى الإيمان فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ﴾ وقد طلب مني ذلك.

الثالثة: قوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ إشارة إلى وجود المقتضى، فإن قوله: ﴿وَمَا لِيَ﴾ إشارة إلى عدم المانع، وعند عدم المانع لا يوجد الفعل ما لم يوجد المقتضى فقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ينبئ عن الاقتضاء، فإن الخالق ابتداءً مالك، والمالك يجب على المملوك إكرامه وتعظيمه.

الرابعة: قدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضى، مع أن المستحسن تقديم المقتضى حيث وجد المقتضى ولا مانع، فيوجد لأن المقتضى لظهوره كان مستغنياً عن البيان رأساً فلا أقل من تقديم ما هو أولى بالبيان لوجود الحاجة إليه.

الخامسة: اختار من الآيات فطرة نفسه؛ لأنه لما قال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ﴾ بإسناد العبادة إلى نفسه، اختار ما هو أقرب إلى إيجاب العبادة على نفسه، وبيان ذلك هو أن خالق عمرو يجب على زيد عبادته؛ لأن من خلق عمراً لا يكون إلا كامل القدرة، شامل العلم، واجب الوجود، وهو مستحق للعبادة على كل مكلف، لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر إيجاباً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارة إلى الخوف والرجاء، كما قال: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] وذلك لأن من يكون إليه المرجع يخاف منه ويرجى، وفيه أيضاً معنى لطيف، وهو: أن العابد على أقسام ثلاثة ذكرناها مراراً.

فالأول: عابد يعبد الله لكونه إلهاً مالكاً سواء أنعم بعد ذلك أو لم ينعم، كالعبد الذي يجب عليه خدمة سيده، سواء أحسن إليه أو أساء.

الثاني: عابد يعبد الله للنعمة الواصلة إليه.

الثالث: عابد يعبد الله خوفاً[1].

---

(١) «التفسير الكبير» (١٣/٢٦/٤٩ ـ ٥٠) باختصار.

=

{٤} قال الأستاذ سيد قطب في وصف خاتمة القصة: يوحي سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوه أن قتلوه، وإن كان لا يذكر شيئاً من هذا صراحة، وإنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها، وعلى القوم وما هم فيه، ويرفعه لنرى هذا الشهيد الذي جهر بكلمة الحق متبعاً صوت الفطرة، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل، نراه في العالم الآخر ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة تليق بمقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد.

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة، ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء، وخطوة يخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة، ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق، ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم، ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين، ونرى الرجل المؤمن، وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة والكرامة يذكر قومه طيب القلب، رضي النفس، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة، ليعرفوا الحق معرفة اليقين.

هذا كان جزاء الإيمان، فأما الطغيان فكان أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره، فهو ضعيف ضعيف: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ٢٨، ٢٩].

ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم، تهويناً لشأنهم وتصغيراً لقدرهم، فما كانت إلا صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم(١).

= والواجب على المسلم أن يعبد الله ﷻ حباً ورجاءً وخوفاً، وقد يغلب أحد هذه الثلاثة في بعض الأوقات أو الأشخاص، ولكن العبادة لا تخلو من ذلك، فقد قال بعض السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد.

(١) «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٩٦٤) بتصرف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة
مؤمن آل فرعون

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

١١ ـ قصة مؤمن آل فرعون

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ
فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن
رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ (٢٨) يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي
ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ
أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ
ٱلۡأَحۡزَابِ (٣٠) مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ
(٣١) وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ (٣٢) يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ
عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ (٣٣) وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا
زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ
كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ (٣٤) ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ
سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ (٣٥) وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ (٣٦)
أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ
سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ (٣٧) وَقَالَ ٱلَّذِيٓ
ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٣٨) يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا
مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ (٣٩) مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ
عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ
فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ (٤٠) ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ (٤١)
تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ

ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٢٦ ـ ٤٦].

□ بين يدي القصة:

الصراع بين الإيمان والكفر قصته واحدة يختلف الأفراد من الطغاة والجبابرة، ومن المؤمنين، ولكنَّ الصراع واحد، وأدلة أهل الإيمان على إيمانهم واحدة وشبهات الطغاة والجبابرة واحدة، كما أن النهاية كذلك واحدة، فالباطل ينتفش ويبدو بأسبابه الأرضية كأنه على كل شيء قدير، ولكنه عندما يواجه الحق الذي يستمد قوته من الله ﷻ تكون العاقبة للمتقين، والهلاك والعذاب للطغاة والمتكبرين.

والذي معنا في هذه القصة ليس نبياً من الأنبياء، ولكنه مؤمن صادق الإيمان، قوي الحجة، يدعو إلى الله ﷻ بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد ظل يكتم إيمانه حتى يقبل قوله في الوقت الذي تنفع فيه نصيحته، وتقبل دعوته، وقد أظهر إيمانه عندما اشتد الخلاف واحتدم النزاع بين طاغية الزمان فرعون وبين رسول رب الأنام موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ احتمى موسى بجناب الله، الذي يحتمي به المؤمنون، ويثق به المتقون فقال: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقد كان ـ رحمه الله ورضي عنه ـ يقودُوهم في مناظرته بالمنطق الطيب والحجة الدامغة، فأنكر أولاً عليهم كيف يقتلون من يقول: ربي الله، ولا مصلحة في ذلك لأنه إن كان كاذباً على الله فيستنتقم الله منه فيكفيهم أمره، وإن كان صادقاً انتقم الله ﷻ منهم، ثم أخبرهم بأن معاداة أولياء الله من أعظم أسباب هلاك الأمم، وزوال سلطان الحكام، ثم استرجع بهم الأمم المكذبة

قوم عاد وثمود والذين من بعدهم، كما ذكرهم بنبي الله يوسف، وكيف كان شأنهم معه، ثم قارن لهم بين دعوته لهم ودعوتهم، وكيف أن دعوته إلى الله ﷻ دعوة إلى النجاة والسعادة الأبدية، ودعوتهم إلى الكفر والشرك دعوة إلى النار، ثم فوض أمره إلى الله ﷻ ولا شك أنهم مكروا به، وكادوا له، ولكن العاقبة كما قال الله ﷻ للمتقين، ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥﴾ [غافر: ٤٥].

فكان حظه النجاة من كيد الدنيا وعذاب الآخرة، والفوز بسعادة الدنيا والآخرة، وكان عاقبة فرعون وآله وجنوده الهلاك في الدنيا بالغرق، وعرض أرواحهم على النار وفي البرزخ، ويستمر بهم ذلك إلى أن تقوم الساعة فيأمر الله ﷻ بهم إلى أشد العذاب، نعوذ بالله من أسباب الخسران والخذلان.

□ ولنشرع في شرح الآيات الكريمات:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۝٢٦﴾ [غافر: ٢٦]:

قال الزمخشري: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كانوا إذا هَمَّ بقتله كَفُّوه بقولهم ليس بالذي تخافه، وهو أقل من ذلك وأضعف، وما هو إلا بعض السحرة، ومثله لا يقاوم إلا ساحراً مثله، ويقولون: إذا قتلته أدخلت الشبهة على النَّاس واعتقدوا أنّك قد عجزت عن معارضته بالحجة، والظاهر أن فرعون ـ لعنه الله ـ كان قد استيقن أنه نبيٌّ، وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر؟ لكن الرجل كان فيه خِبٌّ وجربزة وكان قتَّالاً سفَّاكاً لِلدِّمَاء في أهون شيءٍ، فكيف لا يقتل من أحسَّ منه بأنه هو الذي يثل عرشه، ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن هَمَّ بقتله أن يعاجل بالهلاك، وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه، وكان قوله: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه، وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع، ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي: يغير ما أنتم عليه، وكانوا يعبدونه ويعبدون الأصنام بدليل قوله: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

إني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه[١].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٢٧]:

قال ابن كثير: أي: عذت بالله، ولجأت إليه، واستجرت بجنابه، من أن يسطو فرعون وغيره عَلَيَّ بسوءٍ، وقوله: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: جَبَّارٍ عَنِيْدٍ لا يرعوي ولا ينتهي ولا يخاف عذاب الله وعقابه؛ لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاءً، ولهذا قال: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: ٢٨]:

قال الشوكاني: قال الحسن ومقاتل والسدي: كان قبطياً وهو ابن عم فرعون، وهو الذي نجا مع موسى، وهو المراد بقوله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ . . .﴾ الآية [القصص: ٢٠] وقيل: كان من بني إسرائيل، ولم يكن من آل فرعون، وهو خلاف ما في الآية، وقد تمحل لذلك بأن في الآية تقديماً وتأخيراً. والتقدير: وقال رجل مؤمن من بني إسرائيل يكتم إيمانه من آل فرعون.

قال القشيري: ومن جعله إسرائيلياً ففيه بعد؛ لأنه يقال: كتمه أمر كذا ولا يقال: كتم منه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، وأيضاً ما كان فرعون يحتمل من بني إسرائيل مثل هذا القول[٣].

وقال الزمخشري ما ملخصه: ﴿أَن يَقُولَ﴾ لأن يقول، وهذا إنكار منه عظيم وتبكيت شديد، كأنه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي: قتل نفس

---

(١) «الكشاف» (٤/ ١٦٠، ١٦١) باختصار.
(٢) «قصص الأنبياء» (٣٣٣، ٣٣٤).
(٣) «فتح القدير» للشوكاني (٤/ ٤٨٨، ٤٨٩).

محرمة، وما لكم علة قط في ارتكابها إلا كلمة الحق، التي نطق بها، وهي قوله: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ مع أنَّه لم يحضر لتصحيح قوله بينة واحدة، ولكن بيناتٍ عدة، من عند من نسب إليه الربوبية، وهو ربكم لا ربَّه وحده، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به وَلِيُلَيِّنُ بذلك جماحهم، ويكسر من سورتهم، وقوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يريد بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها، ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي: يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره، ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ﴾ ما يعدكم إن تعرضتم له. فإن قلت: لم قال: ﴿ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ وهو نبي صادق، لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؟ قلت: لأنه في مقاولة خصوم موسى ومُناكِرِيْهِ إلى أن يلاوصهم ويداريهم، ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول، ويأتيهم من وجهة المناصحة فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وتقديم الكاذب على الصادق أيضاً من هذا القبيل(١).

وقال القاسمي: قال الناصر: ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧] فقدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف، وإن كان الصادق هو يوسف، دونها، لرفع التهمة وإبعاد الظن، وإدلالاً بأن الحق معه، ولا يضره التأخير لهذه الفائدة، وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة، ما في قصة يوسف مع أخيه، إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه. انتهى(٢).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]:

قال الشوكاني: وهو احتجاج آخر ذو وجهين:

أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى البينات، وأيده بالمعجزات.

وثانيهما: أنه إذا كان كذلك خذله الله وأهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله،

---

(١) «الكشاف» (٤/ ١٦٢) باختصار. (٢) «محاسن التأويل» (١٣/ ٢٣٢).

والمسرف: المقيم على المعاصي المستكثر منها، والكذاب: المفتري[(١)].

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر: ٢٩]:

قال ابن كثير: وقوله: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز، فإنه ما تعرضت الدولة للدين إلا سلبوا ملكهم، وذلوا بعد عزهم.

وكذا وقع لآل فرعون، ما زالوا في شكٍّ وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به، حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور، والنعمة والحبور، ثم حولوا إلى البحر مُهَانِينَ، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين.

ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الراشد التابع للحق الناصح لقومه، الكامل العقل: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: عالين على الناس حاكمين عليهم ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي: لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعُدَّة، والقوة والشدة، لما نفعنا ذلك، ولا رد عنا بأس مالك الممالك.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ أي: في جوابه هذا كله ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أقول لكم إلا ما عندي ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين، فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة، وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدواناً وعُتُوّاً وكفراناً.

قال الله تعالى إخباراً عن موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

---

(١) «فتح القدير» (٤/٤٨٩).

وأما قوله: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فقد كذب أيضاً، فإنه لم يكن على رشاد من الأمر، بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال، ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر والمحال في دعواه أنه رب، تعالى الله ذو الجلال[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: ٣٠ ـ ٣٣]:

قال الرازي ما ملخصه: واعلم أنه تعالى حكى عن هذا المؤمن أنواعاً من الكلمات ذكرها لفرعون.

• **فالأول**: قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ والتقدير: مثل أيام الأحزاب، إلا أنه لما أضاف اليوم إلى الأحزاب، وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود فحينئذٍ ظهر أن كل حزب كان له يوم معين في البلاء، فاقتصر من الجمع على ذكر الواحد لعدم الالتباس ثم فسر قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ بقوله: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ ودأب هؤلاء دونهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي فيكون ذلك دائباً دائماً لا يفترون عنه، ولا بد من حذف مضاف، يريد مثل جزاء دأبهم، والحاصل أنه خوفهم بهلاك معجلٍ في الدنيا، ثم خوفهم أيضاً بهلاك الآخرة، وهو قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ والمقصود منه التنبيه على عذاب الآخرة.

• **والنوع الثاني**: من كلمات ذلك المؤمن قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ يعني: أن تدمير أولئك الأحزاب كان عدلاً؛ لأنهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للأنبياء فتلك الجملة قائمة ههنا فوجب حصول الحكم ههنا.

• **النوع الثالث**: من كلمات هذا المؤمن، قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾، وفيه مسائل:

---

(١) «قصص القرآن» باختصار (٣٣٥، ٣٣٦).

ـ **المسألة الأولى**: التناد تفاعل من النداء، يقال: تنادى القوم؛ أي: نادى بعضهم بعضاً، وأجمع المفسرون على أن يوم التناد: يوم القيامة، وفي سبب تسمية ذلك اليوم بذلك الاسم وجوه:

الأول: أن أهل النار ينادون أهل الجنة، وأهل الجنة ينادون أهل النار.

الثاني: قال الزجاج: لا يبعد أن يكون السبب فيه قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١].

الثالث: أنه ينادي بعض الظالمين بعضاً بالويل والثبور، فيقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

الرابع: ينادون إلى المحشر؛ أي: يُدعَون.

الخامس: ينادي المؤمن: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩]، والكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

السادس: ينادي باللعنة على الظالمين.

السابع: يجاء بالموت على صورة كبش أملح، ثم يذبح وينادى: يا أهل القيامة لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، وأهل النار حزناً على حزنهم.

الثامن: قال أبو علي الفارسي: التنادي مشتق من التناد من قولهم نَدَّ فلان إذا هرب، وهو قراءة ابن عباس فقال: يندون كما تند الإبل ويدل على صحة هذه القراءة قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ الآية [عبس: ٣٤]، وقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ لأنهم إذا سمعوا زفير النار يندون هاربين، فلا يَأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه.

ـ **المسألة الثانية**: انتصب قوله: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ لوجهين: أحدهما: الظرف للخوف كأنه خاف عليهم في ذلك اليوم لما يلحقهم من العذاب، إن لم يؤمنوا، والآخر: أن يكون التقدير: إنِّي أخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَاب يوم التناد، إذا كان كذلك كان انتصاب يوم التناد المفعول به.

ثم قال: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ وهو بدل من قوله: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ عن قتادة منصرفين عن موقف يوم الحساب إلى النار.

ثم أكد التهديد فقال: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ ثم نبه على قوة ضلالهم وشدة جهالتهم فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٣٤]:

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة والسلام، وهو يوسف ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان عزيز أهل مصر، وكان رسولاً يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط فما أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي: يئستم فقلتم طامعين: ﴿لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي: كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في أفعاله وارتياب قلبه[٢].

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥]:

قال ابن الجوزي: قَوْلُهُ تَعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ قال الزجاج: هذا تفسير المسرف المرتاب.

والمعنى: هم الذين يجادلون في آيات الله.

قال المفسرون: يجادلون في إبطالها والتكذيب بها بغير سلطان؛ أي: بغير حجة أتتهم من الله.

---

(١) باختصار من «التفسير الكبير» (١٤/ ٢٧/ ٥٣ ـ ٥٤).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٧٩).

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ أي: كبر جدالهم مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا.

والمعنى: يمقتهم الله ويمقتهم المؤمنون بذلك الجدال.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما طبع الله على قلوبهم حتى كذبوا وجادلوا بالباطل يطبع ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ عن عبادة الله وتوحيده[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]:

قال ابن كثير: كذب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن الله أرسله، وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وقال ها هنا: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: طرقها ومسالكها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ ويحتمل هذا معنيين: **أحدهما:** وإني لأظنه كاذباً في قوله: إن للعالم رباً غيري، **والثاني:** في دعواه أن الله أرسله، والأول: أشبه بظاهر حال فرعون، فإنه كان ينكر ظاهراً إثبات الصانع، والثاني: أقرب إلى اللفظ، حيث قال: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي: فأسأله أم لا؟ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أي: في دعواه ذلك، إنما كان مقصود فرعون أن يصدَّ الناس عن تصديق موسى عليه السلام[(٢)].

قال القرطبي: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: الشرك والتكذيب ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ على ما لم يسم فاعله.

وقرأ ابن أبي إسحاق وعبد الرحمٰن بن بكرة ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ والباقون وَصَدَّ بفتح الصاد والدال؛ أي: صد فرعون الناس عن السبيل ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: في خسران وضلال ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١]، وفي موضع: ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣] فهدَّ الله صرحه، وغرَّقه هو وقومه

---

(١) «زاد المسير» (٧/ ٢٢٢). (٢) «قصص الأنبياء» (٣٣٨).

على ما تقدم[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٨، ٣٩]:

قال الزمخشري: قال: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فأجمل لهم، ثم فسر فافتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها؛ لأن الإخلاد إليها هو أصل الشر كله، ومنه يتشعب جميع ما يؤدي إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة، وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها، وأنها هي الوطن والمستقر، وذكر الأعمال سيئها وحسنها، وعاقبة كل منهما ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف ثم وازن بين الدعوتين: دعوة إلى دين الله الذي ثمرته النجاة، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار، وحذر وأنذر، واجتهد في ذلك واحتشد. لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون، وجعله حجة عليهم، وعبرة للمعتبرين[2].

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠]:

قال الألوسي: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ في الدنيا ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلاً من الله ﷻ، واستدل به على أن الجنايات تُغَرَّم بمثلها؛ أي: يوازنها من غير مضاعفة ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين عملوا ذلك ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير وموازنة بالعمل، بل أضعافاً مضاعفة فضلاً منه تعالى ورحمة، وقسم العمال إلى ذكر وأنثى للاهتمام والاحتياط في الشمول، لاحتمال نقص الإناث، وجعل الجزاء في جزاء أعمالهم جملة اسمية مصدرة باسم الإشارة، مع تفضيل الثواب، وتفصيله تغليباً للرحمة وترغيباً فيما عند الله ﷻ وجعل العمل عمدة وركناً من القضية الشرطية، والإيمان حالاً للدلالة على أن الإيمان شرط في اعتبار العمل، والاعتداد به، والثواب عليه؛ لأن الأحوال قيود

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٥٧٥٩). (٢) «الكشاف» (٤/ ١٦٨).

وشروط للحكم التي وقعت فيه، ويتضمن ذلك الإشارة إلى عظيم شرفه ومزيد ثوابه[١].

قوله تعالى: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر: ٤١، ٤٢]:

قال الشوكاني: كرر ذلك الرجل المؤمن، دعاءهم إلى الله، وصرّح بإيمانه، ولم يسلك المسالك المتقدمة أنه منهم، وأنه إنما تصدى التذكير كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى، كما يقول الرجل المحب لقومه من التحذير عن الوقوع فيما يخاف عليهم الوقوع فيه فقال: ﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ أي: أخبروني عنكم كيف هذه الحال: أدعوكم إلى النجاة من النار ودخول الجنة بالإيمان بالله، وإجابة رسله وتدعونني إلى النار بما تريدونه مني من الشرك. قيل: معنى ﴿مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ﴾: ما لكم أدعوكم كما تقول: ما لي أراك حزيناً؛ أي: ما لك، ثم فسر الدعوتين فقال: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ فقوله: تَدْعُونني بدل تدعونني الأولى أو بيان لها ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ أي: ما لا علم لي بكونه شريكاً لله ﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾ أي: العزيز في انتقامه ممن كفر الغفار لذنب من آمن به ﴿لَا جَرَمَ﴾ وجرم فعل ماضي بمعنى: حق، ولا الداخلة عليه لنفي ما ادعوه، ورد ما زعموه، وفاعل هذا الفعل هو قوله: ﴿أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: حق ووجب بطلان دعوته، قال الزجاج: معناه: ليس له استجابة دعوة تنفع، وقيل: ليس له دعوة توجب له الألوهية في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال الكلبي: ليس له شفاعة ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مرجعنا ومصيرنا إليه بالموت أولاً وبالبعث آخراً، فيجازي كل أحدٍ بما يستحقه من خيرٍ وشرٍ ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: المستكثرين من معاصي الله[٢].

قوله تعالى: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ

---

(١) «روح المعاني» (٢٤/ ٧٠، ٧١). (٢) «فتح القدير» (٤/ ٤٩٤) باختصار.

﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٤ ـ ٤٦]:

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ ما ملخصه: التحقيق الذي لا شك فيه أن هذا الكلام من كلام مؤمن آل فرعون الذي ذكر الله عنه وليس لموسى فيه دخل.

وقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ﴾ يعني: أنهم يوم القيامة يعلمون صحة ما كان يقول لهم، ويذكرون نصيحته، فيندمون حيث لا ينفع الندم، والآيات الدالة على مثل هذا من الكفار تنكشف لهم يوم القيامة حقائق ما كانوا يكذبون به في الدنيا كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام: ٦٦، ٦٧] وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [النبأ: ٤، ٥].. إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ﴾ دليل واضح على أن التوكل الصادق على الله وتفويض الأمور إليه سبب للحفظ والوقاية من كل سوءٍ، وقد جاء ذلك في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق: ٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤] والظاهر أن ما في قوله: ﴿سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ مصدرية أي: فوقاه الله سيئات مكرهم؛ أي: أضرار مكرهم وشدائده، والمكر: الكيد.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ معناه: أنهم لما أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن وقاه الله مكرهم، ورد العاقبة السيئة عليهم، فرد سوء مكرهم إليهم، فكان المؤمن المذكور ناجياً في الدنيا والآخرة، وكان فرعون وقومه هالكين في الدنيا والآخرة والبرزخ.

فقال في هلاكهم في الدنيا: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ...﴾ الآية وأمثالها من الآيات، وقال في مصيرهم في البرزخ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ﴾.

وقال في عذابهم في الآخرة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من حيق المكر السيء بالماكر أوضحه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

والعرب تقول: حاق به المكروه يحيق به حيقاً وحيوقاً: إذا نزل به وأحاط به، ولا يطلق إلا على إحاطة المكروه خاصة[١].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ **الفوائد والآثار الإيمانية:**

{١} لا شك أن ما قام به هذا الرجل المؤمن من آل فرعون، من الإنكار على فرعون عندما قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ ثم من دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان بالواحد الديان، والكفر بالطواغيت والأوثان من أفضل الجهاد، فقد قال النبي ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**»[٢].

وإنما كان ذلك أفضل الجهاد؛ لأن الخروج إلى الجهاد تعريض للنفس للتلف فقد تتلف نفسه وقد ينجو، أما الإنكار على السلطان الجائر فإن التلف يكون محققاً، إلا أن يشاء الله ﷻ وقد تكون المصلحة في الإنكار على السلطان الجائر أعظم نفعاً من المشاركة في ميدان القتال.

قال ابن كثير رحمه الله: المقصود: أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه فلما هَمَّ فرعون ـ لعنه الله ـ بقتل موسى عليه السلام وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب فقال على وجه المشورة والرأي.

وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**» وهذا من أعلى مراتب هذا المقام، فإن فرعون لا أشد جوراً منه، وهذا الكلام لا أعدل منه؛ لأن فيه عصمة نبي، ويحتمل أنه

---

(١) «أضواء البيان» (٧/ ٨٨ ـ ٩٠).

(٢) رواه أبو داود (٤٣٢٢) «الملاحم»، والترمذي (٩/ ٢٠) «الفتن» وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه (٤٠١١) «الفتن»، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٤٩١) عن أبي سعيد الخدري.

كاشفهم بإظهار إيمانه، وصرح لهم بما كان يكتمه، والأول أظهر، والله أعلم[(١)].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ قال القاضي أبو بكر ابن العربي: ظن بعضهم أن المكلف إذا كتم إيمانه ولم يتلفظ به بلسانه لا يكون مؤمناً باعتقاده، وقد قال مالك: إن الرجل إذا نوى بقلبه طلاق زوجته أنه يلزمه، كما يكون مؤمناً بقلبه وكافراً بقلبه، فجعل مدار الإيمان على القلب، وأنه كذلك. لكن ليس على الإطلاق، وقد بيناه في أصول الفقه بما لبابه أن المكلف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافراً، وإن لم يتلفظ بلسانه ولا تمنعه التقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى، وإنما تمنعه التقية من أن يسمعه غيره، وليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير في صحته من التكليف، وإنما يشترط سماع الغير له ليكف عن نفسه وماله[(٢)].

﴿٢﴾ وقف أبو بكر الصديق ﷺ هذا الموقف الذي وقفه مؤمن آل فرعون مع موسى عليه السلام.

روى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾[(٣)] [غافر: ٢٨]، بل ثبت أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما أفضل أولياء الله ﷻ بعد النبيين.

﴿٣﴾ استدل أهل السنة والجماعة الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ...﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] على فوقية الله ﷻ على خلقه، وأنه تعالى فوق السماء، وأن فرعون ما قال ذلك إلا لأن موسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ أخبره أن الله فوق السماء، وأدلة أهل السنة على ذلك أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تنشر.

---

(١) «قصص القرآن» لابن كثير (٣٣٤). (٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٥٧٥٢).

(٣) رواه البخاري (٧/ ٢٠٣) «مناقب الأنصار».

وإن خالف في ذلك المخالفون، ومن أظهر الأدلة في ذلك تصريح الله ﷻ بذلك في كتابه حيث قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦، ١٧] فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون.

وقال ابن جرير في قوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ أي: لأظن موسى كاذباً فيما يقول، ويدعي من أن له في السماء رباً أرسله إلينا[1].

{٤} **وقال القاسمي** في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦] والمراد: عرض أرواحهم عليها دائماً، واكتفى بالطرفين المحيطين ـ الغدو والعشي ـ عن الجميع، وبه يستدل على عذاب القبر والبرزخ، وقانا الله تعالى بمنّه.

قال السيوطي: وفي «العجائب» للكرماني: في هذه الآية أدل دليل على عذاب القبر؛ لأن المعطوف غير المعطوف عليه؛ يعني: قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: هذا العرض ما دامت الدنيا فإذا قامت الساعة يقال لهم: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ وهو عذاب جهنم؛ لأنه جزاء شدة كفرهم[2].

---

(١) «جامع البيان» (٢٤/٦٦)، ط. الحلبي الثانية.

(٢) «محاسن التأويل» (١٤/٢٣٩).

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة
أصحاب الجنة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

١٢ ـ قصة أصحاب الجنة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ١٧ ـ ٣٣].

□ بين يدي القصة:

هذه القصة التي سجلها الله ﷻ في كتابه، بعد أن ذَمَّ الوليد بن المغيرة، وقيل: الأخنس بن شريق، وقيل: الأسود بن عبد يغوث لقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم: ١٠ ـ ١٦] عاتب الله ﷻ أهل مكة فقال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: إن الله ﷻ كما ابتلى أهل هذه الجنة بالخير والنعم فكفروا النعمة، ولم يقوموا بواجب الشكر، ومن الشكر الواجب أن يؤدوا زكاة زروعهم، وأن يعملوا بقول الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] وتمالأوا على حرمان المساكين فعوقبوا بالحرمان والخيبة والخسران، وندموا بعد فوات الأوان، وإن كان هذا العذاب شديداً على الناس عامة فهو أشد على الذين تعلقت قلوبهم بالدنيا وأعراضها وزخارفها، حيث منعهم شدة حبهم لها وحرصهم عليها من أداء حق الله فيها؛ فكيف بهم وقد ذهبت دنياهم وضاعت أسباب سعادتهم، وماتوا بحسرتهم قال تعالى بعد أن قصّ قصتهم: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فالذين لا يؤدون شكر النعمة ولا يقومون بحقها معرضون للعذاب العاجل بزوالها والحرمان منها، والعذاب

الآجل في الآخرة، كما أن شكر النعمة سبب لدوامها وزيادتها، ولثواب الآخرة وسعادتها كما قال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

فكما ابتلى الله ﷻ أصحاب هذه الجنة ابتلى تعالى أهل مكة، وابتلى تعالى الناس كلهم بالخير والشر فتنة، فقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

□ **شرح الآيات:**

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [القلم: ١٧، ١٨].

قال ابن كثير: هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعمة الجسيمة، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: اختبرناهم ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهي: البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه، ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: فيما حلفوا به، ولهذا حنثهم الله تعالى في أيمانهم[(١)].

وقال الشوكاني: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يعني: كفار مكة، فإن الله ابتلاهم بالجوع والقحط بدعوة رسول الله ﷺ عليهم والابتلاء: الاختبار.

والمعنى: أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط، ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ المعروف خبرهم عندهم، وذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجلٍ يؤدي حق الله منها فمات، وصارت إلى أولاده، فمنعوا الناس خيرها، وبخلوا بِحَقِّ الله فيها.

قال الواحدي: هم قوم من ثقيف كانوا باليمن مسلمين، ورثوا من أبيهم ضيعة فيها جنات وزرع ونخيل، وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شيءٍ حظاً

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٠٦).

للمساكين عند الحصاد والصرام، فقال بنوه: المال قليلٌ، والعيالُ كثيرٌ، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا، وعزموا على حرمان المساكين فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله في كتابه[١].

قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: ١٩، ٢٠].

قال الرازي: ثم قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ طائف من ربك؛ أي: من عذاب ربك، والطائف لا يكون إلا ليلاً؛ أي: طرقها طارق من عذاب الله.

واعلم أن الصريم. فعيل، فيحتمل أن يكون بمعنى المفعول، وأن يكون بمعنى الفاعل، وها هنا احتمالات:

أحدها: أنها لما احترقت كانت شبيهة بالمصرومة في هلاك الثمر، وإن حصل الاختلاف في أمور أخر، فإن الأشجار إذا احترقت فإنها لا تشبه الأشجار التي قطعت ثمارها، إلا أن هذا الاختلاف وإن حصل من هذا الوجه لكن المشابهة في هلاك الثمر حاصلة.

وثانيها: قال الحسن: أي: صرم عنها الخير، فليس فيها شيء، وعلى هذين المعنيين الصريم بمعنى: المصروم[٢].

وقال القاسمي: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فطرق جنة هؤلاء القوم طارقٍ من أمر الله لتدميرها.

وقوله: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي: مستغرقون في سباتهم، غافلون عما يمكر بهم، تأكيد على الأول وتأسيس على الثاني ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: كالبستان الذي صرم ثمره، بحيث لم يبق فيه شيء؛ أو كالليل الأسود لاحتراقها[٣].

قوله تعالى: ﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾

---

(١) «فتح القدير» (٥/ ٢٧١).
(٢) «التفسير الكبير» باختصار (١٥/ ٣٠/ ٧٨).
(٣) «محاسن التأويل» (١٤/ ٢٥٨) باختصار.

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القلم: ٢١ ـ ٢٤]:

قال ابن كثير: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي: لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ؛ أي: القطع ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: تريدون الصرام.

قال مجاهد: كان حرثهم عنباً ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسْمِعُونَ أحداً كلامهم، ثم فسر الله ﷻ عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به، فقال تعالى: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم، قال الله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: قوة وشدة(١).

وقال الألوسي: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ أي: منع، كما قال أبو عبيد وغيره من قولهم: حاردت الإبل: إذا قَلَّتْ ألبانها، وحاردت السَنة: إذا قل مطرها وحرد. والجار متعلق بقوله تعالى: ﴿قَادِرِينَ﴾ قدم للحصر ورعاية الفواصل؛ أي: وغدوا قادرين على منع لا غير، والمعنى: أنهم عزموا على منع المساكين، وطلبوا حرمانهم ونكدهم، وهم قادرون على نفعهم فغدوا بحال لا يقدرون فيها إلا على المنع والحرمان، وذلك أنهم طلبوا حرمان المساكين فتعجلوا الحرمان، أو غدوا على محاردة جَنَّتِهم وذهاب خيرها بدل كونهم قادرين على إصابة خيرها ومنافعها؛ أي: غدوا حاصلين على حرمان أنفسهم مكان كونهم قادرين على الانتفاع، والحصر على الأول حقيقي، وعلى هذا إضافي، بالنسبة إلى انتفاعهم من جنتهم، والحرمان عليه خاص بهم وجوز أن يكون على حرد متعلقاً [بِغَدَوْا] والمراد بالحرد: حرد الجنة جيء به مشاكلة للحرث، كأنه لما قالوا: اغدوا على حرثكم، وقد خبثت نيتهم، عاقبهم الله تعالى بأن حاردت جنتهم، وحرموا خيرها، فلم يغدوا على حرث وإنما غدوا على حرد، وقادرين من عكس الكلام للتهكم؛ أي: قادرين على ما عزموا عليه من الصرام وحرمان المساكين(٢).

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٠٦).
(٢) باختصار من «روح المعاني» (٢٩/ ٣١).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [القلم: ٢٦ ـ ٢٩]:

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: لما رأوها محترقة لا شيء فيها قد صارت كالليل الأسود، ينظرون إليها كالرماد، أنكروها وشكوا فيها، وقال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: ضللنا الطريق إلى جنتنا، قاله قتادة.

وقال: أي: ضالون عن الصواب في غدونا على نية منع المساكين، فلذلك عوقبنا ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: حُرمنا جنتنا بما صنعنا[١].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: أي: فلما وصلوا إليها، وأشرفوا عليها، وهي الحالة التي قال الله عز وجل قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار، إلى أن صارت سوداء مدلهمة، لا ينتفع بشيء منها، فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق، ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها، قاله ابن عباس وغيره، ثم رجعوا عما كانوا فيه وتيقنوا أنها هي فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: بل هي هذه ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ قال ابن عباس وغيره: أي: أعدلهم وخيرهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ قال مجاهد والسدي وابن جريج: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أيْ: لَوْلا تَسْتَثْنُونَ.

قال السدي: وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحاً.

وقال ابن جري: هو قول القائل: إن شاء الله، وقيل: معناه: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: هلا تسبحون الله، وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم عليكم ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع[٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ٣٠ ـ ٣٣]:

قال الشوكاني: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: يلوم بعضهم

---

(١) باختصار من «روح المعاني» (٢٩/ ٣١).

(٢) باختصار من «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٦٧٢٣).

بعضاً في منعهم للمساكين وعزمهم على ذلك، ثم نادوا على أنفسهم بالويل، حيث ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١﴾ أي: عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء، وترك الاستثناء.

قال ابن كيسان: أي: طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل، ثم رجعوا إلى الله وسألوه يعوضهم بخير منها فقالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢﴾ أي: طالبون منه الخير، راجون لعفوه، راجعون إليه، ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: مثل ذلك العذاب الذي بلوناهم به وبلونا أهل مكة عذاب الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: أشد وأعظم لو كان المشركون يعلمون أنه كذلك، ولكنهم لا يعلمون[1].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال الرازي**: واعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة أمران:

أحدهما: أنه تعالى قال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ [القلم: ١٤، ١٥] والمعنى: لأجل أن أعطاه المال والبنين كفر بالله؛ كلا، بل الله تعالى إنما أعطاه ذلك للابتلاء، فإذا صرفه إلى الكفر دمر الله عليه، بدليل أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذه القدر اليسير من المعصية، دمر الله على جنتهم، فكيف يكون الحال في حق من عاند الرسول وأصر على الكفر والمعصية.

والثاني: أن أصحاب الجنة خرجوا لينتفعوا بالجنة، ويمنعوا الفقراء عنها، فقلب الله عليهم القضية، فكذا أهل مكة لما خرجوا إلى بدر حلفوا على أن يقتلوا محمداً وأصحابه، وإذا رجعوا إلى مكة طافوا بالكعبة، وشربوا الخمور، فأخلف الله ظنهم فقتلوا وأسروا، كأهل هذه الجنة[2].

{٢} **وقال القرطبي**: قال بعض العلماء: على من حصد زرعاً أو جَدَّ ثَمرةً أن يواسي منه من حضره، وذلك معنى قوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١] وأنه غير الزكاة على ما تقدم في «الأنعام» بيانه.

---

(١) «فتح القدير» باختصار (٥/ ٢٧٣).
(٢) «التفسير الكبير» (١٥/ ٣٠/ ٨٠).

وقال بعضهم: وعليه ترك ما أخطأه الحصادون، وكان بعض العباد يتحرون أقواتهم من هذا، وروي أنه نهى عن الحصاد ليلاً. فقيل: إنه لما ينقطع عن المساكين في ذلك من الرفق، وتأول من قال: هذه الآية التي في سورة ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ﴾ [القلم: ١] وقيل: إنما نَهى عن ذلك خشية الحيّاتِ وهوام الأرض.

قلت ـ القرطبي ـ: والأول أصح، والثاني حسن، وإنما قلنا: الأول أصح؛ لأن العقوبة كانت بسبب ما أرادوه من منع المساكين كما ذكر الله تعالى[1].

{٣} وقال كذلك: في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان؛ لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحج: ٢٥] وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**إذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيهِمَا فالقَاتِلُ والمَقْتُولُ في النار**» قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصاً على قتل صاحبه**»[2].

{٤} وقال القاسمي: قال في «الإكليل» قال ابن الضريس: استدل بهذه القصة عبد الوهاب على أن من فَرَّ من الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط، فإن ذلك لا يسقطها، ووجه ذلك: أنهم قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم، وفيها: كراهة الجذاذ والحصاد بالليل كما ورد التصريح بالنهي عنه في الحديث.

هذا وحكى الزمخشري عن قتادة أنه سئل عن أصحاب الجنة: أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال: لقد كلفتني تعباً.

وعن مجاهد: تابوا فأبدلوا خيراً منها، والله أعلم.اهـ[3].

والأولى الوقوف مع الشرع والتأدب معه، وعدم الزيادة عليه أو النقص منه، فلم يصرح في الآيات أنهم أبدلوا خيراً منها وأن الله ﷻ قد قبل توبتهم، كما لم يصح بذلك حديث، وإنما هي أقوال ليس لها خِطَام ولا زمام، فالله أعلم بحالهم، نسأل الله حسن الخاتمة.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٦٧١٨).
(٢) السابق (٨/ ٦٧٢)، والحديث تقدم تخريجه (ص٤٤٢).
(٣) «محاسن التأويل» (١٦/ ٢٦١).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة
أصحاب الأخدود

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

١٣ ـ قصة أصحاب الأخدود

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١﴾ [البروج: ٤ ـ ١١].

وورد في صحيح السنة تكملة هذه القصة فروى مسلم عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: **«كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر فلما كَبِرَ قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليَّ غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب، وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه فشكى ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما هَا هُنَا لك أجمع إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: مَنْ رد عليك بصرك؟ قال: ربي. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه**

حتى دلَّ على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل. فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل. فقال: اللهم اكفينهم بم شئتَ، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعَلَ أصحابك؟ قال: كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفينهم بم شئت. فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله ربِّ الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله ربِّ الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صُدْغِه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فَأُتِيَ الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حَذَرك قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت، وأضرم النيران. وقال: مَن لم يرجع عن دينه فأحْمُوهُ فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمَّه اصبري فإنك على الحق»[١].

---

(١) رواه مسلم (١٨/ ١٣٠ ـ ١٣٣) «الزهد»، وابن حبان (٣/ ١٥٤ ـ ١٥٧) رقم (٨٧٣) من الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان.

□ بين يدي القصة:

هذه القصة البديعة التي سجل الله ﷻ خاتمتها في كتابه، وبَيَّنَ النبي ﷺ بدايتها وسياقها يظهر فيها بجلاء قوة الإيمان، وكيف أن العبد إذا وجد طعم الإيمان وذاق حلاوته، فإن ذلك يشغله عما يتعرض له الجسد من إيلام وعذاب، فالقلب يأسر الإيمان لموافقته للفطرة السليمة فيتحمل المؤمنون أشد ألوان الأذى ويكون أيسر على المؤمن أن تخرج روحه من جسده، ولا يخرج الإيمان من قلبه، ولا شك أن هذه السورة سورة البروج مكية، فهذه القصة كانت تسلية للصحابة الكرام الذين كانوا يعانون ألوان العذاب بمكة، ويظهر فيها لطف الله ﷻ بالمؤمنين، وتثبيته لهم، فإن مَنْ قصد الهداية وسلك سبيلها أمده الله ﷻ بأسباب التثبيت، وزاده من الهداية كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد: ١٧] كما أن من قصد الضلال والمحادَّة لله ﷻ ولرسله الكرام، فإن الله ﷻ يحرمه هدايته وتوفيقه، ويكله إلى نفسه وشيطانه فيعده ويمنيه ويضله ويغويه، ولا يرضى منه دون الكفر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فأهل الإيمان يكافؤون على إيمانهم بمزيد من أسباب الإيمان. وأهل الطغيان يعاقبون على طغيانهم بمزيد من الخذلان، فلا يزدادون إلا غَيّاً وضلالاً، فانظر كيف تدرج الحال بهذا الملك الكافر حتى حفر لأهل الإيمان الأخاديد، وملأها ناراً وساق إليها الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً، والناظر بالأسباب المادية والمقاييس الدنيوية يهوُله الأمر، ولكن المؤمن الذي يثق بوعد الله ﷻ ويؤمن بأن الدنيا عرض زائل، وأن الآخرة هي الحيوان، يعلم بأنها لحظات ثم تخرج هذه الروح إلى فاطرها، حيث تخاطب ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠] إنها لحظات والشهيد لا يذوق من مس القتل إلا كما يذوق مَنْ مس القرصة، ثم ينقلون إلى جنة الله ﷻ فتصيرُ هذه النار التي أُلقُوا فيها عليهم برداً وسلاماً، بل تصير أخاديد النار رياضاً من رياض الجنة، وتسرح أرواحهم في الجنة حيث شاءت.

أما الكفرة الفجرة فنارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] خالدين في هذا العذاب

الأليم، والشقاء المقيم خلوداً أبدياً؛ لأن نفوسهم لا تصلح إلا لذلك، ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وفي القصة كذلك سنة من سنن الله ﷻ، وهي سنة الابتلاء كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

وفيه من آداب الداعية التنزه عن أعراض الدنيا، والرضا بالله ﷻ وثوابه، وفيه حرص الداعية على إيمان قومه ولو كان بسبب هذا الإيمان ذهاب نفسه وخروج روحه.

وإثبات كرامة الأولياء، وكيف أنها من أسباب ثبات المؤمنين، وزيادة إيمانهم وسوف نسوق الفوائد والآثار بعد شرح الآيات الكريمات، والله ولي المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ [البروج: ٤]:

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ أي: لعن.

قال ابن عباس: كل شيءٍ في القرآن ﴿قُتِلَ﴾ فهو لعن. وهذا جواب القسم ـ في قول الفرَّاء ـ واللام فيه مضمرة كقوله: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾ [الشمس: ١] ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ [الشمس: ٩] أي: لقد أفلح. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي: قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج.

والأخدود: الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه: أخاديد، ومنه الخد لمجاري الدموع، والمِخدة لأن الخد يوضع عليها[1].

وقال الزمخشري: فإن قلت: أين جواب القسم؟ قلت: محذوف يدل عليه قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ كأنه قيل: أقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون؛ يعني: كفار قريش، كما لعن أصحاب الأخدود، وذلك أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان، وإلحاق أنواع الأذى، وصبرهم وثباتهم حتى يأنسوا بهم، ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم، ويعلموا

---

(١) باختصار من «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٧٠٧٧، ٧٠٧٨).

أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار، ملعونين أحقاء بأن يقال فيهم: قتلت قريش، كما قيل: قتل أصحاب الأخدود. وقتل: دعاء عليهم، كقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ١٧][1].

📖 **قوله تعالى:** ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾ [البروج: ٥ ـ ٧]:

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾﴾ هذا بدل من الأخدود، كأنه قال: قتل أصحاب النار و﴿ٱلْوَقُودِ﴾ مفسر في البقرة [٢٤]. وقرأ أبو رزين العقيلي، وأبو عبد الرحمٰن السلمي والحسن، ومجاهد، وأبو العالية وأبو يعمر وابن أبي عبلة ﴿ٱلْوُقُودِ﴾ بضم الواو ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾﴾ أي: عند النار وكان الملك وأصحابه جلوساً على الكراسي عند الأخدود يعرضون المؤمنين على الكفر، فمن أبى ألقوه ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾ أي: حضور، فأخبر الله ﷻ في هذه الآيات بقصة قوم بلغ من إيمانهم ويقينهم أن صبروا على التحريق بالنار، ولم يرجعوا عن دينهم[2].

📖 **قوله تعالى:** ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ [البروج: ٨، ٩]:

قال الشوكاني: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أي: ما أنكروا عليهم ولا عابوا منهم ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلا أن صدقوا بالله الغالب المحمود في كل حال.

قال الزجاج: ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم، وهذا كقوله: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٩]، وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم كما في قوله:

لا عَيْبَ فِيْهِمْ سِوَى أنَّ النَّزِيْلَ بِهِمْ ... يَسْلُو عَنْ الأهْلِ وَالأوْطَانِ وَالحَشَمِ

وقول الآخر:

ولا عَيْبَ فيْهَا غَيْرَ شَكْلَةِ عَيْنِهَا ... كَذَاكَ عَنَاقَ الطَّيْرِ شَكْلاً عُيُونُهَا

قرأ الجمهور: ﴿نَقَمُوا۟﴾ بفتح القاف وقرأ أبو حيوة بكسرها والفصيح

---

(١) «الكشاف» (٤/ ٧٢٩، ٧٣٠).
(٢) «زاد المسير» (٩/ ٧٧).

الفتح، ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على العظم والفخامة فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومن كان هذا شأنه، فهو حقيق بأن يُؤمَنَ به ويوحد.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ من فعلهم بالمؤمنين، لا يخفى عليه منه خافية، وفي هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود ووعيد خير لمن عذبوه على دينه من أولئك المؤمنين، ثم بيّن سبحانه ما أعد لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ١٠]:

قال الرازي ما ملخصه: اعلم أنه سبحانه لما ذكر قصة أصحاب الأخدود، أتبعها بما يتفرع عليها من أحكام الثواب والعقاب، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وها هنا مسائل:

• **المسألة الأولى:** يحتمل أن يكون المراد منه أصحاب الأخدود فقط، ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل ذلك، وهذا أولى لأن اللفظ والحكم عام، فالتخصيص ترك للظاهر من غير دليل.

• **المسألة الثانية:** أصل الفتنة الابتلاء والامتحان، وذلك لأن أولئك الكفار امتحنوا أولئك المؤمنين، وعرضوهم على النار، وأحرقوهم. وقال بعض المفسرين: الفتنة هي: الإحراق بالنار.

• **المسألة الثالثة:** قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ يدل على أنهم لو تابوا لخرجوا عن هذا الوعيد، وذلك يدل على القطع بأن الله تعالى يقبل التوبة، ويدل على أن توبة القاتل عمداً مقبولة خلاف ما يروى عن ابن عباس.

• **المسألة الرابعة:** في قوله: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ قولان:

الأول: أن كِلا العذابين يحصلان في الآخرة، إلا أن عذاب جهنم هو العذاب الحاصل بسبب كفرهم، وعذاب الحريق هو: العذاب الزائد على عذاب الكفر بسبب أنهم أحرقوا المؤمنين، فيحتمل أن يكون العذاب الأول:

(١) «فتح القدير» (٥/ ٤١٢، ٤١٣).

عذاب برد، والثاني: عذاب إحراق، وأن يكون الأول عذاب إحراق والزائد على الإحراق أيضاً إحراق، إلا أن العذاب الأول كأنه خرج عن أن يسمى إحراقاً بالنسبة إلى الثاني؛ لأن الثاني قد اجتمع فيه نوعا الإحراق، فتكامل جداً، فكان الأول ضعيفاً، فلا جرم لم يسم إحراقاً.

القول الثاني: أن قوله: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ إشارة إلى عذاب الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ إشارة إلى ما ذكرنا أن أولئك الكفار ارتفعت عليهم نار الأخدود فاحترقوا بها[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [البروج: ١١]:

قال الألوسي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ على الإطلاق من المفتونين وغيرهم ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ما ذكر من الإيمان والعمل الصالح ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إن أريد بالجنات الأشجار، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها، فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر، فإن أشجارها ساترة لساحتها كما يعرب عن اسم الجنة، وفصل الجملة قيل: لأنها كالتأكيد لما أشعرت به الآية قَبْلُ من اختصاص العذاب بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا، ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كون ما ذكر لهم، وحيازتهم إياه، وقيل: للجنات الموصوفة، والتذكير لتأويلها بما ذكر، وما فيه من معنى البعيد للإيذان بعلو الدرجة، وبعد المنزلة في الفضل والشرف، ومحله الرفع على الابتداء خبره ﴿الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ الذين يصغر عنده الفوز بالدنيا وما فيها من الرغائب، والفوز: النجاة من الشر، والظفر بالخير[2].

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال عطية محمد سالم** في العبر والأحكام في هذه القصة ما ملخصه:

---

(١) باختصار من «التفسير الكبير» (١٦/ ٣١/ ١١١).

(٢) «روح المعاني» (٣٠/ ٩١).

الأول: أن السحر بالتعلم.

الثاني: إمكان اجتماع الخير مع الشر إذا كان الشخص جاهلاً بحال الشر.

الثالث: إجراء خوارق العادات على أيدي دعاة الخير.

الرابع: اعتراف العالم بالفضل لمن هو أفضل منه، كاعتراف الراهب للغلام.

الخامس: ابتلاء الدعاة إلى الله، ووجوب الصبر على ذلك، وتفاوت درجات الناس في ذلك.

السادس: إسناد الفعل إلى الله «إنما يشفي الله».

السابع: رفض الداعي إلى الله الأجر على عمله، وهدايته ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

الثامن: بيان ركن أصيل في قضية التوسل، وهو أن مبناه على الإيمان بالله، ثم الدعاء وسؤال الله تعالى.

التاسع: اللجوء إلى العنف والبطش عند العجز عن الإقناع والإفهام، أسلوب الجهلة والجبابرة.

العاشر: التضحية بالنفس في سبيل نشر الدعوة[١].

{٢} قال القرطبي ما ملخصه: قال علماؤنا: أعلم الله ﷻ المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية ما كان يلقاه من وُجِد قبلهم من الشدائد، يؤنسهم بذلك، وذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها، ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه، وعظم صبره، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطرح في النار، ولم يرجعوا عن دينهم، قال ابن العربي: وهذا منسوخ عندنا حسب ما تقدم بيانه في سورة النمل.

---

(١) تتمة «أضواء البيان» (٩/ ١٤١ ـ ١٤٣) باختصار.

قلت ـ القرطبي ـ: ليس بمنسوخ عندنا، وأن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصَلُب دينه أولى. قال الله تعالى مخبراً عن لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: ١٧].

وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**»[١] خرّجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب قال علماؤنا: ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي ﷺ بالقتل والصلب والتعذيب الشديد، فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك، ويكفيك قصة عاصم وخبيب وأصحابهما، وما لقوا من الحروب، والمحن والقتل والأسر والحرق وغير ذلك[٢].

﴿٣﴾ **قال سيد قطب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وتنتهي رواية الحادث في هذه الآيات القصار التي تملأ القلوب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله، وما استحقه من نقمته وغضبه، فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد، ووراءه في حساب الله ما وراءه.

كذلك تنتهي رواية الحادث، وقد ملأت القلب بالروعة، روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم، وجاذبية الأرض، فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة وكم كانت البشرية كلها تخسر، كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى: زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد؛ إنه معنى كريم جداً، ومعنى كبيرٌ جداً هذا الذي ربحوه وهم بعد في

(١) تقدم تخريجه (ص٤٨٣).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» باختصار (٨/ ٧٠٨٤).
وانظر في بحث: «وقفات تربوية مع السيرة النبوية» في سمات الفترة المكية أمثلة لما تحمله الصحابة ﷺ بمكة من التعذيب والتكذيب والإيذاء والاستهزاء..

الأرض، ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكبير الذي تزكيه النار؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب، ولأعدائهم الطاغين حساب[١].

---

(١) «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٨٧٤).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

قصة الفيل

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

١٤ ـ قصة الفيل

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ [الفيل: ١ ـ ٥].

هذه قصة الفيل كما وردت في كتاب الله ﷻ بآيات في غاية الإيجار والإعجاز، وفي السُّنة إشارات إلى هذه القصة موجزة ومطولة، فمن ذلك أن ناقة النبي ﷺ بركت وهو قاصد مكة للعمرة عام الحديبية فقالوا خَلأت القصواء. فقال النبي ﷺ: «**مَا خَلأتِ القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**»(١).

ومن ذلك أن النبي ﷺ لما فتح الله عليه مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «**إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين**»(٢).

ومن ذلك ما رواه الحاكم في مستدركه وعنه البيهقي في الدلائل عن ابن عباس ﵄ قال: أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب فقال لملكهم: ما جاء بك إلينا، ما عناك ألا بعثت فنأتيك بكل شيءٍ أردت. فقال: أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا أمِنَ فجئت أخيف أهله. فقال: إنا نأتيك بكل شيءٍ تريد فارجع، فأبى إلا أن يدخله وانطلق يسير نحوه، وتخلف عبد المطلب فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله ثم قال:

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٣٨٨) الشروط.
وقوله: «خلأت»: أي تركت السير. والخلاء للنوق كالإلحاح للجمال والحران للدواب، يقال: خوت الناقة وألح الجمل وحزن الفرس. «النهاية» لابن الأثير ٢/ ٥٨.
(٢) رواه البخاري (٥/ ١٠٤ ـ ١٠٥) «اللقطة»، ومسلم (٩/ ١٢٨) «الحج».

اللَّهم إن لكل إله حلالاً فامنع حلالك
لا يغلبن محالهم أبداً محالك
اللَّهم فإن فعلت فأمر ما بَدَا لَكَ

فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلتهم طيراً أبابيل، التي قال الله ﷻ: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ قال: فجعل الفيل يعجّ عَجّاً ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾(١).

□ **بين يدي القصة:**

هذه القصة فيها خوارق للعادات، وكان أهل مكة يعبدون الأوثان قبل بعثة المصطفى ﷺ، وكان أصحاب الفيل نصارى أهل كتاب، ولا شك أن أهل الكتاب أحسن حالاً من عبدة الأوثان، فلم تكن هذه الحادثة كرامة لأهل مكة، ولا لعبد المطلب وهو على دين قومه، وإنما كانت معجزة من معجزات هذا النبي الخاتم، الذي تتهيأ مكة لاستقباله، وتستعد البشرية لرؤية أنواره، وقد كان حملاً كريماً في هذا الوقت، حيث ولد ﷺ في هذا العام عام الفيل، وكان ذلك كذلك كرامة لهذا البيت، الذي سوف يصير قبلة لخير أمة أخرجت للناس، يترددون إليه ولا يرون أنهم قضوا منه وطراً، ففي هذه البقعة المباركة وبجوار هذا البيت العتيق ينبثق نور الإسلام، وتبدأ بعد قليل بعثة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ فليس بعجيب أن يرغم الله آناف من قصدوه بِشَرٍّ، وأن يمزقهم الله ﷻ كل ممزق، وأن يجعلهم الله ﷻ كورق شجرٍ أكلته الدواب فألقته روثاً، مبالغة في إهانتهم وإحباط كيدهم، وتحقير شأنهم؛ لأنهم قصدوا إهانة بيت الله، وراموا العز بذلك لأنفسهم فأهانهم الله ﷻ وأذلهم، وجعلهم عبرة للمعتبرين إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

(١) رواه الحاكم (٢/ ٥٣٥) «التفسير» وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. والبيهقي في «الدلائل» (١/ ١٢١، ١٢٢).
قال عادل عبد الغفور في «دراسة مرويات العهد المكي»: وفيه نظر فإن قابوس بن أبي ظبيان قال عنه الحافظ: فيه لين وبقية رجال الإسناد ثقات، إلا أن جرير بن عبد الحميد قال عنه الحافظ بعد أن وثقه: قيل: كان في آخر عمره يهم من حفظه.

□ ولنشرع في شرح الآيات الكريمات:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: ١]:

قال القرطبي: قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تخبر. وقيل: ألم تعلم، وقال ابن عباس: ألم تسمع. واللفظ استفهام، والمعنى: تقرير، والخطاب للنبي ﷺ، ولكنه عام؛ أي: ألم تروا ما فعلت بأصحاب الفيل؛ أي: قد رأيتم ذلك وعرفتم موضع منتي عليكم فما لكم لا تؤمنون[(١)].

وقال الزمخشري: إنك رأيت آثار فعل الله بالحبشة، وسمعت الأخبار به متواترة، فقامت مقام المشاهدة[(٢)].

وقال ابن كثير: هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحوا أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة، وكانوا قوماً نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً بما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في هذا العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ خاتم الأنبياء[(٣)].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾ [الفيل: ٢]:

قال الرازي: واعلم أنه تعالى ذكر ما فعل بهم فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾، وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية، إن قيل: فلم سماه كيداً وأمره كان ظاهراً، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت؟ قلنا: نعم، لكن الذي كان في قلبه شر مما أظهر؛ لأنه كان يضمر الحسد للعرب، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٨/ ٧٢٧٧). (٢) «الكشاف» (٤/ ٧٩٩).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٤٨، ٥٤٩).

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: إضافة الكيد إليهم دليل على أنه تعالى لا يرضى بالقبيح، إذ لو رضي لأضافه إلى ذاته كقوله: «الصَّوْمُ لي»[(١)] والجواب: أنه ثبت في علم النحو أنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، فلم لا يكفي في حسن هذه الإضافة وقوعه مطابقاً لإرادتهم واختيارهم؟

المسألة الثالثة: ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في تضييع وإبطال، يقال: ضلل كيده إذا جعله ضالاً ضائعاً، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠][(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ [الفيل: ٣]:

قال ابن الجوزي: وفي الأبابيل خمسة أقوال:

أحدها: أنها المتفرقة من ها هنا وها هنا، قاله ابن مسعود والأخفش.

والثاني: أنها المتابعة التي يتبع بعضها بعضاً، قاله ابن عباس ومجاهد ومقاتل.

والثالث: الكثيرة، قاله الحسن وطاووس.

والرابع: أنها الجمع بعد الجمع، قاله عطاء وأبو صالح، وكذلك قال أبو عبيدة وابن قتيبة، والزجاج: جماعات في تفرقة.

والخامس: المختلفة الألوان، قاله زيد بن أسلم، قال الفراء وأبو عبيدة: «الأبابيل» لا واحد لها[(٣)].

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ [الفيل: ٤]:

قال الشيخ عطية محمد سالم: اختلف في معنى السجيل هنا:

فقال قوم: هو السجين أبدلت النون لاماً، والسجين: النار.

وقيل: إن السجيل من السجل كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار، كما أن سجيناً لديوان أعمالهم واشتقا من الإسجال وهو الإرسال،

---

(١) رواه البخاري (٤/١٠٣) «الصوم»، ومسلم (٨، ٣٢) «الصيام».

(٢) باختصار من «التفسير الكبير» (١٦/ ٣٢/ ٩٤).

(٣) «زاد المسير» (٩/ ٢٣٦).

ومنه السجل الدلو المملوء ماء، وهي: حجارة مرسلة لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾.

وقوله: إن سجيناً عَلَمٌ لديوان أعمالهم؛ يعني: قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾ [المطففين: ٧، ٨].

وقيل: معنى سجيل: ستك وطين؛ يعني: بعض حجر وبعض طين.

وقيل: معناه: الشديد.

وقيل: السجيل اسم لسماء الدنيا.

وتقدم للشيخ ـ أي: الشنقيطي رحمة الله تعالى علينا وعليه ـ ترجيح أنها من طين شديد القوة.

وهذا ما شهد له القرآن لما في سورة الذاريات: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤﴾ [الذاريات: ٣٢ ـ ٣٤]. فَنَصَّ على أنها من طين.

والحجارة من الطين هي: الآجر، وهو: الطين المطبوخ حتى يتحجر.

وجاء النص الآخر أنها من سجيل منضود في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢﴾ [هود: ٨٢].

وقيل فيها: كالحمصة والعدسة[1].

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: ٥]:

قال ابن كثير: قال سعيد بن جبير: يعني: التبن الذي تسميه العامة هبور، ورواية عن سعيد: ورق الحنطة، وعنه أيضاً العصف: التبن، والمأكول القصيل يُجَذُّ للدواب، وكذلك قال الحسن البصري. وعن ابن عباس: العصف: القشرة التي على الحبة كالغلاف على الحنطة، وقال ابن زيد: العصف: ورق الزرع وورق البقل إذا أكلته البهائم فراثته فصار دريناً، والمعنى: أن الله ﷻ أهلكهم ودمرهم، وردهم بكيدهم وغيظهم، لما ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح[2].

(١) تتمة «أضواء البيان» لعطية محمد سالم (٩/ ٥٢١، ٥٢٢).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٥٢).

وقال الرازي: أما قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾ ففيه مسائل:

● **المسألة الأولى:** ذكروا في تفسير العصف وجوهاً ذكرناها في قوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ [الرحمٰن: ١٢] وذكروا ها هنا وجوهاً:

أحدها: أنه ورق الزرع الذي يبقى في الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله المواشي.

وثانيها: قال أبو مسلم: العصف: التبن لقوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [الرحمٰن: ١٢]؛ لأنه تعصف به الريح عند الذر فتفرقه عن الحب، وهو إذا كان مأكولاً فقد بطل ولا رجعة ولا منعة فيه.

وثالثها: قال الفراء: هو أطراف الزرع قبل أن يدرك السنبل.

ورابعها: هو الحب الذي أكل لبه وبقي قشره.

● **المسألة الثانية:** ذكروا في تفسير المأكول وجوهاً:

ـ **أحدها:** أنه الذي أكل، وعلى هذا الوجه ففيه احتمالان:

أحدهما: أن يكون المعنى: كزرع وتبن قد أكلته الدواب ثم ألقته روثاً، ثم يجف وتتفرق أجزاؤه، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث، إلا أن العبارة عنه جاءت على ما عليه آداب القرآن كقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وهو قول مقاتل وعطاء عن ابن عباس.

والاحتمال الثاني: على هذا الوجه أن يكون التشبيه واقعاً بورق الزرع إذا وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود.

ـ **الوجه الثاني** في تفسير قوله: ﴿مَّأْكُولٍۭ﴾ هو أنه جعلهم كزرع قد أكل حبه وبقي تِبْنُه، وعلى هذا التقدير يكون المعنى: كعصف مأكول الحب، كما يقال: فلان حسن؛ أي: حسن الوجه، فأجرى مأكول على العصف من أجل أنه أكل حبه؛ لأن هذا المعنى معلوم، وهذا قول الحسن.

ـ **الوجه الثالث في التفسير: أن يكون معنى** ﴿مَّأْكُولٍۭ﴾: أنه ما يؤكل؛ يعني: تأكله الدواب، يقال: كل شيءٍ يصلح للأكل هو مأكول، والمعنى: جعلهم كتبن تأكله الدواب، وهو قول عكرمة والضحاك(١).

---

(١) «التفسير الكبير» (٩٦/٣٢/١٦).

❀ الفوائد والآثار الإيمانية:

{١} **قال الماوردي**: آيات الملك باهرة، وشواهد النبوة ظاهرة، تشهد مباديها بالعواقب، فلا يلتبس فيها كذبٌ بصدق، ولا منتحل بمحق، وبحسب قوتها وانتشارها، يكون بشائرها وإنذارها.

ولما دنا مولد رسول الله ﷺ، تعاطرت آيات نبوته، وظهرت آيات بركته، فكان من أعظمها شأناً وأشهرها عياناً وبياناً أصحاب الفيل، أنفذهم النجاشي من أرض الحبشة في جمهور جيشه إلى مكة لقتل رجالها، وسبي ذراريها وهدم الكعبة... إلى أن قال:

وآية الرسول ﷺ في قصة الفيل أنه كان في زمانه حملاً في بطن أمه بمكة، ولد بعد خمسين يوماً من الفيل، وبعد موت أبيه في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول فكانت آيته في ذلك من وجهين:

أحدهما: أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا، فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله ﷺ أن يجرى عليه السبي حملاً ووليداً.

والثاني: أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقون به رفع أصحاب الفيل عنهم، وما هم أهل كتاب؛ لأنهم كانوا بين عباد صنم، أو متدين وثن، أو قائل بالزندقة، أو مانع من الرجعة، ولكن لما أراده الله تعالى من ظهور الإسلام، تأسيساً للنبوة وتعظيماً للكعبة، وأن يجعلها قبلة للصلاة، ومنسكاً للحج.

فإن قيل: فكيف منع الكعبة قبل مصيرها قبلةً ومنسكاً، ولم يمنع الحَجَّاجَ من هدمها وقد صارت قبلة ومنسكاً، حتى أحرقها، ونصب المنجنيق عليها، فقال فيها على ما حكى عنه:

كَيْفَ تَرَاهُ سَاطِعاً غُبَارُهُ وَاللّه فِيمَا يَزْعُمُون جارُهُ

قيل: فعل الحجاج كان بعد استقرار الدين، فاستغنى عن آيات المنع منها آية لتأسيس النبوة ومجيء الرسالة، فلذلك اختلف حكمها في الحالتين، والله تعالى أعلم.

ولما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى بجيش الفيل، تهيبوا الحرم

وأعظموه، وزادت حرمته في النفوس، ودانت لقريش بالطاعة وقالوا: أهل الله قاتل عنهم، وكفاهم كيد عدوهم، فزادهم تشريفاً وتعظيماً، وقامت قريش لهم بالوفادة والسدانة والسقاية.

والوفادة: مالٌ تخرجه قريش في كل عام من أموالهم يصنعون به طعاماً للناس أيام منى، فصاروا أئمة ديانين وقادة متبوعين، وصار أصحاب الفيل مثلاً في الغابرين(١).

{٢} **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد تواترت قصة أصحاب الفيل، وأن أصحاب الحبشة النصارى ساروا بجيش عظيم، معهم فيل؛ ليهينوا الكعبة، لما أهان بعض العرب كنيستهم التي باليمن، فقصدوا إهانة الكعبة، وتعظيم كنائسهم، فأرسل الله عليهم طيراً أهلك عامتهم، وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان، ودين النصارى خير منهم، فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذٍ، بل كانت لأجل البيت، أو لأجل النبي ﷺ الذي ولد في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، وأي ذلك كان؛ فهو من دلائل نبوته(٢).

فإنه إذا قيل: إنما كان آية للبيت وحفظاً له وذباً عنه؛ لأنه بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل، فقد علم أنه ليس من أهل الملل من يحج إلى هذا البيت ويصلي فيه إلا أمة محمد ﷺ، هو الذي فرض حجه، والصلاة إليه(٣).

{٣} **قال الشيخ عطية محمد سالم** في تتمة الأضواء ما ملخصه:

قد أوردنا نصوص معنى سجيل، وترجيح الشيخ ـ رحمة الله تعالى علينا وعليه ـ أنها حجارة من طين شديدة القوة، تنبيهاً على ما قيل من استبعاد

---

(١) باختصار من «أعلام النبوة» للماوردي (١٨٥ ـ ١٨٩)، ط. مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) أورد الشيخ عطية سالم في تتمة الأضواء أجوبة أخرى: منها أن الجيش ظالم باغٍ والبغي مرتعه وخيم ولو كان المظلوم أقل من الظالم، ويشهد لذلك نصرة المظلوم واستجابة دعوته ولو كان كافراً.
ومنها: أن الوثنية اعتداء على حق الله في العبادة، وغزو هذا الجيش اعتداء على حقوق العباد. تتمة «الأضواء» (٩ ـ ٥٢٨).

(٣) «الجواب الصحيح» (٤/ ١٢٢).

ذلك، ورداً على من صرف معناها إلى غير الحجارة المحسوسة.

أما مَنْ استبعدها فقد حكاه الفخر الرازي بقوله: واعلم أن من الناس من أنكر ذلك، وقالوا: لو جوزنا أن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خالياً من الثقل، وأن يكون في وزن التبنة، وذلك يرفع الأمان من المشاهدات. ثم قال: واعلم أن ذلك جائز في مذهبنا، إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع، وهذا القول يحكيه الفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ ستمائة وست فنرى استبعادهم إياها مبني على تحكيم العقل، وهذا باطل لأن خوارق العادات دائماً فوق قانون العقل، بل إن تصورات العقل نفسه منشؤها من تصوراتنا لما نشاهده.

وإذا حُدِّثَ العقلُ بما لم يشاهده أو يعلم كنه وجوده لاستبعده كما هو في واقعنا اليوم، ولو حدثت به العقول سابقاً من نقل الحديث والصورة على الأثير، وتوجيه الطائرات وأمثالها، لما قوي على تصورها؛ لأنها فوق نطاق محسوساته ومشاهداته.

وقد أخبرنا أن تلك الجبال سيأتي يوم تكون فيه كالعهن المنفوش أخف من التبنة التي مثلوا بها، بل ستكون أقل من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ: ٢٠] فظهر بطلان هذا القول، الذي استبعدها لعدم إدراك العقل لها.

أما من يؤول هذا المعنى إلى معنى آخر، فهو قريب من الأول من حيث المبدأ، إلا أنه أثبتَ الأصلَ، وفسره بما يتناسب والعقل.

وهو محكي عن الإمام محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا، إذ فسر الحجارة من سجيل بأنه وباء الجدري.

وبالتالي: فالطير الأبابيل: هي البعوض وما أشبهه.

وقد تقدم أن الحجارة التي من سجيل جاء النص على أنها ليست خاصة بهؤلاء القوم، بل ألقيت على قوم لوط بعد أن جعل عاليها سافلها، فما موقع الجدري منهم بعد إهلاكهم بإفكها المذكور.

ثم جاء أيضاً أنها من طين، فأين الطين من الجراثيم الجدرية.

ومن الناحية العلمية: من أين جيء بميكروب الجدري؟ وأين كان قبل أن تأتي به الطير الأبابيل؟

ومتى كان ميكروب الجدري أو غيره، يميز بين قرشي وحبشي؟.

ومتى كان أي ميكروب يفتك بقوم وبسرعة يجعلهم كعصف مأكول، مع أن ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ تشعر بالسرعة في إهلاكهم، والعصف اليابس الذي تعصف به الريح لخفته؟

ثم من ناحية أخرى: إذا رددنا خوارق العادات لعدم تصور العقل، لها، فكيف نثبت مثل: حنين الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ، ونحو ذلك وتسبيح الحصى في كفه صلوات الله وسلامه عليه؟

الواقع أننا في كل زمان ومع كل قضية يجب أن نلتزم جانب الاعتدال، لا هو جري وراء كل خبر ولو كان إسرائيلياً، ولا هو رد لكل نص ولو كان صريحاً قرآنياً، بل كما قال السيد قطب في ذلك: يجب أن نستمد فكرتنا من نصوص القرآن، وأن ما يقرره نعتقده ونقول به[١].

{٤} **وقال القاسمي**: قال القاشاني: قصة أصحاب الفيل مشهورة وواقعتهم قريبة من عهد الرسول ﷺ، وهي إحدى آيات قدرة الله، وأثر من سخطه على من اجترأ عليه بهتك حرمه، وإلهام الطيور والوحوش أقرب من إلهام الإنسان؛ لكون نفوسهم ساذجة وتأثير الأحجار بخاصية أودعها الله فيها ليس بمستنكر، ومن اطلع على عالم القدرة، وكشف له حجاب الحكمة، عرف لمية أمثال هذه.

قال: وقد وقع في زماننا مثلها من استيلاء الفأر على مدينة أبيورد، وإفساد زروعهم ورجوعها في البرية إلى شط جيحون، وأخذ كل واحدٍ منها خشبة من الأيكة، التي على شط نهرها وركوبها عليها وعبروا به النهر[٢].

---

(١) باختصار من تتمة «أضواء البيان» لعطية محمد سالم (٩/ ٥٢٢ ـ ٥٢٨).
(٢) «محاسن التأويل» (١٧/ ٢٦٢).

وانتهى بحمد الله تعالى ما تيسر لنا جمعه من هذا الكتاب المبارك، وكانت المراجعة النهائية في غرة المحرم من الثالثة عشرة بعد القرن الرابع عشر من بعثة النبي ﷺ.

ونسأل الله تعالى أن يتقبله بقبول حسن، وأن ينفع به من انتهى إليه، وأن يرزقنا بره وذخره يوم الورود عليه.

وصلى الله وسلم وبارك على صاحب اللواء المنشود والحوض المورود وعلى آله وصحبه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
* **مقدمة الجزء الأول**	٥
* **مقدمة الجزء الثاني**	١٠
* **مقدمة الجزء الثالث**	١٣
- منهج الدراسة	١٩
- فوائد القصص القرآني	٢١
- اشتمال أكثر كتب التاريخ والتفاسير على الإسرائيليات والموضوعات	٢٦
• **قصة نوح** عليه السلام	٣٧
- الفوائد والآثار الإيمانية	٤٥
• **قصة إبراهيم** عليه السلام	٥٩
- الفوائد والآثار الإيمانية	٧٢
• **قصة موسى الكليم** عليه السلام	٩٣
- الفوائد والآثار الإيمانية	١٠٦
• **قصة عيسى** عليه السلام	١٣٧
- الفوائد والآثار الإيمانية	١٥٠
• **قصة آدم** عليه السلام	١٦٥
- الفوائد والآثار الإيمانية	١٧٨
• **قصة هود** عليه السلام	١٨٥
- الفوائد والآثار الإيمانية	١٩١
• **قصة صالح** عليه السلام	١٩٥
- الفوائد والآثار الإيمانية	٢٠١
• **قصة لوط** عليه السلام	٢٠٥
- الفوائد والآثار الإيمانية	٢١٣
• **قصة شعيب** عليه السلام	٢١٧
- الفوائد والآثار الإيمانية	٢٢٦
• **قصة يعقوب ويوسف** عليهما السلام	٢٣١
- الفوائد والآثار الإيمانية	٢٣٩
• **قصة أيوب** عليه السلام	٢٥٥
- الفوائد والآثار الإيمانية	٢٦٠
• **قصة يونس** عليه السلام	٢٦٥
- الفوائد والآثار الإيمانية	٢٧١
• **قصة داود** عليه السلام	٢٧٥
- الفوائد والآثار الإيمانية	٢٨٤
• **قصة سليمان** عليه السلام	٢٨٧
- الفوائد والآثار الإيمانية	٢٩٩
• **قصة بقرة بني إسرائيل**	٣٠٥
- الفوائد والآثار الإيمانية	٣١٥
• **قصة طالوت**	٣١٩
- الفوائد والآثار الإيمانية	٣٣١
• **قصة ابني آدم**	٣٣٧
- الفوائد والآثار الإيمانية	٣٤٧
• **قصة أصحاب الكهف**	٣٥١
- الفوائد والآثار الإيمانية	٣٦٨
• **قصة صاحب الجنتين**	٣٧٥
- الفوائد والآثار الإيمانية	٣٨٥
• **قصة الخضر وموسى** عليهما السلام	٣٨٩
- الفوائد والآثار الإيمانية	٤٠٤

الموضوع	الصفحة
• **قصة ذي القرنين**	٤١٥
ـ الفوائد والآثار الإيمانية	٤٢٧
• **قصة قارون**	٤٣١
ـ الفوائد والآثار الإيمانية	٤٤٠
• **قصة سبأ**	٤٤٥
ـ الفوائد والآثار الإيمانية	٤٥٢
• **قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون**	٤٥٥
ـ الفوائد والآثار الإيمانية	٤٦٥
• **قصة مؤمن آل فرعون**	٤٦٩
ـ الفوائد والآثار الإيمانية	٤٨٣
• **قصة أصحاب الجنة**	٤٨٧
ـ الفوائد والآثار الإيمانية	٤٩٣
• **قصة أصحاب الأخدود**	٤٩٥
ـ الفوائد والآثار الإيمانية	٥٠٢
• **قصة الفيل**	٥٠٧
ـ الفوائد والآثار الإيمانية	٥١٤
* **الفهرس**	٥١٩

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

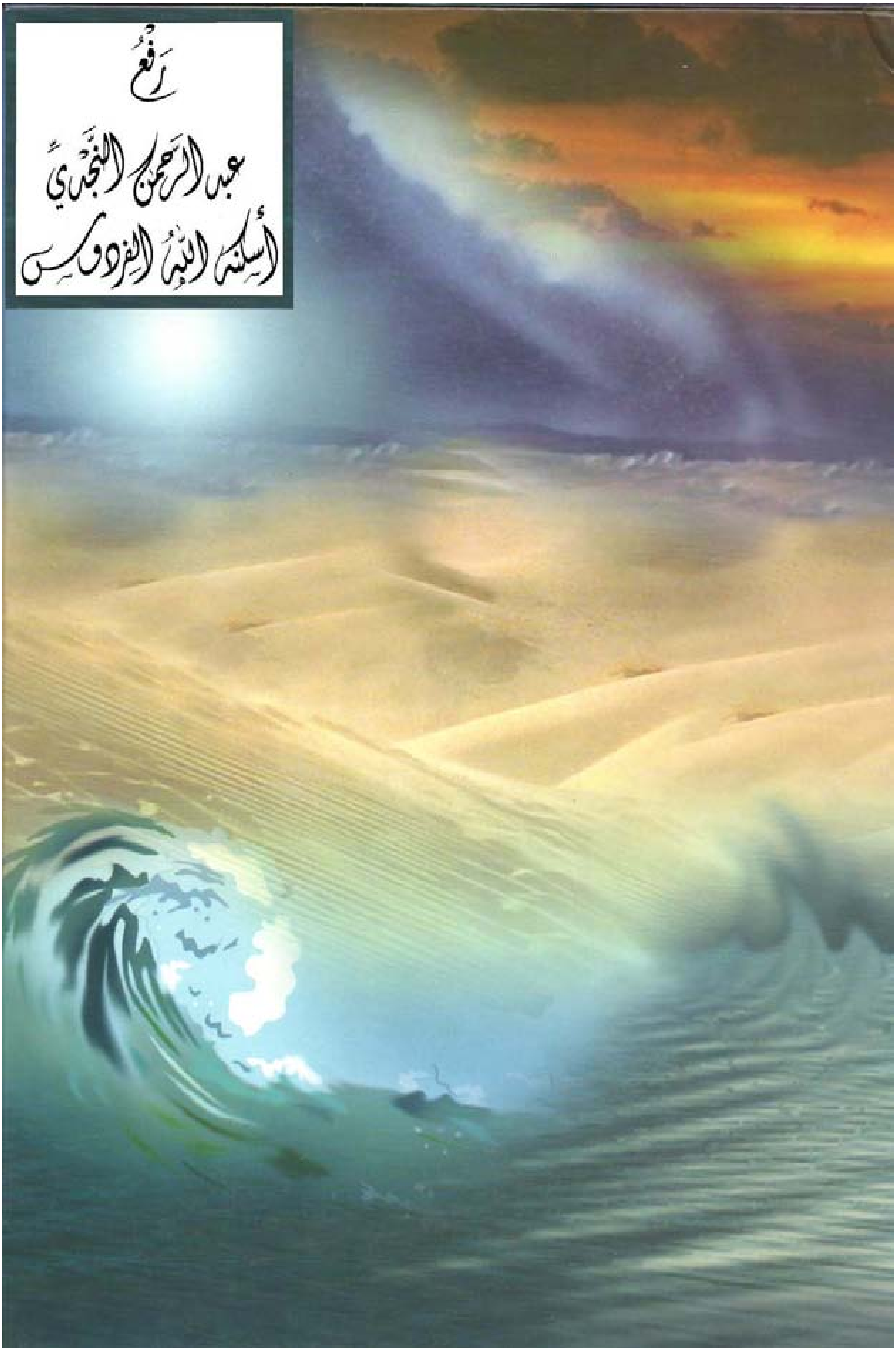

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس